



سور القرآن المدنيّة

دراسة نصيّة

أطروحة تقدّم بها الطالب

عليّ حسين حمّادي التميمي

إلى مجلس كليّة الآداب – جامعة القادسيّة ، وهي جزء من
متطلّبات نيل درجة الدكتوراه في فلسفة اللغة العربيّة ، وآدابها .

بإشراف
الأستاذة الدكتورة

سعاد كريدي كنداوي

٢٠١٧ م

١٤٣٨ هـ

فهرس المحتويات

الموضوع	الصحيفة
المقدمة	أ - ث
التمهيد	
السورة في اللغة والاصطلاح	
المدنية في اللغة والاصطلاح	
المدنية في الدراسات القرآنية	
النص في اللغة والاصطلاح	
نشأة نحو النص	
وظيفة نحو النص	
الفصل الأول / السبك	
الاسبك في اللغة والاصطلاح	
الاسبك في الدراسات النصية الحديثة	
المبحث الأول : الإحالة	
الإحالة لغة واصطلاحاً	
الإحالة في الدراسات النصية الحديثة	
الإحالة بالضمائر (النصية - المقامية)	
الإحالة بأسماء الإشارة	
الإحالة بالاسم الموصول	
الإحالة بـ (ال) التعريف	
الإحالة بالاسم الصريح	
المبحث الثاني : الاستبدال	
الاستبدال لغة واصطلاحاً	
الاستبدال في الدراسات النصية الحديثة	
البذل النحوي ونحو النص	
الاستبدال الاسمي	
لفظة (آخر) ومشتقاتها	
إحدى - أحد - نفس - واحدة	
تكرار اللفظ مع اختلاف المعنى	
الاستبدال الفعلي	
الاستبدال القولي	
المبحث الثالث : الحذف	
الحذف لغة واصطلاحاً	
الحذف في الدراسات النصية الحديثة	
مظاهر الحذف في السور المدنية	
حذف الحرف :	
حذف (هاء) التنبيه	
حذف حرف الجر	
حذف الاسم	
حذف الفعل	
حذف الجملة	
حذف شبه الجملة	
المبحث الرابع : الاتساق المعجمي	
الاتساق لغة واصطلاحاً	
التكرار لغة واصطلاحاً	
التكرار في الدراسات النصية الحديثة	
تكرار الحرف	
تكرار الاسم	

	تكرار الفعل
	تكرار التركيب
	تكرار الجملة
	التضام لغة اصطلاحاً
	التضام في الدراسات النصية الحديثة
	العلاقات التضامية في السور المدنية
	علاقة التضاد
	علاقة التلازم الذكري
	علاقة الكل – بالجزء
	علاقة الجزء – بالجزء
	علاقة الترادف
	علاقة الاختلاف
	علاقة التدرج التسلسلي
	المبحث الخامس : الوصل
	الوصل لغة واصطلاحاً
	الوصل في دراسات العرب القدماء
	الوصل في الدراسات النصية الحديثة
	أدوات المقارنة
	المقارنة لغة واصطلاحاً
	المقارنة في الدراسات النصية الحديثة
	علاقات المقارنة في السور المدنية
	الفصل الثاني / الحبكة
	توطئة
	الحبكة لغة واصطلاحاً
	الحبكة في دراسات العرب القدماء
	الحبكة في الدراسات النصية الحديثة
	المبحث الأول : العلاقات الدلالية
	المبحث الثاني : موضوع الخطاب
	المبحث الثالث : الخطط التنظيمية / ترتيب الخطاب ، وخطط التأكيد
	المبحث الرابع : البنية الكبرى وقواعد البناء
	المبحث الخامس : التغيريض
	الفصل الثالث / السياق
	السياق لغة واصطلاحاً
	السياق في دراسات العرب القدماء
	السياق في علم اللغة الحديث
	علم اللغة النصي والسياق
	أنواع السياق - عناصر السياق
	السياق اللغوي في السور المدنية
	السياق الصوتي :
	التكرار الصوتي للحرف في النص
	جُرس الألفاظ
	تغير حركة آخر الكلمة
	الفاصلة القرآنية
	السياق الصرفي :
	الجمع على فعلاء وفِعال
	جمع فاعل على فواعل
	اختيار جمع القلة
	اختيار صيغة الجمع
	المزاوجة بين المفرد والجمع
	دلالة المصادر والمشتقات
	استعمال صيغة المفاعلة

	اختيار صيغة الفعل المجرد أو المزيد
	اختيار اسم المفعول بدلاً من اسم الفاعل
	دلالة اسم الفاعل على حالة الحدث
	اختلاف صيغتي المصدر
	احتمال الصيغة لأكثر من دلالة
	السياق التركيبي :
	استعمال الجملة الاسمية
	التقديم والتأخير
	قديم شبه الجملة على متعلقها
	الفصل بين الجمل بالوقف
	التعريف والتذكير
	السياق يوضح كون الجملة إنشاءً لا إخباراً
	السياق المعجمي
	سياق الموقف / أسباب النزول
	السياق التداولي
	السياق النفسي
	السياق الثقافي
	الفصل الرابع / القصديّة والمقبوليّة والإعلاميّة
	توطئة
	المبحث الأول : القصديّة
	القصديّة لغة واصطلاحاً
	القصديّة في دراسات العرب القدماء :
	القصد عند اللغويين
	القصد عند البلاغيين
	القصد عند المفسرين
	القصد عند النحويين
	القصد عند الأدباء والنقاد
	القصد عند الأصوليين
	القصد في الدراسات النصيّة الحديثة
	القصديّة ونظريّة أفعال الكلام
	آيات الأحكام التشريعيّة وأفعال الكلام
	القصديّة في السور المدنيّة
	القصد على مستوى الصوت :
	التنغيم
	زيادة اللفظ
	اختلاف الصوت في الكلمات المترادفة
	القصد على مستوى الصرف :
	اختلاف بناء الفعل من حيث التجرد والزيادة
	استعمال الفعل في صيغتي الإدغام ، وفكّ الإدغام
	استعمال المفردة في حالتي الأفراد والجمع
	إيثار الفعل المضعّف على المجرد
	القصديّة على مستوى التركيب :
	التقديم والتأخير - الانتقال من الجملة الفعلية إلى الاسمية – التعريف والتذكير
	الإضافة وتركها – الخبر المتضمن معنى الأمر
	القصديّة على مستوى المعجم :
	استعمال الألفاظ شبه المترادفة
	استعمال الألفاظ المشتركة
	القصد على مستوى البلاغة :
	الإطناب
	الإيجاز
	الكناية

	المبحث الثاني : المقبولية المقبولية لغة واصطلاحاً
	المقبولية في دراسات العرب القدماء
	المقبولية في الدراسات النصية الحديثة
	المقبولية على مستوى الألفاظ / المستوى المعجمي
	المقبولية على مستوى التركيب
	المقبولية على مستوى البلاغة
	المقبولية والتدرج في الحكم
	المقبولية والأسلوب في الحكم الشرعي
	المقبولية والقراءات القرآنية
	المحكم والمتشابه بين القصديّة والمقبولية
	المبحث الثالث : الإعلامية الإعلامية لغة واصطلاحاً
	الإعلامية في الدراسات العربية القديمة
	الإعلامية في الدراسات النصية الحديثة
	الإعلامية على مستوى الصوت
	الإعلامية على مستوى الصرف :
	استعمال وزن صرفي لم يستعمل من قبل
	المصدر الصناعي
	الخروج على القاعدة الصرفية
	الإعلامية على مستوى التركيب :
	مجيء الاستعمال على لغة (أكلوني البراغيث)
	عطف المرفوع على المنصوب
	عطف المنصوب على المرفوع
	تقديم المفعول به على الفاعل
	حذف حرف النداء في الخطاب مع الله – تعالى – وصفاته
	الإعلامية على مستوى الألفاظ / المستوى المعجمي
	الإعلامية على مستوى البلاغة :
	المجاز
	الإطناب
	الأسلوب الحكيم
	المغايرة السياقية
	الإعلامية في القصّة القرآنية :
	قصّة ابني آدم
	قصّة الذي مرّ على قرية
	الإعلامية في المثل القرآني
	الخاتمة ونتائج البحث
	المصادر والمراجع
A – c	ملخص باللغة الإنجليزية

الحمد لله رب العالمين حمداً لا يُحصى عدداً ، الحمد لله الذي لم يتخذ صاحبة ولا ولداً ، وصلى الله تعالى على نبيه محمد وآل بيته الطاهرين أوتاد الأرض ، والعروة الوثقى ، وحبل الله المتين . موضوع الدراسة هو (سور القرآن المدنية ، دراسة نصية) ، وهو يبحث عن المعايير النصية ، التي وضعها (روبرت دي بوجراند) للنص ، في النص القرآني الكريم . وقد سبق أن درس الدكتور صبحي إبراهيم الفقي معايير النص في السور المكية – وإن كانت دراسته لم تستوعب المعايير النصية جميعاً – ، وجاء عملي هذا إكمالاً لما بدأه ، بدراسة السور المدنية . وجاءت خطة البحث بأربعة فصول ، مسبوقة بتمهيد ، ومتلوّة بخاتمة تتضمن نتائج البحث . بحثت في التمهيد التعريف بالسورة في اللغة ، والاصطلاح ، والتعريف بـ (المدنية) في اللغة والاصطلاح ، ثم جئت بالنصوص التي تحدّد السور المدنية بحسب تسلسل نزولها على النبي p . ولم يكن موقف علماء التفسير ، وأصحاب علوم القرآن موحداً من القول بمدنية بعض السور ، فاختلّفت رواياتهم بين مكية السور ، أو مدنيّتها . وقد ذهب بعض الباحثين المحدثين إلى القول بمكية بعض السور ، التي عدّها العلماء القدماء مدنية ، وقد ناقشتهم في آرائهم ، وجئت بأدلة تدلّ على مدنية تلك السور . وقد بلغ عدد السور المدنية ثمانين وعشرين سورة . ثم عرّفت النص لغةً ، واصطلاحاً ، وبحثت وظيفة علم النص في الدراسات اللغوية الحديثة . أما الفصل الأول ، فقد خصّصته لدراسة المعيار الأول من المعايير النصية ، وهو معيار (السبك) ، وقد انقسم البحث فيه إلى خمسة عناصر ، يُدرس سبك النص من خلالها ، وهي : الإحالة ، والاستبدال ، والحذف ، والاتساق المعجمي ، والوصل . وهذه العناصر وضعها (هاليداي) ، ورقية حسن) . وجئت بنماذج تطبيقية لها من نصوص السور المدنية . وكانت الإحالة تتم – بحسب ما نظّر له الباحثان – باستعمال الضمان ، وأسماء الإشارة ، والأسماء الموصولة ، و(ال) التعريف ، وأدوات المقارنة . وقد رأى الباحث أنّ أدوات المقارنة ليست عنصراً إلجاليّاً ، بل تصلح أن تكون في مبحث الوصل ؛ لذا قد درستّها هناك . وظهرت في النص بعض الظواهر اللغوية المستعملة في النص القرآني ، التي لا توافق ما نظّر له علماء النص المحدثون ، فحاولت أن أشير لها في البحث كما وجدت الفرصة مؤاتية لذلك. أمّا الاستبدال ، فقد جاء بعض منه بحسب القواعد النصية المقررة . وبرزت بعض الظواهر التي يمتاز بها النص الكريم ، وساعدت عليه خصائص اللغة العربية ، فأشرت إليها ، ووازنتها مع القواعد النصية ، وأظهرت التفرّد القرآني فيها . ومن ثمّ كان مبحث الحذف – وهو ما كان معروفاً عند العلماء العرب القدماء بتقسيماته ، وشروطه وفوائده – متوافراً في النص القرآني الكريم ، وحقّق دلالات بلاغية كثيرة فيه . أمّا الاتساق المعجمي ، فقد انقسم إلى مبحثين : التضام ، والتكرار . فالتضام تحقّق وجوده في النص الكريم ، وكثرت العلاقات التضامية ، التي أسّس لها علماء النص . والتكرار موجود في النص القرآني ، ولا سيّما التكرار ، الذي سمّاه بعض المحدثين (التكرار الاشتقائي) . أمّا الوصل ، الذي قسمه علماء النص على أربعة أقسام ، فقد وجد في النص القرآني ، وزيادة على ذلك قد استعمل النص الكريم أكثر من نوع في موضع واحد . وكان علماء العربية قد أشاروا إلى ذلك ، وبيّنوا دواعيه . ودرست ضمن مبحث الوصل أدوات المقارنة ، التي تُوظّف لربط جمل النص ، وآياته بإظهار العلاقة الدلالية الرابطة لها . وبحثت في الفصل الثاني المعيار الثاني (الحبك) ، فعرّفته لغةً ، واصطلاحاً ، ثم بحثت في مظاهره في الدراسات العربية القديمة ، ثم عند المحدثين ، ثم قمّت بتطبيق وسائله على النص القرآني المدني ، وهذه المظاهر هي : العلاقات الدلالية بين الجمل ، وآيات السور ؛ وموضوع الخطاب ، وقد حاولت أن أجد جامعاً موضوعياً للسور المدنية ، زيادة على التعريف بموضوع كلّ سورة على حدة . وبحثت كذلك في ترتيب الخطاب ، والنية الكلية ، والتغريض ، وأخذت لأغلب المباحث المتقدمة سورة كريمة مثلاً تطبيقياً على تحقّق الوسيلة النصية فيها . أمّا الفصل الثالث ، فقد بحثت فيه معيار السياق فعرّفت به لغةً ، واصطلاحاً ، ثم بحثت عن وجوده في الدراسات العربية القديمة ، ثم عند المحدثين ، ثم ذكرت أقسامه ، وتفرّعاته ، وقسم السياق الأول (السياق اللغوي) على أقسام بحسب مستويات الدراسة اللغوية (الصوتي – الصرفي – التركيبي – المعجمي) . وقسمت (السياق غير اللغوي) على (سياق الموقف – السياق النفسي – السياق التداولي – السياق الثقافي). أما الفصل الرابع ، فكان لدراسة المعايير الثلاثة الأخرى (القصدية ، والمقبولية ، والإعلامية) . فدرست القصد أولاً لغةً ، واصطلاحاً ، ثم بحثت عن مفهومه في الدراسات العربية القديمة ، ثم عند المحدثين ، ثم قمّت بأخذ أمثلة تطبيقية له ، وقسمت التطبيق بحسب مستويات اللغة (الصوتي – الصرفي – التركيبي – المعجمي) ، ثم درسته بلاغياً . ثم شرعت في بحث معيار المقبولية ، فعرّفتها لغةً ، واصطلاحاً ، وبحثت مظاهر وجودها عند القدماء ، ومفهومها عند المحدثين ، وقمت بدراسة تطبيقات لها على السور المدنية ، مستعيناً بمستويات الدراسة اللغوية ، وأفردت مباحث لبعض مظاهر المقبولية الخاصة بالنص القرآني الكريم ، ومن أهمّها : العلاقة بين الأحكام الشرعية والمقبولية ، والقراءات القرآنية وعلاقتها بمفهوم المقبولية . أمّا معيار الإعلامية ، فقد عرّفت به لغةً ، واصطلاحاً ، ثم بحثت في مفهومه عند القدماء ، والمحدثين ، ثم جئت بدراسة تطبيقية له على السور الكريمة بحسب المستويات اللغوية ، وأفردت مباحث لمظاهر الإعلامية من خلال القصة القرآنية ، والمثل القرآني . وقد اعتمدت هذه الدراسة على مصادر كثيرة ، من أهمّها تفاسير القرآن الكريم ، التي منها: مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني ، تفسير الكشاف للزمخشري ، ومجمع البيان للطبرسي ، والبحر المحيط لأبي حيان ، وروح المعاني للآلوسي ، والميزان في تفسير القرآن للعلامة الطباطبائي ، والتحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ، وكذلك مصادر الدراسة النصية الحديثة ، ومن أهمّها : لسانيات النص لمحمد خطابي ، والنص والخطاب والإجراء لـ (روبرت دي بوجراند) ، وعلم لغة النص ، النظرية والتطبيق لعرّة محمد شبل ، ونظرية علم النص لحسام أحمد فرج ، وغيرها من المصادر والمراجع . وقد واجهتني في الدراسة صعوبات كثيرة ، من أهمّها أنّ موضوع الدراسة هو النص القرآني الكريم ، فقداسته ، وعدم القدرة على الإحاطة بمعانيه ممّا لا يمكن أن يخالفها أحد . وزيادة على ذلك ، السور المدنية مجتمعة نصّ كبير نسبياً ، ولا يمكن أن تكون الدراسة فيه مستوعبة لكل آياته ، وسوره على سبيل الاستقصاء لها جميعاً ؛ لذلك حاولت قدر الإمكان أن تكون الأمثلة المدروسة في كلّ فصل مغايرة لما يُدرس في غيره . وزيادة على ذلك ، إنّ معظم الدراسات النصية السابقة كانت أغلب تطبيقاتها على المعايير (السبك ، والحبك ، والسياق) . ولم أجد أحداً سبقني إلى المعايير الأخرى – في القرآن الكريم – غير باحثة معاصرة ، درست القصدية

، والإعلامية في دراستها للماجستير ، والدكتوراه . وقد درس بعض الباحثين قبلي ، بعضاً من السور المدنية ، من ذلك أطروحة الدكتوراه (نحو النصّ نظرية وتطبيق ، سورة آل عمران أمودجاً) ، ورسالة الماجستير (سورة البقرة ، دراسة في ضوء علم لغة النصّ) . ولا يسعني إلا أن أقدم شكرى الجزيل إلى أستاذتي المشرفة الدكتورة (سعاد كريدي) على الجهد الذي بذلته في متابعة هذه الدراسة ، وتقويمها ، وتصحيح ما فيها من خطأ ، أو زلل ، فلها مكي فائق الشكر والامتنان . والشكر موصل إلى الأساتذة في قسم اللغة العربية بدءاً برئيس القسم ، ومن ثم إلى الأساتذة الذين درّسوني في السنة التحضيرية على الجهود التي بذلوها معنا لتذليل الصعوبات ، وتقديمهم كلّ المساعدات ، التي تسهّل سير الدراسة . وفي الختام لا أدعي لعملي الكمال ، وأنا أمام النصّ المقدّس ، الذي أعجز فصحاء العرب ، وبلغاءهم ، ولكن حسبي أنّي اجتهدتُ ما وقّنتي الله - تبارك وتعالى - إلى التماس اللوحة الإعجازية ، واللفتة البلاغية فيه ، وما توفّقي إلا بالله .

تمهيد :

السورة في اللغة والاصطلاح :

السُورَةُ لغةً : اختلف اللغويون في أصل اشتقاقها ، فمن لم يهزمها ، قال : هي من السُور ، جمع سُورَة ((وهي كلّ منزلة من البناء ، ومنه سورة القرآن ؛ لأنها منزلة بعد منزلة مقطوعة عن الأخرى))^(١) . ومن همزها جعلها بمعنى : ((بقية من القرآن ، وقطعة ، وأكثر قراء القرآن على ترك الهمزة فيها))^(٢) . **السورة اصطلاحاً** : عرفها الكفوي [ت ١٠٩٤ هـ] بقوله : ((قرآن يشتمل على أي ذي فاتحة ، وخاتمة))^(٣) . وحدها التهانوي [ت ١١٥٨ هـ] بقوله : ((السورة : بالضم في الشرع بعض قرآن يشتمل على أي ذو فاتحة وخاتمة ، وأقلّها ثلاث آيات ... وقيل : السورة الطائفة المترجمة توقيفاً ، أي الطائفة من القرآن المسماة باسم خاص ، بتوقيف من النبيّ p ... وقيل : السورة بعض من كلام منزل مبين أوله ، وآخره ، أعلاماً من الشارع ، قرآنًا كان ، أو غيره ، بدليل ما يقال : سورة الزبور ، وسورة الإنجيل))^(٤) .

المدنية في اللغة والاصطلاح :

المدنية لغةً : المدينة كلّ أرض يُبنى بها حصن في اصطمتها ، فهو مدينتها . والمدينة اسم مدينة الرسول p خاصة ، والنسبة إليها مدنيّ . ومدّن الرجل إذا أتى المدينة ، ومدّن بالمكان : أقام به ، وتمدين : تنعم^(٥) . **المدنية اصطلاحاً** : عرف الزركشيّ المدنيّ بقوله : ((ما نزل بعد الهجرة ، وإن كان بمكة))^(٦) . ومن ذلك يتبين أنّ مصطلح (المدنية) يطلق على السور القرآنية النازلة بعد هجرة النبيّ p .

السور المدنية في الدراسات القرآنية : اختلف علماء القرآن في مفهوم المكيّ ، والمدنيّ ، قال الزركشيّ [ت ٧٩٤ هـ] : ((إنّ للناس في ذلك ثلاثة اصطلاحات : أحدها أنّ المكيّ ما نزل بمكة ، والمدنيّ ما نزل بالمدينة . والثاني - وهو المشهور - أنّ المكيّ ما نزل قبل الهجرة ، وإنّ كان بالمدينة ، والمدنيّ ما نزل بعد الهجرة ، وإنّ كان بمكة . والثالث أنّ المكيّ ما وقع خطاباً لأهل مكة ، والمدنيّ ما وقع خطاباً لأهل المدينة ... ؛ لأنّ الغالب على أهل مكة الكفر ، فخطبوا بـ (يا أيّها الناس) ، وإنّ كلّ غيرهم داخل فيهم ، وكان الغالب في أهل المدينة الإيمان ، فخطبوا بـ (يا أيّها الذين آمنوا) ، وإنّ كان غيرهم داخل فيهم))^(٧) . يلاحظ أنّ المفهوم الثاني يتخذ من البعد الزمنيّ عاملاً في التقسيم ؛ لذا أنّه ينماز بالشمولية عن المفهومين الآخرين ؛ ((لأننا إذا أخذنا بالناحية الزمنية ، كانت كلّ آية في القرآن إمّا مكيّة ، أو مدنيّة ... وأمّا على الاتجاهين الأخيرين في تفسير المصطلح ، فقد نجد آية ليست مكيّة ، ولا مدنيّة ، كما إذا كان موضع نزولها مكاناً ثالثاً ، لا مكة ، ولا المدينة ، ولم يكن خطابها لأهل مكة ، أو أهل المدينة ، نظير الآيات التي نزلت على النبيّ p في معارجه ، أو إسرائه))^(٨) . وقد وضع العلماء القدماء شروطاً ؛ لمعرفة المكيّ من المدنيّ ، فـ ((من جملة علاماته أنّ كلّ سورة فيها (يا أيّها الناس) وليس فيها (يا أيّها الذين آمنوا) ، فهي مكيّة ، وفي الحجّ اختلاف . وكلّ سورة فيها (كلا) فهي مكيّة ، وكلّ سورة فيها حروف المعجم ، فهي مكيّة إلا البقرة ، وآل عمران ، وفي الرعد اختلاف . وكلّ سورة فيها قصة آدم ، وإبليس ، فهي مكيّة سوى البقرة . وكلّ سورة فيها ذكر المنافقين ، فمدنيّة سوى العنكبوت ... [و] كلّ سورة ذكرت فيها الحدود ، والفرائض ، فهي مدنيّة ، وكلّ ما كان فيه ذكر القرون الماضية ، فهي مكيّة))^(٩) . ويبدو أنّ ضابط احتواء السور المدنية على الحدود والفرائض غير مطّرد ، إذ يلاحظ وجود آيات كثيرة من العهد المكيّ تتناول فريضة ، أو حداً ، وإنّ كان بعضها يأتي بصيغة الخبر ، وليس بصيغة الأمر ، أو الفرض ، الذي يوجب العمل به ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ قَدْ آوَا مِمَّا تَكْرَأُ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنَّ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴾^(١٠) ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَالْخِنْزِيرَ وَمَا هَلَ لِعِزِّ اللَّهِ بِهِ هَمِّنْ اضْطَرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾^(١١) ، وقوله تعالى : ﴿ وَآتَاكَ الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تَبْذُرْ

(١) تاج اللغة وصحاح العربية : ٤٢٨ / ٢ . وينظر : معجم مقاييس اللغة : ٥٧٧ / ١ (سور) .

(٢) لسان العرب : ١٩٣٦ / ٢ (سور) .

(٣) الكلّيات : ٤١٥ .

(٤) كشاف اصطلاحات الفنون : ٣٥٨ / ٢ .

(٥) ينظر : كتاب العين : ٥٢ / ٨ ، وتاج اللغة وصحاح العربية : ١٣١٠ / ٥ ، ومعجم مقاييس اللغة : ٥٠٣ / ٢ ، ولسان العرب : ٣٦٨١ / ٤ ، والقاموس المحيط : ١١٣٧ (مدن) .

(٦) البرهان في علوم القرآن : ١٣٥ / ١ .

(٧) البرهان في علوم القرآن : ١٣٥ / ١ . وينظر : الإتيان في علوم القرآن : ١٩ / ١ - ٢٠ .

(٨) المدرسة القرآنية : ٢٤٩ - ٢٥٠ . وينظر : مباحث في علوم القرآن : ١٦٩ .

(٩) البرهان في علوم القرآن : ١٣٦ / ١ .

(١٠) سورة الأنعام : ١١٨ . وينظر من السورة نفسها الآيات : ١١٩ - ١٢١ - ١٤٥ - ١٥١ - ١٥٢ .

(١١) سورة النحل : ١١٥ . وينظر من السورة نفسها الآيات : ٩٠ - ٩١ - ٩٢ - ٩٤ - ٩٥ .

تَبْدِيرًا^(١) . إن هذين المصطلحين (المكي والمدني) ليسا توقيفين ، بل ((الواقع أنَّ لفظ المكي ، والمدني ليس لفظاً شرعياً ، حدّد النبي مفهومه ؛ لكي نحاول اكتشاف ذلك المفهوم ، وإما هو مجرد اصطلاح تواضع عليه علماء التفسير))^(٢) . وتظهر أهمية التمييز الزمني (قبل الهجرة ، وبعد الهجرة) في نقطتين : إحداهما : (فقهية) ، إذ إنها ترتبط بعلم الفقه ، ومعرفة الأحكام الشرعية ، وهي أنَّ تقسيم الآيات على أساس الزمن إلى مكية ، ومدنية ، وتحديد ما نزل قبل الهجرة ، وما نزل بعد الهجرة يساعدنا على معرفة الناسخ ، والمنسوخ ؛ لأنَّ الناسخ متأخر بطبيعته عن المنسوخ زماناً ، فإذا وُجد حكمان ينسخ أحدهما الآخر ، استطعنا أن نعرف الناسخ عن طريق التوقيت الزمني ، فيكون المدني ناسخاً للمكي ؛ لتأخره عنه زمنياً . والثانية : هي أنَّ التقسيم الزمني للآيات إلى مكية ، ومدنية يجعلنا نتعرّف على مراحل الدعوة التي مرّ بها الإسلام على يد النبي ﷺ ، فالحجّة النبوية المباركة ليست مجرد حدث عابر في حياة الإسلام ، وإما هي حدّ فاصل بين مرحلتين من عمر الدعوة ، فإذا ميزنا آيات كلّ مرحلة ، استطعنا أن نواكب تطورات الدعوة ، والخصائص العامة لكلّ منهما^(٣) . وقد عدّ الطبرسي [ت ٥٤٨ هـ] السور المدنية ، ورأى أنها ثمان وعشرون سورة ، فقال : ((أنزلت بالمدينة البقرة ، ثم الأنفال ، ثم آل عمران ، ثم الأحزاب ، ثم الممتحنة ، ثم النساء ، ثم إذا زلزلت ، ثم الحديد ، ثم سورة محمد ، ثم الرعد ، ثم سورة الرحمن ، ثم هل أتى ، ثم الطلاق ، ثم لم يكن ، ثم الحشر ، ثم إذا جاء نصر الله ، ثم النور ، ثم الحجّ ، ثم المنافقون ، ثم المجادلة ، ثم الحجرات ، ثم التحريم ، ثم الجمعة ، ثم التغابن ، ثم سورة الصفّ ، ثم سورة الفتح ، ثم سورة المائدة ، ثم سورة التوبة ، فهذه ثمان وعشرون سورة))^(٤) . في حين عدّ الزركشي السور النازلة في المدينة ، وترتيبها ، وقد ذكر أنها تسع وعشرون سورة ، ولكنه عدّها ثمان وعشرين ، فقال : ((ذكر ترتيب ما نزل بالمدينة ، وهو تسع وعشرون سورة : فأول ما نزل فيها سورة البقرة ، ثم الأنفال ، ثم آل عمران ، ثم الأحزاب ، ثم الممتحنة ، ثم النساء ، ثم (إذا زلزلت) ، ثم الحديد ، ثم محمد ، ثم الرعد ، ثم الرحمن ، ثم (هل أتى) ، ثم الطلاق ، ثم (لم يكن) ، ثم الحشر ، ثم (إذا جاء نصر الله) ، ثم النور ، ثم الحجّ ، ثم المنافقون ، ثم المجادلة ، ثم الحجرات ، ثم (يا أيها النبي لم تحرم) ، ثم الصفّ ، ثم الجمعة ، ثم التغابن ، ثم الفتح ، ثم التوبة ، ثم المائدة))^(٥) . واللافت للنظر أنَّ العلماء لم يذكروا الفاتحة في السور المكية ، ولا المدنية ، وإما ذكروا اختلاف العلماء فيها ، ((ففاتحة الكتاب قال ابن عباس ، والضحاك ، ومقاتل ، وعطاء : إنها مكية ، وقال مجاهد : مدنية))^(٦) . ولعلّ ما يَرَجَح أنها مكية أنَّ الصلاة فرضت على النبي ﷺ في مكة ، في أثناء الإسراء ، والمعراج ، والصلاة لا تجوز بغير الفاتحة ، ((وليت شعري ألم يدرّ السؤال التالي^(٧) في أذهان من قالوا بمدنيّتها : كيف كانت صلاة المؤمن تقوم بدون الفاتحة ؟ إن كانت هي مدنية ؟))^(٨) ، وزيادة على ذلك ، فإن سورة الحجر قد أتت على ذكر (السبع المثاني) ، وهي ما فسّرت بالفاتحة ، وسورة الحجر مكية ، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴾^(٩) . وقد رجّحت إحدى البحوث المعاصرات كون سورة الرعد ، وسورة الرحمن ، وسورة الزلزلة من السور المكية ، لا من المدنية ، وقد علّلت ذلك اعتماداً على رأي سيّد قطب في ذلك – إذ قال : ((إن موضوعها الرئيسي^(١٠) ، ككلّ موضوع السور المكية – كلّها على وجه التقريب – هو العقيدة ، وقضاياها))^(١١) . ممّا يردّ به على هذا الترجيح أنَّ الآيات من قوله تعالى : ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا يَبْدُوهُ حَتَّى يُعْزِرُوا مَا بَايَأَ أَنْفُسُهُمْ وَإِذَا رَأَى اللَّهُ يَوْمَ سَوْءٍ قَلًا مَرَدًّا لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَشِئُ السَّحَابَ الثَّقَالَ وَيَسْبِغُ الرُّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ ﴾^(١٢) ، نزلت في عامر بن الطفيل ، وأربد بن ربيعة اللذين حاولا قتل النبي ﷺ في المدينة^(١٣) . زيادة على ذلك ، فإن قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ أُولَئِكَ لَهُمْ عِزِّي الدَّارِ ﴾^(١٤) ، فقله (وأنفقوا ممّا رزقناهم) ، المقصود به الزكاة المفروضة^(١٥) ، والزكاة لم تفرض على المسلمين ، وهم في مكة ، بل في المدينة . ودليل آخر هو قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُمْ إِلَّا مَتَى أَنْ أَعْبَدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكْ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبٌ ﴾^(١٦) . فقله (والذين آتيناهم الكتاب) نزلت في ((مؤمني أهل الكتاب ، كعبدالله بن سلام ، وكعب ، وأضرابهما من اليهود ، وكالذين أسلموا من النصارى ، كالثمانين

(١) سورة الإسراء : ٢٦ . وينظر من السورة نفسها الآيات : ٣٢ – ٣٣ – ٣٤ – ٣٥ .

(٢) المدرسة القرآنية : ٢٥٠ .

(٣) ينظر : المدرسة القرآنية : ٢٥١ – ٢٥٢ .

(٤) مجمع البيان : ٣٠٧ / ١٠ .

(٥) البرهان في علوم القرآن : ١٣٩ / ١ – ١٤٠ . وينظر : الإتقان في علوم القرآن : ٢٣ / ١ . مع فارق تقديم المائدة على التوبة .

(٦) البرهان في علوم القرآن : ١٤٠ / ١ .

(٧) كذا ، والصحيح : الآتي . وكذلك ورد خطأ لغوي آخر ، وهو (بدون) ، والصحيح : من دون .

(٨) السور المدنية ، دراسة بلاغية أسلوبية : ٢١ .

(٩) سورة الحجر : ٨٧ .

(١٠) كذا ، والصحيح : الرنيس .

(١١) في ظلال القرآن : ٢٠٣٩ / ٤ . وقال في هامش الصفحة نفسها : ((ومكية السورة شديدة الوضوح : سواء في طبيعة موضوعها ، أو طريقة أدائها ، أو جوها العام ، الذي لا يخطئ تنسمة من يعيش فترة في ظلال القرآن)) .

(١٢) سورة الرعد : ٩ – ١٣ .

(١٣) ينظر : أسباب النزول : ١٤٢ ، لباب النقول : ١٣٩ ، وروح المعاني : ١٣ / ١٠٦ .

(١٤) سورة الرعد : ٢٢ .

(١٥) ينظر : البحر المحيط : ٦ / ٣٨٠ – ٣٨١ .

(١٦) سورة الرعد : ٣٦ .

المشهورين ، وهم أربعون رجلاً بنجران ، وثمانية باليمن ، واثنان وثلاثون بالحبشة ، فالمراد بالكتاب التوراة ، والإنجيل^(١) . ومن نافلة القول أنّ ورود ذكر الكفار في السورة الكريمة ، وذكر بعض الأدلة على وجود الله تعالى ، وعظيم خلقه ، وعجيب تنظيمه لهذه الحياة لا يدلّ بالضرورة على مكّة السورة ، فالمسلمون لم يكونوا منقطعين تماماً عن الكفار من قريش ، والعرب ، فهذه سورة البقرة ، وغيرها من السور تتناول كثيراً من الأمور الخاصة بالكفار ، وأقوالهم ، وما يفعلون ، وما يشيرون من إشاعات ، وأراجيف ضدّ النبيّ p ، والمسلمين ، ولا يمكن بحال من الأحوال أن نقول : إنّها من السور المكّة على هذا التقدير ، فما زالت ديانة الكفر – وقت نزول هذه السورة – مواكبة ، ومنافسة للديانة الإسلامية ؛ لذا كان لا بدّ من إبقاء المحاجة ، وتقديم الأدلة التي تثبت وحدانية الله تعالى في السور القرآنية ، حتى وهم في المدينة . أمّا سورة الرحمن ، فالباحثة ترى أنّها مكّة معتمدة في ذلك على أنّها ((ذات موضوع مكّي ... تذكر الخلق بالآء الرحمن على الإنس ، والجانّ في جميل صنعه ، ويبيع خلقه ، وكثرة نعمه))^(٢) . وجعلت من مزايا الأسلوب الذي يدلّ على مكّيتها ، تكرار قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا رَكُوبُوا الصُّفْرَ ﴾ ، والتكرار معهود في السور المكّة ، وزادت دليلاً آخر – كما تراه – ، وهو ورود المفردة (الآء) فيها ، وهي لم ترد إلا في السور المكّة^(٣) . إنّ التكرار الذي في السورة ليس دليلاً كافياً على مكّة السورة ، ولو نظرنا إلى المعنى الذي تؤدّيه الآية المكررة ، لكان هنالك رأي آخر ، فالتذكير بنعم الله تعالى على البشر ليس حصراً على الكافرين فقط ، فالمؤمنون أولى بهذا التذكير ، بل إنّ المهاجرين من مكّة أولى بذلك ، فهم من بعد أن كانوا مستضعفين في مكّة ، وأدلاء ، ليس لهم كلمة ، ولا رأي ، ولا حرية في أداء العبادة ، وإذا هم أصحاب شأن في المدينة ، يرفعون اسم الله تعالى من دون خوف ، ويؤمنون على أنفسهم ، وعيالهم ، بل لقد رأوا أعظم من ذلك ، إذ إتهم في معركة بدر قتلوا كثيراً من مضطهديهم الكفار ، ورأوا مصارعهم في المعركة ، وأصبح قريش ، والعرب تحسب لهم ألف حساب ، فارتفعت مكانتهم ، وعلت منزلتهم ، وكان ذلك أولى لهم بأنّ يُذكروا بنعم الله تعالى عليهم ، فيشكروا على ما وهبهم ، ولا ينسوا أنّ ذلك كان بفضل منه – عزّ وجلّ – . وتقول في سورة الزلزلة : ((أمّا سورة الزلزلة ، فيؤكد العلماء مدنيّتها ، وأراها مكّة الموضوع ، والأسلوب ... ولو نظرنا لموضوعها لوجدناها تتحدث عن قيام الساعة ، وتصوّر بدقة هول ذلك اليوم ... فموضوعها مكّي بحت ، لم يداخله موضوع مدنيّ ، من تشريع ، أو أحكام ، أو جهاد ، أو حديث مع أهل الكتاب . أمّا الأسلوب ، فمكّي ، فهي قصيرة الفقرات ، متماثلة الفواصل))^(٤) . ومما يمكن الرّدّ به أنّ السورة مدنيّة بحسب الدليل النقلّي عن العلماء الذين رأوا مدنيّتها^(٥) ، وهو ما نقلته الباحثة . وزيادة على ذلك ، فالسورة تتحدث عن يوم القيامة ، ولكنها تجعل معيار النجاة ، والخلاص من عذاب النار ، العمل الصالح ، وأنّ عمل الإنسان سيكون حاضراً أمامهما مهما صغر ، وبلغ (مقال حبة من خردل) ، وهذا لا يدلّ على مكّة السورة ، إذ يمكن القول إنّ السورة قد جاءت مذكّرة للمسلمين بالحياة الآخرة ، وما يجب عليهم من الاستعداد لها بالعمل الصالح ، وترك الذنوب ، والآثام الباقية ؛ لأنها لو بلغت (مقال ذرة) ، فهو محاسب عليها ، ولذا وجب تنقية النفس من شوائبها ، وتخليصها من ذنوبها ، وأدرانها . فكانت السورة قد فرغت من الجانب العقائديّ ، الذي أصبح فيه أهل المدينة يدينون بالتوحيد ، والإسلام ، وكان عليهم أن ينتقلوا إلى الجانب التطبيقيّ المتمثّل في العمل الصالح مهما صغر ، أو كبر .

النص لغة^(٦) : نصصت الحديث إلى فلان نصّاً : رفعته ، ونصصت الشيء : حرّكته ، ونصصت الرجل : استقصيْتُ مسألته عن الشيء . ونصّ كلّ شيء : منتهاه . نصّ المتاع نصّاً : جعل بعضه على بعض . والنصّ : الإسناد إلى الرئيس الأكبر ، والنصّ : التوقيف ، والنصّ : التعيين على شيء ما . ونصّ القرآن ، ونصّ السنّة : ما دلّ ظاهر لفظهما عليه من الأحكام . **النص اصطلاحاً** : عرّف الشريف الجرجانيّ النصّ ، بقوله : ((ما ازداد وضوحاً على الظاهر لمعنى في المتكلم ، وهو سوق الكلام لأجل ذلك المعنى ... وما لا يحتمل إلا معنى واحداً . وقيل : ما لا يحتمل التأويل))^(٧) . وذكر الكفويّ تعريفين للنصّ ، قال في الأول : ((النصّ : ما فيه زيادة ظهور ، سيق الكلام لأجله ، وأريد بالإسماع ذلك باقتران صيغة أخرى بصيغة الظاهر ، كقوله تعالى : ﴿ وَأَوَّلَ حَلٍّ اللَّهُ الْبَيْعُ وَحَرَمَ الرِّبَا ﴾^(٨) ، سيق هذا النصّ للفرقة بينهما ، وهو المراد بالإسماع))^(٩) ، وقال في الثاني : ((النصّ : أصله أن يتعدّى بنفسه ؛ لأنّ معناه الرفع البالغ ، ومنه منصّة العروس ، ثم نُقل في الاصطلاح إلى الكتاب ، والسنّة ، وإلى ما لا يحتمل إلا معنى واحداً ، ومعنى الرفع في الأول ظاهر ، وفي الثاني أخذ لازم النصّ ... والنصّ قد يطلق على كلام مفهوم المعنى ، سواء كان ظاهراً ، أو نصّاً ، أو مفسّراً ، اعتباراً منه للغالب ؛ لأنّ عامّة ما ورد من صاحب الشريعة نصوص))^(١٠) . وخصّ التهانويّ تعريف النصّ بالأصوليين ، فقال : ((النصّ : بالفتح ، والتشديد ، هو في عرف الأصوليين يُطلق على معان : الأول : كلّ ملفوظ مفهوم المعنى من الكتاب ، والسنّة ، سواء كان ظاهراً ، أو نصّاً أو مفسّراً ، حقيقة ، أو مجازاً ، عامّاً ، أو خاصّاً ، اعتباراً منهم للغالب ؛ لأنّ عامّة ما ورد من صاحب الشرع نصوص ، وهذا المعنى هو المراد بالنصوص في قولهم : عبارة النصّ ، وإشارة النصّ ، ودلالة النصّ ،

(١) روح المعاني : ١٣ / ٢٠٧ . وينظر : البحر المحيط : ٦ / ٣٩٥ – ٣٩٦ .

(٢) السور المدنيّة ، دراسة بلاغيّة أسلوبية : ٢٦ .

(٣) وردت المفردة في سورة الأعراف : ٦٩ ، ٧٤ ، وسورة النجم : ٥٥ ، وهما سورتان مكّيتان .

(٤) السور المدنيّة ، دراسة بلاغيّة أسلوبية : ٢٣ – ٢٤ .

(٥) ينظر : لباب النقول في أسباب النزول : ٢٦٢ .

(٦) ينظر : كتاب العين : ٨٦ / ٧ ، ٨٧ ، وتاج اللغة وصحاح العربية : ٣ / ٦٥٤ ، ومعجم مقاييس اللغة : ٢ / ٥٢٦ ، وأساس البلاغة : ٦٣٦ ، ولسان العرب : ٤ / ٣٩٣٠ ، والقاموس المحيط : ٥٨٣ – ٥٨٤ (نصّ).

(٧) التعريفات : ١٩٤ .

(٨) سورة البقرة : ٢٧٥ .

(٩) الكلّيات : ٧١٣ .

(١٠) الكلّيات : ٧٦٥ .

واقْتضاء النصّ ... والثاني : ما ذكر الشافعيّ ، فإنّه سمّى الظاهر نصّاً ، فهو منطلق على اللغة ، والنصّ في اللغة بمعنى الظهور ... فعلى هذا حدّ الظاهر ، وهو اللفظ الذي يغلب على الظنّ فهم معنى منه ، من غير قطع ، فهو بالإضافة إلى ذلك المعنى الغالب ظاهر ، ونصّ . والثالث ، وهو الأشهر : هو ما لا يتطرّق إليه احتمال أصلاً ... والرابع : ما لا يتطرّق إليه احتمال مقبول ، يعضّده دليل ... والخامس : الكتاب ، والسنة ^(١) . . ويبدو أنّ استعمال مصطلح (النصّ) بمفهومه الحديث كان استعمالاً منقولاً من معناه اللغويّ ، فقد تقدّم - في النصّ لغةً - أنّ من معاني (نصّ): نصّ المتاع جعل بعضه على بعض ، فيكون النصّ ضمّ الكلام بعضه إلى بعض . وزيادة على ذلك ، فالمعنى اللغويّ يدور حول معنى : الرفع ، والارتفاع ، والانتهاه ، فجاء معنى النصّ من خلال ذلك ، إذ إنّ مؤلف النصّ يعطي أقصى ما عنده من قدرة أدبيّة ، وموهبة ذاتيّة لإنتاج النصّ . فالمؤلف يبذل قصارى جهده ليخرج النصّ من مستوى الكلام العادي ، ويرفعه إلى مستوى الإبداع الأدبيّ . أمّا عند المحدثين ، فقد تعدّدت - أيضاً - تعريفات النصّ لديهم ، فقد نظر الغربيون إليه من زوايا عدّة ، ومنها جاءت تعريفاتهم فقد عرّفه (شميت) ((كلّ تشكيلة لغويّة منطوقة من حدث اتصاليّ في إطار عمليّة اتصاليّة ، محدّد من جهة المضمون ، ويؤدّي وظيفة اتصاليّة يمكن إيضاحها ، أي يحقّق إمكانيّة قدرة ، وإنجاز واضحة ، وجليّة)) ^(٢) ، وعرّفه (هارفج) بأنّه ((ترابط مستمرّ للاستبدالات المنتجيميّة التي تظهر الترابط النحويّ في النصّ)) ^(٣) ، وعرّفه (فاينرش) ، بقوله : ((النصّ عبارة عن بنية ترتبط أجزاؤها ببعضها ببعض ، إذ تستلزم وحداتها اللغويّة بعضها البعض لفهم الدلالة الكلية)) ^(٤) ، أمّا (هالدياي ررقية حسن) ، فقد عرّفه بأنّه ((ليس بنية نحويّة أكثر حجماً من الجملة ، أو مجرد سلسلة من الجمل ، أو جملة كبرى ، وإمّا هو بنية من نمط مختلف ، إمّا يشكل وحدة دلاليّة ، الوحدة التي لها معنى في سياق)) ^(٥) ، وترى (جوليا كريستيا) أنّ ((النصّ ليس مجموعة من الملفوظات النحويّة ، واللائحويّة ^(٦) ، إمّا كلّ ما ينصاع للقراءة عبر خاصيّة الجمع بين مختلف طبقات الدلاليّة الحاضرة هنا داخل اللسان ، والعاملة على تحريك ذاكرته التاريخيّة ، هذا يعني أنّه ممارسة مركبة يلزم الإمساك بحروفها عبر نظريّة للفعل الدالّ الخصوصيّ الذي يمارس لعبه داخلها بواسطة اللسان ، وبهذا المقدار فقط يكون لعلم النصّ علاقة ما مع الوصف اللسانيّ)) ^(٧) . أمّا الباحثون العرب ، فقد عرّف صلاح فضل النصّ معتمداً المعطيات التي توفّرت له عند اطلاعه على مؤلفات الغربيين ، والعرب ، فقال : ((النصّ هو القول اللغويّ المكتفي بذاته ، والمكتمل في دلالاته)) ^(٨) ، وعرّفه بعضهم بقوله : ((وحدة كبرى شاملة ، تتكون من أجزاء مختلفة تقع على مستوى أفقي من الناحية النحويّة ، وعلى مستوى عمودي من الناحية الدلاليّة . ومعنى ذلك أنّ النصّ وحدة كبرى لا تتضمنها وحدة أكبر منها . والمقصود بالمستوى الأول (الأفقي) أنّ النصّ يتكوّن من وحدات نصيّة صغرى ، تربط بينها علاقات نحويّة ، أمّا الثاني ، فيتكون من تصورات كليّة ، تربط بينها علاقات التماسك الدلاليّة المنطقيّة)) ^(٩) . وعرّفه آخر بقوله : ((هو مجموعة من الكلمات التي تكون طقفاً حقيقياً في اللغة . والنصوص إمّا أن تكون مكتوبة ، أو مسجلة على جهاز التسجيل ، أو عملاً أدبيّاً ، أو معلومة ، أو رسالة . وفي جميع الحالات ، يُعدّ النصّ وثيقة من قبل علماء اللغة لاحتوائه على نموذج لغويّ خاص ، يكون مادة رئيسة للتحليل ، والوصف)) ^(١٠) . وعرّفه الأزهر الزناد بقوله : ((نسيج من الكلمات ، يترابط بعضها ببعض . وهذه الخيوط تجمع عناصره المختلفة ، والمتباعدة في كلّ واحد هو ما نطلق عليه مصطلح (نص) . وقد قامت علوم عدّة ، ومناهج كثيرة للبحث في هذا الترابط ، وتعدّدت هذه العلوم منذ أقدم العصور ، وتقاطعت مناهجها بحكم التقائها في موضوع بحث واحد هو النصّ ، ثم تفرّدت به اللسانيّات في زمن متأخر جداً بالقياس إلى المعارف البشريّة . وهذا التفرّد نفسه مرّ بمراحل عديدة ^(١١) ، عند كلّ واحدة منها يقوم حدّ بين تلك العلوم المشتركة في النصّ)) ^(١٢) . وحاول محمد مفتاح أن يجد تعريفاً للنصّ يعكس التوجهات المعرفيّة ، والنظريّة ، فرأى أنّه ((أمام هذا الاختلاف ، فإنّه لا يسعنا إلا أن نركب بينها جميعاً ؛ لنستخلص المقومات الجوهرية الأساسيّة التالية ^(١٣) : مدونة كلاميّة : يعني أنّه مؤلف من الكلام ... حدث : إنّ كلّ نصّ هو حدث يقع في زمان ، مكان معينين ، لا يعيد نفسه إعادة مطلقة ، مثله في ذلك مثل الحدث التاريخيّ . تواصلّي : يهدف إلى توصيل معلومات ، ومعارف ، ونقل تجارب إلى المتلقي . تفاعليّ : على أنّ الوظيفة التواصلية في اللغة ليست هي كلّ شيء ، فهناك وظائف أخرى للنصّ اللغويّ ، أهمها الوظيفة التفاعليّة ، التي تقيم علاقات اجتماعيّة بين أفراد المجتمع ، وتحافظ عليها . مغلق : ونقصد انغلاق سمته الكتابيّة الأيقونيّة ، التي لها بداية ، ونهاية ، ولكّنه من الناحية المعنويّة هو : توالديّ : إنّ الحدث اللغويّ ليس منبثقاً من عدم ، وإمّا هو متوالد من أحداث تاريخيّة ، ونفسانيّة ، ولغويّة ، وتتناسل منه أحداث لغويّة أخرى لاحقة له . فالنصّ إذن مدونة حدث كلاميّ ذي وظائف متعدّدة)) ^(١٤) . إنّ هذا التعريف الذي وضعه محمد مفتاح محاولة لجمع كلّ الصفات للنصوص المختلفة ، إذ إنّ التعريفات السابقة له تركز على جانب معيّن ، وتسقط الجوانب الأخرى ،

(١) كشاف اصطلاحات الفنون : ٢٢٦ / ٤ - ٢٢٨ .

(٢) لسانيّات النصّ ، النظرية والتطبيق ، مقامات الهمدانيّ أنموذجاً : ٢٢ .

(٣) المصدر نفسه : ٢١ .

(٤) لسانيّات النصّ ، النظرية والتطبيق ، مقامات الهمدانيّ أنموذجاً : ٢١ .

(٥) المصدر نفسه : ٢١ - ٢٢ .

(٦) كذا ، والصحيح : غير النحويّة .

(٧) علم النصّ : ١٤ .

(٨) بلاغة الخطاب وعلم النصّ : ٢٩٩ .

(٩) المصطلحات الأساسيّة : ١٤١ .

(١٠) معجم اللغة واللسانيّات : ٥٤٢ .

(١١) كذا ، والصحيح : كثيرة .

(١٢) نسيج النصّ ، بحث ما يكون به الملفوظ نصّاً : ١٢ .

(١٣) كذا ، والصحيح : الآتيّة .

(١٤) تحليل الخطاب الشعريّ ، استراتيجية التناص : ١١٩ - ١٢٠ .

فمنهم من ركز على وحدة النص ، وترابطه ، ومنهم من ركز على الجانب الدلالي ، ومنهم من ركز على البعد التداولي ؛ ولذا فقد كانت المعايير النصية السبعة التي وضعها (روبرت دي بوجراند) شاملة لكل التعريفات المتقدمة .

نشأة نحو النص : لعل من المغالطة اتباع كثير من علماء النص ، والباحثين فيه ، من أن القدماء قد اقتصرُوا في دراستهم للغة على دراسة الجملة ، ولم يخرجوا عنها . فإذا كان ذلك يصدق على وضع القواعد النحوية للغات – ولعل في أغلب دراسات العرب خير مثال - ، فإنهم في بعض الأحيان وضّحوا العلاقات القائمة بين الجمل ، كعلاقة الحالية ، أو الوصفية ، أو البدلية ، أو غيرها . زيادة على ذلك ، إن اهتمامهم بالسياق الذي يقع فيه الكلام ، وتغيير الكلام تبعاً لذلك ، من ذلك قول سيبويه ، وهو يوضح الفارق بين (أم) المنقطعة ، والمعادلة ، إذ قال : ((وذلك قولك : أعمرُو عندك ، أم عندك زيد . فهذا ليس بمنزلة إيهما عندك ... ويدلّك على أن هذا الآخر منقطع من الأول قول الرجل : إنها لإبل ، ثم يقول : أم شاء يا قوم))^(١) . ويلاحظ في الدراسات البلاغية ، والنقدية الكثير من الإشارات إلى العلاقات بين الجمل من ناحية المعنى ، فكانوا يحدّدون العلاقة بين جمل متتالية على أنها علاقة (تذييل ، تأكيد ، احتراس ، استدراك ، استثناء) وغيرها . ولكنّ النظرة العامة التي شاعت عند علماء النصّ الغربيين ، وتبّعهم الباحثون العرب على ذلك أنّ الدراسات اقتصرّت على دراسة الجملة فقط ، من ذلك قول بعضهم : ((ذكرنا أنّ تصوّر (نحو النصّ) لا وجود له في العربية ، ونحوها ، بل إنّنا لا نكاد نجد لدى الباحثين إحساس الحاجة إليه أصلاً))^(٢) . إنّ البلاغيين والمفسرين ساروا على غير ذلك ، فكانوا قريبين في دراساتهم من الدراسة النصية ؛ لذلك كوّنوا الأساس ، أو اللبّات الأولى لإنشاء تلك الدراسة اللسانية الحديثة ؛ لأنّ دراسة النحو على مستوى الجملة لا يُقدّم العلاقات الدلالية بين الجمل بصورة كافية ، كما يقدّمها علم النص^(٣) . وقد رأى بعض الباحثين المحدثين أنّ المفهوم الاصطلاحيّ لكلمة (نصّ) مفهوم حديث في الفكر العربيّ المعاصر ، وهو ليس وليد هذا الفكر ، وإنّما هو وافد علينا من الحضارة الغربيّة ((وهذا ما يجعل البحث عن أصول هذا المصطلح في التراث الفكريّ العربيّ ، وربط ذلك بما يدلّ عليه في الوقت الحاضر ضرباً من التحمّل الذي لا تُرجى منه فائدة))^(٤) . ويرى أنّ ممّا زاد من حيرة مثقفين ، ونقاد عرب أنّهم لم يجدوا صلة مقنعة – قد حاول البحث إيجاد الرابط كما تقدّم - بين المعنى المعجميّ ، والمفهوم الاصطلاحيّ ، وهو ما ((وضع المتلقي العربيّ اليوم في حالة اضطراب يعيشها جرّاء قراءاته ، أو سماعه لهذا المصطلح ، وهو يتردّد في جميع الدراسات النقدية الحديثة ؛ وذلك لعدم مقدّرتة على الربط بين المفهوم (المعجميّ العربيّ) ، الذي يعرفه ، وبين ما تتبّه الحقول المعرفيّة في المصطلح من مفاهيم جديدة))^(٥) . إنّ هذا الكلام فيه الكثير من عدم الدقة ، فعند الرجوع إلى مؤلفات القدماء يلحظ في مواضع كثيرة استعمال مصطلح (نصّ) في كلامهم ، وكان يعني المفهوم المتعارف عليه في الدراسات المعاصرة ، من ذلك ما يلحظ من قول ابن رشيق القيروانيّ [ت ٤٥٦ هـ] – في الدراسات النقدية - ، إذ قال : ((... فهو غلط ، وسوء تأوّل ؛ لأنّ المقصود بهذا النصّ شعراء المشركين (...))^(٦) . أمّا عند المفسرين ، فاستعمال هذا المصطلح ممّا لا يُعدّ ، من ذلك قول الشيخ الطوسي [ت ٤٦٠ هـ] : ((وفي الآية دلالة على أنّ الصلاة لطف ؛ لأنّ الله تعالى أمرنا بالاستعانة بها ، وتوضيحه قوله : ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَهَيّئُ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾^(٧) ، ولولا هذا النصّ لجوزنا أن يكون في غير ذلك))^(٨) ، ومثله قول الزمخشريّ [ت ٥٣٨ هـ] : ((ودلالة على أنّ القياس يهدمه النصّ ؛ لأنّه جعل الدليل على بطلان قياسهم إحلال الله ، وتحريمه))^(٩) . أمّا النحويون ، فقد استعملوا هذا المصطلح ، من ذلك قول الصبّان [ت ١٢٠٦ هـ] : ((والمثبت لإعمالها عمل ليس هو الاستقراء ، وتلك المشابهة علة إعمال العرب إياها عمل ليس ، لا أنّ المثبت قياساً إياها على ليس ، وتلك المشابهة جامع القياس ، إذ لا قياس مع النصّ))^(١٠) . ووجد بعض العلماء – في العصر الحديث – من يرفض هذا فليد المقتصر على دراسة الجملة ، وذلك لأنّ ((وصف الجملة وحدها وصفاً نحويّاً ليس كافياً للوصف اللغويّ ، بل لا بدّ من إحداث ترابط بين النصّ ، والسياق الاتصاليّ))^(١١) ، ويسعى إلى دراسة الوحدة الممثلة لتتابعات من الجمل ، والتي عُرفت عند الغربيين – إذ إنّ العرب كانوا يعرفون هذا المصطلح بحسب ما تقدّم – ب (النصّ) . وكان من أوائل هؤلاء اللغويين (هاريس) ، الذي أطلق على نمط هذه الدراسة (النهج المجاوز للجملة) ، وقد جاء ذلك في بحثه (تحليل الخطاب) ١٩٥٢ ، الذي اهتمّ فيه بتوزيع العناصر اللغويّة في النصوص ، واهتمّ بالربط بين النصّ ، وسياقه الاجتماعيّ . ويعتمد الرافضون لنحو الجملة على أنّ البشر عندما يتواصلون لغويّاً ، لا يُمارسون ذلك في جمل مفردة منعزلة ، بل في تتابعات مجاوزة للجملة ، مترابطة ، ولا تدرك النصوص في ذلك أساساً بوصفها أفعال تواصل فردية ، بل بوصفها نتائج تفاعلات متجاوزة الأفراد . وهذا يعني أنّ كلّ تحليل لغويّ يجب أن ينطلق من النصّ ؛ لكونه مجال الدرس . وتتابعات اهتمامات علماء اللغة بأبحاثهم ، ودراساتهم في تأكيد هوية علم اللغة النصّيّ ، وبيان خصائصه ، وأهدافه ، وقد توجّ ذلك على يد (هاليداي) الذي رسّخ مفاهيم علم لغة النصّ في اللغويات البريطانية . ثمّ ظهر كثير من الباحثين الذين قدّموا دراسات

(١) الكتاب : ١٧٢ / ٣ .

(٢) العربية من نحو الجملة إلى نحو النصّ : ٤١٦ .

(٣) ينظر : علم اللغة النصّيّ بين النظرية والتطبيق ، دراسة تطبيقية على السور المكية : ١ / ٤٩ – ٥٠ ، والدرس النحويّ النصّيّ في كتب إعجاز القرآن الكريم : ١٧ / ١٨ ، وأدعية الصحيفة السجادية ، دراسة في ضوء علم اللغة النصّيّ : ١٤ .

(٤) مدخل إلى علم النصّ ، ومجالات تطبيقه : ١٨ .

(٥) المصدر نفسه : ١٨ .

(٦) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده (باب الردّ على من يكره الشعر) : ٢٠ / ٢١ .

(٧) سورة العنكبوت : ٤٥ .

(٨) التبيان في تفسير القرآن : ٣٥ / ١ . ومثله في : ١٩٨ / ١ .

(٩) تفسير الكشاف : ١ / ٣١٦ . ومثله في أنوار التنزيل وأسرار التأويل : ١ / ٥٧٥ ، وإرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم : ١ / ٥٨ – ٥٩ ، ٢ / ١٤٢ ، والبحر المحيط في التفسير : ١ / ٥٣١ ، وروح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني : ١ / ١٦٤ ، ٢ / ٧١٥ .

(١٠) حاشية الصبان على شرح الأشمونيّ : ١ / ٣٨٨ .

(١١) قراءة نحوية نصية في سورة (ص) : ٨ .

، وأبحاثاً أدّت إلى تطور هذا العلم بحيث إنه لا يقتصر على دراسة النصّ فحسب ، بل إلى دراسة بيئته ، والثقافات المتصلة به ، ومعارفه المختلفة ^(١) . ويُعدّ (فان دايك) المؤسس الحقيقيّ لعلم النصّ ، وذلك في كتابيه (النص والسياق) ، و(علم النص ، مدخل متداخل الاختصاصات) ، والذي رأى أنّ علم النصّ يستهدف ((كلّ أشكال النصّ الممكنة ، وبالسياقات المختلفة المرتبطة بها)) ^(٢) . ووصل علم النصّ – عند الغربيين – مرحلة النضج على يد (روبرت دي بوجراند) ، الذي رأى ((أنّ الكيان اللغويّ المتعدّد المستويات ، لا بدّ أن يكون هو النصّ المشتمل على أجزاء يمكن لها ، أو لا يمكن أن تتركب في صورة جمل)) ^(٣) . وقد فرّق بين النصّ ، والجملّة بفروق ، هي ^(٤) :

أولاً : أنّ النصّ نظام فعّال ، على حين نجد الجمل عناصر من نظام افتراضيّ .
ثانياً : الجملّة كيان قواعديّ خالص ، يتحدّد على مستوى الجملّة فحسب . أمّا النصّ ، فحقّه أن يُعرّف تبعاً للمعايير الكاملة للنصّية .

ثالثاً : قيود القواعد المفروضة على البنية التجريدية للجملّة في النصّ يمكن أن يتمّ التغلب عليها بوساطة الاهتمام بتحفيّزات تعتمد على سياق الموقف . فالعناصر التي يمكن فهمها من الموقف ، مثلاً من الإدراك الحسيّ ، يمكن السكوت عنها ، أو اقتضاها بوساطة المتكلّم من دون ضرر يعود على الطاقّة الاتصاليّة للنصّ ، وهكذا لا ينبغي للصواب النحويّ أن يُعدّ لغوياً ، بل تعويضاً ، أي : معياراً يلجأ إليه فقط عند عدم وجود قرائن محدّدة ، أو هو تفضيل ، أي معيار يفضل على غيره حينما تتعدّد الاحتمالات .

رابعاً : التمييز بين ما يطابق القواعد ، وما لا يطابقها تمييزاً ثنائياً عندما تكون ثمة قواعد دقيقة ، وكاملة لضبط الجمل . فالحكم على تركيب ما بأنّه جملّة ، يتمّ بمقارنة هذا التركيب بالأنماط التي تسمح بها القواعد النحويّة . أمّا التمييز بين ما يعدّ نصّاً ، وما لا يعدّ نصّاً ، فلا يتمّ بمثل هذه المقارنة الآليّة . فكون النصّ مقبولا ، أو غير مقبول يتمّ بحسب درجات معقّدة ، لا بحسب تقابل ثنائيّ .

خامساً : ينبغي للنصّ أن يتّصل بسياق يكون فيه ، تتفاعل فيه مجموعة من المرتكزات ، والتوقعات ، والمعارف ، وهذه البيئة الشاسعة تسمّى سياق الموقف .

سادساً : لا يمكن النظر إلى النصّ على أنّه مجرد صورة مكوّنة من الوحدات الصرفيّة ، أو الرموز . فالنصّ تجلّ لعمل إنسانيّ ، ينوي به الشخص أن ينتج نصّاً ، ويوجّه السامعين إلى أن يبنوا عليه علاقات من أنواع مختلفة .

سابعاً : النصّ توالٍ من الحالات ، فالحالة المعلوماتيّة ، والحالة الانفعاليّة ، والحالة الاجتماعيّة لمستعمليّ النصّ عرضة للتغيير بوساطة النصّ . لذا يأتي إنتاج النصّ ، وفهمه في صورة توالٍ من الوقائع .

ثامناً : الأعراف الاجتماعيّة تنطبق على النصوص أكثر ممّا تنطبق على الجمل ، فالوعي الاجتماعيّ ينطبق على الوقائع ، لا على أنظمة القواعد النحويّة .

تاسعاً : العوامل النفسية أوّثق علاقة بالنصوص منها بالجمل . فحدود الجملّة يتمّ تعيينها بعد إنتاج النصّ ، ويُستغنى عنها في المراحل الأولى للفهم .

ورأى (دي بوجراند) أنّ تحقّق النصّية تحتاج إلى معايير تؤكّد وجودها ، فقال : ((وأنا اقترح المعايير التالية ^(٥) لجعل النصّية أساساً مشروعاً لإيجاد النصوص ، واستعمالها)) ^(٦) . ثمّ عدّ سبعة معايير ، هي : السبك ، والالتزام ، والقصد ، والقبول ، ورعاية الموقف ، والتناص ، والإعلاميّة . وقد نفى كون ((هذه المعايير جديدة بطبيعة الحال ، ولكنّ علاجها حتى هذه اللحظة جاء مفزّقا ، ومدمجاً ... ولكن يظهر من النظرة الفاحصة أنّه لا يمكن لواحد من هذه المعايير أن يفهم دون التفكير في العوامل لأربعة جميعاً : اللغة ، والعقل ، والمجتمع ، والإجراء ... أمّا أن يمكن ، أو لا يمكن لشيء أن يعدّ نصّاً ، فذلك يتوقف على مراعاة هذه المعايير)) ^(٧) .

وظيفة نحو النصّ : لعلّ من المناسب – في هذا المبحث – التعرف على الوظيفة التي يؤدّيها نحو النصّ ، فما عمل نحو النصّ ؟ ، إحصائيّ ، استقرائيّ ؟ أم هو عمل تفسيريّ للنصّ ؟ أم هو تقويميّ يبحث عن تحقّق المعايير في النصّ موضوع الدراسة ، أم النظر إلى النصّ ، هل استعمل وسيلة التماسك المناسبة ، التي وظّف اللفظ الموجز الفصيح ؛ لإعطاء المعنى الدقيق البليغ ؟ ، يرى بعض الباحثين أنّ ((الهدف الأساسيّ لما أطلق عليه لسانيات النصّ ، ليس إيجاد الترابط بين الوحدات اللغويّة الأساسيّة في النظام اللغويّ فحسب ، وإلّا إيجاد علاقة هذه الوحدات – أيضاً – بظاهرة النصّ ... وأجزائه من جهة ، وسلوك المتحدثين الاجتماعيّ ، ومع التصرف الاجتماعيّ للمتحدثين من جهة أخرى)) ^(٨) . في حين يرى فان دايك ((من الناحية الوظيفيّة ، فإنّ هذا العلم يُعنى بشرح كيفية قيام النصّ بوظائفه ، أي بتحليل الخواص المعرفيّة العامة ، التي تجلّي من الممكن إنتاج البيانات النصّية المعقّدة في مرحلة الأداء ، وإعادة إنتاجها بالفهم في مرحلة التلقّي)) ^(٩) . ويؤكد صلاح فضل أنّ الاتجاهات البلاغيّة الجديدة تمضي في تكوين مشروع البلاغة النصّية ، الذي يصبّ بدوره في مجال التوحيد بينها ،

(١) ينظر : علم اللغة النصّي بين النظرية والتطبيق : ٢٣ / ١ – ٢٤ ، علم اللغة النصّي بين النظرية والتطبيق ، الخطابة النبوية أنموذجاً : ٣ – ٤ ، نحو النصّ نظرية وتطبيق ، سورة آل عمران أنموذجاً : ١٩ – ٢٠ .

(٢) علم النصّ ، مدخل متداخل الاختصاصات : ١٤ .

(٣) النصّ والخطاب والإجراء : ٨٩ .

(٤) ينظر : النصّ والخطاب والإجراء : ٨٩ – ٩٣ .

(٥) كذا ، والصحيح : الآتية .

(٦) النصّ والخطاب والإجراء : ١٠٣ .

(٧) المصدر نفسه : ١٠٥ – ١٠٦ .

(٨) أسس لسانيات النصّ : ١٣ .

(٩) بلاغة الخطاب وعلم النصّ : ٣٢٢ .

وبين علم النص^(١) ، فقد أجمع الباحثون على أنّ البلاغة هي الأفق المنشود والملتقى الضروري للتداوليّة ، وعلم النصّ ، على أنّ تحول البلاغة الجديدة في الواقع إلى علم النصّ يرتبط بمدى قدرة البلاغة في الثقافات المختلفة على تكوين أنموذج جديد لإنتاج الخطاب بكلّ أنماطه ، وكلّ التعريفات التي أعطيت للبلاغة في تأريخها الطويل تتوخّد من منظور عام بعدّها علم إنتاج النصّ^(٢) ، ((فإحلال مصطلح علم النصّ محل البلاغة ، أو وضعه بجوارها بعد تحديدها على الأقلّ مؤشر ضروريّ للتحول في التأريخ العلميّ ، وانعطاف نحو أفق منهجيّ مخالف للمسار القديم ممّا تفرضه نظريات العلم ، ونماذجه ، وتدعو إليه بقوة حركة الإبداع في النصوص المنتمية للأجناس المختلفة ، والفكر الذي يدور حولها ويتمثّل كيميّة إنتاجها))^(٣) . من ذلك يمكن القول : إنّ نحو النصّ منهج تقويميّ للنصوص ، يمكننا من الحكم على نصّ ما بالجودة ، إذا ما وجدنا فيها المعايير النصيّة متوافرة ، ومتضافرة عند إنتاج النصّ .

الفصل الأول : السبك

السبك في اللغة والاصطلاح :

السبك لغة : هو من ((تسبيكك من الذهب ، أو الفضة ، تذاب فتفرغ في مسبكة))^(٤) . ومن المجاز فيه ، ((هذا كلام لا يثبت على السبك ، وهو سبّاك للكلام . وفلان قد سبكته التجارب))^(٥) . **السبك اصطلاحاً :** لم أجد تعريفاً للسبك في معاجم المصطلحات العربيّة ، ولكنّ عدم وجود تعريف لا يعني عدم استعمالهم له ، ولمشتقاته ، فقد استعمله علماء البلاغة ، والنحو ، إذ استعمله الجاحظ [ت ٢٥٥ هـ] ، في وصفه لأجود الشعر ، إذ قال : ((وأجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء ، سهل المخارج ، فتعلم بذلك أنّه قد أفرغ إفراغاً واحداً وسبكاً سبكاً واحداً))^(٦) ، واستعمله أبو هلال العسكري^(٧) [ت ٤٠٠ هـ] ، واستعمله من النحويين الرضوي^(٨) [ت ٦٨٨ هـ] ، والصّبّان^(٩) ، إذ استعمله الصّبّان ، ومن قبله الأشموني^(١٠) [ت ٩٠٠ هـ] للدلالة على ترابط الكلام ، فاستعمله في دلالة الاسم الموصول ، والمعرّف بـ (ال) على معلوم ، فكان الإخبار بالذي ، والألف واللام ؛ لقصد الاختصاص ، أو تقوي الحكم ، أو تشويق السامع ، أو إجابة المخاطب الممتحن ، وقد سمّياه – الأشموني والصّبّان – باب السبك ، وشرحه الصّبّان قائلاً : ((أي سبك كلام من كلام آخر))^(١١) . يُزاد على ذلك أنّ السيوطي قد استعمل مصطلح (الانسجام) ، وهو يقرب في مفهومه من مصطلح السبك ، إذ قال : ((هو أن يكون الكلام لخلوّه عن العدة متحرراً كتحدر الماء المنسجم ، ويكاد لسهولة تركيبه ، وعذوبة ألفاظه أن يسيل رقة . والقرآن كلّ كذلك))^(١٢) .

السبك في الدراسات النصيّة الحديثة :

من أكثر الظواهر اللافتة للنظر في نحو النصّ ، كثرة المصطلحات الدالّة على مفهوم واحد ، واستعمال المصطلح الواحد في مفهومين مختلفين ، وسبب ذلك يعود إلى كون نحو النصّ منهجاً غريباً منقولاً إلى عربيّة عن طريق الترجمة ؛ لذا قد اختلفت المصطلحات فيه ، وتكاثرت . فمصطلح الاتساق الذي وضعه هاليداي ورقية حسن ، يقابله السبك عند روبرت دي بوجراند ، وهو المعيار الأوّل من المعايير السبعة التي جعلها شرطاً لتحقيق النصّ ، قال : ((وهو يترتب على إجراءات تبدو بها العناصر السطحيّة على صورة وقائع يؤدّي السابق منها إلى اللاحق بحيث يتحقّق لها الترابط الرصفيّ ، وبحيث يمكن استعادة هذا الترابط))^(١٣) ، في حين يرى هاليداي ورقية حسن أنّ ((مفهوم الاتساق مفهوم دلاليّ ، إته يحيل إلى العلاقات المعنويّة القائمة داخل النصّ ، والتي تحدّه كنصّ))^(١٤) . ولم يكن هذا المصطلح واحداً عند الباحثين العرب – عند ترجمته – ، فقد استعملوا مصطلحات^(١٥) عدة ، لعلّ من أهمّها : الاتساق^(١٥) ، الانسجام^(١٦) ، الترابط^(١٧) ، الترابط القواعدي^(١٨) ، التماسك^(١٩) ، الربط اللفظي^(٢٠) ، الربط النحوي^(٢١) ، السبك^(٢٢) ، وقد حاول د . تمام حسان أن يصوغ تعريفاً للسبك ، فقال : ((السبك إحكام علاقات الأجزاء ، ووسيلة ذلك إحسان استعمال المناسبة المعجميّة من جهة ، وقرينة الربط النحويّ من جهة أخرى ، واستصحاب الرتب النحويّة إلا حين تدعو دواعي الاختيار الأسلوبيّ ، ورعاية الاختصاص ، والافتقار في ترتيب

(١) ينظر : بلاغة الخطاب وعلم النصّ : ٣٢٢ .

(٢) ينظر : بلاغة الخطاب وعلم النصّ : ٣٢٣ – ٣٢٥ .

(٣) المصدر نفسه : ٣٢٦ .

(٤) كتاب العين : ٣١٧/٥ . وينظر : تاج اللغة وصحاح العربيّة : ٩٦٦/٤ ، ومعجم مقاييس اللغة : ٥٨٤/١ – ٥٨٥ ، وأساس البلاغة : ٢٨٢ ، ولسان العرب : ١٧٤٨/٢ ، والقاموس المحيط : ٨٦٨ (سبك) .

(٥) أساس البلاغة : ٢٨٢ .

(٦) البيان والتبيين : ٦٧/١ . وينظر : السبك النصّي في القرآن الكريم ، دراسة تطبيقية في سورة الأنعام : ٤٨ – ٥١ .

(٧) ينظر : كتاب الصناعتين : ١٥٣ – ١٥٤ .

(٨) ينظر : شرح الرضوي على الكافية : ٣١/٣ .

(٩) ينظر : حاشية الصّبّان على شرح الأشموني : ٢٣٧/١ .

(١٠) حاشية الصّبّان على شرح الأشموني : ٧٦/٤ .

(١١) معترك الأقران في إعجاز القرآن : ٢٩٢/١ .

(١٢) النص والخطاب والإجراء : ١٠٣ .

(١٣) لسانيات النصّ ، مدخل إلى انسجام الخطاب : ١٥ .

(١٤) ينظر : السبك في العربيّة المعاصرة بين المنطوق والمكتوب : ٤ – ٦ . وينظر : السبك النصّي في القرآن الكريم ، دراسة تطبيقية في سورة الأنعام : ٥١ – ٥٢ .

(١٥) ينظر : لسانيات النصّ ، مدخل إلى انسجام الخطاب : ١١ .

(١٦) ينظر : مدخل إلى علم النصّ ومجالات تطبيقه : ٨٦ .

(١٧) ينظر : أصول تحليل الخطاب في النظرية النحويّة العربيّة ، تأسيس نحو النصّ : ٢٥/١ .

(١٨) ينظر : أسس لسانيات النصّ : ١٥١ .

(١٩) ينظر : علم اللغة النصّي بين النظرية والتطبيق ، دراسة تطبيقية على السور المكيّة : ٩٣/١ .

(٢٠) ينظر : علم لغة النصّ ، النظرية والتطبيق : ٩٩ .

(٢١) ينظر : علم لغة النصّ ، المفاهيم والاتجاهات : ١٤٥ .

(٢٢) ينظر : نظرية علم النصّ ، رؤية منهجية في بناء النصّ النثريّ : ٧٨ .

الجمال^(١)، أمّا محمد خطابي، فعرف الاتساق / السبك، بقوله: ((ذلك التماسك الشديد بين الأجزاء المشكلة لنص / خطاب ما، ويهتم فيه بالوسائل اللغوية (الشكلية) التي تصل بين العناصر المكونة لجزء من خطاب، أو خطاب برمته^(٢))). ويقوم هذا المعيار النصي بدراسة الروابط الشكلية التي تحقق للنص تماسكه، وقد قُسمت على خمسة مباحث: الإحالة، الاستبدال، الحذف، الاتساق المعجمي، الوصل. وسيقوم البحث بدراسة السور المدنية في ضوء هذه المباحث، مع مراعاة ما للغة العربية من خصوصية في التعبير، قد لا توافق التنظير الغربي، فقد يوجد في العربية ما يكون خارج النظرية النصية الغربية. وفيما يأتي تفصيل الكلام على كل مبحث:

المبحث الأول: الإحالة:

الإحالة لغة: ((حال الحول وهو يحول حولاً وحؤولاً وأحال الشيء إذا أتى عليه حول كامل ... وحال الشيء يحول حؤولاً، يكون تغييراً، ويكون تحويلاً ... والحال كل شيء يتحرك من مكانه، أو يتحول من موضع إلى موضع، ومن حال إلى حال))^(٣). **الإحالة اصطلاحاً:** عرف الكفوي الإحالة تعريفاً، لم يفارق فيه معناها اللغوي، قال: ((أحال الرجل في المكان: قام فيه حولاً^(٤)). وعرفها التهانوي تعريفاً أقرب إلى العلم التجريبي، قائلاً: ((تغيير الشيء في الكيفيات كالتمسخين والتبريد، ويلزمها الاستحالة كالتمسخن والتبريد^(٥)). والإحالة - موضوع البحث - تمس المعنى اللغوي ولو مساً خفيفاً؛ وذلك أنّ معنى دوران الحول يحمل في طياته الرجوع إلى اليوم الذي بدأ به، والإحالة في الدراسة النصية، تعني رجوع عناصر الإحالة إلى المحال عليه المقصود منها، عند استعمالها في الكلام. ولم يكن مفهوم الإحالة غائباً عن أذهان علماء العربية القدماء، فالزركشي - مثلاً - يقرر أنّ الأصل تقديم ما يدلّ على الضمير عند استعماله، ويُشير إلى دلالة الضمير على صاحبه بتضمين معناه في الكلام، أو أن يعود الضمير على بعض ما تقدّم^(٦)، وزاد على ذلك بوقوع عناصر أخرى تسدّ مسدّ الضمير، وأغلبها ممّا جاء به الدراسات النصية، قال: ((قد يسدّ مسدّ الضمير أمور: منها الإشارة ... ومنها الألف واللام ... ومنها الاسم الظاهر، بأن يكون المقام يقتضي الإضمار، فيعدل عنه إلى الظاهر^(٧))). يتيّن من كلام الزركشي أنّ معظم عناصر الإحالة كان متعارفاً عليها في ربط أجزاء الكلام، فلم يكن ما جاء به علماء النصّ للمحدثون أمراً جديداً، أو غير مطروق في الدراسات العربية القديمة، بل كانت لهم إشارات في نظم الكلام، تفوق ما جاء به المحدثون، ولعلّ العبارة الأخيرة للزركشي خير مثال على ذلك، فقد يعاد استعمال الاسم ثانياً، ((والأصل أنّه إذا ذكر ثانياً أن يذكر مضمراً للاستغناء عنه بالظاهر السابق. وللخروج على خلاف الأصل أسباب^(٨)))، ومن الأسباب التي ذكرها لذلك: التعظيم، والإهانة والتحقير، وإزالة اللبس، والقصد إلى تربية المهابة، والخصوص، وغيرها^(٩).

الإحالة في الدراسات النصية الحديثة: عرفت الإحالة في الدراسات النصية بكونها عنصراً من عناصر السبك النصي، فقد جعل هاليداي ورقية حسن الإحالة أحد العناصر الخمسة التي يتحقق بها الاتساق في اللغة الانكليزية^(١٠). ويرى الباحثان أنّ ((العناصر المحلية كيفما كان نوعها لا تكتفي بذاتها من حيث التأويل، إذ لا بدّ من العودة إلى ما تشير إليه من أجل تأويلها. وتتوفر كل لغةٍ طبيعية على عناصر تملك خاصية الإحالة، وهي حسب الباحثين: الضمائر، وأسماء الإشارة، وأدوات المقارنة^(١١))). ويرى فان دايك أنّ ((علم دلالة الإحالة يتيح إعادة بناء مجرد للواقع، بحيث يمكننا ربط وحدات مجموعة في اللغة (كلمات ومقولات وعلاقات) بوحدات مجردة في الواقع الخارجي؛ وذلك من خلال المعاني المفهومية لوحدات اللغة ... وينتج عن ذلك أنّه في علم الدلالة هذا يرتبط المعنى والإحالة ارتباطاً شكلياً، فمعنى المنطوقات مساوٍ للتفسير المفهومي لهذه المنطوقات، وتكون العلاقة بأوجه تحقق لهذه التصورات في العوالم الممكنة المختلفة في أثناء إحالتها^(١٢))). ويرى روبرت دي بوجراند أنّ الإحالة هي ((العلاقات بين العبارات والأشياء والأحداث والمواقف في الذي يُدلّ عليه بالعبارات ذات الطابع البدائي في نصّ ما، إذ تشير إلى شيء ينتمي إلى نفس عالم النص، أمكن أن يُقال عن هذه العبارات إنها ذات إحالة مشتركة^(١٣))). ويتركز دي بوجراند في الإحالة على ما سمّاه (الألفاظ الكنائية)، ويرى أنّها تتميز بميزات، منها^(١٤):

- ١- أنّ للألفاظ الكنائية مدى أوسع من حيث إمكانية التطبيق، إذ إنّها تصلح أن تكون محيلاً على أي شيء، سواءً أكان ذلك مادياً أم معنوياً، نصياً أم مقامياً.
- ٢- خلّوها من أي محتوى ذاتي، ومعنى ذلك أنّها لا دلالة لها في ذاتها، وإنّما دلالتها ممّا تحيل عليه.

(١) البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية: ٧٨ - ٧٩. وينظر: السبك النصي في القرآن الكريم: ٥٣ - ٥٤.

(٢) لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب: ٥.

(٣) كتاب العين: ٣ / ٢٩٧ - ٢٩٨ (حول).

(٤) الكلبيات: ٤٧.

(٥) كتشاف اصطلاحات الفنون: ١ / ٥٠١.

(٦) ينظر: البرهان في علوم القرآن: ١٩ / ٤ - ٢٥.

(٧) المصدر نفسه: ٤ / ٢٧ - ٢٨.

(٨) المصدر نفسه: ٢ / ٢٩٧ - ٢٩٨.

(٩) المصدر نفسه: ٢ / ٣٠٠ - ٣٠٤.

(١٠) ينظر: لسانيات النص: ١١.

(١١) لسانيات النص: ١٦ - ١٧. وينظر: علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، دراسة تطبيقية على السور المكية: ١ / ١١٦.

(١٢) علم النص، مدخل متداخل الاختصاصات: ٥٠ - ٥٢.

(١٣) النص والخطاب والإجراء: ٣٢٠. وينظر: إشكالات النص: ٣٤٧.

(١٤) ينظر: المصدر نفسه: ٣٢٠.

٣- الألفاظ الكنائية في العادة أكثر اختصاراً ممّا يشاركها في الإحالة ، ومعنى ذلك أنّ (الضمائر ، وأسماء الإشارة ، والأسماء الموصولة) مكوّنة في الغالب من حروف أقلّ عدداً من حروف المحال عليه . ومع الاستبدال تكون هذه الميزة أكثر ظهوراً .

٤- تخضع الألفاظ الكنائية لقيود عند ورودها ، كي لا يتحوّل الإفهام إلى إشكال ، بمعنى أنّ مرجعيتها تتضح عن طريق بعض الخصائص كالتركيب والتأنيث ، والعدد ، وغيرها .

٥- تحتاج الألفاظ إلى شكل خارجي متميّز ، كالتفريق بين ضمائر المذكر والمؤنث ، ومثل أن تبدأ أسماء الإشارة في الانكليزية بالحرفين (th) . وهذا ما يلحظ - أيضاً - في اللغة العربية التي تنماز هذه الألفاظ فيها بوجود حروف مشتركة بين ألفاظها المستعملة للإحالة .

فالإحالة بحسب ما يتضح ممّا تقدّم ، ((عبارة عن ألفاظ ترد في نصّ لغويّ لا تفهم إلاّ بواسطة ^(١) علاقتها بألفاظ أخرى داخل النصّ أو بعلاقتها بالواقع الخارجي من سياق خاصّ أو معارف عامّة . ولا يمكن تقييد الألفاظ الإحالية بكونها (لا تملك دلالة مستقلة) وقيدتها بعض البحوث النصّية ، إذ إنها قد تملك دلالةً مستقلةً ، ولكنّ فهم تلك الدلالة لا يمكن أن يكتمل إلاّ باستحضار ما تحيل إليه تلك الألفاظ))^(٢) . ومن أشهر العناصر الإحالية : الضمائر ، وأسماء الإشارة ، والأسماء الموصولة ، والتعريف بـ (ال) . وكان هاليداي ورقية حسن قد أدخلت أداة التعريف في العناصر الإشارية . ورأى محمّد الشاوش عدم صحّة عدّ الإحالة القائمة على المقارنة بما فيها المقارنة القائمة على التشبيه من عناصر الإحالة ؛ لأنّك إذا عدت هذه ((الظاهرة الدلالية التركيبية من قبيل الإحالة ، فتحت باباً يصعب عليك أن تغلقه ، إذ سيدخل فيه جميع البنى الدلالية التركيبية التي تقتضي عنصرين اثنين بما في ذلك الصيغ الدالة على المشاركة ، بل وحتى الأفعال التي لا تتحقّق إلاّ بتوفر عدد معيّن من العناصر ... والملاحظ أيضاً أنّ وجوه المقارنة هي أقرب إلى السمات الدلالية منها إلى المبهمات أو العناصر الإحالية))^(٣) . وقد نبّه محمّد الشاوش إلى أنّ عدّ المقارنة من عناصر الإحالة يرجع إلى ((خصوصيّة في اللغة الانكليزية أو همث بذلك ، وإذا ما تجاوزنا خصوصيّة هذه اللغة لاحظنا أنّ الإطار الأنسب لتناول مظاهر الربط هذه ليس عملية المقارنة في حدّ ذاتها ، وإمّا ما يصحبها من عمليات أخرى تعود أساساً إلى الإضمار والحذف))^(٤) . وفي كلامه كثيرٌ من الدقّة ، إذ إنّ كلّ استعمال لأدوات المقارنة ، يصحبها استعمال عناصر الإحالة الأخرى ، ولذا يرى البحث أن تخرج أدوات المقارنة من الإحالة ، وأن تكون عنصراً من عناصر الوصل ، فقد تقدّم في كلام الشاوش أن المقارنة تقتضي عنصرين ، وأنها أقرب إلى السمات الدلالية - بحسب ما سيظهر في البحث - وتنقسم الإحالة في النصّ إلى قسمين :

الإحالة المقاميّة : وهي الإحالة التي تحتاج في فهم العنصر الإحاليّ إلى معرفة سياق الموقف ، أو المعرفة بالظروف التي ينتج فيها الخطاب ، من متكلّم ومخاطب ، وزمان ، ومكان . وعلى الرغم من أنّ الإحالة المقاميّة لا تسهم في تماسك النصّ بشكل مباشر ، فإنّ ذلك لا يلغي أثرها في فهم النصّ ، وتفسير كثير من الألفاظ والعبارات فيه . إنّ ضمائر المتكلّم ، أو المخاطب ، أو الغائب ، زيادة على ظروف النصّ ، من زمان ، ومكان ، وأحداث ، لا يمكن تفسيرها بعيداً عن الموقف الذي أنتج فيه النصّ ^(٥) .

الإحالة النصّية : وهي إحالة عنصر لغويّ على عنصر لغويّ آخر مذكور في النصّ ، وهذه الإحالة تسهم في ربط أجزاء النصّ بعضها ببعض ، ممّا يُفضي إلى تماسك النصّ . ولهذه الإحالة أنواع مختلفة ، ومعايير مختلفة ، لعلّ من أهمّها : موضع العنصر اللغويّ المُحيل بالنظر للعنصر المُحال عليه ، ونوع العنصر المُحال عليه . فهي ، بالنظر إلى موضع العنصر المُحيل والمُحال عليه ، نوعان ^(٦) ، هما :

أ- إحالة الضمير على متقدّم : إذ يشير العنصر المُحيل على ما تقدّمه من العناصر اللغويّة المختلفة ، وهذه الإحالة أكثر شيوعاً من الحالة الثانية .

ب- إحالة الضمير على متأخّر : إذ يشير العنصر المُحيل على ما تأخّر عنه في النصّ .
وممّا يلفت النظر أنّ بعض العناصر تصلح أن تكون عناصر إحالية ، وتصلح أن تكون عناصر استبدالية ، وخاصة أسماء الإشارة ، التي تحيل أحياناً على عنصر لغويّ مفرد ، وتحيل أحياناً على جملة أو جملة عدّة ؛ ولذا قد سمّى هاليداي ورقية حسن الإحالة باسم الإشارة المفرد بـ (الإحالة المَوْسعة) ، ((أي إمكانية الإحالة على جملة بأكملها أو متتالية من الجمل))^(٧) . وقد يصل الأمر إلى أن يصعب معرفة كون اسم الإشارة عنصراً إحالياً أو عنصراً استبدالياً في النصّ . فقد يرد اسم الإشارة في نصّ ، ونقول إنه يحيل على جملة متقدّمة ، ولا سيّما إذا اقترن بـ (كاف) التشبيه في اسم الإشارة (كذلك) ، وقد نقول إنه جاء مُستبدلاً لها في النصّ . ومن ذلك تتضح صعوبة أن نجعل معايير النصّ الغربيّة هي معايير نصّ اللغة العربية ، ولا سيّما النصّ القرآنيّ الكريم . فالعربيّة لها خصوصيّاتها اللغويّة ، والنصّ القرآنيّ له استعمالاته اللغويّة التي تميّزه من باقي نصوص العربيّة . وزيادة على ذلك ، فقد لا يستعمل اسم الإشارة عنصراً إشارياً مُحيلاً ، بل يؤتى به على سبيل الاستئناف في العربيّة ؛ الغرض منه استئناف الكلام ، وسيُمثل له في الصفحات الآتية . أمّا الأسماء الموصولة ، فتتخذ نمطين من الاستعمال في العربيّة : فهي عنصر إحاليّ إذا جاء في مواضع معيّنة ، وقد تقدّمها كلام سابق عليها ، وتكثر هذه الإحالة عندما تكون في موقع الصفة ؛ وهي عنصر مُستقلّ بذاته ، إذا جاء في أول الكلام ،

(١) كذا ، والصحيح : بواسطة .

(٢) إشكالات النصّ : ٣٤٧ - ٣٤٨ .

(٣) أصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية العربية ، تأسيس نحو النصّ : ١٣٠ / ١ .

(٤) المصدر نفسه : ١٣٠ / ١ .

(٥) ينظر : إشكالات النصّ : ٣٤٩ .

(٦) ينظر : لسانيات النصّ : ١٧ . وينظر : مدخل إلى علم النصّ ومجالات تطبيقه : ٩٠ .

(٧) لسانيات النصّ : ١٩ .

وكانت أحد طرفي الإسناد في الجملة العربية، إلا إذا عُدَّتْ إحالةً مقاميةً على مُحالٍ عليه خارج النص، بل قد تكون ذات دلالة عامة تصلح لكل زمان، وهو ما سيُلاحظ في البحث.

وسيقوم البحث على عدِّ كلِّ العناصر التي ذكرها علماء النص الغربيون، والعرب عناصر إحيائية، عدا أدوات المقارنة، التي يرى البحث أنها أقرب إلى أن تكون أداةً للوصل في النص القرآني الكريم، ونادراً ما تكون دالةً على إحالة على متقدِّم، أو متأخر. زيادة على ما سيظهر للبحث من إحالةٍ تمتاز بها اللغة العربية أولاً، والنص القرآني الكريم ثانياً. إذ لوحظ أنَّ النصَّ القرآنيَّ الكريم قد استعمل أسماءً صريحةً، أحوال بها على متقدِّم، أو متأخر نصياً، أو أحوال بها مقامياً على مُحالٍ من خارج النص. ووجد البحث أنَّ بعض المعايير التي وضعها الغربيون، وتبعهم فيها العرب المحدثون، في بعض عناصر الإحالة، في النصَّ القرآنيَّ الكريم ما يُخالِفها، فقد اشترط علماء النصَّ الغربيون التطابق الدلالي بين المُحيل والمُحال عليه، وعدَّوه العلامة الفارقة بين الإحالة والاستبدال^(١). ولكنَّ البحث وجد في مواضع كثيرة، عدم التطابق الدلالي بين المُحيل، والمُحال عليه، وعدم التطابق هذا يعود، أما لخصيصة في اللغة العربية، كالإيجاز، وغيره، أو لأنَّ عدم التطابق سببه إعطاء العنصر الإحالي بُعداً دلاليّاً بلاغيّاً، وهو ما يُمثِّل انعكاساً للإعجاز القرآني، الذي تحدَّى فيه العرب البلغاء على الإتيان بمثله. من ذلك، أنَّ الإحالة بالضمير، التي يُفترض أن يتطابق الضمير فيها مع الاسم الصريح، الذي يُحيل عليه، لوحظ أنه قد ورد في النصَّ الكريم، إحالة الضمير على اسم غير مساوٍ له دلاليّاً، من ذلك قوله تعالى: ﴿وَحَسِبُوا أَنَّا لَنَكُونُ فِتْنَةً فَذَمُّوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾^(٢). فالظاهر أنَّ ضمير الجمع في (عموا)، و(صموا) يحيل على (كثير منهم)، ومعنى هذه الكلمة يدلُّ على أنه غير شامل للضمير، إذ لو شملهم لقال: كلَّهم، لا كثير منهم، فـ ((إسناد العمى، والصمم إلى جمعهم أولاً، ثم إلى كثير منهم بآيتين كثير منهم بدلاً من (واو) الجمع، أخذ بالنصفة في الكلام بالدلالة على أنَّ إسناد العمى، والصمم إلى جمعهم من قبيل إسناد حكم البعض إلى الكلِّ، والواقع أنَّ المتصف بهاتين الصفتين كثير منهم، لا كلَّهم أولاً، وإيماء إلى أنَّ العمى، والصمم المذكورين أولاً شملًا جميعهم على ما يدلُّ عليه المقابلة ثانياً، وأنَّ التوبة الإلهية لم يبطل أثرها، ولم تذهب سدى بالمرّة، بل نجا بالتوبة بعضهم، فلم يأخذهم العمى، والصمم اللاحقان أخيراً ثالثاً))^(٣). ومثله قوله تعالى: ﴿يُخَلِّفُونَ بِاللَّهِ كُفْرًا لِيَرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٤). فقد جاء الضمير المنصوب في قوله (يرضوه) بصيغة المفرد، على الرغم من أنَّ المُحال عليه مُثنى، هما قوله (الله ورسوله)، وعلَّل بعض المفسرين أفراد الضمير بقوله: ((وإنما أفرد الضمير في قوله (أنَّ يرضوه) مع أنَّ المُعاد اثنين؛ لأنه أريد عود الضمير إلى أوَّل الاسمين، واعتبار^(٥) العطف من عطف الجمل، بتقدير: والله أحقُّ أن يرضوه ورسوله كذلك... ومن نكتة ذلك الإشارة إلى التفرقة بين (الراضين))^(٦). ويبدو الأمر على العكس من ذلك، فجاء بإحالة المفرد على المُثنى كي لا يُفرَّق بين الراضين؛ وذلك للدلالة على أنَّ رضا الله هو رضا رسوله، فمن غير المعقول - أصلاً - أنَّ شيئاً يرضي الرسول في الوقت الذي يسخط الله - سبحانه وتعالى - . ففي استعمال ضمير المفرد دلالة على أنَّ الإرضاء للرسول هو إرضاء الله تعالى، و((خصَّ الرسول بالعبادة؛ لأنه هو داعي العباد إلى الله، وحجته عليهم، والمخاطب لهم شفاهاً))^(٧). وهذا ما ذهب إليه السيوطي [ت ٩١١ هـ]، قائلاً: ((أفرد [أي الضمير] لتلازم الرضاءين))^(٨). ومثله قوله تعالى: ﴿الْحَجَّ أَشْهُرٌ مُّعَدُّمَاتٌ هُنَّ قَرُصٌ فِيهِنَّ الْحَجُّ فَلَا رَفَثٌ وَلَا فَسُوقٌ وَلَا جِدَالٌ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُوا يَٰٓأُولِي الْأَلْبَابِ﴾^(٩). فالذي يُلاحظ أنَّ معنى قوله (الحجَّ أشهر معلومات): ((أشهر الحجَّ أشهر معلومات، أو وقت الحجَّ أشهر معلومات))^(١٠)، فدلَّ ذلك على أنه ((لا حجَّ إلا في هذه الأشهر. فالأشهر على هذا متسع فيها، مخرجة عن الظروف، والمعنى على ذلك: ألا ترى أنَّ الحجَّ في الأشهر))^(١١). فالضمير في قوله (فيهنَّ) يعود على قوله (أشهر)، والمقصود بها أشهر(شوال - ذو القعدة - ذو الحجة)، ومعنى قوله (فرض فيهنَّ)، أي ((ألزم نفسه بالتلبية، أو بتقليد الهدي، وسوقه... [أو] بالنية))^(١٢)، أو ((أوجب على نفسه فيهنَّ بالحجَّ، أي فمن أحرَمَ فيهنَّ بالحجَّ بلا خلاف، أو بالعمرة التي يتمتع بها إلى الحجَّ))^(١٣). وذكر المفسرون^(١٤) أنَّ الإحرَمَ بالحجَّ لا يقع إلا فيها، وأنَّ عدَّ (ذو الحجة) شهراً مع أنَّ الحجَّ في بعضه؛ ((لأنَّه قد يُضاف الفعل إلى الوقت وإن وقع في بعضه))^(١٥). والمسألة الأكثر أهمية، هي أنَّ أعمال الحجَّ لا يباشر بها إلا في شهر ذي الحجة، فكيف يكون معنى قوله (فيهنَّ) عائد على الأشهر؟، هل يعني ذلك أنَّ الضمير للكلِّ، والمقصود به

(١) ينظر: لسانيات النص: ٢١.

(٢) سورة المائدة: ٧١.

(٣) الميزان في تفسير القرآن: ٣٣٨/٦.

(٤) سورة التوبة: ٦٢.

(٥) كذا، والصحيح: عد.

(٦) تفسير التحرير والتنوير: ١٠/١٣٦ - ١٣٧.

(٧) البرهان في علوم القرآن: ٤/٢٣.

(٨) معترك الأقران في إعجاز القرآن: ١٩٣/١.

(٩) البقرة: ١٩٧.

(١٠) التبيان في تفسير القرآن: ١٦٢/٢. وينظر: مجمع البيان في تفسير القرآن: ٦٤/٢.

(١١) مجمع البيان: ٦٤/٢.

(١٢) تفسير الكشاف: ٢٤٠/١.

(١٣) مجمع البيان في تفسير القرآن: ٦٦/٢.

(١٤) ينظر: التبيان في تفسير القرآن: ١٦١/٢، وتفسير الكشاف: ٢٤٠/١، ومجمع البيان: ٦٥/٢، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل: ٤٨٢/١، والبحر المحيظ

: ٢٧٩/٢، والجواهر الحسان في تفسير القرآن: ٤١٤/١، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم: ٢٠٧/١، وتفسير شير: ٣١، وروح المعاني: ٢

/٦٥٧، وفي ظلال القرآن: ١٩٦/١، والميزان في تفسير القرآن: ٣٧٢/٢.

(١٥) التبيان في تفسير القرآن: ١٦١/٢.

الجزء ؟ يبدو أنَّ الحجَّ لم يكن مقصوراً على ذي الحجة ، ف ((قد وافقت حجة الوداع ذا الحجة ، وكانت حجة أبي بكر رضي الله عنه قبلها في ذي القعدة))^(١) ؛ وذلك أنهم ((كانوا يؤخرون الحجَّ في كلِّ سنة شهراً ... ووافق حجَّ المشركين في السنة التي حجَّ فيها أبو بكر في ذي القعدة ، فلما حجَّ النبي في العام المقبل وافق ذلك في ذي الحجة ، فلذلك قال : ألا إنَّ الزمان قد استدركه كهياة يوم خلق السموات والأرض))^(٢). وعند البحث عن عناصر الإحالة في سور القرآن المدنية ، يلحظ أنَّ السور الكريمة قد استعملت تلك العناصر بكثرة ، وفيما يأتي استقراء لهذه العناصر :

الإحالة النصية بالضمائر : تُعدُّ الضمائر أكثر العناصر الإحالية وروداً في النصوص اللغوية عامة ، ولم يختلف النصُّ القرآني الكريم عن هذه السمة اللغوية ، وهي بذلك تكون وسيلةً من وسائل تماسك النصِّ . إنَّ قراءة أيِّ سورة من سور الكتاب الكريم ؛ بحثاً عن العناصر الإحالية يُظهر كثرة الضمائر الواردة فيه ، وقد يناسب عدد الضمائر الواردة في أيِّ سورة الأغراض التي تتناولها ، فمثلاً (سورة المنافقون) ، من أهمِّ أغراض السورة تقرير المنافقين ، وبيان كثيرٍ من دخالهم ، ونقضهم لعهد الله ، واضطرابهم في أمر العقيدة ، وإصرارهم على الإعراض عن طلب الحقِّ والهدى ، وتأمُر النبي ﷺ بالحدز منهم^(٣) ؛ ولذا يُلاحظ أنَّ معظم الضمائر المحيلة فيها ، كانت تحيل على المنافقين (موضوع السورة) ، وهو ما يتبيّن من هذا الجرد للضمائر المحيلة فيها :

إذا جاءك المنافقون : (قالوا - نشهد - اتخذوا أيمانهم - فصَدُوا - إثم - كانوا - يعملون - بأنهم - آمنوا ثم كفروا - قلوبهم - فهم لا يفقهون - رأيتهم - أجسامهم - يقولوا - لقولهم - كأثم - يحسبون - عليهم - هم العدو - فاحذرهم - قاتلهم - يوفكون - لهم - تعالوا - لكم - لوأروؤوسهم - ورأيتهم - يصدون - هم - عليهم - لهم - لهم - هم - يقولون - لا تنفقوا - لا يفقهون - يقولون - رجعنا - لا يعلمون) .

ولأنَّ أفعالهم السيئة كانت موجَّهةً في أساسها إلى مُبلِّغ الرسالة ، الرسول ﷺ ، فقد كانت الضمائر التي تحيل على الرسول في المرتبة الثانية من حيث العدد ، فقد بدأت السورة الكريمة بقوله تعالى : ﴿ **إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ** ﴾^(٤) ، يلحظ أنَّ الضمير المنصوب في قوله (جاءك) ، يُحيل إحالتين ، فهو يُحيل مقامياً على الرسول ؛ وذلك لأنَّ الضمير لم يسبقه كلامٌ ليُحيل عليه ، فهو يُحيل نصيباً على قوله (لرسول الله) ، وبذلك تكون الإحالة بعدية . وعند استقراء الضمائر الأخرى المحيلة عليه ، يلحظ ما يأتي : (إنَّك لرسول الله - إنَّك - رأيتهم - تعجبك - - تسمع - فاحذرهم - يستغفر - رأيتهم - استغفرت - تستغفر) . في حين أنَّ الضمائر التي ترجع إلى الذين آمنوا أقلُّ بكثيرٍ ممَّا يرجع للمنافقين ، فالضمائر العائدة للذين آمنوا ، هي : (يا أيُّها الذين آمنوا - لا تلهكم - أموالكم - أولادكم - أنفقوا - رزقناكم - أحكم - تعملون) . ويوجد في السورة الكريمة مجموعة من الضمائر ، تحيل على اسم الجلالة (الله) ، وهي : (يعلم - لرسوله - يشهد - لا يهدي - لرسوله - رزقناكم - أكرنتي) . إنَّ وجود هذا العدد من الضمائر ، في سورةٍ مكوَّنة من إحدى عشرة آيةً ، يدلُّ على قوَّة التماسك الموجود في السورة الكريمة ، فهي تربط العبارات ، والجمل ، وتخلق صفة النصيب في السورة الكريمة .

ومثلاً في ذلك (سورة الممتحنة) ، التي تناولت أغراضاً عدَّة^(٥) ، معظمها يتعلَّق بالمؤمنين ، والمؤمنات ، وتحذيرهم من اتخاذ المشركين أولياء من دون الله تعالى ، وتشبيه حالهم بحال إبراهيم الخليل مع أبيه ، وقومه ؛ لذلك يلحظ أنَّ معظم الضمائر كانت تحيل على المؤمنين ، وعلى مَنْ يقابلهم من الكافرين . ولأنَّ التحذير ، والتشريع كان من الله تعالى ، فقد كثرت الضمائر التي تحيل على اسم الجلالة ، زيادة على أنَّ في النصِّ ضمائر ، ترجع إليَّ الرسول ﷺ ؛ لكونه المُبلِّغ للأمر الإلهي . وعند استقراء الضمائر في السورة ، يتبيّن الآتي : يبدأ النصُّ بقوله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ...** ﴾^(٦) ، ثم تأتي الضمائر التي تحيل عليهم ، وهي : (تتخذوا - عدوكم - تلقون - جاءكم - وإياكم - تؤمنوا - ربكم - كنتم - خرجتم - سرور - أخفيتم - أعلنتم - منكم - يتفقوكم - لكم - إليكم - تفرون - تنفكم - أرحامكم - أولادكم - بينكم - تعملون - لكم - لكم - بينكم - عاديتم - ينهاكم - يُقاتلوكم - يُخرجوكم - دياركم - تبرؤهم - تقسطوا - آمنوا - جاءكم - فامتنوهن - علمتموهن - ترجعوهن - وآتوهن - عليكم - تنكوهن - آتيتوهن - تمسكوا - واسألوا - أنفقتم - بينكم - فاتكم - أزواجكم - فعاقبتهم - فاتوا - اتقوا - أنتم - آمنوا - تتولوا) . والمؤمنات جزء من المجتمع المسلم ، والتحذير شامل لهنَّ فيبدأ ذكر المؤمنات عند قوله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مَهَاجِرَاتٍ ...** ﴾^(٧) ، ثم أعقب ذلك بالضمائر العائدة عليهنَّ ، وهي : (امتنوهن - بايماهن - علمتموهن - ترجعوهن - هن - لهن - تنكوهن - أجورهن - يُبايعنك - يشركن - يسرقن - يزنين - يقتلن - أولادهن - يأتين - يفتريه - أيديهن - أرجلهن - يعصينك - فبايعهن - لهن) . ولأنَّه شبه حالهم بحال إبراهيم الخليل ، والذين آمنوا معه ، فقد أحال عليهم بعدد من الضمائر ؛ حتى يكون حالهم قدوةً لهم ، وذلك كما يأتي : ﴿ **قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ ...** ﴾^(٨) ، ثم أعقبه بالضمائر المحيلة الآتية : (قالوا - لقومهم - إنا - كفرنا - بيننا - لأبيه - لاستغفرن - أملك - ربنا - توكلنا - أنبنا - ربنا - تجعلنا - اغفر - ربنا - فيهم) . وجاءت الآية الأولى في السورة بضمير يُحيل على اسم الجلالة الأعظم ، وهي إحالة مقامية ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ وَأَوْلِيَاءَ ثَلَاثُونَ إِلَهُم بِالْمَوَدَّةِ ...** ﴾ ، ثم أعاد ذكره أمَّا بالاسم الصريح ، أو

(١) تفسير الكشاف : ٢٦١ / ٢ .

(٢) التبيان في تفسير القرآن : ١٩٦ / ٥ .

(٣) ينظر : بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز : ١ / ٤٦٥ ، والميزان في تفسير القرآن : ١٩ / ٢١٦ .

(٤) سورة المنافقون : ١ .

(٥) ينظر : بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز : ١ / ٤٦٠ .

(٦) سورة الممتحنة : ١ .

(٧) سورة الممتحنة : ١٠ .

(٨) سورة الممتحنة : ٤ .

بصفة من صفاته ، أو بالضمائر التي تحيل عليه ، وهي : (عدوي - ربكم - سبيلي - مرضاتي - أنا - يفصل - وحده - ربنا عليك - إليك - إليك - تجعلنا - اغفر - إنا أنت - هو يجعل - بحب - أعلم - يحكم - به - غضب) . والتحذير في السورة من اتخاذ الكفار أولياء ، وقد عبر عنهم بـ (عدوكم)^(١) ، فالتعبير بالاسم الصريح (عدوكم) نوع من الإحالة ، وهي إحالة مقامية ؛ وذلك لكونها مفهومة من جهة المحال عليه من المقام ، وقد ساعد السياق على فهم هذه الإحالة من خلال مقابلته لـ (الذين آمنوا) من جهة أخرى . إن في إضافة (عدو) إلى الضمير المحال به على الله تعالى - وهو أيضاً مفهوم من المقام - (تغليظاً لجرمهم ، وإعلاماً بحلول عقاب الله بهم)^(٢) . وهذا النوع من الإحالة بالاسم لم تُشر إليه الدراسات النصية الحديثة . وقد أحال عليه بالضمائر ، زيادة على استعمال الاسم الصريح لهم ، وبعض الصفات بالاسم الموصول - وهو عنصر إحالي أيضاً - وهذه الضمائر هي : (عدوكم - إليهم - كفروا - يخرجون - إليهم - يتفقونكم - يكونوا - يبسطوا أيديهم - ألسنتهم - ودوا - الذين عاديتهم منهم - الذين قاتلوكم - أخرجوكم - ظاهروا - تولوا - الكفار - لهم - هم يحلون - وآتوهم - أنفقوا - ليسألوا - أنفقوا - أزواجهم - أنفقوا - عليهم - يسألوا) . فضلاً عن ذلك ، فقد جاءت بعض الضمائر التي تحيل على النبي ﷺ ، فقد خاطبه بقوله (يا أيها النبي) ، ثم أحال عليه بالضمائر الآتية : (جاءك - يبايعنك - يعصينك - فبايعهن - استغفر) . إن هذا الكم الكبير من الضمائر العائدة على أهم العناصر الرئيسة في النص هو ما أوجد التماسك في النص ، فترابطت آيات النص ، وظهر الاتساق في السورة الكريمة .

ومثلها في ذلك (سورة الحديد) ، التي كان من أهم أغراضها التذكير بجلال الله تعالى ، وصفاته العظيمة ، وتحريض المؤمنين على الإنفاق في سبيله ، وتذكر ما أعد لهم يوم القيامة من ثواب ، ثم التعريض بالمنافقين ، وما أعد لهم من عذاب يوم القيامة ، زيادة على تحذير المسلمين مما وقع فيه أهل الكتاب من قبلهم^(٣) . وقد مثلت الضمائر التي تحيل على العناصر الرئيسة معظم الضمائر . فالسورة الكريمة تبدأ بقوله تعالى : ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ، فأعقبتها ضمائر كثيرة ، تحيل على اسم الجلالة ، وذلك في : (وهو - له - يحيي - يميت - وهو - هو - وهو - هو الذي خلق - استوى - يعلم - وهو معكم - له - يولج - ويولج - وهو - ورسوله - جعلكم - أخذ - هو الذي يُنزل على عبده - ليخرجكم - فيضاعفه - يحيي - بينا - ورسله - بآياتنا - ورسله - يؤتيه - نبرأها - يحب - هو - أرسلنا - رسلنا - أنزلنا - أنزلنا - ينصره ورسله - أرسلنا - جعلنا - قينا - برسلنا - وقينا - وآتيناه - جعلنا - كتبناها - فآتيناه - برسله - يؤتكم - رحمته - يجعل - يغفر - يؤتيه من يشاء) . أما الضمائر التي تحيل على المخاطبين ، فتبدأ بضمائر تحيل على الناس عامة ، ثم بدأ بتفريع الضمائر ، بعد أن وجه الخطاب لكل فئة من الفئات الموجودة في المدينة المُنورة . وقد بدأ الخطاب للبشر عند قوله تعالى : ﴿... وَهُوَ مَعَكُمْ إِنْ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾^(٤) . فضمائر الجمع للمخاطبين ليس لها محال عليه سابق في النص ؛ لتحيل عليه ؛ فالإحالة فيها مقامية ، والسياق يشير إلى أن المقصود بالخطاب البشر جميعاً ، فالمعية حيثما كانوا ((بالعلم الذي لا يخفى عليه شيء من أعمالكم ، وأحوالكم))^(٥) ، ليس مقصوراً على طائفة من البشر من دون طائفة أخرى . ثم أتبعه بالضمائر الآتية : (أمنوا - أنفقوا - جعلكم - منكم - لكم - تؤمنون - يدعونكم - لتؤمنوا بربكم - ميثاقكم - كنتم) . ثم توجه بالخطاب للمؤمنين ، فأحال عليهم بالاسم الموصول ، وذلك في قوله تعالى : ﴿... قَالِ الَّذِينَ آمَنُوا مَنَّكَ اللَّهُ أَنْفَقُوا وَلَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾^(٦) ، وأتبعه بالضمائر التي تحيل عليهم ، وهي : (ما لكم ألا تنفقوا - منكم - من أنفق - قاتل - الذين أنفقوا - وقاتلوا - تعملون - نورهم - أيديهم - بأيامهم - بشراكم - للذين آمنوا - أنظرونا - نوركم - بينهم - يُنادونهم - للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم - يكونوا - اعلما - لعلكم تعقلون - أقرضوا - لهم - ولهم - والذين آمنوا - هم - ربهم - لهم - أجرهم - نورهم - اعلما - بينكم - سابقوا - ربكم - للذين آمنوا - أنفسكم - تأسوا - نفرحوا - آتاكم - الذين آمنوا - اتقوا الله وآمنوا - يؤتكم - لكم - لكم) . أما المنافقون والمنافقات ، فقد ذكروا بالاسم الصريح ، وذلك في قوله تعالى : ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتِسِمَ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنٌ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرٌ مِنْ قَبْلِهِ الْعَذَابُ﴾^(٧) ، وأحال عليهم بالضمائر الآتية : (انظرونا - نفتس - ارجعوا ورائكم - فالتمسوا - بينهم - يُنادونهم - نكن - ولكنكم فتنتم أنفسكم - وتربصتم وارتبتم - غرتكم - منكم - ماواكم مولاكم) . وتكررت الإحالة على أهل الكتاب ، بعد أن ذكرهم في قوله تعالى : ﴿الْمَيَانُ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾^(٨) ، فالضمائر المحيلة عليهم ، هي : (عليهم - قلوبهم - منهم - الذين اتبعوه - ابتدعوها - عليهم - رعوها - الذين آمنوا منهم - فهم - يقدرهم) . زيادة على ذلك ، فقد أحال على الكفار في بعض المواضع ، وهي : (الذين كفروا - ماواكم - مولاكم - الذين كفروا وكتبوا) . من ذلك يتبين أن كثرة هذه الضمائر قد ربطت الآيات ، وأوجدت التماسك الذي يخلق نصية السورة ، فكانت وحدة دلالية متماسكة ، ومتراصة ، تدور معاني آياتها في فلك إطاعة أمر الله تعالى ، والتحذير من العصيان .

ومما يجب الإشارة إليه في هذه السورة أن بعض الضمائر المستعملة فيها ، لا تتطابق دلالياً - على العكس مما نلاحظه علماء النص - مع المحال عليه ، فالضمير في بعض المواضع قد يحيل على أكثر من محال ، وقد يكون الطرفان المحال

(١) ينظر : التبيان في تفسير القرآن : ٩ / ٦٠ - ٦١ ، ومجمع البيان في تفسير القرآن : ٩ / ٦١ - ٦٢ ، البحر المحيط : ١٠ / ١٥٢ .

(٢) البحر المحيط : ١٠ / ١٥٢ .

(٣) ينظر : بصائر ذوي التمييز : ١ / ٥٣ .

(٤) سورة الحديد : ٤ .

(٥) مجمع البيان : ٩ / ٥٦٨ .

(٦) سورة الحديد : ٧ .

(٧) سورة الحديد : ١٣ .

(٨) سورة الحديد : ١٦ .

عليهما متضادتين ، أو مختلفتين . فمن النوع الأول ، قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقُصِبْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهَرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴾^(١) . فالضمير في قوله (بينهم) ، أي ((بين الفريقين))^(٢) ، أي : المؤمنين ، والمنافقين . وهذا يُخالف ما جاء في معايير النص ، التي ترى أنَّ العنصر المُحيل يُطابق دلالات العنصر المُحال عليه . ولعلَّ الذي أوجد هذا التشقُّق في الضمير ، ليس الضمير نفسه ، بل الطرف (بين) الذي أضيف إليه الضمير ، الذي يقتضي شيئين ؛ ليكون بينهما . أمَّا عود الضمير على مختلفين ، فمنه ما جاء في قوله تعالى : ﴿ قَالِيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاهُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾^(٣) . فالضميران في قوله (مأواكم) ، و(مولاكم) عائدان على المنافقين والكفار^(٤) ، والذي يلحظ أنَّ إشراك الكفار بالضمير ؛ سببه حضورهم في الموقف (يوم القيامة) ، فكان ذلك سبباً لإشراكهم في الخطاب ، إذ لو اكتفى بذكر المنافقين فقط لَنُوهَ البعض أنَّ الفدية تُؤخذ من الكفار . ومن المناسب أن يُزاد على مبحث الإحالة بالضمير ، وجود ظواهر في النصِّ القرآني ، كانت الإحالة بالضمير فيها ، إمَّا بأنَّ يتنازع الضمير فيها أكثر من مُحال عليه ، أو أنَّ الضمير يُحيل على أكثر من مُحال ، أو أنَّ تحديد أحد المُحالين ينقل الكلام من الحقيقة إلى المجاز . فمن التنازع على الضمير المُحيل ، قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾^(٥) . فالضمير في قوله (مثله) يحتمل أن يعود على قوله (ما نزلنا) الموصول ، فيكون إحالةً على إحالةٍ ، إذ المقصود بـ (مما نزلنا) القرآن الكريم ، ويحتمل أن يعود على قوله (عبدنا) ، وهو يُحيل بالاسم (عبدنا) على النبيِّ ﷺ . ورأى بعض المفسرين أنَّ الاحتمالين مُرادان ؛ ((لرَدِّ دعاوى المُكذِّبين في اختلاف دعاويهم ، فإنَّ منهم مَنْ قال : القرآن كلام بشرٍ ، ومنهم مَنْ قال : هو مُكتتب من أساطير الأولين ، ومنهم مَنْ قال : إمَّا يُعلمه بشرٌ . وهاته الوجوه في معنى الآية ، تُفقد جميع الدعاوى ، فإنَّ كان كلام بشرٍ ، فاتوا بمثله ، أو بمثله))^(٦) ، ومثله قوله تعالى : ﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾^(٧) . ففي هاتين الآيتين تُوجد إحالتان ، كلُّ واحدةٍ منهما تُحيل على مُختلفين ، فالإحالة الأولى في قوله (عنها) ، فاحتمل أن يعود الضمير على الشجرة ؛ لكونها أقرب في الإحالة ، فتكون (عن) دالةً على السببية^(٨) ، ويحتمل أن يُحيل على الجنة ، فتكون (عن) على ظاهرها . أمَّا الإحالة الثانية المُختلف فيها ، فهي قوله (اهبطوا) ، فقد احتمل عود الضمير على آدم وزوجه وإبليس ، وبذلك يكون الضمير عائداً على مُختلفين ، واحتمل أن يكون الضمير عائداً على آدم وحواء . ورأى بعض المفسرين أنه على الاحتمال الثاني ((يكون ذلك إعلماً لهما بأنَّ من آثار عملهما يُورث في بنيهما ، ولذلك مبدأ ظهور آثار الاختلاف في تكوين خلقتهما بأنَّ كان عصيانهما يُورث في بنيهما))^(٩) . ولا يبدو هذا الرأي مستقيماً ، إذ تكون المعاصي التي يرتكبها بنو آدم امتداداً لمعصية آدم عليه السلام ، وكان في ذلك جبراً لأفعالهم ، لا اختياراً أرادوه بالقدرة التي وهبها الله لهم . ومن اختلاف المُحال عليه بالضمير ، قوله تعالى : ﴿ إِنْ عُدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِنْهَا رُبْعَةٌ حَرَمَ تِلْكَ الدِّينِ الْقِيمَ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾^(١٠) . فقد اختلف في الضمير في قوله (فيهنَّ) ، هل يعود على الشهور الاثني عشر ، أو على الأربعة الحُرُم ، وقد رجَّح الفراء [ت ٢٠٧ هـ] أنَّ يكون الضمير للأربعة ، وعلَّل ذلك بقوله : ((ويدلُّك على أنَّها للأربعة ... قوله (فيهنَّ) ولم يقل (فيها) ، وكذلك كلام العرب لما بين الثلاثة إلى العشرة))^(١١) . ويُرجَّح قول الفراء أنه - جلَّ شأنه - قال في الآية الكريمة نفسها (منها) ، والضمير عائد على الاثني عشر^(١٢) . وممَّا يُمكن أن يُضاف أنه لو كان الضمير عائداً على الأشهر الاثني عشر لما احتاج إلى ذكر (فيهنَّ) أصلاً ، إذ يكون النهي مُطلقاً طوال السنة ، ولا حاجة إلى التخصيص بالطرفية ، ((وإمَّا جعل الله تعالى بعض الشهور أعظم حرمة من بعض لما علم في ذلك من المصلحة في الكفِّ عن الظلم فيها ، فعظم منزلتها ، وأنه ربَّما أدى ذلك إلى ترك الظلم أصلاً لانطفاء النائرة تلك المدة ، وانكسار الحمية))^(١٣) ، أو أنَّ ((تخصيصها بالنهي عن ارتكاب ذلك فيها معها مع أنَّ الارتكاب منهي عنه مطلقاً لتعظيمها ، والله سبحانه أن يميز بعض الأوقات على بعض ، فارتكاب المعصية فيهنَّ أعظم وزراً ، كارتكابها في الحرم ، وحال الإحرام))^(١٤) . ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا نَبَأَ هُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ قَالَ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ الْغَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْكُمْ لَبِئْسَ الْأَعْمَى ﴾^(١٥) . فالذي يلحظ أنَّ

(١) سورة الحديد : ١٣ .

(٢) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني : ٢٨ / ٢٥٠ .

(٣) سورة الحديد : ١٥ .

(٤) ينظر : تفسير التحرير والتنوير : ٢٧ / ٣٥٠ - ٣٥١ .

(٥) سورة البقرة : ٢٣ .

(٦) تفسير التحرير والتنوير : ١ / ٣٣٣ .

(٧) سورة البقرة : ٣٥ - ٣٦ .

(٨) ينظر : روح المعاني : ١ / ٣١٨ .

(٩) تفسير التحرير والتنوير : ١ / ٤٢٠ .

(١٠) سورة التوبة : ٣٦ .

(١١) معاني القرآن ، الفراء : ١ / ٢٩٣ .

(١٢) ينظر : البحر المحيط : ٥ / ٤١٥ - ٤١٦ .

(١٣) التبيان في تفسير القرآن : ٥ / ١٩٣ .

(١٤) روح المعاني : ١٠ / ٣٩٦ .

(١٥) سورة البقرة : ٣٣ .

الضمير (هم) في قوله (أنبأهم بأسمائهم) لا يُحيل على المُحال عليه نفسه ، إذ الضمير في (أنبأهم) يُحيل على الملائكة ، والذي في (أسمائهم) يُحيل على المُسمَّيات المعروضة عليهم ^(١) . ومنه قوله تعالى : ﴿ وَاتَّبِعُوا مَا نُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ عَلَى مَلَكٍ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السَّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ بِإِذْنِ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ يَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَلِيفَةً قَوْناً بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ وَلَئِنَّ سَوْأَةَ أَخِي قَا صَبَّحَ مِنْ الثَّامِيَةِ ۝ (٢) ۝ فَالضمير (الواو) في قوله (علموا) يُحيل على الشياطين في أول الآية ، والضمير (الواو) في قوله (شروا ، يعلمون) يعود على الناس ^(٣) . ومن الإحالة التي تنقل الكلام من حقيقة إلى مجاز ، قوله تعالى : ﴿ قَبِضْ اللَّهُ غَرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيرِيَهُ كَيْفَ يُؤَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعْجِزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغَرَابِ فَأُؤَارِي سَوْأَةَ أَخِي قَا صَبَّحَ مِنْ الثَّامِيَةِ ۝ (٤) ۝ فَالضمير المُستتر في قوله (يريه) ((إن كان عائداً إلى اسم الجلالة ، فالتعليل المُستفاد من اللام وإسناد الإرادة حقيقتان ، وإن كان عائداً إلى الغراب ، فاللام مُستعملة في معنى فاء التقرير ، وإسناد الإرادة إلى الغراب مجاز)) ^(٥) . ومنها قوله تعالى : ﴿ إِنْ تَجِئْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُوكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُنَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي نَفْسِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ۝ (٦) ۝ فَضمير الجمع المخاطبين في (تجئناكم) ، و(يسومونكم) ، و(أبناءكم) ، و(نساءكم) ، لا يُحيل على المخاطبين على الحقيقة ، بل الإحالة من المجاز العقلي ، إذ ((عَدِي فعل (أنجينا) إلى ضمير المخاطبين مع أَنَّ النتيجة إما كانت نتيجة أسلافهم ؛ لأنَّ نتيجة أسلافهم نتيجة للخلف ، فإنَّه لو بقي أسلافهم في عذاب فرعون لكان ذلك لاحقاً لأخلافهم ، فذلك كانَتْ مئة النتيجة مئتين : مئة على السلف ، ومئة على الخلف ، فوجب شكرها على كُلِّ جيلٍ منهم)) ^(٧) . ومن صور إحالة الضمير على مُتعدد ، قوله تعالى : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَنَسْفَعَنَّهُنَّ نَصْرَ اللَّهِ عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَنَسْفَعَنَّهُنَّ نَصْرَ اللَّهِ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ... وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَكِدًا سُبْحَانَهُ لَمْ يَكُنْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَهٍ قَانِتُونَ ۝ (٨) ۝ فَالضمير في (وقالوا) عائد على الفرق الثلاث ، اليهود والنصارى والذين لا يعلمون ((على الجميع من غير تخصيص)) ^(٩) . ولعلَّ اتحاد فعلهم هو الذي سوَّغ اتحادهم في ضمير واحد ، فيكون ذلك من باب الإيجاز . ومما يجب الوقوف عنده ، أنَّ هنالك ضمائر لا تُحيل على أسماءٍ صريحة ، بل قد تُحيل على شيءٍ يُستفاد من معنى الكلام المُتقدم ، أو من اسم يُقدَّر معناه على فعلٍ تَقَدَّمَ . ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُورَمَ عَلَى لَا تَعْدُوا أَعْدَاؤَهُمْ قُرْبَ لِلتَّقْوَى وَتَأْتُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ حَيْرٍ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝ (١٠) ۝ فَالضمير المنفصل (هو) ليس له عائد صريح ، بل هو ((عائد على العدل المفهوم من اعدلوا)) ^(١١) ، ويبدو أنَّ سبب ذلك ما يظهر في قوله (هو أقرب للتقوى) ، أي ((أدخل في مناسبتها ، أو أقرب لكونه لطفاً فيها)) ^(١٢) . ومثله قوله تعالى : ﴿ إِنْ تَسْتَعِينُونَ رَبَّكُمْ فَأَسْتَجِبْ لَكُمْ أَنِّي مُمِدِّمُ الْيَدِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْسِلِينَ وَمَا جَعَلَ اللَّهُ إِلَّا بَشَرًا وَلِتُظْمِنَ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝ (١٣) ۝ فَالضمير المنصوب في قوله (جعله) ، يُحيل على جملة القول ^(١٤) (أي ممدكم باليد من الملائكة مردفين) . ومنه قوله تعالى : ﴿ ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا ظَنَنْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ۝ (١٥) ۝ فَالضمير المنفصل (هو) يُحيل على المصدر (الدعاء) ، الذي يُفهم من الفعل (ادعوهم) . ومما يلفت النظر للإحالة بالضمير ، ترك الإحالة – وهو ما سبق الإشارة إليه – وإعادة استعمال الاسم ثانية . فالذي يُلحظ أنَّ النصَّ القرآني الكريم قد أعاد استعمال الاسم الصريح ، مع أنَّه قد تقدم ذكره سابقاً ، وكان ذلك لدلالة بطلانها النصِّ المقتس ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَعْلَمْنَاكَ أَنَّ زَوْجَكَ اللَّاتِي أَتَيْتَ أَجُورَهُنَّ .. وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنَّ وَهَبْتَ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ... ۝ (١٦) ۝ فَقَدْ أعاد ذكر اسم النبي ﷺ ، مع تقدم ذكره في أول الآية ؛ لأنَّ الغرض من الإظهار بيان تركية فعل المرأة التي تهب نفسها للنبي ؛ كونها رغبة في شرف خدمة النبي ﷺ ، ومعنى (أراد) في الآية هو : قيل ؛ لأنَّ المرأة هي التي وهبت نفسها للنبي ، ((ولا وجه حملها على الحقيقة ؛ لأنَّ قوله تعالى (يستنكحها) يعني عن الإرادة بمعناه الوضعي ، وهو يشير إلى أنَّ السنين للطلب ... [فإنَّ إرادة طلب النكاح كناية عن القبول]) ^(١٧) . ومثله قوله تعالى : ﴿ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ

(١) ينظر : تفسير الكشاف : ١ / ١٣٠ .

(٢) سورة البقرة : ١٠٢ .

(٣) ينظر : معاني القرآن ، الأخفش : ١٠٨ .

(٤) سورة المائدة : ٣١ .

(٥) تفسير التحرير والتنوير : ٥ / ٨٥ .

(٦) سورة البقرة : ٤٩ .

(٧) تفسير التحرير والتنوير : ١ / ٤٧٣ .

(٨) سورة البقرة : ١١٣ ، ١١٦ .

(٩) البحر المحيط : ١ / ٥٨٠ ، وينظر : روح المعاني : ١ / ٤٩٨ .

(١٠) سورة المائدة : ٨ .

(١١) البرهان في علوم القرآن : ٤ / ٢٠ .

(١٢) البحر المحيط : ٤ / ١٩٦ .

(١٣) سورة الأنفال : ٩ – ١٠ .

(١٤) ينظر : التبيان في تفسير القرآن : ٥ / ٧٦ ، والبحر المحيط : ٥ / ٢٨٠ ، و تفسير التحرير والتنوير : ٩ / ٣٤ .

(١٥) سورة الأحزاب : ٥ .

(١٦) سورة الأحزاب : ٥٠ .

(١٧) ينظر : روح المعاني : ٢٢ / ٣٢٣ .

(١٨) روح المعاني : ٢٢ / ٣٢٢ .

غُفُورًا رَحِيمًا^(١) . فقد أعاد ذكر اسم الجلالة ؛ وذلك أما ((لإبراز مزيد الاعتناء بأمر المؤمنين ؛ توفية لكل من مقامي الوعيد ، والوعد حقّه))^(٢) . ومنه أيضاً قوله تعالى : ﴿ لِيَعْلَمَنَّ أَنَّ اللَّهَ مَا تَقْدَمُ مِنْ تِلْكَ وَمَا تُحَرِّقُ وَيَتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا وَيُصْرِكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴾^(٣) فقد أعاد اسم الجلالة ؛ ((لأنَّ المغفرة تتعلّق بالآخرة ، والنصر يتعلّق بالدنيا ، فكأنّه أشير بإسناد المغفرة ، والنصر إلى صريح اسمه تعالى إلى أن الله — عزّ وجلّ— هو الذي يتولّى أمرك في الدنيا ، والآخرة))^(٤) ، أو لكونه ((اهتماماً بهذا النصر وتشريعاً له بإسناده إلى الاسم الظاهر))^(٥) .

الإحالة المقامية بالضمائر : استعمل الضمير مَحِيلاً مقامياً في النصّ القرآنيّ الكريم ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَاهُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمْ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾^(٦) . فالضمير في قوله (ولاهم) ((عائد إلى معلوم من المقام غير مذكور في اللفظ حكاية لقول السفهاء ، وهم يريدون بالضمير ، أو بما يُعزّر عنه في كلامهم أنّه عائد على المسلمين))^(٧) . ومثله قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ نِعْمَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةُ وَالنَّاسُ أَجْمَعِينَ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾^(٨) . فقد أحال الضمير في قوله (فيها) على (جهنّم) ، ولم يتقدّم لها ذكر في الآيات السابقة لها ، إذ لم يُصرّح بلفظ (جهنّم) إلّا في الآية (٢٠٦) من السورة الكريمة^(٩) ، فعلى هذا يكون الضمير عائداً على النار ؛ لأنّها ((كالمذكور لشهرته في حال المعذبين ؛ لأنّ اللعن إبعاد من الرحمة ، وإيجاد للعقاب ، والعقاب يكون في النار))^(١٠) ، وأشار أبو حيان إلى أنّ الضمير يمكن أن يكون مَحِيلاً نصيّاً ، أو مقامياً ، قال : (([فيها] أي اللغة ، وهو الظاهر ، إذ لم يتقدّم ما يعود عليها في اللفظ إلّا اللعنة . وقيل : يعود على النار ، أضمرت لدلالة المعنى عليها ، وكثرة ما جاء في القرآن من قوله (خالدين فيها)))^(١١) . أمّا إذا لوحظ أنّ الضمير يعود على الاسم العام (النار) ، فقد تقدّم ذكره في أكثر من آية ، وذلك في الآيات (٢٤ - ٣٩ - ٨٠ - ٨١ - ١٢٦)^(١٢) ، فتكون الإحالة على ذلك نصيّة لا مقامية . ومنها أيضاً قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ حَاجُّوا فَقُلْ أَسَلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعُوا فَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَسَلَمْتُمْ فَإِنْ أَسَلَمُوا فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾^(١٣) . فالضمير المرفوع في قوله (حاجّوك) ((عائد على غير مذكور في الكلام ، بل هو معلوم من المقام ، وهو مقام نزول السورة ، أعني قضية وفد نجران ، فإنّهم الذين اهتمّوا بالمُحاجة حينئذٍ))^(١٤) . ومنها قوله تعالى : ﴿ كُنْ يَسْتَكْفِفُ الْمَسِيحَ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَكْفِفُ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرُ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴾^(١٥) . فضمير الجمع في قوله (فسيحشرهم) ((عائد إلى غير مذكور في الكلام ، بل معلوم من المقام ، أي فسيحشر الناس إليه جميعاً كما دلّ عليه التفصيل المُفَرَّع عليه))^(١٦) . والمقصود بالتفصيل المُفَرَّع عليه ، ما جاء في الآية التي بعدها ، وهي قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَا آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجُودُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَوْلَا وَلَا نُصِيرُوا ﴾^(١٧) . إذ إنّ هذه الآية دلّت على أنّ الضمير في قوله (فسيحشرهم) يعود إلى الناس فقسّمهم على المؤمنين والمستكبرين ، ويبدو أنّ الذي سوّغ هذا الشمول للضمير ((اقتضاء حشر أحدهما لحشر الآخر ضرورة عموم الحشر للخلائق أجمعين))^(١٨) .

الإحالة بأسماء الإشارة : استعملت أسماء الإشارة دالّة على الإحالة في الدراسات النصيّة الحديثة ، ولم تكن هذه السمة النصيّة لأسماء الإشارة خافيةً على علماء اللغة العربيّة القدماء ، فقد عرفها علماء النحو ، وعلماء التفسير ، وعلوم القرآن . وعند النظر إلى أسماء الإشارة في ضوء معيار السبك ، يُلاحظ أنّ أسماء الإشارة المستعملة في النصّ القرآنيّ الكريم ، قد اتخذت ثلاثة أنماط ، هي :

- ١- عنصر إحاليّ : وذلك بأن يكون اسم الإشارة مَحِيلاً على متقدّم ، أو متأخّر في النص ، ويكون المُحال عليه مفرداً ، أو جملةً ، أو مجموعةً من الجمل .
- ٢- عنصر استبدال : وذلك إذا اقترن اسم الإشارة (ذلك) بـ (كاف التشبيه) ، فأغلب ما يكون اسم الإشارة (كذلك) عنصراً مستبدلاً لجملة أو جمل من النصّ .
- ٣- أداة فصل : وذلك بأن يؤتى باسم الإشارة بعد كلامٍ سابقٍ ، ثم يُستأنف الكلام بعده .

(١) سورة الأحزاب : ٧٣ .

(٢) روح المعاني : ٣٧١ / ٢٢ - ٣٧٢ .

(٣) سورة الفتح : ٢ - ٣ .

(٤) روح المعاني : ٣٤٣ / ٢٦ .

(٥) تفسير التحرير والتنوير : ١٢٥ / ٢٦ .

(٦) سورة البقرة : ١٤٢ .

(٧) تفسير التحرير والتنوير : ٨ / ٢ .

(٨) سورة البقرة : ١٦١ - ١٦٢ .

(٩) ينظر : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم : ١٩٢ - ١٩٣ (جهنّم) .

(١٠) مجمع البيان : ٦١٩ / ١ .

(١١) البحر المحيط : ٧٣ / ٢ - ٧٤ .

(١٢) ينظر : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم : ٧٢٨ - ٧٣٠ (نار) .

(١٣) سورة آل عمران : ٢٠ .

(١٤) تفسير التحرير والتنوير : ٥٧ / ٣ .

(١٥) سورة النساء : ١٧٢ .

(١٦) تفسير التحرير والتنوير : ٣٣٨ / ٤ .

(١٧) سورة النساء : ١٧٣ . ومثله في سورة التوبة : ٤٠ ، وسورة الرعد : ٥ ، سورة الرحمن : ٢٦ .

(١٨) روح المعاني : ٢٩٤ / ٦ .

والنمط الأول يختص بهذا المبحث ، أما النمط الثاني ، فسيرد ذكره في مبحث الاستبدال . أما النمط الثالث ، فمن أمثلته في النصّ الكريم ، قوله تعالى : ﴿ تَمَّ لَيَقْضُوا تَقَهُمْ وَلِيُوفُوا تَوْرَهُمْ وَلِيُطَوِّفُوا بِآيَاتِ الْعَتِيقِ تِلْكَ وَمَنْ يُعْظَمَ حُرْمَاتُ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمْ الْآثَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْتَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴾^(١) . فقد استعمل اسم الإشارة ((الفصل بين الكلامين ، أو بين وجهي كلام واحد ، والمشهور من ذلك (هذا) ... واختيار ذلك هنا لدلالته على تعظيم الأمر ، وبعد منزلته))^(٢) . ومثله قوله تعالى : ﴿ لِيَدْخُلَهُمْ مُدْخِلًا يُرِضُونَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ تِلْكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لِيُصْرَبَهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ ﴾^(٣) . أما استعمال اسم الإشارة عنصراً إحاليّاً ، فقد استعمل عنصراً مُحِيلاً نصّاً ومقامياً ، قبلتاً وبعديّاً في السور المدنية من النصّ القرآني الكريم ، وقد استعملت أسماء الإشارة (هذا - هذه - ذلك - تلك - هذان - هؤلاء - أولئك - هنالك) عناصر إحالية . ومن المناسب أن يُذكر أنّ أسماء الإشارة قد استعملت للدلالة على قرب ، أو بعد الشيء المشار إليه ، ف (هذا ، وهذه) للمفرد القريب ، المذكر ، والمؤنث ، و (هذان ، وهاتان) للمثنى القريب . أما (ذاك) فلمتوسط البعد ، و (ذلك) للمفرد البعيد ، و (هؤلاء) للجمع القريب ، و (أولئك) للجمع البعيد . وقد ذهب علماء النحو إلى أنّ الكاف ، تزداد على اسم الإشارة للدلالة على البعد ، ولكثرت يرون أنّ هذه الكاف للخطاب ، وليس للبعد ، قال ابن السراج [ت ٣١٦ هـ] : ((واللام في (ذلك) زائدة ، والأصل (ذا) ، والكاف للخطاب فقط ، ومحال أن تكون هنا لئلاً ... فإنما زدت الكاف على (ذا) ، وكانت (ذا) لما يومي إليه بالقرب . فإذا قلت (ذلك) دلّث على أنّ الذي يومي إليه بعيد ، وكذلك جميع الأسماء المبهمة ، إذا أردت المتراخي زدت كافاً للمخاطبة لحاجتك أن تنبيه بالمخاطب))^(٤) . ويبدو أنّ هذا الكلام قابل للردّ ، فتنبية المخاطب لا يكون بأخر الكلام ، بل بأوله ، وذلك كالهاء التي تسبق (ذا) في (هذا) . هذا من جانب ، ومن جانب آخر ، فالفارق الدلالي بين (ذا) و (ذاك) ، و (ذلك) هو البعد ، فالغاية بيان بعد المشار إليه ، وليس تنبيه المخاطب . أما ذهابهم إلى أنّ هنالك توافقاً بين حركة الكاف ، وجنس المخاطب ، فأغلب ذلك - وخاصة استعمال القرآني - جاء لغرض الإيقاع الداخلي للنصّ ، وليس لغرض بيان جنس المخاطب . ومن أمثلة الإحالة النصّية بأسماء الإشارة ، ما يأتي :

الإحالة بـ (هذا) : استعمل اسم الإشارة (هذا) مُحِيلاً نصيّاً ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ فَجَبَلَهَا رَبُّهَا يَقُولُ حَسَنَ وَآ تَبَيَّنَا نَبَأًا حَسَنًا وَكَفَلَهَا زَكْرِيَّا كَمَا دَخَلَ عَلَيْهِمَا زَكْرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رُزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾^(٥) . فاسم الإشارة (هذا) يُحيل على (رزقاً) المتقدم ، وهي إحالة قبلية ، ورأى الألوسي [ت ١٢٧٠ هـ] حذف حرف الجر من اسم الاستفهام (أنى) ، وذلك ؛ ((لأنّ الشيء إذا علم في موضع جاز حذفه))^(٦) . وقد يكون سبب حذفه ؛ لدلالة الكلام بعده عليه ، إذ ورد قوله (من الله) . وزيادة على ذلك ، فالسياق سياق تعجب ، ودهشة ، فيلائمه سرعة إظهار التعجب ، وإيجاز الكلام فيه . وقد جاء الردّ من مريم ع بـ (هو من عند الله) ، ولم تقل هذا ؛ للدلالة على تعظيمه لكونه ليس من طعام أهل الأرض ، إذ إنه كان من ثمار الجنة^(٧) . ومن الإحالة المقامية بـ (هذا) ، قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نجسٌ فلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيَكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ شَاءَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾^(٨) . فقد استعمل اسم الإشارة مُحِيلاً قبلتاً لـ (عامهم) ، فالإشارة إلى العام الذي نزلت فيه الآية ، وهو عام تسعة من الهجرة ، فقد حضر المشركون موسم الحجّ فيه ، وأعلن فيه عدم السماح لهم بالحجّ بعد ذلك العام^(٩) . فالذي يُلحظ أنّ اسم الإشارة لا يمكن معرفة ما يُشير إليه إلاّ عند معرفة وقت نزول السورة الكريمة ، ومن دونه يبقى معنى (عامهم هذا) غير معلوم .

الإحالة بـ (هذه) : استعملت (هذه) مُحِيلاً نصيّاً ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ نَكْنِزْ لِمَرْيَمَ إِذْ نَبَاها بِمَا فِي بَيْتِهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتُ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى جِدارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوها لَحْمًا قَلِمَا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ عَذْمًا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾^(١٠) . فاسم الإشارة (هذه) يُحيل أمّا إلى ((نفس القرية بدون تقدير ، كما هو الظاهر ، فالإحياء ، والإماتة مجازان عن العمارة ، والخراب ، أو بتقدير مضاف ، أي : أصحاب هذه القرية ، فالإحياء ، والإماتة على حقيقتها))^(١١) . ورجّح بعض المفسرين الاحتمال الأول ؛ لأنّ ((إرادة إحياء- لأهل ، أو عظامهم - يأباه التعرّض لحال القرية دون حال من ذكر ، والاقتصار على ذكر موتهم دون كونهم تراباً ، أو عظاماً نخرة مع كونه أدخل في الاستبعاد لشدة مباينته للحياة ، وغاية بُعده عن قبولها على أنه لم تتعلّق إرادته - تعالى - بإحيائهم كما تعلّقَتْ بعمارتهما ، ومعاينة المارّ لها))^(١٢) . ويبدو الأمر عكس ذلك ، إذ إنّ الاحتمال الثاني هو الأقرب ، ودليله ما جاء بعده من الكلام ، إذ إنّ الله - عزّ وجلّ - قد بيّن أنّ الإحياء للموتى من خلال إماتة المارّ ، وحمارة ، فقال : (فأماته الله مئة عام ثم بعثه) ، وقال : (فانظر إلى طعامك وشرابك) ، وقال : (وانظر إلى العظام كيف ننشزها) ، فدلّ ذلك على أنّ المقصود هو

(١) سورة الحج : ٢٩ - ٣٠ .

(٢) روح المعاني : ١٧ / ١٩٢ . وينظر : تفسير التحرير والتنوير : ١٧ / ١٨٢ .

(٣) سورة الحج : ٥٩ - ٦٠ .

(٤) الأصول في النحو : ١٢٧/٢ . وينظر : سر صناعة الإعراب : ٣١٧/١ - ٣١٨ ، وشرح التسهيل : ٢٦٦/١ ، ووصف المباني : ٢٨٢ .

(٥) سورة آل عمران : ٣٧ . ومثله في السورة نفسها : ٦٨ ، وسورة الأحزاب : ٢٢ .

(٦) روح المعاني : ٣ / ١٨٦ - ١٨٧ .

(٧) ينظر : روح المعاني : ٣ / ١٨٧ .

(٨) سورة التوبة : ٢٨ . ومثله في سورة البقرة : ١٢٦ .

(٩) ينظر : تفسير الكشاف : ٢ / ٢٥٣ ، الجواهر الحسان في تفسير القرآن : ٣ / ١٧٤ .

(١٠) سورة البقرة : ٢٥٩ . ومثله في سورة التوبة : ١٢٤ .

(١١) روح المعاني : ٣ / ٣١ .

(١٢) روح المعاني : ٣ / ٣١ .

إعادة الحياة لأصحاب القرية . ومثلها قوله تعالى : ﴿ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَتَبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ﴾^(١) . وقد استعملت (هذه) مُحيلةً على (جهنم) ، وهي إحالة بعدية . والكلام في السورة مبني على التذكير بنعم الله - تعالى - ، وتخويفهم من عقابه ، وترغيبهم في ثوابه ، فكان التذكير يستلزم أن يكون التخويف - من جهنم في الآخرة - مستعملاً لذلك اسم الإشارة (تلك) ، ولكنه عدل عنه إلى اسم الإشارة القريب على الرغم من أن جهنم غير حاضرة في الحياة الدنيا . وسبب ذلك ؛ للدلالة على اليقين من وجودها وتعذيبهم فيها . وقد استعمل أيضاً الفعل (يكتب) بصيغة المضارع ؛ ((للدلالة على استمرار ذلك ، وبيان وجه توبيخهم ، وعَلَّتَهُ))^(٢) ، وقد قابله في وصف أهل الجنة ، وثوابهم باستعمال الفعل (خاف) بصيغة الماضي الدال على خشية الله - سبحانه - في الدنيا ، فقال : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ ﴾^(٣) . ومن الإحالة المقامية بـ (هذه) ، قوله تعالى : ﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾^(٤) . فقد استعمل اسم الإشارة القريب (هذه) ؛ وذلك لكون الشجرة المشار إليها كانت مرتبةً لأدم ، وزوجه ، فهي إشارة يوضحها المقام الذي دار فيه الخطاب . ومثلها قوله تعالى : ﴿ وَعَدَكُمْ اللَّهُ مُعَاتَمًا كَثِيرَةً تَأْخُذُوكُمُوهَا فَعَجَلَكُمْ هَذِهِ وَكَفَا يَدَيِ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴾^(٥) . فاسم الإشارة (هذه) لا يمكن معرفة ما تحيل عليه إلا عند التعرف على المقام الذي نزلت فيه الآية الكريمة . ورأى المفسرون أن المقصود بـ (هذه) غنائم خيبر^(٦) .

الإحالة بـ (ذلك) : استعمل اسم الإشارة (ذلك) عنصراً إيجالياً ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَعْرَةٌ لَا فَرَضٌ وَلَا يَكُرُّ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴾^(٧) . أحال اسم الإشارة (ذلك) على اثنين على الرغم من دلالاته على المفرد ، فهو قد أحال على قوله (لا فارض ولا بكر) ، فقصد أنها وسط بين السكين ، ولعل الذي سوغ إحالة المفرد على اثنين هو المضاف (بين) ، الذي يستدعي أكثر من واحد ليكون بينهما ، قال الطبرسي : ((وإنما جاز (بين ذلك) ، وبين لا يكون إلا مع اثنين، أو أكثر))^(٨) . وليس الأمر كما رأى أحد المفسرين ، الذي ذكر أن ((الإشارة للمذكور المتعدد ، ولهذا صححت إضافة بين لاسم الإشارة))^(٩) .

الإحالة بـ (تلك) : من ذلك قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا كُنْ يَدْخُلِ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ لَنْ هَأْوَا بَرْهَانَكُمْ إِنَّكُمْ صَادِقِينَ ﴾^(١٠) . فاسم الإشارة (تلك) يحيل على القول الصادر منهم ، وهو قولهم (لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى) . والتعبير عن القول بصيغة الجمع ؛ ((إمّا لأنها لما كانت أمانة كل واحدٍ منهم ، صارت أمانتي كثيرة ، وإمّا إرادة أن كل أمانيتهم كهذه ومعتادهم فيها ، فيكون من التشبيه البليغ))^(١١) . ويبدو أن المفردة (أمانتي) من المشترك اللفظي ، الذي يجوز إرادة أكثر من معنى فيه النصّ الكريم ، فـ ((الأمانتي الأكاذيب))^(١٢) ، وقد تكون بمعنى : المتمنيات على سبيل ((الاستعارة تشبيهاً بالتمني في الاستحالة))^(١٣) . وعلى المعنى الثاني تكون ((إشعاراً بأنها بلغت كل مبلغ ؛ لأن الجمع يفيد زيادة الأحاد ، فيستعمل لمطلق الزيادة))^(١٤) . ولعل المعنى الذي أورده الراغب [ت ٤٢٥ هـ] جامع لهذين المعنيين ، إذ قال : ((الأمنية الصورة الحاصلة في النفس من تمكي الشيء ، ولما كان الكذب تصوّر ما لا حقيقة له ، وإيراده باللفظ التمني كالمبدأ للكذب ، فصح أن يعبر عن الكذب بالتمني))^(١٥) . ومثله قوله تعالى : ﴿ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ إِذْ يُنَبِّئُهُ مَا تُعْبَدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهِهَا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ تِلْكَ أَمَةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَكُلَّمَا كَسَبَتْ لَوْنٌ غَمًا تَاوَلَعَمَلُوهَا ﴾^(١٦) . فالإشارة بـ (تلك) إلى إبراهيم عليه السلام وبنيه بكونهم جماعة . واستعمل اسم الإشارة الدال على البعد ؛ لكونه المناسب للسياق ، إذ إن الآية السابقة جاءت في ((توبيخ اليهود على إدعائهم اليهودية على يعقوب ، أبائهم ... أي : ما كنتم حاضرين حين احتضاره ، وسؤال بنيه عن الدين))^(١٧) ، ثم زاد في الإبعاد بقوله (قد خلت) بعد الإشارة ، فـ ((الخلو يستعمل في الزمان ، والمكان ، لكن لما تصوّر في الزمان المضى فسر أهل اللغة : خلا الزمان ، بقولهم : مضى الزمان ، وذهب))^(١٨) .

الإحالة بـ (هذان) : منه قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ بِهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ... هَٰذَانِ حَصْنَانِ ائْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَاذْكُرُوا قِطْعَةً لَهُمُ نَبَأٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴾^(١٩) . فاسم الإشارة يحيل على الفريقين اللذين تقدّم ذكرهما ، وهما فريق (الذين

(١) سورة الرحمن : ٤٣ .

(٢) روح المعاني : ١٦٣ / ٢٧ .

(٣) سورة الرحمن : ٤٦ .

(٤) سورة البقرة : ٣٥ .

(٥) سورة الفتح : ٢٠ .

(٦) ينظر : التبيان في تفسير القرآن : ٢٦١ / ٩ ، الكشاف : ٣٣٢ / ٤ ، مجمع البيان في تفسير القرآن : ٢٨٩ / ٩ .

(٧) سورة البقرة : ٦٨ . ومنه في سورة النور : ٤٧ ، وسورة التغابن : ٩ .

(٨) مجمع البيان : ٣٣٢ / ١ .

(٩) تفسير التحرير والتنوير : ٥٣٣ / ١ .

(١٠) سورة البقرة : ١١١ .

(١١) تفسير التحرير والتنوير : ٦٥٥ / ١ .

(١٢) نزهة القلوب : ٦١ . وينظر : روح المعاني : ٤٨٩ / ١ .

(١٣) روح المعاني : ٤٨٩ / ١ .

(١٤) روح المعاني : ٤٨٩ / ١ .

(١٥) مفردات ألفاظ القرآن : ٧٨٠ (منى) .

(١٦) سورة البقرة : ١٣٣ - ١٣٤ . ومثله في سورة النساء : ١٢ - ١٣ .

(١٧) روح المعاني : ٥٣١ / ١ .

(١٨) مفردات ألفاظ القرآن : ٢٩٧ (خلا) .

(١٩) سورة الحج : ١٧ ، ١٩ .

(اسمية ، أو فعلية) ، أو شبه جملة (جار ومجرور ، أو ظرف)^(١) . واشترط النحويون القدماء أن تكون جملة الصلة معلومة عند المخاطب، قال الرضي : ((الصلة ينبغي أن تكون معلومة للسامع في اعتقاد المتكلم قبل ذكر الموصول على ما تقدم : أن الحكم الذي تضمنته الصلة ينبغي أن يعتقد المتكلم في المخاطب أنه يعلم حصوله للموصول ، فلا يقال : أنا الذي دَخَ البلاد إلا لمن يعلم أن شخصاً دَخَها))^(٢) . فالاسم الموصول ((في العمل ك (ال) العهدية التي تُعرَف المفردات))^(٣) . وهذا الأمر غير لازم ، إذ قد لا يُراد من صلة الموصول العهد ، بل يُراد منها الدلالة على عموم الجنس^(٤) ، من ذلك قوله تعالى : ﴿وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ...﴾^(٥) ، ((فليس المقصود بذلك نساء معلومات ، بل المقصود الجنس))^(٦) . وزاد ابن مالك [ت ٦٧٢ هـ] أنه ((قد يُراد تعظيم الموصول ، فتبهم صلته))^(٧) ، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى : ﴿فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَفَشَّيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشَّيَهُمْ﴾^(٨) . وزيادة على ذلك ، فقد جاء الاستعمال القرآني للاسم الموصول ، وصلته جملة ، وشبه جملة مجتمعتين ، وذلك في قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًا مَّا كَانُوا مِنْهُمْ بَيِّنَاتٍ مَرْصُوصٍ﴾^(٩) ، فصلة الموصول (الذين) لا يجوز أن تكون الجملة الفعلية (يقاتلون) ، إذ لو كانت كذلك لكان المعنى أنه - تبارك وتعالى - يحب كل مقاتلة بغض النظر عن أن تكون لرفع كلمة التوحيد ، أو لا ؛ لذا يجب أن يكون الجار والمجرور (في سبيله) هو ما يتم صلة الجملة الفعلية ، ويُقَدِّمها ، بل ل قوله (صفاً) داخل في الصلة المراد التعبير بها عن الموصول ، قال العلامة الطباطبائي : ((يقاتلون في سبيله حال كونهم صاقين))^(١٠) . وزيادة على ذلك ، فقد تكون صلة الموصول أكثر من جملة ، من ذلك قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ أَرَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنْ اللَّهُ لِيُعْطِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾^(١١) ، فصلة الاسم الموصول (الذين) ليست جملة (آمنوا) فقط ، بل مجموع الجمل الفعلية (آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفراً) . ولم أجد أحداً من النحويين قد أشار إلى ذلك وقد استعمل الاسم الموصول عنصراً إحيائياً في النص القرآني الكريم . والأسماء الموصولة المستعملة في الإحالة ، هي :

الإحالة بـ (الذي) : وذلك في قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُصِيبَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ قَادُحٌ لَنَا رَبِّكَ يُخْرِجُ لَنَا مِمَّا تُثْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصِلِهَا قَالُوا تَسْتَبْدُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ...﴾^(١٢) . يلحظ أن هناك إحيائين بالاسم الموصول ، وهما (الذي هو أدنى) ، و(الذي هو خير) . فالأول منهما يُحيل على الكلام المتقدم في الآية نفسها ، وهو قوله (من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها) ، والثاني يُحيل على كلام متقدم هو (المن والسلوى) من قوله تعالى : ﴿وَوَلَّاتْنَا عَلَيْهِمُ الْعَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى كُلُّوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾^(١٣) . ومنه قوله تعالى : ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي يَدْعُكَ بِصِرْهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾^(١٤) . الموصول (الذي) يُحيل على اسم الجلالة ، وقد استعمل الاسم الموصول ؛ ليربط بين صلته ، والكلام المتقدم ، فجملة صلة الموصول تعليلية لجملة (حسبك الله) : أي تكفل بكفايتك شرهم ، ثم استدلل له على ذلك بقوله (هو الذي أيدك بنصره) ، فالمعنى فيه : فإن الله قد نصرك - في مكة - مع ضعف قوتك قبل ، فيكون نصرك الآن - في المدينة - بتأييد الله والمؤمنين

(١) ينظر : شرح ابن عقيل : ١٥٣ / ١ - ١٥٥ .

(٢) شرح الرضي على الكافية : ٩ / ٣ .

(٣) معاني النحو : ١١٢ / ١ .

(٤) ينظر : شرح التسهيل ، تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد : ٢٠٥ / ١ ، ومعاني النحو : ١١٢ / ١ .

(٥) سورة النساء : ١٥ . ومن أمثلته أيضاً : سورة البقرة : ١٧١ ، ٢٧٥ ، وسورة النساء : ١٧ .

(٦) معاني النحو : ١١٣ / ١ .

(٧) شرح التسهيل : ٢٠٥ / ١ .

(٨) سورة طه : ٧٨ . ومثله من سورة النجم : ١٠ .

(٩) سورة الصف : ٤ .

(١٠) الميزان في تفسير القرآن : ١٩٣ / ١٩ .

(١١) سورة النساء : ١٣٧ . ومثلها في سورة آل عمران : ٩٠ .

(١٢) سورة البقرة : ٦١ .

(١٣) سورة البقرة : ٥٧ .

(١٤) سورة التبيان في تفسير القرآن : ١٣٦ / ٥ ، وروح المعاني : ٣١٢ / ١٠ ، وتفسير التحرير والتنوير : ١٥٠ / ٩ - ١٥١ .

(١٥) سورة البقرة : ٢٥٨ .

(١٦) ينظر : تفسير الكشاف : ٣٠٠ / ١ - ٣٠١ .

(١٧) مجمع البيان : ٢٥٢ / ٢ .

(١٨) مفردات ألفاظ القرآن : ٢١٩ (حج) .

(١٩) بصائر ذوي التمييز : ٤٣١ / ٢ .

(٢٠) ينظر : مجمع البيان : ٢٥٣ / ٢ ، والبحر المحيط : ٦٢٥ / ٢ ، وروح المعاني : ٢٤ / ٣ .

(٢١) ينظر : مجمع البيان : ٢٥٢ / ٢ ، وروح المعاني : ٢٣ / ٣ .

(٢٢) البحر المحيط : ٦٢٦ / ٢ .

(٢٣) البحر المحيط : ٦٢٧ / ٢ .

(٢٤) سورة البقرة : ٢٤ .

(٢٥) سورة التحريم : ٦ . وينظر : سورة الأنبياء : ٢١ ، وسورة الليل : ١٤ .

(٢٦) تفسير التحرير والتنوير : ٣٣٩ / ١ - ٣٤٠ .

(٢٧) البحر المحيط : ١٧٥ / ١ .

(٢٨) ينظر : المصدر نفسه : ١٧٦ / ١ .

(٢٩) ينظر : إرشاد العقل السليم : ٦٨ / ١ .

(٣٠) سورة البقرة : ١٤٢ . ومثلها في سورة المجادلة : ١ . الأنفال : ٦٢ .

أولى وأقرب^(١). ومن الإحالة المقامية بـ (الذي) ، قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ نَا حَيِّوْا مِثْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ قَبِهُتِ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾^(٢) . فقد استعمل الاسم الموصول (الذي حاج) مُحْيِلاً مقامياً ؛ وذلك لأنه لم يتقدّم ذكر له في الكلام ، فالموصول يُحيل خارج النصّ ، والمقصود به النمرود^(٣) ، وهو أحد الملوك ، كما تُشير الآية الكريمة . وقد جاءت صلة الموصول غير معلومة للمخاطب – على خلاف ما قاله النحويون – إذ إنّ القصة على سبيل التمثيل لحال الكافرين ، فمعنى (ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم) : ((ألم ينته علمك ، ورؤيتك ... إلى مَنْ كان كالذي حاج ، فكأنه قال : هل رأيت كالذي حاج))^(٤) ، وهذه المحاجة لم يكن النبي على علم بها ، ولا المسلمون / المخاطبون ، فكان ذلك دالاً على عدم اطّراد كون صلة الموصول معلومة للمخاطب ، بل ساقها المتكلم / الله – تبارك وتعالى – للتمثيل على التجبر ، والطغيان . ويدلّ على ذلك الفعل (حاج) ، فمعنى ((المحاجة : أن يطلب كلّ واحد أن يرّد الآخر عن حجته))^(٥) على سبيل المنافرة ، والمخاصمة^(٦) . وفي الآية الكريمة حذف دلّ عليه قوله (حاج) ، إذ إنّ كلام إبراهيم A كان جواباً لسؤال النمرود : مَنْ رَبِّكَ^(٧) ، وفي التعبير بقوله (في ربّه) دلالة على عدم إيمانه بالله تعالى ، إذ إنّ الضمير يعود على إبراهيم A^(٨) . ثم زاد في بيان كفره ، وتجبره ببيان سبب ذلك بقوله (أن آتاه الله الملك) ، وهي مفعول لأجله ((على معنيين : أحدهما أنّ الحامل على المحاجة هو إيتاؤه الملك ، أبطره ، وأورثه الكبر ، والعتوّ ، فحاج لذلك . والثاني : أنه وضع المحاجة موضع ما وجب عليه من الشكر لله تعالى على إيتائه الملك))^(٩) ، فجاء الرّد عليه من النبي A بقوله (ربّي الذي يحيي ويميت) ، ولم يقل : ربّي يحيي ويميت ، إذ لو قال ذلك لدلّ على أنّ هذه الصفة (يحيي ، ويميت) ، ليست خاصة بمعين ، فكان الوصف بالاسم الموصول دليلاً ((على الاختصاص ؛ لأنهم قد ذكروا أنّ الخير كان يمثل هذا دلّ على الاختصاص))^(١٠) .

الإحالة بـ (التي) : من ذلك قوله تعالى : ﴿فَإِنْ لَمْ تَقْعُدُوا وَلَئِنْ تَقْعُدُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾^(١١) . فقد أحال الاسم الموصول (التي) على النار الموصوفة بقوله (التي وقودها الناس والحجارة) ، وهذا الوصف يرتبط نصّياً مع أكثر من آية واصفة لجهنم ، من ذلك قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ...﴾^(١٢) ، فكان ذلك دالاً على علم المخاطبين بوصف هذه النار ، التي حترهم منها في أكثر من موضع . وفي جلق صلة الموصول جملة اسمية ، وهي الدالة على الثبوت ، والدوام تأكيد على أنّ هنالك صنفاً من الناس سوف يُعذبون في النار ، و ((تنزيل الجاهل منزلة العالم بقصد تحقيق وجود جهنم))^(١٣) ، وفي ذلك ترويب للمخاطبين من أن يكونوا منهم فـ ((لئلا يُراد به الخصوص ممّن شاء الله دخولها ، وإن كان لفظه عاماً ، والحجارة الأصنام ، وكانا وقوداً للنار مقرونين معاً ، كما كانا في الدنيا حيث نحتوها ، وعبدوها آلهة من دون الله))^(١٤) . وتقديم (الناس) في الصلة إمّا لأنهم اختاروا أن يكونوا من أهل النار على الرغم من كثرة الأنبياء الذين أنذروهم من ذلك اليوم ، أو لأنهم يستشعرون الألم أكثر من سواهم ؛ لكونه أعظم وعيداً لهم ، أو لكون انتشار النار أسرع في أجسادهم^(١٥) . وجاء بصلة^(١٦) أخرى واصفة للنار ، وهي قوله (أُعِدَّتْ للكافرين) ، وكانت جملة فعلية ، فعلها ماضٍ ؛ للدلالة على تحقق الإعداد للنار ، وقد بُني الفعل للمجهول للاهتمام بالحدث من دون الاهتمام بمحدثه ، وقد تكامل التهويل من النار بوصف وقودها ، وإعدادها . وبين الصلتين مزيد ارتباط ، إذ إنّ قوله ((للكافرين) بيان لـ (الناس) الوارد ذكرهم في الصلة الأولى ، وفي ذلك تخويف لمن يسمع هذا الكلام أن لا يكون ممّن ينطبق عليه وصف الكفر . ومن الإحالة المقامية بـ (التي) ، قوله تعالى : ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَاهُمْ عَنْ قِبَلِهِمُ الْكِتَابُ عَلَيْهَا فَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ لِيُصِرَّتْ لِي صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾^(١٧) . فالاسم الموصول يُحيل إحالتين : الأولى منهما نصّية ، وهي أنّ موقع الاسم الموصول هو النعت لـ (قبلتهم) ، ((وفي وصفها بذلك بعد إضافتها إلى ضمير المسلمين تأكيد للإنكار))^(١٨) ، والإحالة الثانية ، وهي مقامية ، إذ المقصود بـ (قبلتهم التي كانوا عليها) ، هي المسجد الأقصى في القدس ، الذي كان المسلمون يتوجّهون إليه في الصلاة قبل تحويل القبلة ناحية الكعبة الشريفة^(١٩) . وتدلّ صلة الموصول (كانوا عليها) ((على تمكن استقبالها ، وديمومتهم على ذلك))^(٢٠) .

(١) ينظر : التبيان في تفسير القرآن : ١٣٦ / ٥ ، وروح المعاني : ٣١٢ / ١٠ ، وتفسير التحرير والتنوير : ١٥٠ / ٩ – ١٥١ .

(٢) سورة البقرة : ٢٥٨ .

(٣) ينظر : تفسير الكشاف : ٣٠١ / ١ – ٣٠٠ .

(٤) مجمع البيان : ٢٥٢ / ٢ .

(٥) مفردات ألفاظ القرآن : ٢١٩ (حج) .

(٦) بصائر ذوي التمييز : ٤٣١ / ٢ .

(٧) ينظر : مجمع البيان : ٢٥٣ / ٢ ، والبحر المحيط : ٦٢٥ / ٢ ، وروح المعاني : ٢٤ / ٣ .

(٨) ينظر : مجمع البيان : ٢٥٢ / ٢ ، وروح المعاني : ٢٣ / ٣ .

(٩) البحر المحيط : ٦٢٦ / ٢ .

(١٠) البحر المحيط : ٦٢٧ / ٢ .

(١١) سورة البقرة : ٢٤ .

(١٢) سورة التحريم : ٦ . وينظر : سورة الأنبياء : ٢١ ، وسورة الليل : ١٤ .

(١٣) تفسير التحرير والتنوير : ٣٣٩ / ١ – ٣٤٠ .

(١٤) البحر المحيط : ١٧٥ / ١ .

(١٥) ينظر : المصدر نفسه : ١٧٦ / ١ .

(١٦) ينظر : إرشاد العقل السليم : ٦٨ / ١ .

(١٧) سورة البقرة : ١٤٢ . ومثلها في سورة المجادلة : ١ .

(١٨) روح المعاني : ٥٥٠ / ٢ .

(١٩) ينظر : أسباب النزول : ٢٣ ، لباب النقول في أسباب النزول : ٢٥ .

(٢٠) البحر المحيط : ١٠ / ٢ .

وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١﴾ . فالاسم الموصول (ما أنزل إليهم) ، يعطي في ظاهره دلالةً عامةً على سائر كتب الله - سبحانه - ، وهو ما ذهب إليه الزمخشري في أحد قوليهِ ، ولكن ذكر التوراة والإنجيل في الآية الكريمة يستبعد أن يكون الكلام على سائر الكتب المنزلة ، ولذا ذهب المفسرون^(١) إلى أن المقصود به هو القرآن الكريم . ولعلّ ممّا يقوّي هذا الرأي أن قد سبق في السورة المباركة أن أمر الله تعالى نبيّه الكريم بالحكم بما أنزل عليه ؛ لكونه أصحّ الكتب وأثبتّها ، فقال تعالى : ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلْنَا مِمَّا فُتِنْتُمْ بِهِ قُلُوبَكُمْ لَنْ يَغْتَابَ الْغَايِبُ وَالْأَخْيَارَ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا هُنَالِكَ فِيهِ تُخْلَفُونَ ﴿٣﴾ ، فيكون قوله (لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم) ، تحفيزاً لهم للإيمان بالقرآن الكريم كتاباً خاتماً منزلاً على الرسول الأكرم p . ومثله قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٤﴾ . فالاسم الموصول (ما أنزل إليك) يُحيل مقامياً على أمر خاصّ ، قد اقترن بتبليغ الرسالة به . وقد جاءت صلة الموصول جملة فعلية ، فعلها مبني للمجهول ، بصيغة الماضي ممّا يدلّ على أن الإنزال على الرسول قد تحقّق ، أمّا التبليغ ، فلم يتحقّق بعد . وقد تعلّق قوله (من ربك) بصلة الموصول للدلالة على أن ذلك الأمر المنزل من الله - جلّ اسمه - ، فـ (من) تفيد ابتداء الغاية^(٥) . وفي إضافة ضمير المخاطب إلى (رب) مزيد فضل ، وتشريف للمخاطب ، فضلاً عن تقويته على تنفيذ الأمر المطلوب منه ؛ لكونه مأموراً من ربه بأداء ما عليه من واجب ، إذ إن ((فيه عدة ضمنية بحفظه عليه الصلاة والسلام ، وكلايته ، أي بلّغه غير مراقب في ذلك أحداً ، ولا خائف أن ينالك مكروه أبداً))^(٦) . ثمّ أعقبه بقوله (وإن لم تفعل فما بلّغت رسالته) ، فاستعمل حرف الشرط (إن) الدالّ على الشك في وقوع الفعل ، فالمعنى : ((وإن لم تفعل بتبليغ ما أنزل إليك))^(٧) . فهذا القول متفرّع من الأمر بالتبليغ ، وقد زاد تأكيد الأمر ، وتثبيت النبيّ p بقوله (والله يعصمك من الناس) ، فاستعمل لفظ الجلالة ، ولم يقل : وهو يعصمك ، إذ إنه استعمل الاسم الصريح ؛ للدلالة على أنه - تبارك وتعالى - من لا تجوز العصمة إلا له ، وقد زاد في تثبيته بقوله (من الناس) ، ولم يقل : من المشركين ، أو اليهود ، أو غيرهم ، فكانت العصمة مطلقة من جميع البشر . ثمّ عين الله - تعالى - من المقصودون بالكلام ، فقال : (إن الله لا يهدي القوم الكافرين) . ويبدو أن كلمة (الكافرين) ليست بمعنى : المشركين ، الذين يعبدون غير الله - تعالى - بل بمعنى : الجاحد ، أو المنكر للنعمة ، أو السائر للحق^(٨) ؛ ولذا يلحظ أن بعض المفسرين قد احتار في هذه الآية ، فقال : ((إن موضع هذه الآية في هذه السورة مُعضل ، فإن سورة المائدة من آخر السور نزولاً إن لم تكن آخرها نزولاً ، وقد بلّغ رسول الله ﷺ الشريعة وجميع ما أنزل إليه إلى يوم نزولها))^(٩) . وقد استبعد أن يكون نزول الآية قبل السورة ؛ لأنه يقتضي بقاءها سنين غير ملحقة بسورة ، ورجّح ((أن تكون هذه الآية نزلت بسبب خاص اقتضى إعادة تثبيت الرسول على تبليغ شيء ممّا يتّقل عليه تبليغه))^(١٠) . ولعلّ ما جاء في أسباب النزول يوضّح هذا الشيء ، الذي يتّقل على الرسول p تبليغه ، وهي حادثة (يوم غدیر خم)^(١١) . ومنه قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ زَوْجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٢﴾ . فقد أحال الاسم الموصول إحالةً مقاميةً ، إذ لا يوجد ما يُحيل عليه من داخل النصّ أولاً ، ولأنه لم يأت الاسم الموصول مُحِيلاً بعدياً في النصّ القرآني الكريم . وعلى الرغم من أن قوله (ما أحلّ الله لك) عام ، يصلح لكل ما هو محلّ للنبيّ p إلا أنه - بقرينة المقام - يُحيل على شيء خاصّ من الملتات ، وهو العسل كما يشير إلى ذلك العلماء في أسباب النزول^(١٣) . وهذه إحصائية بالأسماء الموصولة الواردة في السور المدنية : الذي / ٦٧ مرة ، التي / ١٦ مرة ، اللذان / مرة واحدة ، الذين / ٣٢٨ مرة ، اللاتي ، واللاتي / ٦ مرّات ، من / ١٠٢ مرة ، ما / ٣٠٣ مرة . وفي هذه الإحصائية دليل على سبك النصّ ، إذ إن هذا العدد من الأسماء الموصولة يسهم في ترابط النصّ ، وتماسكه . ويُزاد على ذلك أن كثرة استعمال الاسمين الموصولين (الذين) ، و(ما) يدلّ على الاهتمام بالمتلقين للنصّ ، إذ إن الغاية من النصّ الكريم تطبيق التعاليم الشرعية الملقاة عليهم . ولكثرة تلك التعاليم والتشريعات ، والتوجيهات ، قد أكثر من استعمال الاسم الموصول (ما) .

الإحالة بـ (ال) التعريف :

- (١) سورة المائدة : ٦٦ .
 (٢) ينظر : تفسير الكشاف : ١ / ٦٤٤ ، روح المعاني : ٦ / ٤٨١ .
 (٣) سورة المائدة : ٤٨ .
 (٤) سورة المائدة : ٦٧ .
 (٥) ينظر : رصف المباني : ٣٨٨ ، والجنى الداني : ٣٠٨ .
 (٦) روح المعاني : ٦ / ٤٨٦ .
 (٧) البحر المحيط : ٤ / ٣٢١ .
 (٨) ينظر : بصائر ذوي التمييز : ٤ / ٣٦١ - ٣٦٢ .
 (٩) تفسير التحرير والتنوير : ٥ / ١٥١ .
 (١٠) المصدر نفسه : ٥ / ١٥١ .
 (١١) ينظر : أسباب النزول : ١٠٤ - ١٠٥ .
 (١٢) سورة التحريم : ١ .
 (١٣) ينظر : أسباب النزول : ٢٢٦ ، وليباب النقول : ٢٤٢ .

عنصر إجمالي أدخله هاليداي ورقية حسن ضمن الإحالة بالإشارة^(١) ، وهو ما يُعرف بـ (ال) العهدية في اللغة العربية ، وهي على ثلاثة أقسام^(٢) :

١- العهد الذكري : وهو أن يُسبق المُعرّف بـ (ال) اسم ، ثم تأتي (ال) في الاسم الآخر ؛ لتشير إلى الاسم السابق ، نحو قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴾^(٣) . فـ ((قيل : الرسول بلام التعريف ؛ لأنه تقدّم ذكره فأحيل عليه . كما تقول : لقيت رجلاً فضربت الرجل))^(٤) .

٢- العهد الذهني : وهو لما لم يُذكر في النص ، ولا يكون إلا في الشيء المشهور ، نحو قوله تعالى : ﴿ إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذَا خَرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا تَائِيًا ثَمَانِينَ هَٰذَا هُمَا فِي الْغَارِ ﴾^(٥) . إذ ((أراد به هنا غار جبل ثور ، وهو جبل بمكة))^(٦) .

٣- العهد الحضوري : وهو الإشارة إلى حاضر عن طريق التعريف ، ولا يقع إلا بعد أسماء الإشارة ، نحو : جاءني هذا الرجل ، أو في النداء ، نحو : يا أيها الرجل ، أو إذا الفجائية ، نحو : خرجت فإذا الأسد ، أو في اسم الزمان الحاضر ، نحو : الآن . ومنه قوله تعالى : ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكَ إِذْ رَأَوْنَكَ بِئُوسَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْ قَاتِلْ خَاشِئَةً مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَاتِلْ لِمَرَّةٍ أَلَيْسَ الْأَنْحَافُ حَصْحَصَ الْحَقِّ إِنَّا رَأَوْنَهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾^(٧) .

ومن صور الإحالة بـ (ال) التعريف في سور القرآن المدنية ، قوله تعالى : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ هَمَّنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَذَاكُمْ وَعَلَيْكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾^(٨) . فالتعريف في قوله (الشهر) (للعهد ، والمراد به شهر رمضان)^(٩) المتقدّم ذكره . ومثله قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ ... ﴾^(١٠) . فـ ((في إعادة المصباح ، والزجاجة معرفتين إثر سبقهما منكرين ، والإخبار عنهما بما بعدهما ... من تفخيم شأنهما ، ورفع مكانهما بالتفسير إثر الإبهام ، والتفصيل بعد الإجمال ، وبإثبات ما بعدهما لهما بطريق الإخبار المبنى عن القصد الأصلي دون الوصف المبني على الإشارة إلى الثبوت في الجملة ما لا يخفى ... واللام مغنية عن الربط))^(١١) . ورأى بعض المفسرين أن كلمة (العذاب) في قوله تعالى : ﴿ وَيَذَرُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾^(١٢) . تحيل على قوله (عذابهما) في قوله تعالى : ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي قَاتِلُوهَا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رِقَّةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَيْشَهِدَ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾^(١٣) ، فقال : ((والتعريف في (العذاب) ظاهر في العهد لتقدّم ذكر العذاب في قوله (وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين)))^(١٤) . ويبدو أن هذه الإحالة غير موجودة بين الآيتين في كلمة (العذاب) ؛ وذلك لأن (عذابهما) في الآية المتقدّمة ، أي الجلد ، هو عقوبة الزانية والزاني غير المُحصنين ، في حين أن (العذاب) في الآية المتأخرة هو للمرأة المحصنة ، التي تريد درء العذاب عن نفسها بحكم الملاعة بين الزوجين ، وعذاب المحصن هو الرجم بالحجر ، وليس الجلد ، فيبتين من ذلك أنه لا إحالة بين الآيتين . ولعلّ ممّا يدخل في هذا المبحث ، قوله تعالى : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾^(١٥) . فقد رأى بعض المفسرين أن التعريف (الأسماء) تعريف الجنس ، أريد منه الاستغراق ، وهو الذي يقتضيه منصب الخلافة^(١٦) ، فـ ((دلّ قوله تعالى (كلّها) على الشمول ، والحكمة حاصلة بتعليم الأسماء ، وإن لم تعلم مسمياتها))^(١٧) ، ورأى آخر أنه ((علّمه معاني الأسماء ، إذ الأسماء بلا معان لا فائدة فيها ، ولا وجه لإشارة الفضيلة بها))^(١٨) ، ويبدو أن الرأي الأخير أقرب إلى الصحة ، وإن كان يمكن أن يؤوّل الرأي الأول بأنه – تبارك وتعالى – أعطاه القدرة على تكوين الأسماء للمسميات التي لم تكن موجودة في ذلك الوقت . ومن اللافت للنظر في الآية الكريمة أنه استعمل اسم الإشارة (هؤلاء) ، الذي يُفيد الجمع القريب الحاضر ، إشارة إلى أصحاب الأسماء ؛ ولذا رجّح بعضهم ((أن العرض للسؤال عن أسماء المعروضات لا عن نفسها ، وإلا لقلّ أنبؤوني بهؤلاء ، فلا بدّ أن يكون المعروض غير المسؤول عنه ، فلا يكون نفس الأسماء))^(١٩) . ثم ألا يمكن أن يكون تعليم الأسماء

(١) ينظر : إشكالات النص : ٣٤٨ - ٣٤٩ .

(٢) ينظر : معاني اللبيب عن كتب الأعراب : ١ / ٦١ . وينظر : إشكالات النص : ٣٥٣ .

(٣) سورة المزمل : ١٥ - ١٦ .

(٤) البحر المحيط : ١٠ / ٣١٧ .

(٥) سورة التوبة : ٤٠ .

(٦) مجمع البيان : ٥ / ٧٩ - ٨٠ .

(٧) سورة يوسف : ٥١ .

(٨) سورة البقرة : ١٨٥ . ومثلها في سورة آل عمران : ٤٩ - ٥٣ ، ٨١ - ٨٦ ، ٩٦ - ٩٧ ، ١٤٠ - ١٧٢ ؛ وسورة المائدة : ٣١ ؛ وسورة التوبة : ٩١ - ٩٣ .

(٩) مجمع البيان : ٢ / ٢٢ .

(١٠) سورة النور : ٣٥ .

(١١) إرشاد العقل السليم : ٦ / ١٧٦ . وينظر : مجمع البيان : ٧ / ٣٧٧ .

(١٢) سورة النور : ٨ .

(١٣) سورة النور : ٢ .

(١٤) تفسير التحرير والتنوير : ١٨ / ١٣٥ .

(١٥) سورة البقرة : ٣١ .

(١٦) ينظر : روح المعاني : ١ / ٣٠٢ - ٣٠٣ ، تفسير التحرير والتنوير : ١ / ٣٩٥ .

(١٧) البحر المحيط : ١ / ٢٣٦ .

(١٨) مجمع البيان : ١ / ١٨٣ .

(١٩) روح المعاني : ١ / ٣٠٤ .

يُفيد الاستغراق ، لكن الذين عرضهم جزء منهم ، فتكون الإحالة في (عرضهم) – إذ هي تحيل على ذوات – إحالةً مقاميةً لخلقٍ مُعينين ، فضلاً عن ذلك ، فما علّاه لآدم أسماء ، وما عرضه ذوات ؛ بدليل الإشارة إليهم . يُزاد على ذلك ، أنه ليس بالضرورة أن تكون كلّ الأسماء لذوات ، فبعض الألفاظ ذات دلالة معنوية لا حسّية ، فلا تكون داخلية في قوله (عرضهم) ، ودلالة الاستغراق في التعريف بـ (ال) للأسماء تُدخل الألفاظ المعنوية فيها ، فيدلّ ذلك على أن المعروض ليس جميع ما علّاه .

الإحالة بالاسم الصريح : وردت في السور المدنية من النصّ القرآني الكريم أسماء تحيل على غيرها ، والأسماء المُحال عليها إما أن يوضحها السياق ، أو مفهومة من المقام ، أو أن تكون معروفةً عُرفاً . فمن ذلك قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ... وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ... ۝﴾^(١) . فالذي يظهر من سياق الكلام عن خليفة الأرض ، وعطف تعليم آدم ﷺ عليه ، أن آدم A هو المقصود بـ (خليفة)^(٢) ، ((وإبراز اسمه ﷺ للتنصيص عليه والتتويه بذكره))^(٣) ، وهذه الإحالة بالاسم الصريح . ومثله قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ آدَمُ لِمَلَأُوا أَمْوَالًا مِمَّا وَدَّ أَنْ يَتَّبِعُوا إِلَى شَيْطَانِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ۝﴾^(٤) . فقوله (شياطينهم) ، اسم صريح ، يُحيل مقامياً على مَنْ يأمرهم بالكذب من اليهود^(٥) ، أو من قادة المنافقين^(٦) . ومنه قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعُوا دِينَكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ الْغَنَىٰ ذُو الْحَقِّ عَظِيمٌ ۝﴾^(٧) . فالآية الكريمة تشير إلى بعض أفعال اليهود ، الذين استعملوا كلمة (راعنا) ، التي كانوا يقصدون منها معنى الجهل والحق توريةً من (راعى مُراعاة) ، التي تشترك في بعض حروفها مع (رعن رعونة) ، فكانت الآية الكريمة تنهى عن استعمال هذه الكلمة ؛ ولذا يتضح أن المقصود بـ (الكافرين) في الآية الكريمة ((اليهود خاصةً ... والتعبير بالكافرين دون اليهود زيادة في ذمهم))^(٨) . ومثله قوله تعالى : ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ثُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّاهُ مَعَ الْأَبْرَارِ ۝﴾^(٩) . فقد عُبِّرَ بكلمة (منادياً) عَمَّن يدعو الناس إلى الإيمان بالله تعالى ، وهذه الإحالة بالاسم مقصود بها النبي محمد^(١٠) ٩ . ومثله قوله تعالى : ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا ۝﴾^(١١) . فسياق الآية الكريمة يُظهر أن المقصود بـ (الناس) شخصاً مُعيناً إذ إن الله – عزّ وجلّ – قد قرن فضله عليه بالفضل الذي آتاه آل إبراهيم ، فيدلّ ذلك على أن الفضل هو النبوة ، وأن المخصوص بالفضل هو النبي محمد^(١٢) p . ومنها أيضاً قوله تعالى : ﴿وَإِنْ نَكُنْثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعْنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا إِنَّمُ الْكُفْرَانُ لَهُمْ لَا يُمَانٌ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ ۝﴾^(١٣) . فالآية الكريمة استعملت عبارة (أئمة الكفر) ، وهي تحيل إحالةً مقاميةً على قومٍ معينين ، وذلك أن ((المُراد بأئمة الكفر : المشركون الذين نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم ، فوضع هذا الاسم موضع الضمير حين لم يقل : فقاتلوهم ؛ لزيادة التشنيع عليهم ببلوغهم هذه المنزلة من الكفر ، وهي أنهم قدوة لغيرهم))^(١٤) ، ورأى الألويسي أن المقصود ((رؤساؤهم ، وصناديدهم ... وتخصيصهم بالذكر قتلهم أمم ، لا لأنه لا يقتل غيرهم))^(١٥) . ومنه قوله تعالى : ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ۝﴾^(١٦) . والتعبير بـ لا يُفيد استغراق الجنس ، بل المقصود منه – عُرفاً – شخص بعينه ، وهو النبي آدم ﷺ^(١٧) . ومنه قوله تعالى : ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَوْنَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا عَنَّا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۝﴾^(١٨) . فالتعبير بـ (عباد الله) يُحيل على (الأبرار) المتقدمة ، وهو (إظهار في مقام الإضمار ؛ للتتويه بإضافة عبوديتهم إلى الله تعالى إضافة تشریف))^(١٩) .

المبحث الثاني : الاستبدال :

- (١) سورة البقرة : ٣٠ – ٣١ .
- (٢) ينظر : مجمع البيان : ١ / ١٧٧ ، والتبيان في تفسير القرآن : ١ / ١٩٨ – ١٩٩ .
- (٣) روح المعاني : ١ / ٣٠٢ .
- (٤) سورة البقرة : ١٤ .
- (٥) ينظر : روح المعاني : ١ / ٢١٢ . وينظر : مجمع البيان : ١ / ١١٧ .
- (٦) ينظر : البحر المحيط : ١ / ١٢١ ، وتفسير التحرير والتنوير : ١ / ٢٨٦ .
- (٧) سورة البقرة : ١٠٤ . وينظر : قوله تعالى : ﴿وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمِعْ غَيْرَ مَسْمُوعٍ وَارْعَا لَنَا﴾ بالسنتهم ﴿سورة النساء : ٤٦ .
- (٨) تفسير التحرير والتنوير : ١ / ٦٣٤ . وينظر : البحر المحيط : ١ / ٥٤٤ .
- (٩) سورة آل عمران : ١٩٣ .
- (١٠) ينظر : التبيان في تفسير القرآن : ١ / ٨٢ ، وروح المعاني : ٤ / ٥٠٨ .
- (١١) سورة النساء : ٥٤ .
- (١٢) ينظر : التبيان في تفسير القرآن : ٣ / ٢١٨ ، والبحر المحيط : ٣ / ٦٧٨ .
- (١٣) سورة التوبة : ١٢ .
- (١٤) تفسير التحرير والتنوير : ١٠ / ٣٥ . وينظر : التبيان في تفسير القرآن : ٥ / ١٦٤ ، ومجمع البيان : ٥ / ٣٠ ، والبحر المحيط : ٥ / ٣٧٩ .
- (١٥) روح المعاني : ١٠ / ٣٥٤ .
- (١٦) سورة الرحمن : ١٤ .
- (١٧) ينظر : التبيان في تفسير القرآن : ٩ / ٣٧٤ ، والبحر المحيط : ١٠ / ٥٨ .
- (١٨) سورة الإنسان : ٥ – ٦ .
- (١٩) تفسير التحرير والتنوير : ٢٩ / ٣٥٤ .

الاستبدال لغة^(١) : البديل : خَلَفَ من الشيء ، والتبديل : التغيير . واستبدلتُ ثوباً مكان ثوبٍ ، وأخاً مكان أخ . وبَدَلَ الشيء : غَيَّرَهُ . **الاستبدال اصطلاحاً** : لم يُعرَف الشريف الجرجاني (الاستبدال) ، بل عرّف (الإبدال) ، والبديل ، وكان تعريفه الأول صرفياً ، فقال : ((هو أن يُجعل حرف موضع حرف آخر ؛ لدفع الثقل))^(٢) . في حين عرّف الثاني تعريفاً نحوياً ، فقال : ((تابع مقصود بما نسب إلى المتبوع دونه))^(٣) . أما الكفوي ، فقد ورد مصطلح الإبدال في كتابه في أكثر من موضع ، أقربها إلى موضوع البحث ، تعريفه الذي يقول فيه : ((رفع الشيء ووضع غيره مكانه))^(٤) . ويُعرّف التهانوي الإبدال ، بقوله : ((جعل شيء مكان آخر))^(٥) . يتبين ممّا تقدّم أنه لم يستعمل مصطلح (الاستبدال) عند علماء العربية القدماء ، بل استعملوا مصطلح (الإبدال) للدلالة عليه ، إلاّ ما يُلاحظ عند الراغب ، الذي جعل مجموعة المصطلحات ((الإبدال ، والتبديل ، والتبدّل ، والاستبدال : جعل الشيء مكان آخر))^(٦) .

الاستبدال في الدراسات النصّية الحديثة : ينقل محمّد خطابي عن هالدي رقيقة حسن تعريفهما الاستبدال بأنه ((عملية تتمّ داخل النص ، إته تعويض عنصرٍ في النصّ بعنصرٍ آخر))^(٧) . ويختلف الاستبدال عن الإحالة في كون الإحالة علاقة معنوية ، تتحقّق التطابق الدلاليّ بين المحلّ والمحلّ عليه ، في حين يتمّ الاستبدال في المستوى النحويّ – المعجميّ ، ؛ وذلك لأنّ العلاقة بين العنصرين : المُستبدل والمُستبدل – هي علاقة بين عنصرٍ سابقٍ وعنصرٍ لاحقٍ – تتحقّق فيها استمرارية وجود العنصر المُستبدل ، بشكلٍ يُمكن أن تُسمّيه جزئياً ؛ وذلك لأنّ الصفة المفترقة بين العنصرين تكون مختلفة . ففي المثال الذي ضربه المؤلفان : (فاسي مثلومة ، يجب أن أفنتي أخرى حادة) ، يظهر في المثال أنّ الفأس موجودة في الجملتين ، ولكنّ الفارق بينهما في كون صفة الأولى (مثلومة) ، تختلف في الثانية ، إذ تُصبح الصفة (حادة) . فالعلاقة بين عنصري الاستبدال (المُستبدل والمُستبدل) علاقة تقابل ، تقتضي إعادة التحديد ، والاستبعاد^(٨) . وينقسم الاستبدال في الدراسات النصّية إلى ثلاثة أقسام^(٩) :

١ – **استبدال اسمي** : ويكون في استعمال ألفاظ ، مثل : آخر وتنتيته وجمعه . ومن اللافت للنظر أنّ الاستعمال القرآنيّ قد أوجد نوعاً من الاستبدال يغيّر ما جاء به علماء النصّ المحدثون ، وهذا النوع من الاستبدال لا يقوم على أساس المغايرة ، وإمّا يقوم على أساس التخصيص الوصفيّ للعنصر المُستبدل ، وهذا التخصيص يحدّد السياق ، أو المقام الذي يرد فيه الكلام . من ذلك استعمال المفردة (ربّ) بدل اسم الجلالة الصريح (الله) في العبادة ، والرزق ، والرحمة ، نحو قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَاقْعُدُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(١٠) ، وقوله تعالى : ﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابٌ سُدُسٌ خُضْرٌ وَسُبْرٌ أَحْمَرٌ وَسَاوِرٌ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَائِهِمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾^(١١) .

٢ – **استبدال فعليّ** : ويكون باستعمال فعلٍ يحمل الدلالة العامة على الحدث ، مثل الفعل (فَعَلَ ، يفعل) . وقد عرف علماء العرب القدماء هذا النوع من الاستبدال ، وكانوا يعدّون استعمال صيغة الفعل العامة من باب الإيجاز ، من ذلك قول الزمخشريّ مفسراً قوله تعالى : ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فَإِنْ لَمْ تَقْعُدُوا وَلَمْ تَقْعُدُوا فَأْتُوا الْبَارِئِينَ وَأَقْعُدُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(١٢) : ((فإن قلت : لم عبّر عن الإتيان بالفعل ، وأي فائدة في تركه إليه ؟ ؛ لأنه فعل من الأفعال ... والفائدة فيه أنه جار مجرى الكناية التي تعطيك اختصاراً ، ووجازة تغنيك عن طول المكني عنه))^(١٣) ، وقول الزركشيّ : ((ومنه [أي الإيجاز] لفظ (فعل) ، فإنّه يجيء كثيراً كناية عن أفعال متعدّدة))^(١٤) .

٣ – **استبدال قوليّ** : ويكون باستعمال أدوات ، مثل اسم الإشارة (كذلك) ، حيث تُعوّض عن جملة أو مجموعة جمل . وقد عرف العلماء – أيضاً – هذا النوع من الاستبدال ، يقول ابن مالك : ((التعبير بـ (ذلك) عن مضمون كلام على إثر انقضائه شائع في القرآن ، وغيره ، ولا واسطة بين النطقين))^(١٥) .

ويمكن أن يزداد – أيضاً – أنّ الاستعمال القرآنيّ قد أوجد نوعاً من الاستبدال يمكن أن يصطلح عليه اسم (الاستبدال الجمليّ) ، وذلك بأن يظهر التقابل بين جملتين على سبيل المغايرة المعنوية ، وهو ما ينسجم مع مفهوم الاستبدال ، وخاصّة الاسميّ منه ، من ذلك قوله تعالى : ﴿مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾^(١٦) ، وقوله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ

(١) ينظر : العين : ٨ / ٤٥ ، تاج اللغة وصحاح العربية : ٩٩١ / ٤ ، معجم مقاييس اللغة : ١١١ / ١ ، أساس البلاغة : ٣٤ ، لسان العرب : ٢٤٥ / ١ ، ٢٤٦ ، القاموس المحيط : ٨٨٨ . (بدل) .

(٢) التعريفات : ٨ .

(٣) نفسه : ٢٥ .

(٤) الكلّيات : ٢٥ .

(٥) كشاف اصطلاحات الفنون : ١٩٧ / ١ .

(٦) مفردات ألفاظ القرآن : ١١١ (بدل) .

(٧) لسانيات النصّ : ١٩ . وينظر : إشكالات النصّ : ، دراسة لسانية نصّية : ٣٥٤ .

(٨) ينظر : لسانيات النصّ : ١٩ – ٢١ .

(٩) ينظر : لسانيات النصّ : ٢٠ ، إشكالات النصّ : ٣٥٤ .

(١٠) سورة الحج : ٧٧ .

(١١) سورة الإنسان : ٢١ .

(١٢) سورة البقرة : ٢٣ – ٢٤ .

(١٣) تفسير الكشاف : ١٠٧ / ١ .

(١٤) البرهان في علوم القرآن : ١٤٩ / ٣ ، ٧٨ / ٤ .

(١٥) شرح التسهيل : ١ / ٢٦٣ .

(١٦) سورة آل عمران : ١٥٢ .

فَهُنَّ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ^(١). ورأى بعض الباحثين أنَّ التصنيف الذي وضعه هاليداي ورقية حسن للالتساق فيه شيء من التكلف ، فرأى أنَّ الإحالة والاستبدال صنف واحد ، ولا حاجة إلى الفصل بينهما ، وإيجاد الفوارق ، ويرى أنَّ ((الإضمار يبدو أقرب إلى الاستبدال منه إلى الحذف ، إذ يعتمد فيه المتكلم إلى تعويض عنصر لغوي بآخر، وبالتالي^(٢) يحسن نقل الإضمار من القسم الذي جعله المؤلفان للإحالة إلى القسم الذي جعله للاستبدال))^(٣) . وهذا الرأي فيه نظر ؛ لأنَّ الاستبدال الاسمي ، يتخذ منحى لا يُطابق منحى الإحالة ، فالعلاقة بين المُحيل والمُحال عليه تقوم على التطابق في أغلب الأحيان ، في حين أنَّها في الاستبدال تقوم على المُغايرة . أما القسمان الآخران من أقسام الاستبدال ، فالظاهر أنَّ الاستبدال الفعلي ليس مُغاييراً للفعل المستبدل منه من حيث المعنى ، وإنما هو استعمال للصيغة العامة الدالة على الحدث ، بدل الصيغة الخاصة، إذ استعمال الفعل (فَعَلَ - يَفْعُلُ - أَفْعَلُ) نيابةً عن أفعال أخرى ، فهو حقيقة الأمر استعمال صيغة المعنى العام للحدث ، إذ يمكن أن ينوب مناب أي فعل آخر . وكذلك ، فإنَّ الاستبدال القولي هو في حقيقة الأمر تعويض عن جملة ، أو مجموعة جمل بأداة توجز وتُعوّض إعادة ذكر الجملة ، أو الجمل ، فليس في الاستبدال القولي مُغايرة معنى ، بل هو إيجاز كلام .

البديل النحوي ونحو النص : عرّف النحويون القدماء (البدل) ، بقولهم : ((تابع مقصود بما تُنسب إلى المتبوع دونه))^(٤) ، وعرفه ابن عقيل [ت ٧٦٩ هـ] : ((التابع المقصود بالنسبة ، بلا واسطة))^(٥) . والبدل عند النحويين على أربعة أقسام^(٦) ، هي : بدل الكل من الكل ، وبدل البعض من الكل ، وبدل الاشتغال ، والبدل المُباين . إنَّ البديل الموجود في الدرس النحوي العربي غير الاستبدال في الدراسات النصيّة الحديثة ، ولعلَّ الاختلاف بينهما يظهر في كون المقصود من البديل ، والمُبدل منه واحداً ، أي أنَّ أحدهما هو المقصود بالكلام ، في حين أنَّه الاستبدال في الدراسات النصيّة ، يكون العنصران (المُستبدل ، والمُستبدل) مطلوبين في الكلام ، ومقصودين ، ((والاختلاف القائم بين البديل في النحو العربي ، والإبدال في علم اللغة النصّي لا يُمثّل مانعاً من الاعتراف بأنَّ البديل في النحو العربي يُحقّق التماسك لكن على مستوى الجملة الواحدة في الغالب))^(٧) . ويُلاحظ أنَّ بعض العلاقات بين العبارات في النصّ القرآني قائمة على أساس البديل في النحو العربي ، وهو ما سيُلاحظ في قادم البحث . إنَّ النظر إلى البديل في النحو العربي على أنه عنصر في تماسك النصّ شكلياً ودلاليّاً يُحتمل البحث عن فاعليّة البديل الدلاليّة في اتساق النصّ وتماسكه ، ولئن كان دور الاستبدال مقتصرّاً على السبك الشكليّ ، فإنَّ أثر البديل يظهر في الحيك الدلاليّ ((فالعلاقة مستمرة بين المُبدل منه والبدل . ومن هنا نلاحظ التماسك القائم بين البديل والمُبدل منه من خلال هذه الاستمراريّة ، ومن خلال الضمير العائد على المُبدل منه ، ومن خلال الدلالة أيضاً))^(٨) .

الاستبدال الاسميّ : وردت في السور المدنية صور من الاستبدال الاسميّ ، من أهمها :
آخر ومُشتقاتها (أخرى - آخران - آخرون - آخر) : فمن أمثلة ذلك قوله تعالى : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتَقَبَّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾^(٩) . ف (الآخر) تعود على ثاني ابني آدم اللذين ذكرهما في أول الآية ، فالمعنى : ولم يُتَقَبَّلْ من الابن الآخر ، فكان استعمال كلمة (الآخر) الصفة ، عوضاً عن ذكر الموصوف (الابن) ، التي لا تكتفي بذاتها لو استعملت في النص ، إذ لو قال : ولم يُتَقَبَّلْ من الابن ، وسكت لما تمّ المعنى ، في حين أنَّ المعنى قد تمّ باستعمال (الآخر) الصفة ، فكان هذا الاستبدال موجزاً للكلام . ومن أمثلة الاستبدال بـ (أخرى) ، قوله تعالى : ﴿ ... وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رَجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُكَرِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى ... ﴾^(١٠) . ومن الاستبدال بلفظ (آخران) ، قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهِدُوا بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمْ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ تَوَّاءَ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَخْرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ ... فَإِنْ غَثَرَ عَلَى أَثَمَاهُمَا قَامَا قَوْمَانِ يَفْقَهُمَا ... ﴾^(١١) . فالتعبير بقوله (آخران) جاء مُستبدلاً لقوله (اثنتان) ، ثم استبدل به (آخران) يقومان مقامهما) ، والاستبدال فيهما إما لـ (اثنتان) ، أو لـ (آخران) الأولى بحسب الواقع الحاصل حين الوصية . ولعلَّ من اللافت للنظر أنَّ العنصر المُستبدل (اثنتان) هو عنصر مُستبدل لـ (رجلان) مفهومه من سياق الكلام ، فنابت (اثنتان) الصفة منابها ، كما نابت (آخران) عنها عند الاستبدال منها . ومن استعمال لفظ (آخرين) في الاستبدال ، قوله تعالى : ﴿ إِنْ لَا أَلَيْنَ يَصِلُونَ لِيُؤْمِرَنَّكُمْ وَيُؤْتِيَهُمْ مِيثَاقًا وَجَعَلْنَا لَكُمْ جُنُودًا وَمَا نَكُنْ بِمُحْسِنِينَ ﴾^(١٢) . فالتعبير بقوله (آخرين) ، استبدال للقوم في قوله (فإن اعتزلوكم فلم يقتلوكم) ، ف ((لما ذكر صفة المحقين في المتاركة ، المجتئين في إلقاء السلم ، نبه على طائفة أخرى مخادعة))^(١٣) . ومثله قوله تعالى : ﴿ إِنْ

(١) سورة التغابن : ٢ . ومنه في سورة المائدة : ٦٦ ، وسورة الأحزاب : ٢٣ ، وسورة الزلزلة : ٧-٨ .

(٢) كذا ، والصحيح : ومن ثم .

(٣) أصول تحليل الخطاب في النظرية العربية ، تأسيس نحو النص : ١٣٣ / ١ .

(٤) شرح الرضي على الكافية : ٣٧٩ / ٢ .

(٥) شرح ابن عقيل : ٢٤٧ / ٢ .

(٦) ينظر : المصدر نفسه : ٢٤٩ / ٢ .

(٧) علم اللغة النصّي بين النظرية والتطبيق : ٢٦٨ / ١ .

(٨) علم اللغة النصّي بين النظرية والتطبيق : ٢٦٩ / ١ .

(٩) سورة المائدة : ٢٧ . ومثله في سورة التوبة : ١٠٢ .

(١٠) سورة البقرة : ٢٨٢ . ومثله في سورة آل عمران : ١٣ ، وسورة الفتح : ٢٠-٢١ ، وسورة الحجرات : ٩ ، وسورة الصف : ١٢-١٣ ، وسورة الطلاق : ٦ .

(١١) سورة المائدة : ١٠٦-١٠٧ .

(١٢) سورة النساء : ٩٠-٩١ .

(١٣) البحر المحيط : ١٦ / ٤ .

يَشَأْ يَذْهَبُ أَهْلُهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ تِلْكَ قَبِيرًا^(١). فالتعبير بقوله (آخرين) جاء مُستبدلاً للضمير المنصوب في قوله (يذهبكم)، والذي أكد في قوله بعده (أَيُّهَا النَّاسُ). ولعل في استعمال النداء بـ (أَيُّهَا النَّاسُ) دلالة على الاستغراق، فالمعنى: ((إِنْ شَاءَ يَهْلِكُكُمْ كَمَا أَنْشَأَكُمْ وَأَنْشَأَ قَوْمًا آخَرِينَ يَعْبُدُونَهُ))^(٢). ولعلّ ممّا يرتبط بتماسك النصّ، تفسير العلماء لـ (آخرين)، هل هم من البشر، أو من غيرهم. فمن رأى أنهم من البشر، استدلّ بأنّ ((مُقابله قوله (أَيُّهَا النَّاسُ) بقوله (آخرين))، أنّ المعنى: بناسٍ آخرين غير كافرين، على ما هو الشائع في الوصف بكلمة (آخر)، أو (أخرى) بعد ذكر هُأَبل الموصوف، أنّ يكون الموصوف بكلمة آخر بعضاً من جنس ما عطف عليه باعتبار ما جعله المتكلم جنساً في كلامه بالتصريح، أو بالتقدير^(٣)). وجوّز الزمخشريّ عدم التطابق بينهما؛ ولذا جوّز أنّ يكون معنى الآية: ((خلقاً آخرين غير الإنس))^(٤). وممّا رُدّ به على الزمخشريّ أنهم ((اتفقوا على أنّه لا يجوز أنّ يُوصف بكلمة (آخر) موصوف لم يتقدّمه ذكر مُقابل له أصلاً، فلا تقول: جاءني آخر، من غير أنّ نتكلّم بشيء قيل؛ لأنّ معنى (آخر) مُغاير في الذات مُجانس في الوصف))^(٥). ولعلّ كلام الزمخشريّ أقرب إلى الاستعمال القرآني؛ وذلك لأنّه قد ورد الوصف بـ (آخر)، وهو مُغاير للموصوف في الذات والصفات، من ذلك قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسُوفَ يَعْلَمُونَ﴾^(٦)، فليس في استعمال كلمة (آخر) تطابق مع الاسم المُستبدل / الذات الإلهيّة المقدّسة. ومن استعمال (آخرين) في الاستبدال أيضاً، قوله تعالى: ﴿وَأَعْدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾^(٧). فقد استعملت (آخرين) مُستبدلةً لكلمة (عدو) المُتقدّمة في الآية الكريمة. وقد دلّلت جملة (لا تعلمونهم) الواقعة صفةً لـ (آخرين) على ((أعداء لا يعرفهم المسلمون بالتعيين، ولا بالإجمال))^(٨). ومن الاستبدال بـ (آخر)، قوله تعالى: ﴿أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا وَ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ...﴾^(٩). لفظة (آخر) في الآية الكريمة جاءت في موضع استبدال من كلامٍ سابقٍ عليها، واللافت للنظر أنّه قد تقدّمها موصوفها الذي كان من المفترض أنّ يكون (المُستبدل) المحذوف، وتدلّ عليه كلمة (آخر)؛ وسبب ذكره هنا أنّه جاء عوضاً عن كلامٍ محذوف، إذ ليست (أيّام آخر) استبدالاً عن (أيّام معدودات)، بل هي مُستبدلة الأيّام التي يفطرها الصائم في حالتي المرض، والسفر؛ فلذلك أعاد ذكر الأيّام (المُستبدلة) بـ (آخر)؛ حتى لا يَظنّوا أنّها الأيّام في قوله (أيّام معدودات)، إذ التقدير: ((عليه صوم عدد أيّام المرض، أو السفر من أيّام آخر إن أضر))^(١٠).

إحدى، أحد: استعملت هاتان المفردتان عنصري استبدال في النصّ القرآني الكريم، ويُلاحظ فيهما حالة التلازم مع (آخر) ومُشتقاتها المُتقدّمة، وذلك في أغلب الأحيان. من ذلك قوله تعالى: ﴿... وَأَسْتَشْهَدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رَجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى...﴾^(١١). فقد جاء الاستبدال باستعمال لفظة (إحدى)، وهي مُستبدلة للفظ (لمرأتان)، الواردة قبلها، فالبحث عن المقصود بـ (إحدى) يتطلّب الرجوع إلى الكلام السابق لها، وبذلك يظهر أثر هذه المفردة في تماسك النصّ. إنّ التركيب الذي وردت فيه المفردة كان موضع اختلاف الرّاء، ((فقرأ حمزة وحده (إِنْ تَضِلَّ) بكسر الالف (فَتُذَكِّرُ) بتشديد الكاف، ورفع الرّاء. وقرأ الباقون (أَنْ تَضِلَّ) بفتح الالف (فَتُذَكِّرُ) منصوبة الرّاء، غير أنّ ابن كثير، وأبا عمرو قرأ (فَتُذَكِّرُ) خفيفة منصوبة الرّاء))^(١٢). ورأى سيبويه [ت ١٨٠ هـ] أنّه على قراءة فتح همزة (أَنْ) يكون منصوباً على أنّه المفعول لأجله، قال: ((فانتصب لأنّه أمر بالإشهاد لأنّ تذكر إحدىاهما الأخرى، ومن أجل أن تذكر))^(١٣). أمّا قراءة كسر همزة (إِنْ)، فعلى ((جعلها شرطية، رفع لأنّه وصف لقوله: وامرأتان، والشرط، والجزاء يكون صفة للنكرة كما يكونان خبراً للمبتدأ))^(١٤). ويبدو أنّ قراءة أقرب إلى المعنى المطلوب في الآية، ولكن العامل فيهما كما يبدو هو حال مقدّر مفهوم من سياق الكلام، إذ التقدير يكون: تشهدان مجتمعين أنّ تَضِلَّ إحدىاهما. ولعلّ من اللافت للنظر أنّ (إحدى) قد تكرّرت بعد ذلك في الآية الكريمة، وليست الأولى عين الثانية، إذ لو كانت عيناها؛ لاستعمل الضمير عنها، فقال: فتذكرها، ولو كان الأمر كذلك، فإبّه ((يتوهم أنّ إحدى المرأتين لا تكون إلا مذكّرة الأخرى، فلا تكون شاهدة بالأصالة))^(١٥)، ولذا إعادة اللفظ يدلّ على ((اختلاف معنى اللفظ في الموضعين، فالمراد من الأول إحدىاهما لا على التعيين، ومن الثاني إحدىاهما بعد ضلال الأخرى))^(١٦).

(١) سورة النساء: ١٣٣.

(٢) البحر المحيط: ٩٢ / ٤.

(٣) تفسير التحرير والتنوير: ٢٧٢ / ٤ - ٢٧٣.

(٤) تفسير الكشاف: ٥٦٢ / ١.

(٥) تفسير التحرير والتنوير: ٢٧٢ / ٤ - ٢٧٣.

(٦) سورة الحجر: ٩٦. وقد ورد تعبير (إلها آخر) في سورة الإسراء: ٢٢، ٣٩: المؤمنون: ١٤، ١١٧: الفرقان: ٦٨؛ الشعراء: ٢١٣؛ القصص: ٨٨؛ سورة ق: ٢٦؛ الذاريات: ٥١.

(٧) سورة الأنفال: ٦٠.

(٨) تفسير التحرير والتنوير: ١٤٦ / ٩.

(٩) سورة البقرة: ١٨٤. وقد تكرّر هذا الاستبدال في الآية (١٨٥) من السورة نفسها. ومثلها في سورة آل عمران: ٧.

(١٠) أنوار التنزيل وأسرار التأويل: ٤٦٢ / ١. وينظر: التبيان في تفسير القرآن: ١١٧ / ٢، ومجمع البيان: ١٣ / ٢، وروح المعاني: ٦٢١ / ٢.

(١١) سورة البقرة: ٢٨٢.

(١٢) السبعة في القراءات: ١٩٣. وينظر: التذكرة في القراءات: ٢١٣، والنشر في القراءات العشر: ٢ / ٢٣٦ - ٢٣٧، وكتاب العنوان في القراءات السبع: ٧٦.

(١٣) الكتاب: ٥٣ / ٣. وينظر: إعراب القرآن: ١٨٥ - ١٨٦، ومشكل إعراب القرآن: ١٤٤ / ١، والبيان في غريب إعراب القرآن: ١٨٣ / ١.

(١٤) البيان في غريب إعراب القرآن: ١٨٣ / ١.

(١٥) تفسير التحرير والتنوير: ٥٧٦ / ٢.

(١٦) الميزان في تفسير القرآن: ٦٣٥ / ٢.

وزيادة على ذلك ، فإن شهادة المرأتين مجتمعتين تعادل شهادة الرجل الواحد ، ويبدو أن سبب ذلك أن النسيان طبع في النساء ، ((واجتماع المرأتين على النسيان أبعد في العقل من صدور النسيان عن المرأة الواحدة ، فأقيمت المرأتان مقام الرجل ؛ حتى إن إحداهما لو نسيته ذكرتها ((الأخرى))^(١) ، ولعل ذلك يدل على أن التذكير متبادل بين المرأتين ، فتكون مذكرتهما تكملية ، فيكون مجموع شهادتهما مساوياً لشهادة الرجل الذي نابتا عنه . ومثلها قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا تَأْخُذُوا بِهِتَانِ وَإِنَّمَا مِثْلُهَا ﴾^(٢) . فالتعبير بـ (إحداهن) جاء استبدالاً لـ (زوج) الثانية ، بمعنى : الزوجة المستبدلة . والتعبير بـ (إحداهن) ، و(زوج) يدل على العموم ، وليس فيه قصد التعيين لزوج معينة ، فكان هذا الكلام حكماً شرعياً صالحاً لكل زمان ومكان^(٣) . ومنه قوله تعالى : ﴿ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتَقَبَّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْبَلَ الْآخَرَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾^(٤) . ومثله قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَعِزُّكُمْ اللَّهُ إِذْ خَافَ الْطَائِفِينَ أَتَاهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنْ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَ تَكُونَ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴾^(٥) . فالاستبدال في هذه الآية جاء بعدياً لا قبلياً ، إذ إن (إحدى) مستبدلة من (الطائفتين) ، وهذا الاستبدال قليل الوقوع ، وزيادة على ذلك ، فالاستبدال ليس على سبيل المغايرة ، التي نظر لها علماء النص المحدثون ، إنما جاء عن طريق علاقة الجزء – الكل . وملاحظة أخرى ، وهي أن التعبير بـ (إحدى الطائفتين) ، لا يمكن معرفة معناه إلا بالتعرف على المقام الذي نزلت فيه هذه الآيات ، إذ إن ((إحدى الطائفتين غير معينة ، والطائفتان هما كطائفة غير قریش ، وكانت فيها تجارة عظيمة لهم . . . وطائفة الذين استنفرهم أبو جهل))^(٦) .

نفس : استعملت هذه المفردة مستبدلة في النص القرآني الكريم ألفاظاً أخرى ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ لَا يَخْذُ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ لَأَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيَحْزَنُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾^(٧) ، فقد استبدل اسم الجلالة بلفظ (نفسه) ، ((وهذه مخاطبة على معهود ما يفهمه البشر ، والنفس في مثل هذا راجع إلى الذات))^(٨) . وفي تخصيص الاستبدال بالنفس دون غيره ؛ ((ليكون أعم في الأحوال لأنه لو قيل : يحزنكم الله غضبه لتوهم أن الله رضا لا يضمر معه ، تعمّد مخالفة أوامره))^(٩) . ورأى الراغب أن إضافة النفس إلى الله – عز وجل – ((إضافة الملك ، ويعني بنفسه نفوسنا الأمانة بالسوء ، وأضاف إليه على سبيل الملك))^(١٠) ، وعلى هذا يكون الكلام داخلًا المجاز العقلي . وفسر جماعة من المفسرين نفسه بـ : عذابه ، أو عقابه^(١١) ، ((وفيه تهديد بتناهي المنهي عنه في القبح حيث علق التحذير بنفسه))^(١٢) .

واحدة : استعملت هذه المفردة في السور المدنية من القرآن الكريم مستبدلة لألفاظ أخرى ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ لَا تَغْلِبُوا فِي الْيَمَامِ فَانْكَحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ لَا تَعْدِلُوا هَوَاحِدَةً وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ لِكُلِّ ذُنًى لَا تَعُولُوا ﴾^(١٣) . فالظاهر من سياق الآية الكريمة أن المقصود بقوله (فواحدة) ، أي : فامرأة واحدة ، فاستبدلت (واحدة) بـ (امرأة) . إن الاستبدال باستعمال هذه المفردة يخلق تماسكاً نصياً مع الكلام الوارد قبله ، إذ إن السياق في بيان عدد الزوجات ، فكما هذا الاستعمال منسجماً مع ما تقدم من الكلام أولاً ، وموجزاً للكلام ثانياً ، فلو قال : مثنى وثلاث ورباع فإن خفتهم ألا تعدلوا فامرأة ، أو فامرأة واحدة ؛ لكان الكلام غير متناسق في الحالة الأولى ، وغير موجز في الحالة الثانية . فكان استعمال هذه المفردة مناسباً لما تقدم ، إذ إنه ((صرف من خاف من الجور في نكاح ما ذكر من العدد إلى نكاح واحدة))^(١٤) .

تكرير اللفظ مع اختلاف المعنى : الملاحظ على هذا النوع من الاستبدال أنه جاء مصاحباً لعنصر التكرار ، وهو أيضاً من عناصر التماسك النصي ، هذا أولاً ، وثانياً أن هذا النوع من الاستبدال قد بينته خصيصة في اللغة العربية ، وهي خصيصة الموقع الإعرابي ، أو اختلاف الحركة الإعرابية بين اللفظين المكررين ، وهو ما يدل على المغايرة بينهما . وكثيراً ما كان اللفظ المكرر يعطي معنى (آخر) ومشتقاته التي نظر إليها علماء النص . ويلحظ أن هذا النوع من الاستبدال قد أشار إليه علماء العرب القدماء ، فالزركشي يقسم المفردات المكررة ، وحالتها من حيث التعريف ، والتذكير ، فيرى أن الاسمين إذا جاءا معرفتين ، أو الأولى نكرة ، والثاني معرفة ، فإن الثاني هو الأول غالباً ، فقد لا يكون بينهما اتحاد ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ وَكُنْتُمْ عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ نَفْسٌ بِالنَّفْسِ ... ﴾^(١٥) ، أي القاتل ، والمقتول^(١٦) ، وقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ مَرَأَةٌ ﴾

(١) البحر المحيط : ٢ / ٧٣٤ . وينظر : مجمع البيان : ٢ / ٣٣٣ ، والجواهر الحسان : ١ / ٥٤٨ .

(٢) سورة النساء : ٢٠ .

(٣) ينظر : روح المعاني : ٤ / ٦١٤ .

(٤) سورة المائدة : ٢٧ .

(٥) سورة الأنفال : ٧ . ومثلها في سورة الحجرات : ٩ .

(٦) البحر المحيط : ٥ / ٢٧٧ .

(٧) سورة آل عمران : ٢٨ . ومثلها في الآية : ٣٠ من السورة نفسها .

(٨) البحر المحيط : ٣ / ٩٦ .

(٩) تفسير التحرير والتنوير : ٣ / ٧٥ .

(١٠) مفردات الفاظ القرآن : ٨١٨ (نفس) .

(١١) ينظر : التبيان في تفسير القرآن : ٢ / ٤٢٩ ، ومجمع البيان : ٢ / ٤١٠ ، والبحر المحيط : ٣ / ٩٦ ، والإتقان في علوم القرآن : ٢ / ١٢ ، وروح المعاني :

١٦٧ / .

(١٢) روح المعاني : ٣ / ١٦٧ .

(١٣) سورة النساء : ٣ . ومثلها الآية : ١١ من السورة نفسها .

(١٤) البحر المحيط : ٣ / ٥٠٧ . وينظر : روح المعاني : ٤ / ٥٥١ .

(١٥) سورة المائدة : ٤٥ . ومثلها في سورة البقرة : ١٧٨ ، وسورة الرحمن : ٦٠ ، وسورة الإنسان : ١ - ٢ ، وغيرها .

(١٦) البرهان في علوم القرآن : ٤ / ٦١ .

خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُورًا وَإِرَاحًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ...^(١)، ((فالأول داخل في الثاني ، وليس بجنسه))^(٢) ، أو لعل (ال) - في الآية - للجنس ، وليس للمهد . أما إذا ذكر الاسم مرتين ، وكانا ((نكرتين ، فالثاني غير الأول ، ولا لكان المناسب التعريف بناءً على كونه معهوداً سابقاً ... والمعنى في هذا ، وفي كونهما معرفتين ، أن النكرة تستغرق الجنس ، والمعرفة تتناول بعضه ، فيكون داخلاً في الكل ، سواء قُدِّم ، أو أُخِّر))^(٣) . أما القسم الرابع ، وهو كون الأول معرفة ، والثاني نكرة ، ف ((لا يطلق القول به ، بل يتوقف على القرانين ، فتارة تقوم القرينة على التغير ... وتارة تقوم قرينة على الاتحاد))^(٤) . ومن هذه الألفاظ التي استعملت مُكَرَّرَةً مُسْتَبْدَلَةً :

أَرْض : جاءت كلمة (أرض) في الاستعمال القرآني مُكَرَّرَةً لفظاً مُتَبَايِنَةً معنًى ، وذلك في قوله تعالى : ﴿وَأُورِثُكُمْ أَرْضَهُمْ وَيُبدِلُهمُ وَأَموَالَهُمْ وَأَرْضَهُمُ وَرِثَاكَهُمْ تَطْوَها وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾^(٥) . فالتعبير بـ (أرضاً) النكرة يدل على مُغَايَرَتِهَا الأرض المُتَقَدِّمَةِ ، ف ((هي أرض أخرى غير أرض قريظة))^(٦) . وقد نُصِبَتْ (أرضاً) على تقدير فعل محذوف دل عليه الفعل الموجود ، إذ التقدير : ((وأورثكم أرضاً لم تطووها بعد))^(٧) ، ولأنَّ العطف بالفعل بصيغة الماضي ، ووطء الأرض لما يتحقق بعد ، فقد ((استشكل بأنَّ الإرث ماضٍ حقيقة بالنسبة إلى المعطوف عليه ، ومجازاً بالنسبة إلى هذا المعطوف . وأجيب بأنه يراد بأورثكم : أورثكم في علمه ، وتقديره ... وقدّر بعضهم أورثكم في جانب المعطوف مراداً به : يورثكم ، إلا أنه عبر بالماضي ؛ لتحقيق الوقوع))^(٨) .

إيمان : وذلك في قوله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيُزِيدُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلَهُ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾^(٩) . فقد جاء قوله (إيماناً) نكرةً ، وذكر بعدها - إذ الاستبدال بعدي ، وهو قليل الوقوع - (إيمانهم) مضافاً إلى ضمير الجمع ، فكان ذلك دليلاً على المُغَايَرَةِ بين الاثنين^(١٠) . والإيمان أمر عقدي لا يتغير مع الزمن ، ف ((لما ثبت في الأزمنة تَوَلَّى تَجَدُّدُ أزمانه منزلة تَجَدُّدِهِ ، وازدياده))^(١١) ، وأكد هذه المغايرة إذ ((علق بالإيمان ظرف (مع) في قوله (مع إيمانهم))^(١٢) . ولعل في التعبير بقوله (ليزيدوا) دلالة على أنَّ هذا الإيمان يجب أن يكون مصداقه العمل الصالح من أعمال تعبدية ، وغيرها ، لأنَّ تتابع اللطف الإلهي يجب أن يتبعه الشكر من المؤمنين بما وهبه لهم من معارف أخرى تزيد في قوة إيمانهم .

جلود : وذلك في قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كَلَّمًا نَضْجَتْ جُلُودُهُمْ بِدَنَائِهِمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَتَوَقَّوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾^(١٣) . فاستعمال (جلوداً) الثانية ليس للتأكيد ، بل للتغيير ، يدل على ذلك جعلها مفعولاً للفعل (بدنناهم) ، وتوكيدها بالوصف بـ (غيرها) ، فالمعنى : ((جيء بجلد آخر مكانه ، ولهذا قال : جلوداً غيرها))^(١٤) . ورأى الفيروز آبادي أنَّ معنى بدننا : جددنا ، أي تجديد حالة الجلود^(١٥) .

رجس : وذلك في قوله تعالى : ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ قَرَأَتْهُمْ رَجْسًا لِي رَجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾^(١٦) . فالرجس - كما يرى بعض العلماء - ((في معنى العذاب ، والرجس أيضاً : القذر ، والنتن [الآية] أي نتنا إلى ننتهم ، أي كفرًا إلى كفرهم ، والنتن كناية عن الكفر ، وعلى المعنى الآخر [الآية] أي فزادتهم عذاباً إلى عذابهم بما تجدد من كفرهم))^(١٧) . أما الراغب ، فقد عرّفه بـ : الشيء القذر ، وجعله ((على أربعة أوجه : إمّا من حيث الطبع ، وإمّا من جهة العقل ، وإمّا من جهة الشرع ، وإمّا من كل ذلك ... وجعل الكافرين رجساً من حيث إنَّ الشرك بالعقل أقبح الأشياء))^(١٨) . ويبدو أنه سواء أكان الرجس نفاقاً ، أم كفرًا ، أم عذاباً ، فلا تباين في المعنى ، إذ إنَّ سببه تسميّة الشيء بمسبّبه ، فالعذاب سببه النفاق ، والكفر ، وزيادته ((عبارة عن تعمّقه في الكفر ، وخبطهم في الضلال))^(١٩) .

زوج : وذلك في قوله تعالى : ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِنَّمَا مُبِينًا﴾^(٢٠) . فقد كَرَّرَ قوله (زوج) في الآية الكريمة ، ولم يكن استعمالها تكراراً للتأكيد ، والذي يؤكد

(١) سورة النساء : ١٢٨ .

(٢) البرهان في علوم القرآن : ٦٥ / ٤ .

(٣) البرهان في علوم القرآن : ٦٣ / ٤ ،

(٤) البرهان في علوم القرآن : ٦٥ / ٤ .

(٥) سورة الأحزاب : ٢٧ .

(٦) تفسير التحرير والتنوير : ٢٣٢ / ٢١ .

(٧) مجمع البيان : ٢١٤ / ٨ - ٢١٥ . وينظر : التبيان في تفسير القرآن : ٢٥٣ / ٨ ، والبحر المحيط : ٤٧٠ / ٨ .

(٨) روح المعاني : ٢٣٩ / ٢١ .

(٩) سورة الفتح : ٤ .

(١٠) ينظر : التبيان في تفسير القرآن : ٢٥١ / ٩ ، ومجمع البيان : ٢٧٦ / ٩ ، والبحر المحيط : ٤٨٥ / ٩ .

(١١) روح المعاني : ٣٤٤ / ٢٦ .

(١٢) تفسير التحرير والتنوير : ١٢٦ / ٢٦ - ١٢٧ .

(١٣) سورة النساء : ٥٦ .

(١٤) البحر المحيط : ٦٨٠ / ٣ .

(١٥) ينظر : بصائر ذوي التمييز : ٢١٧ / ٢ .

(١٦) سورة التوبة : ١٢٥ .

(١٧) نزّهة القلوب : ٢٥١ .

(١٨) مفردات ألفاظ القرآن : ٣٤٢ (رجس) .

(١٩) البحر المحيط : ٥٢٩ / ٥ . وينظر : التبيان في تفسير القرآن : ٢٩٣ / ٥ ، ومجمع البيان : ٢٠٨ / ٥ .

(٢٠) سورة النساء : ٢٠ .

ذلك أنه - سبحانه وتعالى - استعمل قبلهما ما يدل على اختلافهما ، وهو كلمة (استبدال) ، وهو ((بمعنى إقامة امرأة مقام أخرى بالاستبدال))^(١).

سُنة : من ذلك قوله تعالى : ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾^(٢). فقد جاء الاستعمال للمفردة (سنة) ، ولم يكن استعمالها من باب التكرار ، بل كانت السنة الأولى متعلقة بقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا الْأَنْبَارُ لَمْ يَجِدُوا لِيًّا وَلَا نُصِيرًا ﴾^(٣) ، أي ((سن الله غلبة أنبيائه سنة قديمة فيمن مضى من الأمم))^(٤) ، وأنتم داخلون في هذه السنة . ثم جاء قوله (ولن تجد لسنة الله تبديلاً) ليدل على أن هذه السنة غير منقطعة ، بل ممتدة على مدى الزمان . وقد زاد تفريقاً بين السنتين ، إذ وصف الأولى بـ (قد خلت من قبل) ، فدل ذلك على الماضي ، ونفى عن الثانية التبديل في المستقبل ، بقوله (ولن تجد) فكان هذا التغير الزمني بينهما دليلاً على عدم اتحادهما في المعنى^(٥).

طائفة : استعملت في أكثر من موضع دلالة على الاستبدال ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ مَوْتٌ نَعَسًا يُغْشَى طَائِفَةٌ مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ... ﴾^(٦). فالذي يلاحظ اختلاف الطائفتين في الآية الكريمة دليل تخصيص النعاس بالطائفة الأولى ، وهم ((أهل الإيمان والإخلاص ، فكان سبباً لأمنهم وثباتهم ، وعري منه أهل النفاق والشك ، فكان سبباً لجزعهم وانكشافهم))^(٧). ومنها أيضاً قوله تعالى : ﴿ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنَّ نَعْفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ يُعْطَى طَائِفَةً يَأْتِيهِمْ كَافً مُجْرِمِينَ ﴾^(٨). فالظاهر من صريح الآية الكريمة أن استعمال (طائفة) ليس تكراراً لفظياً ، بل هو استعمال على سبيل التغير والاختلاف ، ولعل في جزاء كل منهما دليلاً على هذا التغير ، فإن ((طائفة مرجوة الإيمان ، فيعجز عما قَدَّمته من النفاق ، وأخرى تُصر على النفاق حتى الموت ، فتصير إلى العذاب))^(٩).

غضب : وذلك في قوله تعالى : ﴿ يُسَمَّا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَنْ يَكْفُرُوا بِمَا نَزَلَ اللَّهُ بَعِيًّا أَنْ يُنَزَلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ قَبْلَهُمْ بَعْضٌ عَلَى بَعْضٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾^(١٠) ، فالغضب الأول غير الثاني ، إذ إن الأول ((حين عبدوا العجل... [أو] حين غيروا التوراة... [أو] حين كفروا بعيسى ، والثاني حين كفروا بمحمد p))^(١١) . ولعل مما يؤكد تغير الغضبين أن الغضب الأول ((قد باء به أسلافهم ، حظ هؤلاء منه وافر ؛ بسبب رضاهم بتلك الأفعال ، وتصويبهم لها))^(١٢) . وزيادة على ذلك ((لا يخفى أن فاء العطف يقتضي صيرورتهم أحقاء بترادف الغضب))^(١٣) ، وترادف الغضب يدل على المغاير بينهما .

عام : وذلك في قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحْلُوهُنَّ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِّئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحْلُوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنَ لَهُمْ سُوءَ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾^(١٤). استعمل هذا اللفظ مع الفعلين المتغايرين (يحلونه ، يحرمونه) ، فدل ذلك على التغير فيه ، وذلك أن الضمير المنصوب في الفعلين يعود على الشهر الحرام ، الذي يدل سياق الآية أن إحلالهم له في عام ، وتحريمه في عام آخر غير العام المتقدم^(١٥).

فريق : وردت أكثر من آية كريمة ، كثر فيها كلمة (فريق) ، ولم يكن التكرار فيها لاتحاد في اللفظ والمعنى ، وإنما كان تكراراً مصاحباً لمغايرة معنوية ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَفَقَّاهُ مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْكُمْ تَهَوَّيْتُمْ عَنْهُمْ فَهَوْاْ مِنْكُمْ كَقَوْمِ قَارُونَ ﴾^(١٦) . فقد استعمل (فريقاً) مكررة ، متغايرة المعنى ، ومعناه ((مبادرة فريق من الرسل بالكذب فقط ، حيث لا يقدرون على قتله ، وفريق بالقتل إذا قدروا على قتله))^(١٧). وقد أتى بفعل التكذيب ماضياً ؛ لكونه حاصلًا منهم ، وأما فعل القتل ، فقد جاء مضارعاً إما لكونه ((حكاية الحال الماضية استحضاراً لها في النفوس ، فإن الأمر فطيع . أو مراعاة للفواصل ، أو للدلالة على أنكم بعد فيه ، فإنكم تحومون حول محمد))^(١٨).

ملك : من ذلك قوله تعالى : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمَلِكِ نُؤْتِي الْمَلِكَ مِنْ شَاءٍ وَنَنْزِعُ الْمَلِكَ مِنْ شَاءٍ ﴾^(١٩). فقد استعمل النص الكريم مفردة (الملك) ثلاث مرّات ، ولم يكن ذلك من باب التكرار ، ((فالملك الذي يؤتیه الله للعبد لا يمكن أن يكون

(١) الميزان في تفسير القرآن : ٤ / ٤٧٢ . وينظر : التبيان في تفسير القرآن : ٣ / ١٤٥ - ١٤٦ ، ومجمع البيان : ٣ / ٦٩ ، والبحر المحيط : ٣ / ٥٧١ ، وروح المعاني : ٤ / ٦١٤ .

(٢) سورة الفتح : ٢٣ .

(٣) سورة الفتح : ٢٢ .

(٤) إرشاد العقل السليم : ٨ / ١١١ . وينظر : روح المعاني : ٢٦ / ٣٦٨ - ٣٦٩ .

(٥) ينظر : البرهان في علوم القرآن : ٤ / ٦٢ .

(٦) سورة آل عمران : ١٥٤ . ومثلها في السورة نفسها : ٦٩ - ٧٢ ، وسورة الصف : ١٤ .

(٧) البحر المحيط : ٣ / ٣٩٢ . وينظر : التبيان في تفسير القرآن : ٣ / ٢٤ ، ومجمع البيان : ٢ / ٦٢٧ ، و تفسير شبر : ٧٠ ، وروح المعاني : ٤ / ١٨٨ ، وتفسير التحرير والتنوير : ٣ / ٢٥٧ .

(٨) سورة التوبة : ٦٦ .

(٩) تفسير التحرير والتنوير : ١٠ / ١٤٣ .

(١٠) سورة البقرة : ٩٠ .

(١١) التبيان في تفسير القرآن : ١ / ٤١٠ . وينظر : مجمع البيان : ١ / ٤٠٣ - ٤٠٤ ، والبحر المحيط : ١ / ٤٩١ .

(١٢) الجواهر الحسان : ١ / ٢٨١ .

(١٣) روح المعاني : ١ / ٤٣٨ .

(١٤) سورة التوبة : ٣٧ .

(١٥) ينظر : إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم : ٤ / ٦٤ ، والبحر المحيط : ٥ / ٤١٦ - ٤١٧ .

(١٦) سورة البقرة : ٨٧ . ومثلها في سورة المائدة : ٧٠ ، وسورة الأحزاب : ٢٦ .

(١٧) البحر المحيط : ١ / ٤٨٣ .

(١٨) أنوار التنزيل وأسرار التأويل : ١ / ٣٥٨ . وينظر : البحر المحيط : ١ / ٤٨٣ ، وروح المعاني : ١ / ٤٣٢ .

(١٩) سورة آل عمران : ٢٦ .

نفسه ملكه ((^(١))، وقد عرّف الراغب المُلْك ، بقوله : ((الحق الدائم لله ... فالمُلْك ضبط الشيء المُتصرف فيه بالحُكم))(^(٢)). ويبدو أنَّ العلاقة بينها هي علاقة الكلّ - الجزء .

نفس : استعملت هذه المفردة مُكرّرة مع الدلالة على التغيرات في المعنى ، وذلك في قوله تعالى : ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يَقُولُ مِنْهَا شَقَاةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَذْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ (^(٣)) . فالظاهر في الآية الكريمة أنَّ (نفس) الأولى غير (نفس) الأخرى ، فمعنى قوله (نفس عن نفس) ، أي ((لا تكون مكانها))(^(٤)) ، فهي لا تجازي دونها ، ولا تحتل شيئاً من عذابها . وقد نكرهما ؛ ((ليبين أنَّ كل نفس فهذا حكمها))(^(٥)) . وزيادة على ذلك ، فلو استعمل الاستبدال الشائع بـ (أخرى) لما أعطى هذه الدلالة العامة ، فلو قال : نفس عن أخرى ، لكانت دلالتها خاصة بنفس واحدة ، فلمّا جعلهما بلفظ واحد ، نكرتين كانه دلالتها أنَّ ((نفساً من الأنفس لا تجزي عن نفس من الأنفس))(^(٦)) ، فصلح الحكم لكل زمان ، ومكان . **الناس** : وذلك في قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ (^(٧)) . فالظاهر من سياق الكلام أنَّ (الناس) الأولى غير الثانية ، وهي مفردة تعطي الدلالة على الجنس ، ولكنها استعملت للدلالة على بعض الناس ، قال الزركشي : ((لفظ عام أريد به خاص ؛ لأنَّ (الناس) في اللفظ الأول لو كان المراد به الاستغراق لما انتظم قوله بعده (إنَّ الناس))(^(٨)) . والمقصود بـ (الناس) الأولى هو نعيم بن مسعود ، وبـ (الناس) الثانية أبو سفيان ، وأصحابه(^(٩)) .

وقد يدخل في الاستبدال الاسمي ، نوع استعمل في النصّ القرآني الكريم ، وهو يأتي مقترناً باستعمال الفعل (يبدل) ، ومشتقاته فهو يبين معنى الاستبدال في الآية الكريمة . ولعلّ ما يميز هذا النوع من الاستبدال أنه جاء مغايراً للاستبدال الاسمي ، الذي تظن له علماء النصّ ، فهو أولاً يكثر فيه حذف أحد طرفي الاستبدال ، وثانياً يشفع الطرف المستبدل بما يدل على مغايرته ، وذلك باستعمال ألفاظ ، مثل : غير ، أمثال ، من ذلك قوله تعالى : ﴿لَا تُفَرُّوا عَنْكُمْ عَذَابًا لِيَمَّا وَيَسْتَبْدِلُ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (^(١٠)) . فمعنى قوله (يستبدل قوماً غيركم) : ((يهلكهم ويستبدل قوماً آخرين خيراً منهم وأطوع))(^(١١)) ، ومثله قوله تعالى : ﴿... وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ (^(١٢)) ، تعالى : ﴿نَحْنُ خَلَقَهُمْ وَشَدَدْنَا سَرْهَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا﴾ (^(١٣)) . فمعنى الآية : ((إذا شئنا أهلكنا هؤلاء ، وأمثالهم ، وجننا يقوم آخرين بدلهم))(^(١٤)) .

الاستبدال الفعلي : استعمل النصّ القرآني الكريم الاستبدال الفعلي ، وذلك بصيغة الفعل العام (فعل) ومشتقاته ، وكذلك بصيغة الفعل (عمل) ومشتقاته ، فحقّق هذا الاستبدال تماسكاً نصّياً عن طريق هذا الاستعمال ، وذلك بالرجوع إلى المعنى المقصود من الصيغة العامة فيما تقدّم من كلام . ومن الآيات الكريمة التي ورد فيها الاستبدال الفعلي ، قوله تعالى : ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَأْزَنُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ (^(١٥)) . فقد استعملت صيغة الفعل (تفعلوا) مرتين مُستبدلةً قوله في الآية السابقة لها ، وهو قوله (فاتوا) ، وذلك أنَّ ((معنى (فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا) : فإن لم تأتوا ، وعبر عن الإتيان بالفعل))(^(١٦)) .. ومنه قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتِغُوا جَنَّةَ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْزَنُوا يَحْرَبِ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْنِمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ (^(١٧)) . وقد استعمل الفعل (تفعلوا) مُستبدلاً للفعل (ذروا) في الآية السابقة ، وذلك أنَّ معنى الآية : ((فإن لم تتركوا ما بقي من الربا ، وسُمّي التارك فعلاً))(^(١٨)) ورأى الألوسي أنَّ الصيغة المُستبدلة جاءت تعويضاً للفعليين (اتقوا) ، و(ذروا) ، فقال : ((فإن لم تفعلوا) أي ما أمرتم به من الاتقاء ، وترك البقاياء))(^(١٩)) .

(١) البرهان في علوم القرآن : ٦٢ / ٤ .

(٢) مفردات ألفاظ القرآن : ٧٧٥ (ملك) .

(٣) سورة البقرة : ٤٨ ، ١٢٣ . مع بعض الاختلاف في بعض الألفاظ ، وتقديم وتأخير ألفاظ فيهما .

(٤) معاني القرآن ، الأخفش : ٧٣ .

(٥) مجمع البيان : ٢٥٤ / ١ .

(٦) البحر المحيط : ٣٠٨ / ١ . وينظر : روح المعاني : ٣٤٠ / ١ .

(٧) سورة آل عمران : ١٧٣ .

(٨) البرهان في علوم القرآن : ١٧٣ .

(٩) ينظر : التبيان في تفسير القرآن : ٥١ / ٣ - ٥٢ .

(١٠) سورة التوبة : ٣٩ .

(١١) البحر المحيط : ٤٢٠ / ٥ . وينظر : روح المعاني : ٤٠٢ / ١٠ .

(١٢) سورة محمد : ٣٨ .

(١٣) سورة الإنسان : ٢٨ .

(١٤) التبيان في تفسير القرآن : ١٨١ / ١٠ . وينظر : مجمع البيان : ٣٢٩ / ١٠ .

(١٥) سورة البقرة : ٢٣ - ٢٤ . ومثله في السورة نفسها : ٧١ ، وسورة النساء : ٦٦ ، وسورة المائدة : ٦٧ ، ٧٩ ، وسورة الحجرات : ٦ .

(١٦) البحر المحيط : ١٧٣ / ١ . وينظر : التبيان في تفسير القرآن : ١٧٥ / ١ ، وتفسير الكشاف : ١٠٧ / ١ ، ومجمع البيان : ١٤٩ / ١ ، وأنوار التنزيل : ٢٣٧ / ١ ، وروح المعاني : ٢٦٦ / ١ .

(١٧) سورة البقرة : ٢٧٨ - ٢٧٩ .

(١٨) البحر المحيط : ٧١٣ / ٢ . وينظر : التبيان في تفسير القرآن : ٣٦٥ / ٢ ، ومجمع البيان : ٣١٧ / ٢ .

(١٩) روح المعاني : ٧٢ / ٣ .

ومن الاستبدال بالفعل (عمل) ، قوله تعالى : ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانَ مَخْبُوضَةً فَإِنْ مِنْ بَعْضِكُمْ بَعْضًا فُلْيُودٌ الَّذِي أُوتِيَ مَاتَهُ وَلِيَّتُكَ اللَّهُ رَبُّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ أَمَّ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ۝﴾^(١) . فقد استبدل بالفعل (تعملون) الأفعال المتقدمة ، إذ إنَّ المعنى : ((بما تعملون عام في جميع الأعمال ، فيدخل فيها كتمان الشهادة ، وأداؤها على وجهها))^(٢) . ومثله قوله تعالى : ﴿وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ عَزَمَ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝﴾^(٣) . فقوله (الله أعلم بما تعملون) جاء مستبدلاً للكلام المتقدم ، قال الألوسي - مفسراً المفصود بـ (تعملون) : ((من الأباطيل التي من جملتها المجادلة))^(٤) ، فقصد بالمجادلة ما ورد بالفعل (جادلوك) ، فكان التعبير بقوله (تعملون) مستبدلاً له .

الاستبدال القولي : استعمل اسم الإشارة (ذلك) عنصر استبدال قولي ، وكذا استعمل ، وهو مسبوق بـ (كاف) التشبيه مُستبدلاً كلاماً سابقاً عليه ، وكذا وهو متصل بميم الجمع (ذلكم) ، ومثله اسم الإشارة للمفرد المؤنث (تلك) ، وكذلك استعمل حرف الجواب (بلى) ، مستبدلاً لعبارة سابقة له ، من ذلك قوله تعالى : ﴿هَٰؤُلَاءِ يَجْعَلُ فُصْيَامٌ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَمَاسَا هَٰؤُلَاءِ لَا يَسْتَطِيعُ فَاطْعَامٌ سِتْنَيْنِ مُسْكِيًا تِلْكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝﴾^(٥) . فقد استعمل اسم الإشارة (ذلك) مستبدلاً للكلام المتقدم ، فهو يشير : ((إلى الرجعة ، والتسهيل في الفعل من التحرير إلى الصوم ، والإطعام))^(٦) . وقوله تعالى : ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَهَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حُلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلَهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ۝﴾^(٧) ، إذ المعنى : ((يثبت الله الحق والباطل نظير ما فعل في السيل وزبده ، وما يوقدون عليه في النار وزبده))^(٨) . ومن الاستبدال بحرف الجواب (بلى) ، قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُخَيِّمُ الْمَوْتَى قَالَ أَوْ لَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي ۝﴾^(٩) . فالتعبير بـ (بلى) ((رد للنفي ... أو جواب لاستفهام مقترن بنفي))^(١٠) ، والمحذوف مفهوم من الكلام المتقدم ، فخره بعض العلماء بـ ((بلى أمنت))^(١١) ، وقدره الطبرسي بـ ((بلى أنا مؤمن))^(١٢) ، وتقديره المحذوف جملة اسمية أبلغ من تقديره جملة فعلية ؛ وذلك لأنَّ التعبير بالجملة الاسمية يدل على ثبوت الإيمان عنده ، وعدم تبدله . أما لو استعمل الجملة الفعلية التي استعملها غيره من المفسرين ، فإنَّ ذلك يدل على إيمانه في الماضي ، وهذا لا يعني - ضرورةً - امتداده إلى وقت التكلم . ومنه قوله تعالى : ﴿يُنَادُوهُمْ لَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ وَعَزَّكُمْ بِاللَّهِ النَّورُ ۝﴾^(١٣) . فالتعبير بالحرف (بلى) جاء مُستبدلاً الجملة (نكن معكم) ، فالجواب هو : كنتم معنا^(١٤) ، وجاء حرف الجواب استبدالاً لهذا القول .

المبحث الثالث : الحذف :

الحذف لغةً : قطف الشيء من الطرف كما يُحذف طرف ذنب الشاة . والحذف : الإسقاط ، يقال : حذف شعره أي أسقط^(١٥) . وحذف الصانع الشيء : سواه تسوية حسنة ، كأنه حذف كل ما يجب حذفه حتى خلا من كل عيب وتهتّب ، ومنه محذوف الكلام ، وحذفه تحذيفاً : هيأه وصنعه^(١٦) .

الحذف اصطلاحاً : لم يذكر الشريف الجرجاني^(١٧) إلا تعريف الحذف في العروض الشعري . وعرف الكفوي الحذف ((إسقاط الشيء لفظاً ومعنى ... والحذف ما ترك ذكره في اللفظ والنّية ، كقولك : أعطيت زيدا))^(١٨) . وذكر التهاني عند الصرّفين ، وعرفه بأنه ((إسقاط حرف أو أكثر ، أو حركة من كلمة ...))^(١٩) . ونقل أنَّ الحذف أربعة أنواع ، وذكر شروطاً ، وفوائد للحذف ، وهو في هذا مسبوق بابن جني^(٢٠) [ت ٣٩٣ هـ] والزركشي^(٢١) ، والسيوطي^(٢٢) . فيلاحظ أنَّ الزركشي قد فصل القول في الحذف ، وقسم الكلام فيه على خمسة أوجه ، هي : فائدته ، وأسبابه ، وأدلتّه ، وشروطه ، وأقسامه . لكن كلامه في بعض هذه الأوجه كان مُتداخلاً ، فبعض الفوائد كانت عين الأسباب ، فالتفخيم ، والإعظام ، وطلب الإيجاز ، والاختصار كانت من المُشتركات بين الفوائد والأسباب . وعرف بعض المُحدثين الحذف ، بقوله : ((إسقاط لصيغ

(١) سورة البقرة : ٢٨٣ .

(٢) البحر المحيط : ٧٤٧ / ٢ . وينظر : روح المعاني : ٨٦ / ٣ .

(٣) سورة الحج : ٦٨ . ومثلها في سورة الفتح : ٢٤ ، وسورة المنافقون : ٢ .

(٤) روح المعاني : ٢٥٥ / ١٧ .

(٥) سورة المجادلة : ٤ .

(٦) البحر المحيط : ١٠٤ / ١٠ . وينظر : روح المعاني : ٣٠١ / ٢٨ .

(٧) سورة الرعد : ١٧ . ومثلها في سورة محمد : ٣ ، وسورة الفتح : ١٥ .

(٨) الميزان في تفسير القرآن : ٢٤٤ / ١١ .

(٩) سورة البقرة : ٢٦٠ .

(١٠) بصائر ذوي التمييز : ٢٧٥ / ٢ .

(١١) تفسير الكشاف : ٣٠٤ / ١ - ٣٠٥ ، أنوار التنزيل : ٥٦٣ / ١ ، وروح المعاني : ٣٧ / ٣ .

(١٢) مجمع البيان في تفسير القرآن : ٢٦٧ / ٢ .

(١٣) سورة الحديد : ١٤ .

(١٤) ينظر : مجمع البيان : ٥٨٠ / ٩ ، وروح المعاني : ٢٥١ / ٢٧ .

(١٥) ينظر : العين : ٢٠١ / ٣ - ٢٠٢ ، وتاج اللغة وصحاح العربية : ٨٢٠ / ٣ ، ولسان العرب : ٧٧٤ / ١ .

(١٦) ينظر : أساس البلاغة : ١١٦ ، والقاموس المحيط : ٧٣٧ (حذف) .

(١٧) ينظر : التعريفات : ٦٨ .

(١٨) اللّٰتِيَّات : ٣٢٠ .

(١٩) كشاف اصطلاحات الفنون : ٤٢٥ / ١ .

(٢٠) ينظر : الخصائص : ٣٦٠ / ٢ - ٣٨١ .

(٢١) ينظر : البرهان في علوم القرآن : ٦٧ / ٣ - ١٤١ ، نحو النصّ نظرية وتطبيق ، سورة آل عمران أنموذجاً : ٥٧ .

(٢٢) ينظر : الإتقان في علوم القرآن : ١١١ / ٢ - ١٢٥ .

داخل النصّ التركيبيّ في بعض المواقف اللغويّة ، وهذه الصيغ يُفترض وجودها نحوياً ؛ لسلامة التركيب وتطبيقاً للقواعد ، ثمّ هي موجودة ، أو يُمكن أن تُوجد في مواقف لغويّة مُختلفة^(١) . يتبيّن من ذلك أهميّة الحذف ، ف ((لا تكاد تجد مؤلّفاً في النحو العربيّ ، وفي علم المعاني ، وفي إعجاز القرآن وتفسيره ، لم يتحدّث عن هذه الظاهرة))^(٢) .

الحذف في الدراسات النصّية الحديثة : اعتمد هاليداي ورقية حسن الحذف فصلاً من فصول كتابهما (الأساق في الانكليزية) ، وعرّفاه بأنّه ((افتراض عنصر غير موجود في النصّ ؛ لدلالة عنصر سابق عليه))^(٣) . ومع ذلك فقد كان اهتمام الدراسات الغربيّة بالحذف ضئيل العناية ((يشهد على ذلك عدم اهتمام المؤلّفات التي وضعوها في النحو بهذه الظاهرة ، واقتضاب الحديث عنها ... على أنّ بعض النظريات اللسانية التي أولت العمليات التحويليّة في نماذجها ومناهجها منزلة أساسيّة ... فاتخذ الحذف مطيّةً لتفسير تولّد بعض الأشكال النظريّة ، واعتمد على الحذف لربط الصلة بين ما سُمّي بالبنى السطحيّة والبنى العميقة ، والانتقال من إحداها إلى الأخرى))^(٤) . وعرّف روبرت دي بوجران الحذف بأنّه ((استبعاد العبارات السطحيّة التي يُمكن لمحتواها المفهوميّ أن يقوم في الذهن ، أو أن يُوسّع ، أو أن يُعَدّل بواسطة^(٥) العبارات الناقصة))^(٦) . ويُحدّد هاليداي ورقية حسن الحذف بأنّه ((في مُعظم الأمثلة يُوجد العنصر المُفترض في النصّ السابق . وهذا يعني أنّ الحذف علاقة قبلية))^(٧) . فالحذف عنصر من عناصر السبك لا يختلف عن الاستبدال إلّا في كونه ((استبدالاً بالصفر))^(٨) ، أي أنّ علاقة الحذف لا تُطَفّ أثراً ، ولهذا إنّ علاقة الاستبدال يُستترشد بالمُستبدل لمعرفة المُستبدل منه ، على حين الأمر على خلاف هذا في الحذف ، إذ إنّ العنصر المحذوف لا يحلّ محله شيء ، فيخلق ذلك فراغاً بنيويّاً يهندي القارئ إلى ملئه بالاعتماد على ما ورد في الجملة ، أو الجمل السابقة في النصّ^(٩) . وقسّم الباحثان الحذف على ثلاثة أنواع^(١٠) : اسمي ، وفعلّي ، وقوليّ ، وهذا في ضوء دراستهما للغة الانكليزية . أمّا في اللغة العربيّة ، فعلى الرغم من أنّ المؤلّفات العربيّة في النحو ، والصرف ، والمعاني ، والإعجاز ، وعلوم القرآن قد تناولت الحذف في مباحثها ، وقسمته على أقسام أكثر شموليّة وتفصيلاً من المؤلّفات الغربيّة ، فإنّه يُلاحظ أنّ من يكتب في نحو النصّ ، يلتزم بما جاء في كتب الغربيين الذين وضعوا المعايير النصّية في ضوء ما جاء في لغتهم من عبارات ، وتراكيب ، ونصوص . وليس خافياً على أحد أنّ لكلّ لغةٍ معاييرها ، وخصائصها التركيبيّة والبلاغيّة ، فكان الأجدر بهم أن يأخذوا المصطلح المعمول به في نحو النصّ ، ثمّ يبحثوا عن مظاهره التطبيقية في اللغة العربيّة ، والتراث اللغويّ العربيّ يزخر بالإشارات النصّية للحذف في العربيّة ، فأنماط الحذف ((تبدأ من حذف الحركة ، الصوت ، ثمّ الحرف ، ثمّ الكلمة ، ثمّ العبارة ، ثمّ الجملة ، ثمّ أكثر من جملة . والكلمة قد تكون اسماً ، وقد تكون فعلاً مفرداً))^(١١) . وقد ذكر ابن هشام [ت ٧٦١هـ] الحذف ، وتحدّث عن القضايا المُتعلّقة به ، وذكر أنماط الحذف بصورة تفصيليّة ، إذ جعل الحذف ستة أقسام ، هي^(١٢) :

- ١ - حذف الاسم : وهو على أقسام كثيرة ، منها : حذف المضاف ، وحذف المضاف إليه ، وحذف الصفة ، وحذف الموصوف ، وغيرها .
- ٢ - حذف الفعل .
- ٣ - حذف الحرف أو الأداة ، كما في حذف : حرف العطف ، فاء الجواب ، الجار
- ٤ - حذف الجملة ، كما في حذف : جملة القسم ، جواب القسم ، جملة الشرط
- ٥ - حذف الكلام بجملة .
- ٦ - حذف أكثر من جملة .

وقد أشار الدكتور صبحي الفقيّ إلى أقسام الحذف عند علماء العربيّة القدماء ، على الرغم من أنّه لم يأخذ بها جميعاً ، فقد أسقط حذف الحرف من دراسته النصّية ، واقتصر على خمسة أنماط ، هي : (حذف الاسم - حذف الفعل - حذف العبارة - حذف الجملة - حذف أكثر من جملة) . وقد ألزم الدكتور نفسه أن يعتمد هذه الأنماط الخمسة في تحليله للسور المكيّة موضوع بحثه^(١٣) . ومما يُمكن أن يُزاد إلى ذلك ، أن الدكتور صبحي الفقيّ قد أشار إلى أنماط من الحذف ، منها ما اصطلح عليه (الحذف السببي)^(١٤) ، ومثّل له ، بقوله تعالى : ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقَالَا اضْرَبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ نَضِيبًا ...﴾^(١٥) ، بمعنى : فضرِب فانفجرت . إنّ تسمية هذا النوع من الاستعمال اللغويّ بالحذف السببي ، لا بالدقة ، وذلك لأنّه يجمع بين الحذف والاستبدال^(١٦) ؛ ذلك لأنّ الفعل الموجود نتيجة للفعل المحذوف / السبب ، واستبدال له

(١) الحذف والتقدير في النحو العربيّ : ٢٠٠ .

(٢) علم اللغة النصّي بين النظرية والتطبيق ، دراسة تطبيقية على السور المكيّة : ١٩٢ / ٢ .

(٣) نحو النصّ ، نقد النظرية وبناء أخرى : ٨٢ .

(٤) أصول تحليل الخطاب : ١١٣١ / ٢ - ١١٣٢ .

(٥) كذا ، والصحيح : بوساطة .

(٦) النصّ والخطاب والإجراء : ٣٠١ . وينظر : نحو النصّ إطار نظريّ ودراسات تطبيقية : ١٢٧ .

(٧) لسانيات النصّ : ٢١ .

(٨) لسانيات النصّ : ٢١ .

(٩) لسانيات النصّ : ٢١ .

(١٠) المصدر نفسه : ٢٢ .

(١١) علم اللغة النصّي بين النظرية والتطبيق : ١٩٣ / ٢ .

(١٢) ينظر : مغني اللبيب عن كتب الأعاريب : ٦٩٢ / ٢ - ٧٤٧ .

(١٣) علم اللغة النصّي بين النظرية والتطبيق : ١٩٦ / ٢ .

(١٤) ينظر : نفسه : ١٩٥ / ٢ .

(١٥) سورة البقرة : ٦٠ .

(١٦) ينظر : مدخل إلى علم النصّ ومجالات تطبيقه : ٩٢ . إذ عدّ التعبير في الآية الكريمة من الاستبدال .

بالنتيجة ؛ ولذا لا يكون الحذف هنا استبدالاً بالصفر، كما ذهب إلى ذلك هاليداي ورقية حسن ، ومن أخذ برأيهما من دارسي النص^(١) في العربية ، ذلك أنهم رأوا أن ((الحذف لا أثر له إلا الدلالة ، فلا يحل شيء محل المحذوف ، أما الاستبدال فيترك أثراً يسترشد به المتلقي))^(٢) . والذي يُلحظ أن الآية السابقة تجمع بين الحذف والاستبدال ، وقد عبّر الشيخ الطوسي عن هذا المعنى في الآية ، بقوله : ((فاستغنى بدلالة الظاهر على المنزول منه ؛ لأن معنى الكلام : قلنا اضرب بعصاك الحجر فضربه فانفجرت منه))^(٣) . ولحذف فعل الضرب من موسى ﷺ ، والاكتفاء بفعل الأمر من الله تعالى ، والاستجابة من الحجر بالانفجار دلالة ، وذلك لأن فيها إشارة إلى إسناد الأمر كله إلى الله تعالى ، وأنه ليس لموسى ﷺ إلا تنفيذ ، ((ويدل على هذا المحذوف وجود الانفجار ، ولو كان ينفجر دون ضرب لما كان للأمر فائدة ... المراد : فقد حكمنا بترتب الانفجار على ضربك))^(٤) . ويرى صبحي الفقي أن الحذف الذي مرجعيته خارجية ، وليس نصية ، يكون تقدير المحذوف فيها معتمداً على السياق ، الذي يساهم في تفسيره ، وهذا النوع من الحذف ليس له علاقة بالتماسك النصي ، ويؤكد أن ((المرجعية الخارجية للحذف لا يتحقق التماسك من خلالها ؛ لأن أكثر الأماكن التي تتوفر فيها تلك المرجعية تكون على مستوى الجملة الواحدة ... [و] التماسك من خلال الحذف في الجملة الواحدة لا يتحقق ، بل لا بد من وجود أكثر من جملة . فالجملة الواحدة ليس فيها مذكور في الغالب ، يدل على المحذوف كي يمكن فيما بعد أن يتماسك المحذوف مع ما يدل عليه في الجملة))^(٥) . وفي كلامه نظر ، فلا نص من دون سياق ، أو مقام يرد فيه ، هذا من جانب . ومن جانب آخر ، فالمحذوف المفتر يجب أن يكون مفهوماً من جهة المتلقي ، وهو الطرف الثاني في عملية التواصل ، وقد يكون في ذكره إخلال باتساق النص ، أو جماليته ، وبلاغته . ومما يقرب من هذا الكلام هو أن يكون دليل الحذف تداولياً ، وليس نصياً ، من ذلك ما أشار إليه الزركشي ، إذ قال : ((أن تدل العادة على تعيين المحذوف ، كقوله تعالى : ﴿... لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا...﴾^(٦) ، أي : مكان قتال ، والمراد مكاناً صالحاً للقتال ؛ لأنهم كانوا أخبر الناس بالقتال ، والعادة تمنع أن يريدوا : لو نعلم حقيقة القتال))^(٧) . فمعرفتهم بالقتال أمر يحتمه العرف بين المتكلم ، والمتلقي . وقد ذهب بعض العلماء إلى أنهم قصدوا عدم معرفتهم للقتال ، قال الطبرسي : ((قال المنافقون : لو علمنا قتالاً لقاتلناهم ، قالوا ذلك إبطاء لعزهم في ترك القتال ، والرجوع إلى المدينة))^(٨) ، وقد قالوا ذلك ((دغلاً واستهزاء))^(٩) . وذهب آخرون إلى أنهم لم يعنوا عدم معرفتهم للقتال ، وإنما كان ذلك لأنهم يرون عدم التكافؤ بين الطرفين ، إذ إن معنى قولهم : ((لو نعلم ما يصح أن يسمى قتالاً)) (لاتبعناكم) ، يعنون أن ما أنتم فيه ؛ لخطأ رأيكم ، وزللكم عن الصواب ليس بشيء ، ولا يقال لمثلته قتال ، إنما هو إلقاء الأنفس إلى التهلكة))^(١٠) . وقد كان جواب الشرط لقولهم (لو نعلم قتالاً) جملة (لاتبعناكم) ، ((وفي جعلهم التالي مجرد الاتباع دون القتال الذي هو المقصود بالدعوة دليل على كمال تثبطهم عن القتال))^(١١) ، أو ((لأن السنتهم لكامل تثبط قلوبهم عنه لا تساعد على الإفصاح به))^(١٢) .

مظاهر الحذف في السور المدنية : تعددت مظاهر الحذف في القرآن الكريم عامة ، وفي السور المدنية خاصة ، ولم يكن الهدف من الحذف تحقيق التماسك النصي فقط ، بل كان للمسوغ الدلالي والبلاغي أثر في ذلك الحذف ؛ لأن الحذف في النص القرآني يُحقق دلالات بلاغية يكون لها أثرها في إظهار الإعجاز القرآني . فمن مظاهر هذا الحذف ما يأتي :

الحذف الحرفي : حذفت بعض الحروف في النص القرآني الكريم ، وكان لحذفها أثر في دلالة النص ، بحيث ألقث بظلالها على تماسك النص ، وانسجامه ، ومن أهم الحروف المحذوفة في السور المدنية ، الآتي :

أ - حذف (ها) التنبيه : يُستعمل هذا الحرف مع أسماء الإشارة في أغلب الأحيان ، وقد بين المالقي [ت ٧٠٢ هـ] دلالاته تد اتصاليها بها ، فقال : ((وقوعها مع أسماء الإشارة ... ولا تلزم معها إلا إذا أُريد الحضور والقرب))^(١٣) . يُستفاد من كلام المالقي المتقدم أن وجود (ها) التنبيه في أسماء الإشارة يدل على قرب المُشار إليه وحضوره ، والعكس صحيح ، فيدل حذف (ها) التنبيه من اسم الإشارة على الغيبة والبعد . ويبدو أن الاستعمال القرآني يؤيد ذلك ، فمن الآيات القرآنية الكريمة التي جاءت (ها) التنبيه محذوفة من اسم الإشارة ، قوله تعالى : ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يقرضُ اللهَ قرضاً حسناً فيضاعفه له ضعافاً كثيرة والله يقض ويبسط وإليه ترجعون﴾^(١٤) . فحذف (ها) التنبيه في الآية الكريمة يدل على أن المُشار إليه غير مُعين ، ف ((كان استعمال (ذا) بعد اسم الاستفهام للإشارة المجازية بأن يتصور المتكلم في ذهنه شخصاً موهوماً مجهولاً صدر منه فعل ، فهو يسأل عن تعيينه))^(١٥) ، ففي السؤال حث على التصديق ، ((فكأنه قيل : أيقض الله تعالى أحد فيضاعفه))^(١٦) .

(١) ينظر : لسانيات النص : ٢١ ، ونحو النص بين الأصالة والحداثة : ١٣٠ ، وإشكالات النص : ٣٥٦ .

(٢) نحو النص بين الأصالة والحداثة : ١٣٠ - ١٣١ .

(٣) التبيان في تفسير القرآن : ٣٣١ / ١ . وينظر : تفسير الكشاف : ١٤٧ / ١ ، مجمع البيان : ٢٩٩ / ١ ، وأنوار التنزيل : ٣٣٠ / ١ .

(٤) روح المعاني : ٣٦٧ / ١ .

(٥) علم اللغة النصي : ٢٠١ / ٢ - ٢٠٢ .

(٦) سورة آل عمران : ١٦٧ .

(٧) البرهان في علوم القرآن : ٧٢ / ٣ . وينظر : التبيان في تفسير القرآن : ٤٣ / ٣ .

(٨) مجمع البيان : ٦٥١ / ٢ .

(٩) إرشاد العقل السليم : ١١٠ / ٢ . وينظر : أنوار التنزيل وأسرار التأويل : ١١٢ / ٢ .

(١٠) تفسير الكشاف : ٤٢٨ / ١ . وينظر : البحر المحیط : ٤٢٤ / ٣ ، وأنوار التنزيل : ١١٢ / ٢ ، وروح المعاني : ٤٥٠ / ٤ .

(١١) إرشاد العقل السليم : ١١٠ / ٢ .

(١٢) روح المعاني : ٤٥٠ / ٤ .

(١٣) رصف المباني في شرح حروف المعاني : ٤٦٨ . وينظر : الجنى الداني في حروف المعاني : ٣٤٦ .

(١٤) سورة البقرة : ٢٤٥ .

(١٥) تفسير التحرير والتنوير : ٤٥٩ / ٢ .

(١٦) روح المعاني : ٧٥٦ / ٢ .

قوله تعالى : ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ...﴾^(١) . فليس في اسم الإشارة الوارد في الآية الكريمة مُشار مُعَيَّن ، بل الآية ((بيان لملكوته وكبريائه ، وأنَّ أحدًا لا يتمالك أن يتكلَّم يوم القيامة إلَّا إذا أذن له في الكلام))^(٢) . وقد كان بعض المفسرين أكثر صراحةً في بيان دلالة الإشارة ، فقال : ((وإذا) مزيدة للتأكيد ، إذ ليس ثَمَّ مُشار إليه مُعَيَّن))^(٣) . ومنه أيضًا قوله تعالى : ﴿إِنْ يَنْصَرِكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْلُقْكُمْ هُنَّ ذَا الَّذِي يَنْصَرِكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ قَيْتُوكُلُ الْمُؤْمِنُونَ﴾^(٤) . فقد حُذِفَتْ (ها) التنبيه من اسم الإشارة ، و((معناه التقرير بالنفي في صورة الاستفهام ، أي لا ينصركم أحد من بعده))^(٥) ، فبدل ذلك على أنه لا وجود - أصلًا لمن ينصرهم ، ((فهذا تنبيه على أنَّ الأمر كله لله))^(٦) . ومثله قوله تعالى : ﴿قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾^(٧) . فالآية الكريمة جاءت لنفي العاصم لهم من العذاب ، قيل : ((إنَّ أحدًا لا يقدر على منعه مما يريد الله فعله به))^(٨) . ومنه أيضًا قوله تعالى : ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَقْرُضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرُكَرِيمٌ﴾^(٩) . فدلالة الاستفهام والإشارة في الآية عامَّة لكلِّ مَنْ يكون مصداقًا لها ، إذ المعنى : ((يُقرض الله أحد فيضاعفه له ، أي فيعطيه أجره أضعافًا))^(١٠) ، فدلَّ حذف (ها) التنبيه على أنَّ معنى السؤال بليغ من الله تعالى إلى الاتفاق في سبيله ... فالاستفهام ليس على حقيقته ، بل للحثَّ^(١١) . وهذا الرأي في دلالة حذف (ها) التنبيه من اسم الإشارة لا يُنْقَضُ بما جاء في قوله تعالى : ﴿هَآؤُلَاءِ نَتَمَّاءُ وَلَا يَحْبُونَهُمْ وَلَا يُجْبُونُكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِنَّا لَقَوُّكُمْ قَائِلُونَ أَمَّاؤًا نَاخِلُونَ أَعْضُوا عَلَيْكُمْ الْإِيمَانَ مِنَ الْعَيْظِ قُلْ مُؤْتَوَا بِعَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾^(١٢) . فإنَّ عدم إعادة (ها) التنبيه في اسم الإشارة بأنَّ يكون الكلام (ها أنتم هؤلاء) ، الغرض منه إنزالهم منزلة البعد عن رضا الله تعالى في محبة المنافقين من أهل الكتاب ، فالمعنى في الآية : ((أنتم أولاء الخاطئون في موالاة منافقي أهل الكتاب . وقوله : (تحبونهم ولا يحبونكم) بيان لخطئهم في موالاتهم حيث يبذلون محبتهم لأهل البغضاء))^(١٣) . وكذلك قوله تعالى : ﴿قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي وَعَجَبْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾^(١٤) . فالآية تتضمن خطابًا بين الله تعالى ، وموسى عليه السلام ، والكلام فيه صادر من موسى فكان حذف (ها) التنبيه من الكلام تأدبًا من موسى عليه السلام مع الله سبحانه ، إذ الله - تبارك اسمه - غير غافل عن شيء حتَّى ينبِّهه عليه .

ب - حذف حرف الجرّ : حذف حرف الجرّ من الكلام في النصّ الكريم ، من ذلك قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾^(١٥) . فقد حذف حرف الجرّ (الباء) من قوله (الصلاة) اكتفاءً بدلالة ذلك من المذكور قبله في قوله (بالصبر) . وقد حُذِفَ الفعل (استعينوا) من الآية أيضًا ، إذ التقدير : واستعينوا بالصلاة . ويبدو أنَّ لهذا الحذف - الفعل والحرف - دلالة ؛ لأنَّ الصلاة عبادة مفروضة على المسلم ، والاستعانة ندب إلى العمل ، ف((الاستعانة طلب العون))^(١٦) ، أو ((الازدياد في القوة))^(١٧) ، ومعنى الاستعانة بالصبر : ((توطين النفس على الأمور تسهيلًا لها))^(١٨) وليس في الذدب وجوب . فكان قصر الاستعانة على الصبر ؛ لأنه في غير الفرائض . ومما يؤكد ذلك أنه ذُيِّلَ الكلام بقوله (إنَّ الله مع الصابرين) ، ولم يقل : ومع المُصلِّين ، فصرَّح بأمْر الاستعانة بالصبر لما فيه من الحثِّ ، ولم يُصرَّح في الصلاة ؛ لأنها فرض سواءٌ أكان المسلم صابرًا أم لا . وزيادة على ذلك ، فالآية قد خاطبتهم بـ (يا أيُّها الذين آمنوا) ، فكيف يأمرهم بالاستعانة بالصلاة ، وهم أصلًا مُصلِّون ، ثمَّ إنه قدَّم الصبر - مع أنَّ الصلاة أهمُّ منه - ؛ ((لأنَّه سبق ذكر تكاليف عظيمة شاق فراقها على مَنْ ألفها ، واعتادها))^(١٩) . وقد تكرر هذا الحذف في آية كريمةٍ أخرى ، وهي قوله تعالى : ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾^(٢٠) . فقد أمر بالصبر لما فيه من القمع للنفس من الوقوع في المحرمات ، أمَّا الصلاة ، فتأكيد الأمر بها ، بالتزام أوقاتها^(٢١) .

الحذف الاسميّ : تعدَّدت مظاهر الحذف الاسميّ في النصّ القرآنيّ الكريم ، فقد حُذِفَ (المبتدأ ، والخبر ، والفاعل ، والمفعول به ، والمجرور بحرف الجر ، والمضاف إليه ، وغيرها) . ومن صور الحذف ، قوله تعالى : ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ

(١) سورة البقرة : ٢٥٥ .

(٢) تفسير الكشاف : ٢٩٦ / ١ . وينظر : مجمع البيان في تفسير القرآن : ٢٤٠ / ٢ - ٢٤١ ، أنوار التنزيل : ٥٥٤ / ١ ، وروح المعاني : ١٤ / ٣ .

(٣) تفسير التحرير والتنوير : ٤٩٥ / ٢ .

(٤) سورة آل عمران : ١٦٠ .

(٥) التبيان في تفسير القرآن : ٣٣ / ٣ . وينظر : مجمع البيان : ٦٣٩ / ٢ ، وتفسير التحرير والتنوير : ٢٧٣ / ٣ .

(٦) تفسير الكشاف : ٤٢٣ / ١ ، وينظر : أنوار التنزيل : ١٠٩ / ٢ ، وروح المعاني : ٤٣٦ / ٤ .

(٧) سورة الأحزاب : ١٧ .

(٨) التبيان في تفسير القرآن : ٢٤٧ / ٨ ، وينظر : روح المعاني : ٢١٧ / ٢١ .

(٩) سورة الحديد : ١١ .

(١٠) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم : ٢٠٦ - ٢٠٧ .

(١١) روح المعاني : ٢٤٦ / ٢٧ .

(١٢) سورة آل عمران : ١١٩ .

(١٣) تفسير الكشاف : ٣٩٨ / ١ .

(١٤) سورة طه : ٨٤ .

(١٥) سورة البقرة : ١٥٣ .

(١٦) مفردات ألفاظ القرآن : ٥٩٨ (عون) .

(١٧) التبيان في تفسير القرآن : ٣٥ / ٢ .

(١٨) المصدر نفسه : ٣٤ / ٢ .

(١٩) البحر المحيط : ٢٩٨ / ١ .

(٢٠) سورة البقرة : ٤٥ .

(٢١) ينظر : تفسير التحرير والتنوير : ٤٦١ - ٤٦٤ .

وَالَّذِينَ مَعَهُ شِدَاءٌ عَلَى الْكَافِرِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ^(١). فقد حذف المبتدأ من الآية الكريمة ، إذ التقدير : هو ، أو ذلك محمد ^(٢) ، والذي سَوَّغَ هذا التقدير تقدّم ذكره في قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾ ^(٣) ، فـ ((ليس المقصود إفادة أنّ محمداً رسول الله ، وإلّا المقصود بيان رسول الله من هو ، بعد أن أجرى عليه من الإخبار)) ^(٤) . ومنه — أيضاً — قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا تِلْكَمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا اللَّهَ إِنَّمَا يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ ﴾ ^(٥) ، فقد رأى كثير من المفسرين أنّ في الآية حذفاً ، إذ تقدير الكلام : ((يخوفكم أوليائه ، أي من أوليائه)) ^(٦) ، والذي سَوَّغَ هذا التقدير لديهم قوله (فلا تخافوهم) . وعلى هذا التقدير يكون هناك محذوفان ، الضمير المنصوب ، وحرف الجر ، والآية بحسب ظاهرها تدلّ على أنّ التخويف من الشيطان لأوليائه ، وبحسب التقدير يكون التخويف للمسلمين بأوليائه ، وهناك فرق بين المعنيين . ويبدو أنّ المعنى هو : أنّ من يستجيب للتخويف الشيطاني يكون من أوليائه ؛ لذا نهى الله — تبارك وتعالى — عن الخوف منهم كي لا يكونوا داخلين في زمرة ؛ لذا فقد عدّ الطبرسيّ من يخاف الشيطان من المنافقين ، فقال : ((الشيطان يخوِّفُ المنافقين الذين هم أوليائه ، وأتاهم هم الذين يخافون من ذلك التخويف بأن يوسوس إليهم ، ويرهبهم)) ^(٧) . ولعلّ ممّا يدخل في هذا الكلام ما ذهب إليه الزركشيّ ، فقد عدّ قسماً من أقسام الحذف سماً (الاكتفاء) ، وعرفه بقوله : ((هو أن يقتضي المقام ذكر شيئين بينهما تلازم ، وارتباط ، فيكتفى بأحدهما عن الآخر ، يُخصّن بالارتباط العطفيّ غالباً)) ^(٨) ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ ... يَبْدَكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ^(٩) ، إذ تقدير الكلام : ببدك الخير ((والشرّ ، إذ مصادر الأمور كلّها بيده جلّ جلاله ؛ وإلّا أثر ذكر الخير لألّه مطلوب العباد ، ومرغوبهم إليه ، أو لألّه أكثر وجوداً في العالم من الشرّ ، ولأنّه يجب في باب الأدب ألاّ يُضاف إلى الله تعالى)) ^(١٠) . ولعلّ ممّا يعزّز هذا التقدير أنّه — تبارك وتعالى — نذّله بقوله (إنّك على كلّ شيء قدير) ، فدلّ على أنّ قدرته لا حدّ لها ، ولا مستعصي عليها . ولعلّ ممّا يقارب هذا القسم ما في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُيِّمَتْ فِتْنَةٌ فَاثْبَتُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ ^(١١) ، فقد جاء قوله (فتنة) مطلقاً من أيّ تخصيص ، و((المراد بها المشركة ، أو الباغية ؛ لأنّ الله لا يأمر المؤمنين بالثبوت لقتال أحد إلاّ من هو بهذه الصفة ، ولا يأمر بقتال المؤمنين)) ^(١٢) .

الحذف الفعليّ : ورد في النصّ الكريم حذف الفعل ؛ لدلالة الفعل المذكور في الآية الكريمة عليه ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدْ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقٌّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ ^(١٣) . يُلاحظ أنّ الفعل (يسجد) حذف من الترتيب المتسلسل (من في الأرض — الشمس — القمر — النجوم — الجبال — الشجر — الدواب — كثير من الناس) ، وقد دلّ الفعل المتقدم على الأفعال المحذوفة . وقد استعمل الفعل يسجد في حقيقته ومجازه ، و((السجود ضربان : سجود باختيار ، وليس ذلك إلاّ للإنسان ، وبه يستحقّ الثواب ... ، وسجود بتسخير ، وهو للإنسان ، والحيوانات ، والنباتات)) ^(١٤) ، فـ ((سجود الموجودات غير الإنسانيّة ليس إلاّ دلالة تلك الموجودات على أنّها مُسَخَّرَةٌ بخلق الله ، فاستعير السجود لحالة التسخير والانطباع)) ^(١٥) . أمّا مع البشر ، فهم يخضعون للإرادة الإلهيّة ، والتسخير الإلهي ، الذي يدلّ عليه المعنى المجازي للفعل (يسجد) ، والسجود المذكور لـ (كثير من الناس) ((هو السجود الحقيقيّ ، ولو لا إرادة ذلك لما احترس بإثباته لكثير من الناس لا لجمعهم)) ^(١٦) . وفي الآية فعل آخر محذوف ؛ لأنّ قوله (وكثير حقّ عليه العذاب) غير داخل في السجود ، قال الفراء : ((كيف رُفِعَ الكثير ، وهو لم يسجد ؟ فالجواب في ذلك أنّ قوله (حقّ عليه العذاب) يدلّ على أنّه : وكثير أبى السجود ؛ لأنّه لا يحقّ عليه العذاب إلاّ بترك السجود ، والطاعة)) ^(١٧) . في حين رأى الألوسيّ أنّ الفعل المحذوف مفهوم من الفعل الموجود ، والجملة التي بعده ، فـ ((الظاهر أنّ (كثير) مبتدأ ، والجملة بعده خبره ، وقد أقيمت مقام (لا يسجد) ، فكأنّه قيل : ويسجد كثير من الناس ، ولا يسجد كثير منهم)) ^(١٨) . ومنه قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ ^(١٩) . ففي الآية حذف الفعل (يصطفي) من المعطوف (من الناس) ، إذ التقدير : ويصطفي من الناس ، قال بعض المفسرين ((أي ويختار من الناس أيضاً مثل ذلك)) ^(٢٠) . وقد يكون سبب حذف الفعل في قوله (من الناس) أنّه مع الملائكة ، الذين

(١) سورة الفتح : ٢٩ .

(٢) ينظر : تفسير الكشاف : ٣٣٧/٤ ، والبحر المحيط : ٥٠٠/٩ ، وروح المعاني : ٣٨٥/٢٦ .

(٣) سورة الفتح : ٢٨ .

(٤) تفسير التحرير والتنوير : ١٧١ / ٢٦ .

(٥) سورة آل عمران : ١٧٥ .

(٦) التبيان في تفسير القرآن : ٥٤/٣ . وينظر : تفسير الكشاف : ٤٣٣/١ ، والبرهان في علوم القرآن : ١٣٨ ، وروح المعاني : ٤٦٤/٤ .

(٧) مجمع البيان : ٦٦٩/٢ .

(٨) البرهان في علوم القرآن : ٧٨/٣ .

(٩) سورة آل عمران : ٢٦ . ومنه أيضاً في سورة البقرة : ٣ ، ٢٠ .

(١٠) البرهان في علوم القرآن : ٧٨/٣ .

(١١) سورة الأنفال : ٤٥ .

(١٢) التبيان في تفسير القرآن : ١١٩/٥ .

(١٣) سورة الحج : ١٨ .

(١٤) مفردات ألفاظ القرآن : ٣٩٦ (سجد). وينظر : بصائر ذوي التمييز : ١٨٨ / ٣ .

(١٥) تفسير التحرير والتنوير : ١٦٤ / ١٧ .

(١٦) نفسه : ١٦٤ / ١٧ .

(١٧) معاني القرآن ، الفراء : ١٢٧/٢ . وينظر : التبيان في تفسير القرآن : ٢٤٧/٧ ، ومجمع البيان : ٢٠٩/٧ .

(١٨) روح المعاني : ١٧٣/١٧ — ١٧٤ .

(١٩) سورة الحج : ٧٥ .

(٢٠) التبيان في تفسير القرآن : ٢٨٠ / ٧ .

أخلصهم الله - تبارك وتعالى - لعبادته ، وتنفيذ أوامره يحتاج معهم - وهم متساوون أو متقاربون في الصفات - إلى اصطفاء بعضهم على بعض لأداء مهمة الرسالة . أمّا مع الناس ، الذين تختلف أخلاقهم ، وأعمالهم ، بل حتى السيرة الدينية للسلافة التي يخدرون منها ؛ لذا يكون الأتقياء ، وأصحاب النفوس الطاهرة أكثر ظهوراً ، وأشدّ تميّزاً من غيرهم من البشر ، فيكون اصطفاؤهم أكثر وضوحاً ، وأولى قبولاً ، ((واصطفاه الله بعض عباده قد يكون بإيجاده صافياً عن الشوب الموجود في غيره))^(١) ، فلم يحتج معه إلى ذكر الفعل . ومثله قوله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾^(٢) ، فالتقدير : ((ويصلي عليكم الملائكة بالدعاء ، والاستغفار))^(٣) . ويبدو أنّ حذف الفعل من قوله (الملائكة) ؛ لبيان أنّ صلاة الملائكة - الدعاء والاستغفار - لا يكون لها شأن مع صلاة الله - سبحانه وتعالى - يدلّ على ذلك قوله بعده (ليخرجكم) ، إذ لو كان لصلاة الملائكة مشاركة مع صلاة الله تعالى (الرحمة) لأصبح التعبير بقوله (ليخرجوكم) ، فكانت نتيجة الصلاة متوقفة على المشيئة الإلهية التي تحكم بالإخراج ، أو بغيره . في حين يلحظ أنّ قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾^(٤) . يثبت ممّا تقدّم أنّ الآية الكريمة قد أشركت اسم الله - تعالى - مع الملائكة بضمير الجمع في قوله (يصلّون) ، وسبب هذا الإشراك أنّه بيان للفعل من دون بيان نتيجته - بعكس ما كان في الآية السابقة - ، ثم أمر المؤمنين بالاعتداء به - عزّ وجلّ - وبملائكته في أدائهم للصلاة على نبيه . ومنه - أيضاً - قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ارْتَدَّوْا كُفْرًا كُنْ ثَقِيلُ تُوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ﴾^(٥) ، فقد رأى بعض العلماء أنّ في الآية حنفاً ، إذ إنّ ((أصله : لن يتوبوا ، فلن يكون لهم قبول توبة ، فأوثر الإلحاق ذهاباً إلى انتفاء الملزوم بانتفاء اللازم ، وهو قبول التوبة الواجب في حكمه تعالى ، وتقّس))^(٦) . وقد كان سبب هذا التقدير عندهم أنّ الله تعالى يقبل التوبة من عباده ، وإن كانت وهم يعانسون سكرات الموت ، فلما قال (لن تقبل توبتهم) ، دلّ على أنّهم لم يتوبوا . أمّا المفسرون الآخرون ، فقد رأوا أنّه ((لم تقبل توبتهم؛ لأنهم لم يكونوا فيها مخلصين))^(٧) ، أو ((لأنهم لا يتوبون إلا عند حضور الموت ، والمعاناة))^(٨) ، وقد علّوا ذلك بأنّه - تبارك وتعالى - ذكر بعدها قوله (وأولئك هم الضالّون) ، فدلّ على عدم إخلصهم ، وكذلك فإنّ الله - عزّ وجلّ - نفى قبول التوبة عمّن يكون على فراش الموت ، قال تعالى : ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْإِنِّ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارًا وَلَئِكَ عُقْبَانُهُمْ عَذَابٌ لِيمٌ﴾^(٩) . فدلّ ذلك على أنّ توبتهم ((تكون في حال الإلجاء))^(١٠) ، وليست توبة صادقة لمعرفتهم الحقّ ، وندمهم على ما فعلوا فيما مضى من حياتهم .

حذف الجملة : من ذلك حذف جملة الشرط ، من قوله تعالى : ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذَا مَنَّ اللَّهُ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾^(١١) . فقد حُذفت أداة الشرط وفعله من الكلام ، إذ تقدير الكلام : إنّ قعدتم إنكم مثلهم^(١٢) ، وقد دلّ الفعل الموجود فعل الشرط المحذوف وقد يكون الفصل بين اسم (إنّ) ، وخبرها بالأداة (إذا) ، وذلك في قوله (إنكم إذا مثلهم) دالاً على أنّ وصفهم بالكفر متوقف على مجالستهم لهم ، بمعنى أنّ تحقق الخبر للمبتدأ يتوقف على حصول جملة الشرط ، وقد أكد الكلام بقوله (إنّ الله جامع المنافقين والكافرين) ، والتعبير بـ (المنافقين) لمنّ (يستهزأ بها) ، و(الكافرين) لمنّ (يكفر بها) ، فكان القعود معهم يدخلهم في إحدى الطائفتين ، فيكونوا (إذا مثلهم) . ومن حذف جواب الشرط ، قوله تعالى : ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾^(١٣) . فجواب (لو) الشرطيّة محذوف تقديره : لكان خيراً لهم .

حذف شبه الجملة : من ذلك قوله تعالى : ﴿إِلَّا تَتُفَرِّقُوا عَذَابًا لِيَمَّا يُسْتَبَدَّلُ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(١٤) . فقد حذف شبه الجملة (بكم) ، والتقدير : يستبدل بكم قوماً غيركم^(١٥) ، ولعلّ الذي سوّغ تقدير المحذوف أنّ ((الاستبدال : جعل شيء مكان آخر))^(١٦) ، والله تعالى قد ذكر الضمير الدالّ على المحذوف ، إذ أنذرهم بقوله (يعتبركم) ، وبالتغيير بـ (غيركم) . ومثله قوله تعالى : ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ ...﴾^(١٧) . فـ ((معنى يستفتونك : يسألونك يا محمد أنّ فتيتهم في الكلاله ، وحذف اقتصاراً لما دلّ الجواب عليه))^(١٨) . ويبدو أنّ في حذفها من الفعل

(١) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز : ١٧٨ / ٢ .

(٢) سورة الأحزاب : ٤٣ .

(٣) التبيان في تفسير القرآن : ٢٦٤ / ٨ .

(٤) سورة الأحزاب : ٥٦ .

(٥) سورة آل عمران : ٩٠ .

(٦) البرهان في علوم القرآن : ٢٤٧ / ٣ . وينظر : البحر المحيط : ٢٥٤ / ٣ ، وروح المعاني : ٢٨٧ / ٣ .

(٧) التبيان في تفسير القرآن : ٥١٦ / ٢ .

(٨) مجمع البيان : ٥١٠ / ٢ .

(٩) سورة النساء : ١٨ .

(١٠) مجمع البيان : ٥١٠ / ٢ .

(١١) سورة النساء : ١٤٠ .

(١٢) ينظر : مجمع البيان : ٣١٥ / ٣ ، وتفسير التحرير والتنوير : ٢٨٥ / ٤ .

(١٣) سورة التوبة : ٥٩ .

(١٤) سورة التوبة : ٣٩ .

(١٥) ينظر : مجمع البيان : ٧٨ / ٥ ، وأنوار التنزيل : ١٤٥ / ٣ .

(١٦) مفردات ألفاظ القرآن : ١١١ (بدل) . وينظر : بصائر ذوي التمييز : ٢١٦ / ٢ .

(١٧) سورة النساء : ١٧٦ .

(١٨) التبيان في تفسير القرآن : ٣٨٦ / ٣ . وينظر : مجمع البيان : ٣٦٦ / ٣ ، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل : ٢٨١ / ٢ .

الأول ، وذكرها في الفعل الثاني دلالة ، فالفعل الأول يدلّ على طلب الاستفتاء ، والمقصود بمنّ يجب الطلب هو النبيّ p ، والفعل الثاني فاعله ضمير مستتر يعود على الله – تبارك وتعالى - ، فكان حذفها من الأول للدلالة على أنّ جواب الطلب/ الحكم لله تعالى ، وليس للنبيّ p ؛ لذا فقد قُدم لفظ الجلالة بأن جعل الجملة اسميّة ردّاً على جملتهم الفعلية للدلالة على ثبوت الحكم الذي مصدره الوحي الإلهي .

المبحث الرابع : الاتساق المعجمي :

الاتساق لغةً : ((الوسق : ضمُّك الشيء إلى الشيء بعضهما إلى بعض . والاتساق : الانضمام والاستواء ، كاتساق القمر إذا تمّ وامتلأ فاستوى))^(١) . ورأى ابن فارس^(٢) أنّ الوسق يدلّ على الجمع والحمل . **الاتساق اصطلاحاً :** عرّف الراغب الاتساق بـ ((الاجتماع والأطوار))^(٣) . والاتساق المعجمي أحد العناصر الخمسة التي وضعها هاليداي ورقية حسن للاتساق في اللغة الانكليزية^(٤) ، وينقسم في نظر الباحثين إلى : التكرار ، والتضام .

التكرار في اللغة والاصطلاح :

التكرار لغةً^(٥) : الكرّ : الرجوع عليه ، ومنه التكرار ، وكرّث الشيء تكريراً وتكراراً ، فهو يدلّ على جمع وترديد ، ذلك رجوعك إليه بعد المرة الأولى . **التكرار اصطلاحاً :** عرّف الراغب الكرّ ، بقوله : ((العطف على الشيء بالذات ، أو بالفعل))^(٦) ، وعرّفه الشريف الجرجاني بـ ((الإتيان بشيءٍ مرّةً بعد أخرى))^(٧) ، وعرّفه الزركشي ، بقوله : ((إعادة اللفظ أو مرادفه لتقرير معنى ؛ خشية تناسي الأول لطول العهد به))^(٨) . وعرّفه الكفوي^(٩) والتهانوي^(١٠) تعريفاً قريباً من تعريف الشريف الجرجاني . وذكر التهانوي نوعاً من التكرار ((يسمى التريديد : وهو ما كان لتعدد المتعلق بأن يكون المكرّر ثانياً متعلقاً بغير ما تعلق به الأول))^(١١) . ومثّل له بقوله تعالى : ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَتِّبِينَ﴾^(١٢) . فقد اشترط أن يكون اللفظ المكرّر دالاً على المعنى نفسه ، فإن لم يدلّ ، فليس بتكرار^(١٣) . وقد عرفت المؤلفات العربية التكرار ، وعدّته نوعاً من الفصاحة ، فقد أورد له ابن رشيق القيرواني [ت ٤٥٦ هـ] باباً في كتابه العمدة^(١٤) ، وأفرد الكرمانيّ^(١٥) [ت ٥٠٠ هـ] له مؤلفاً خاصاً ، اعتنى فيه بالآيات المكرّرة في القرآن الكريم .

التكرار في الدراسات النصّية الحديثة : ذهب علماء النصّ إلى أنّ التكرار عنصر من عناصر الاتساق المعجمي ، فقد قسّم هاليداي ورقية حسن الاتساق المعجمي على نوعين : التكرار ، والتضام . فالتكرار عندهما ((أية حالة تكرير يمكن أن تكون (أ) الكلمة نفسها ، (ب) مرادفاً أو شبه مرادف ، (ج) كلمة عامّة ، (د) أو اسماً عاماً))^(١٦) . ونقل محمد خطابي عنهما أنّ العنصر المكرّر لا يُحيل دوماً على المحال إليه نفسه ، بمعنى : ((أنّه قد تكون بين العنصرين علاقة إحالية ، وقد لا تكون ، وفي الحالة الأخيرة نكون أمام علاقات أخرى فرعية ، في إطار علاقة التكرار نفسها))^(١٧) . إنّ الحالة الأخيرة من التكرار ، أي عندما لا يكون بين العنصرين (المكرّر ، والمُحال عليه) علاقة إحالية ، تنقل العنصر المكرّر – كما يرى البحث – من جهة الاتساق المعجمي إلى جهة الاستبدال ، الذي يتحقّق في قسمه الاسمي حالة عدم التطابق الدلالي بين العنصر المُستبدل والمُستبدل . ورأى محمد الشاوش أنّ ((القصد بتكرير الاسم إمّا هو تكرير المعنى ، أي المُسمّى ، وليس تكرير اللفظ ، أي إثبات عمليّة تقوم على تكرير لفظ أو استبداله بأخر دون تجدّد في الخارج ، فيكون الأمر من قبيل تجدّد الدلالة على المعنى ، وتعطلّ تجدّد الإحالة على الخارج))^(١٨) . وقد حاول صُبّحي الفقّي أنّ يضع تعريفاً للتكرار ((بضمن وظائفه النصّية بالقول إنّ التكرار هو إعادة ذكر لفظ ، أو عبارة ، أو جملة ، أو فقرة ، وذلك باللفظ نفسه ، أو بالترادف ؛ وذلك لتحقيق أغراض كثيرة أهمّها تحقيق التماسك النصّي بين عناصر النصّ المتباعدة))^(١٩) . وهذا التعريف لم يُقدّم جديداً على ما جاء به القدماء ، أو علماء النصّ المُحدثون . ورأى روبرت دي بوجراند أنّ التكرار يُحقّق التماسك عندما ((تتطلّب إعادة اللفظ وحدة الإحالة بحسب مبدأي الثبات والاقتصاد))^(٢٠) ، ثمّ استدرّك قائلاً : ((ولكنّها قد تؤدي إلى تضارب في

(١) كتاب العين : ١٩١ / ٥ . وينظر : لسان العرب : ٤ / ٤٢٨٤ . (وسق) .

(٢) معجم مقاييس اللغة : ٦٣١ / ٢ . (وسق) .

(٣) مفردات ألفاظ القرآن : ٨٧١ . (وسق) .

(٤) ينظر : لسانيات النصّ : ١١ .

(٥) ينظر : كتاب العين : ٢٧٧ / ٥ ، وتاج اللغة وصحاح العربية : ٢ / ٤٩٩ ، ومعجم مقاييس اللغة : ٢ / ١٩٩ ، وأساس البلاغة : ٥٤٢ ، ولسان العرب : ٤ /

٣٤٦٣ ، والقاموس المحيط : ٤٣٦ . (كرّ) .

(٦) مفردات ألفاظ القرآن : ٧٠٥ . (كرّ) .

(٧) التعريفات : ٥٢ .

(٨) البرهان في علوم القرآن : ١٠ / ٣ .

(٩) ينظر : التلخيصات : ٢٤٧ – ٢٤٨ .

(١٠) ينظر : كشاف اصطلاحات الفنون : ١١ / ٤ .

(١١) كشاف اصطلاحات الفنون : ١١ / ٤ .

(١٢) سورة المرسلات : ١٥ . حيث كرّرت الآية عشر مرّات في السورة الكريمة .

(١٣) كشاف اصطلاحات الفنون : ١١ / ٤ – ١٢ .

(١٤) ينظر : العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده : ٩٢ / ٢ .

(١٥) ينظر : أسرار التكرار في القرآن .

(١٦) لسانيات النصّ : ٢٣٧ .

(١٧) لسانيات النصّ : ٢٣٧ . وينظر : إشكالات النصّ : ٣٦٠ .

(١٨) أصول تحليل الخطاب : ١١٠٨ / ٢ . وينظر : أدعية الصحيفة السجّادية : ٨٨ .

(١٩) علم اللغة النصّي بين النظرية والتطبيق : ٢٠ / ٢ .

(٢٠) النصّ والخطاب والإجراء : ٣٠٣ . وينظر : إشكالات النصّ : ٣٦٢ .

حين يتكرر المُشترك اللفظي مع اختلاف المدلولات^(١) . وقد أشار أيضاً إلى أنَّ إعادة اللفظ يمكن حصوله مع انتقال الوظيفة النحوية لعبارة ما ، ولكنَّ الإحالة بين الاثنين تبقى واضحة ، كأنَّ ينتقل من الصفة إلى الاسم ، أو غيرها ، فيتخلَّص من الرتابة التي يؤدي إليها التكرار ، فضلاً عن أنَّ إعادة اللفظ يُساعد مُنتج النصَّ على خلق صور لغوية جديدة تُسهِّل فهم العنصر المُكرَّر^(٢) . وسيظهر البحث صحة كلام دي يوجراند في الانتقال بالوظيفة النحوية في الألفاظ المُكرَّرة ، وإثراها في تماسك النص . ولم تُسر الدراسات النصِّية الحديثة إلى أقسام التكرار ، ولكنها حدَّدت العلاقة بين العنصرين (المُكرَّر والمُكرَّر) ، من حيث التطابق ، أو الترادف ، أو الكلمة العامَّة ، أو الاسم العام . أمَّا التقسيمات التي وضعتها للحذف والاستبدال (اسم - فعل - قول) ، فلم تأخذ به في التكرار ، يُلاحظ أنَّ التكرار لا يكون دائماً اسمياً ، فقد يكون حرفاً ، أو اسماً ، أو فعلاً ، أو تركيباً ، أو جملة . وقد تنبَّه القدماء إلى هذا التقسيم . فمن أمثلة التكرار الحرفي في السور المدنية ، قوله تعالى : ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ سُوءٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾^(٣) . فقد كرَّر حرف الجرَّ (اللام) في البذل (لَمَن) ، بعد أن ذكره في المُبدل منه (لَكُمْ) ، والغرض من هذا التكرار للحرف ((للتأكيد أنَّ الإيمان يستلزم ذلك))^(٤) . ومن أمثلة التكرار بالاسم ، قوله تعالى : ﴿قَوْلٌ لِّلَّذِينَ يُكْفَبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ نَجْعٌ وَدُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيُشْتَرَوْا بِهِ تَمَتًّا قَلِيلًا قَوْلٌ لِّمَن كَانَ يَكْتُمُ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾^(٥) . فقد كرَّر كلمة (ويل) ثلاث مرَّات في الآية الكريمة ، وهذان الويلان تشقيق لكلمة (ويل) الأولى ، إذ الويل في قوله (فويل لهم ممَّا كسبت أيديهم) ؛ لأجل التحريف الذي وضعوه ، و(ويل) في قوله (وويل لهم ممَّا يكسبون) ؛ لأجل الكسب من ذلك الوضع^(٦) . ورأى الفيروز آبادي أنَّ (ويل) في قوله (فويل لهم ممَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ) ((لتبديل نعت النبيِّ p ، وويل على المعاصي [أي في قوله] (وويل لهم ممَّا يكسبون) أي من الذنوب))^(٧) . ومن ذلك قوله تعالى : ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَتُوبُونَ أَلَسْتُمْ بِأَلْتَحْسِبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِيَّةِ وَلَدُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ النَّبِيِّ وَلَدُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾^(٨) . فقد تكرر اسم (الكتاب) ثلاث مرَّات ، ورأى الراغب أنَّ ((الكتاب الأول : ما كتبه بأيديهم المذكور في قوله : ﴿قَوْلٌ لِّلَّذِينَ يُكْفَبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ﴾^(٩) . والكتاب الثاني : التوراة ، والثالث : لجنس كتب الله ، أي : ما هو من شيء من كتب الله - سبحانه وتعالى - وكلامه))^(١٠) . ولعلَّ بين الثاني والثالث نوع من التكرار ، فهو من باب التكرار بالاسم العام ، فالتوراة داخلة في جنس كتب الله تعالى . ورأى الفيروز آبادي أنَّ الكتاب في المواضع الثلاثة التوراة^(١١) . ومن التكرار الاسميَّ يشبه المُرادف ، قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾^(١٢) . فالتكرار يشبه المُرادف بين (ربكم) ، و (الله) ، وهذا التكرار قد جاء معكوساً ، فلفظ الجلالة أعم من كلمة (رب) ، وكأنه من تكرار الخاص بالعام - وقد سبق أن ذكر أنَّ هذا النوع يمكن أن يكون استبدالاً بالوصف المناسب لسياق الكلام - ، وهذا ما ذهب إليه الألوسي ، إذ قال : ((وضع الاسم الجليل موضع الضمير للإشارة إلى جميع صفات الكمال ترقياً بعد صفة الربوبية ، فكأنه قيل : اتقوه لربوبيته ، وخلقه إياكم خلقاً بديعاً ، وكونه مستحقاً لصفات الكمال كلها))^(١٣) . ويُلاحظ في هذه الآية أمران : الأول : أنه استعمل مع خطاب الناس ؛ لأنه كان في مقام الترغيب لهم ، فكونه الربَّ يتطلَّب منهم شكره والاعتراف بفضله . أمَّا استعمال لفظ الجلالة ؛ فالأنَّ المقام مقام تشريع ، فكان لفظ الجلالة أنسب للترهيب^(١٤) . والآخر : هو أنَّ في الآية تكراراً بالفعل (اتقوا) ، ولعلَّ السياق يوضِّح أنَّ الفعل الأول ، أمر التقوى فيه يُفيد العموم ، وأنَّ الفعل الثاني - وهو في سياق التشريع كما تقدَّم - أمر التقوى للمسلمين دون غيرهم^(١٥) . ومن التكرار بالاسم العام ، قوله تعالى : ﴿يَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَتُكْرَمُ فِيهَا الْقِتَالَةُ يَتَذَكَّرُ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُنْظَرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَئِكَ لَهُمْ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ قُلُودَهُ وَاللَّهُ لَكَ خَيْرٌ لَّهُمْ﴾^(١٦) . فقد كرَّر (القتال) بالاسم العام (الأمر) ، قال بعض المفسرين : ((والتعريف في (الأمر) تعريف العهد ، أو اللام عن المضاف إليه ، أي أمر القتال المتقدم أنفاً في قوله (وذكر فيها القتال))^(١٧) . ومن التكرار بالاسم العام قوله تعالى : ﴿... تِلْكَ بِأَيْدِيهِمْ ظَمًا وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَحْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْنُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نِيلاً إِلَّا لَا يَكُتِبُ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ...﴾^(١٨) . فقد كرَّر بالاسم العام

(١) نفسه : ٣٠٣ .

(٢) النص والخطاب والإجراء : ٣٠٥ - ٣٠٦ . أطلق سعد مصلوح على هذا النوع من التكرار اسم (التكرار الجزئي) ، ينظر : نحو أجزائية للنص الشعري ، دراسة في قصيدة جاهلية : ١٥٨ .

(٣) سورة الممتحنة : ٦ .

(٤) تفسير التحرير والتنوير : ١٣٣ / ٢٨ .

(٥) سورة البقرة : ٧٩ .

(٦) ينظر : البحر المحيط : ٤٤٨ / ١ ، تفسير التحرير والتنوير : ٥٥٩ / ١ .

(٧) بصائر ذوي التمييز : ٢٩٠ / ٥ .

(٨) سورة آل عمران : ٧٨ .

(٩) سورة البقرة : ٧٩ .

(١٠) مفردات ألفاظ القرآن : ٧٠١ (كتب) .

(١١) بصائر ذوي التمييز : ٣٣١ / ٤ .

(١٢) سورة النساء : ١ .

(١٣) روح المعاني : ٥٣٥ / ٤ .

(١٤) ينظر : البحر المحيط : ٩٦ / ٣ .

(١٥) ينظر : تفسير التحرير والتنوير : ١٠ / ٤ - ١١ .

(١٦) سورة محمد : ٢٠ - ٢١ .

(١٧) تفسير التحرير والتنوير : ٩٣ / ٢٦ .

(١٨) سورة التوبة : ١٢٠ . ومثله في سورة التحريم : ١١ .

التكرار الفعلي : ومن التكرار الفعلي ، قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴾^(١) . فقد كُرِّرَ الفعل (اصطفاك) في الآية الكريمة ((على سبيل التوكيد ، والمبالغة))^(٢) ، أو على سبيل البيان ف ((لَمَّا أَطْلُقَ الاصطفاء الأول بَيْنَ الثَّانِي أَنَّهُا مَصْطَفَاةٌ عَلَى النِّسَاءِ دُونَ الرِّجَالِ))^(٣) ، ورأى الزمخشري أَنَّ معنى الأول غير الثاني ، إِذْ إِنَّ الْأَوَّلَ ((حين تَقَبَّلَكَ مِنْ أَمِّكَ وَرَبَّكَ وَاخْتَصَّكَ بِالْكَرَامَةِ ... (واصفواك) آخِرًا) (على نساء العالمين) بَأَن وَهَبَ لَكَ عِيسَى مِنْ غَيْرِ أَبٍ ، وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ لِأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ))^(٤) . ويبدو أَنَّ معنى الاصطفاء الثاني – الذي ذهب إليه الزمخشري – غير دقيق ، إِذْ إِنَّمَا لَمْ تَكُنْ وَلَدْتَ عِيسَى أ بعدُ ؛ بِدَلِيلِ الْبَشَارَةِ بِهِ فِيمَا يَأْتِي مِنَ الْآيَاتِ ، وَقَدْ فَسَّرَهُ الشَّيْخُ الطُّوسِيّ ((بِالِاخْتِيَارِ لَوْلَادَةِ نَبِيِّهِ عِيسَى أ))^(٥) . ومن التكرار الفعلي بشبه المُرَادِف ، قوله تعالى : ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُّوْكُمْ مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كَقَارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾^(٦) . فقد كُرِّرَ الفعل (فاعفوا) بفعل شبه مُرَادِف له ، هو (واصفحوا) ، وَإِنْ كَانَ الطَّبْرَسِيّ يَرَى أَنَّ ((الصفح ، والعفو ، والتجاوز عن الذنب بمعنى))^(٧) ، ويبدو أَنَّ هنالك فارقًا دلاليًا بَيْنَ الْعَفْوِ وَالصَّفْحِ ، فَالْعَفْوُ ((ترك العقوبة))^(٨) ، فِي حِينِ أَنَّ الصَّفْحَ ((ترك التَّزْيِيبِ ، وَهُوَ أَبْلَغُ مِنَ الْعَفْوِ ... وَقَدْ يَعْفُو الْإِنْسَانُ وَلَا يَصْفَحُ))^(٩) . وَلَمْ يَكْتَفِ بِذِكْرِ (اصفحوا) ؛ ((لِقَصْدِ التَّدْرِيجِ فِي أَمْرِهِمْ بِمَا قَدْ يُخَالِفُ مَا تَمِيلُ إِلَيْهِ أَنْفُسُهُمْ مِنَ الْإِنْتِقَامِ تَلَطُّفًا مِنْ اللَّهِ مَعَ الْمُسْلِمِينَ فِي حَمْلِهِمْ عَلَى مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ))^(١٠) ، وَقَدْ زَادَ الْأَلُوسِيّ الْمَعْنَى جَمَالًا حِينَ ذَكَرَ أَنَّهُ – تَبَارَكَ وَتَعَالَى – قَالَ : عَفْوًا ، وَلَمْ يَقُلْ : اصْبِرُوا ؛ ((إِذَانًا بِتَمْكِينِ الْمُؤْمِنِينَ تَرْهِيْبًا لِلْكَافِرِينَ))^(١١) . وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اطِيعُوا وَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا وِلْيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ تِلْكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾^(١٢) . فَقَدْ كُرِّرَ الْفِعْلَ (اطِيعُوا) مَعَ (الرَّسُولِ) ، وَلَمْ يُكْرَرْ مَعَ (أُولَى الْأَمْرِ) ؛ لِئَنَّهُ عَلَى أَنَّ ((طَاعَةَ الرَّسُولِ أَيْضًا هِيَ طَاعَةُ اللَّهِ ؛ لِأَنَّهُ تَعَالَى أَمْرُ طَاعَةِ رَسُولِهِ))^(١٣) . فَأَمَرَ الرَّسُولَ أَمْتِدَادَ لِأَمْرِ اللَّهِ – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – ، كُلَّ أَمْرٍ لِأُولَى الْأَمْرِ كَذَلِكَ .

التكرار التركيبي: من ذلك قوله تعالى: ﴿قَبْلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلَا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رَجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ يَمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾^(١٥). فقد كرر عبارة (الذين ظلموا) ، وسببه أَنَّ ((في تكرير (الذين ظلموا) زيادة في تقييح ، وإيدان بأن إنزال الرجز عليهم لظلمهم))^(١٦)، أو ((لنلّا يتوهم أَنَّ الرجز عمّ جميع بني إسرائيل))^(١٧). ومنه أيضاً، قوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَقْفَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ أَنْتُمْ تَشْهَدُونَ يَا هَلْ الْكِتَابَ لِمَ تَتَّبِعُونَ الْهَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْفُرُونَ بِالْحَقِّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾^(١٨). فقد كرر النداء (يا أهل الكتاب) ؛ وذلك ((للقصد التوبيخ وتسجيل باطلهم عليهم))^(١٩)، فوصفهم بأهل الكتاب يُوجب عليهم ، ويلزمهم الإيمان بآيات الله ، وإظهار الحق ، وعدم لبسه بالباطل .

التكرار بالجملة: من التكرار الوارد في النصّ الكريم قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لِعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ... فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ...﴾^(٢٠) . فقد كرّرت جملة الشرط وجوابه (مَنْ كَانَ مِنكُم مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ) ، مع حذف شبه الجملة (منكم) لتقدمها في جملة الشرط الثانية ، وكان المُسَوِّغ لهذا التكرار ؛ دفع توهم قد ينتج من إيجاب الصوم ورفع الرخصة في قوله (فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ) ، فأعيد الشرط وجوابه ؛ كي يكون ((مخصصاً له ؛ لأنّ المسافرين ، والمريض مِمَّنْ شهد الشهر ، ولعلّ تكريره لذلك ، أو لنلّا يتوهم نسخه))^(٢١) . ومن أوضح الأمثلة على تكرار الجملة في النصّ القرآنيّ ، التكرار الواقع في سورة (الرحمن) ، وذلك في قوله: ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِرُكْبَاتٍ﴾ ، فقد كرّرت إحدى وثلاثين مرّة في السورة ؛ ((وذلك أنه عدّد نعماءه ، وأكثّر عبادته آلاءه ،

(٢١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل: ٤٦٦/١. وينظر: تفسير التحرير والتنوير: ١٧٢/٢.

وَنَبِّهَهُمْ عَلَى قُدْرَتِهَا ، وَقُدْرَتِهِ عَلَيْهَا ، وَلُطْفِهِ فِيهَا ، وَجَعَلَهَا فَاصِلَةً بَيْنَ كُلِّ نِعْمَةٍ لِيَعْرِفَ مَوْضِعَ مَا أُسْدَاهُ إِلَيْهِمْ مِنْهَا))^(١) . ومن تكرار الجملة ، قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾^(٢) . وقد وَجَّهَ الكرمانِي هذا التكرار بأنه لما أتى على ذكر الخصمين في قوله تعالى : ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾^(٣) ، ((لم يكن بدُّ من ذكر الخصم الآخر))^(٤) . وهناك نوع من التكرار يحصل مع الانتقال بالوظيفة النحويّة – أشار إليه روبرت دي بوجراند بحسب ما تقدّم - ، وقد وجد البحث هذا النوع من التكرار في السور المدنية من النصّ الكريم ، من ذلك قوله تعالى : ﴿كَمْ تَرَى إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ لَوْفٌ حَذَرُ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ... كَمْ تَرَى إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لَنَبِيِّ لَهُمْ أَبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نَقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا لَا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَاءِنَا...﴾^(٥) . فقد كرّر الفعل (خرج) بصيغة الفعل المتعدي بالهمزة (أخرج) . ويبدو أنّ استعمال الصيغتين المختلفتين للفعل للدلالة على اختلاف النظر إلى الحدث نفسه ، ففي قوله - وهو بصيغة الغائب - (خرجوا من ديارهم وهم ألوف) تفرّيع لهم وتبكيبت من الله - عزّ وجلّ - وخاصةً إذا أُضيف إلى ذلك وصف حالهم بكثرة العدد (وهم ألوف) ، واستعمل في الفعل الثاني في قوله - بصيغة المكنّك - (أخرجنا) همزة التعدية الدالة على أنّ إخراجهم كان قهراً بالقوّة . ومنه قوله تعالى : ﴿يُرِيدُونَ أَن يُخْرِجُوكَ مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾^(٦) . فقد كرّر الفعل (يخرجوا) بالاسم (بخارجين) ، وجاء التكرار بصيغة الاسم للدلالة على أنهم خالدون في النار ، فكان التكرار للفعل (المتضمّن تجدد المحاولة) بالصيغة الاسميّة (المتضمّنة الدوام والثبوت) ؛ لقطع أملهم في النجاة من النار . ومنه قوله تعالى : ﴿قُلْ يَا هَلْ الْكِتَابُ لَا تَعْلَمُونَ فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُونَ هَوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَصْهَرُوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾^(٧) . فقد كرّر الفعل مرتين ، مرّة بهمزة التعدية للدلالة على أنّ ضلالهم قد نقلوه إلى غيرهم ، وأعاد الفعل بلفظه للدلالة على تجدد ضلالهم عن دعوة النبي ٦ ، وذلك حين كتبوه وبغوا عليه^(٨) . ومنه قوله تعالى : ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنْ أَمْرُو هَٰكَ لَا يَسْ كُهُ وَلَا وَلَهُ أَخْتُ فَلَهَا نِصْفٌ مِمَّا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ...﴾^(٩) . فقد أعاد الفعل (يستفتونك) بصيغة الفعل (بفتيكم) وكان هذا التكرار رابطاً للكلام ، مع اختلاف المعنى في الفعلين ، إذ عيّرت صيغة الفعل الأوّل عن طلب الفتوى ، وعيّر الفعل الثاني عن جواب طلبهم . ومثله قوله تعالى : ﴿تُزَلُّ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلَهُ...﴾^(١٠) . إذ كرّر الفعل (فسالت) باستعمال الاسم (السيل) ، ويبدو أنّ هذا الانتقال من الفعل إلى الاسم ؛ للدلالة على أنّ الحدث الذي حصل بالفعل (سالت) ، قد تحوّل إلى حالة من الثبوت والكثرة بدليل قوله (بقدرها) ، فاستعمل المصدر المأخوذ من لفظ الفعل ، والذي يناسب حالة التحوّل في كمية الماء . ومنه قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُولُونَ إِلَّا دِبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْنُورًا﴾^(١١) . فقد كرّر الفعل (عاهدوا) بالاسم (عهد) ، والظاهر أنّ سبب ذلك يوضّحه السياق ، فقد استعمل الفعل بصيغة المضى ، وأكد هذا المضى بـ (كانوا) المتقدّمة على الفعل ، وبالظرف (من قبل) بعده ، فلمّا تمّ حدوث الفعل ، أصبح العهد أمراً ثابتاً ، لا يتغيّر مع الزمن ، فاستعمل لذلك صيغة المصدر المأخوذ من لفظ الفعل لربط الكلام (عهد) . ومنه أيضاً قوله تعالى : ﴿قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفَرَارُ إِنْ قُرْنُمْ مِنَ الْمَوْتِ وَالْقُلُوبُ لَا تَأْمَنُونَ إِلَّا قِيلًا﴾^(١٢) . فقد استعمل الاسم (الفرار) في الكلام الدالّ على جواب الشرط المحذوف ، وربط به فعل الشرط (فررتم) ، فكان هذا التكرار رابطاً للجمليتين أولاً ، ويدلّ على ثبوت عدم منفعة الفرار في المستقبل ، إنّ تحقّق منهم الآن . ومنه كذلك قوله تعالى : ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآتِيَةٍ مِنْ فُضْيُوءٍ كَوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا... وَيُطَوَّفُ عَلَيْهِمْ وَلَدَانِ مُخْلَدُونَ إِذَا رَأَوْا بِنَحْوِهِمْ حَسِبَتْهُمُ وَلَدًا مِثْلُ مَثُورًا﴾^(١٣) . فقد كرّر الفعل بالمعلوم (يطوف) ، بعد أن ذكره بالمجهول (يطاف) ، ورأى بعض العلماء أنّه قصد عندما ذكر الفعل بالبناء المجهول الاهتمام بذكر ((ما يطاف به لا الطائفون))^(١٤) . ويبدو أنّه يقصد أنّ الاستعمال اللغوي يفرض الابتداء بالبناء للمعلوم ، ثم التكرار بالبناء للمجهول ، وقد خالف الاستعمال القرآني ذلك ؛ لأنّه بدأ بالشئ الذي تنوّق النفس إلى معرفته ، وهو نوع الثواب المُعدّ لهم ، فلمّا عرفوه جاء على ذكر من يقوم لهم بتقديمه ، فكان أشبه ما يكون بالكمالات للأساسيات .

(١) الصناعتين : ١٧٤ . وينظر : البرهان في علوم القرآن : ١٤/٣ - ١٥ ، وأسرار التكرار : ١٩٨ .

(٢) سورة الحج : ١٤ ، ٢٣ .

(٣) سورة الحج : ١٩ .

(٤) أسرار التكرار : ١٤٥ .

(٥) سورة البقرة : ٢٤٣ ، ٢٤٦ .

(٦) سورة المائدة : ٣٧ .

(٧) سورة المائدة : ٧٧ .

(٨) ينظر : تفسير الكشاف : ١ / ٦٥٢ .

(٩) سورة النساء : ١٧٦ .

(١٠) سورة الرعد : ١٧ .

(١١) سورة الأحزاب : ١٥ .

(١٢) سورة الأحزاب : ١٦ .

(١٣) سورة الإنسان : ١٥ ، ١٩ .

(١٤) أسرار التكرار في القرآن : ٢١٢ .

التضام في اللغة الاصطلاح :

التضام لغة^(١) : الضمّ هو ضمّك الشيء إلى الشيء ، وضامته فلاناً أي قمتُ معه في أمرٍ واحدٍ . والضمّام : كل شيءٍ يُضمّ به شيء إلى شيء ، وتضام القوم إذا انضمّ بعضهم إلى بعض . والضمّ بدلٌ على ملاءمةٍ بين شيئين . **التضام اصطلاحاً :** عرّف الراغب الضمّ ، بقوله : ((الجمع بين شيئين فصاعداً))^(٢) . ولم أجد للتضام ، ولا لمشتقاته تعريفاً عند الشريف الجرجاني^(٣) ، ولا الكفوي^(٤) ، ولا التهانوي^(٥) . وأطلق أحمد مختار عمر مصطلح (الرصف) على التضام ، ونقل له تعريفين ، إذ عرّفه بـ ((الارتباط الاعتياديّ لكلمةٍ ما في لغةٍ ما بكلماتٍ أخرى معيّنة ، أو استعمالٍ وحدتين معجميتين منفصلتين استعمالهما عادةً مرتبطتين الواحدة بالأخرى))^(٦) . وعرّف بعض علماء النصّ التضام بأنه ((توارد زوج من الكلمات بالفعل ، أو بالقوة نظراً لارتباطها بحكم هذه العلاقة أو تلك))^(٧) .

وقد وردت إشارات في الدراسات العربيّة القديمة إلى مفهوم التضام في اللغة ، وكانت أغلب هذه الإشارات في الدراسات البلاغيّة^(٨) . فقد استعملت مصطلحات (المطابقة - المقابلة - مراعاة النظر - السلب والإيجاب - المناسبة) ، وفيها قدر كبير من التوافق مع ما جاء في الدراسات الحديثة في ميّث التضام ، فعرّف بعض البلاغيين المطابقة ، بقوله : ((هي أن تجمع في كلام واحد بين متقابلين سواء كان التقابل صريحاً ، أم غير صريح ، وسواء كان التقابل بالصدية ، أو بالسلب والإيجاب ، أو بغيرهما ، وسواء كان المتضادّان : اسمين ، أو فعلين ، أو حرفين ، أو مختلفين))^(٩) . ومن الأمثلة التي استشهد بها ، قوله تعالى : ﴿... فَلَا تَخْشَوْا النَّاسَ وَخَشَوْا اللَّهَ تَعَالَى : ﴿... تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا...﴾^(١٠) . ومن الأمثلة التي اتخذها أحد البلاغيين^(١١) على المطابقة بالحروف ، قوله تعالى : ﴿لَا يَكْفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وَسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ...﴾^(١٢) . ومن تعريفهم للمقابلة ، قول السكاكي [ت ٦٢٦هـ] : ((هي أن تجمع بين شيئين متوافقين أو أكثر ، وبين ضديهما))^(١٣) . أمّا مراعاة النظر^(١٤) ، أو كما سمّاه بعضهم (المناسبة)^(١٥) ، فقد عرّف بـ ((أن يجمع في الكلام بين أمر ، وما يناسبه لا بالتضادّ))^(١٦) . واختلف علماء النصّ المحدثون^(١٧) في تقسيمهم لعلاقات التضام بين الكلمات ، فكانت تقسيماتهم متعددة ، ومتداخلة ، وأهمّ العلاقات التي وضعوها ، هي :

- ١- علاقة التضادّ بجميع درجاته : الحادّ : مثل (ذكر - أنثى) ، المُتدرّج ، مثل (حار - بارد) ، العكسيّ ، مثل (باع - اشترى) ، الاتجاهيّ ، مثل (أعلى - أسفل) .
- ٢- علاقة الدخول في سلسلة مُرتبة ، مثل : السبب ، الأحد
- ٣- علاقة الكلّ - الجزء ، مثل : الجسم - اليد .
- ٤- علاقة الجزء - الجزء ، مثل (العين - الأذن) .
- ٥- علاقة الاندراج في قسم عامّ : ويعني به أن الكلمات المُتضامّة تجمعها كلمة عامّة تشملها جميعاً ، مثل (الطواف - الكعبة - السعي) ، تجمعها (الحجّ) .
- ٦- علاقة التلازم الذكريّ : وهو أن يجمع في الكلام بين أمرٍ وما يُناسبه .
- ٧- علاقة الترادف .
- ٨- علاقة الاختلاف : وهي أن تكون العلاقة بين الكلمتين لا على سبيل التضادّ .
- ٩- علاقة التدرّج التسلسليّ : وهي تقوم على ترابط الكلمات على أساس منطقيّ قائم على وجود أبعاد زمنيّة ، تدعم فكرة التعاقب بين الأحداث المتسلسلة .

وممّا يُمكن أن يُزاد على ما تقدّم ، أنّه قد ورد في الاستعمال القرآنيّ أنواع من هذه العلاقات ، غير ما تقدّم ، من ذلك أنّه استعمل في التضادّ صيغة الكلمة في حالتي الإيجاب والسلب ، فكان هذا الاستعمال من التضادّ - وقد أشار إليه علماء البلاغة القدماء - فضلاً عن استعماله بعض الأفعال في حالتي البناء (للمعلوم والمجهول) ، فوقع الضمير المتّصل بالفعل مرّةً فاعلاً ، وأخرى نائب فاعل ، بمعنى : قام بالفعل مرّةً ، ووقع عليه الفعل في الأخرى ، وهو ما يدخل في باب التضادّ .

(١) ينظر : كتاب العين ١٦ / ٧ ، وتاج اللغة وصحاح العربية : ١١٧٨ / ٤ - ١١٧٩ ، ومعجم مقاييس اللغة : ٤٥ / ٢ ، وأساس البلاغة : ٣٨٠ ، ولسان العرب : ٢٣٣٢ - ٢٣٣٣ ، والقاموس المحيط : ١٠٤٣ (ضمّ) .

(٢) مفردات ألفاظ القرآن : ٥١٢ (ضمّ) .

(٣) ينظر : التعريفات .

(٤) ينظر : الكليات .

(٥) كشاف اصطلاحات الفنون .

(٦) علم الدلالة : ٧٤ .

(٧) لسانيات النصّ : ٢٥ .

(٨) ينظر مثلاً : الصناعتين : ٢٧٦ - ٢٧٧ ، النعمة : ١٩٠ / ٢ - ٢٣ ، ٣٠ .

(٩) الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة : ٢٠٧ .

(١٠) سورة المائدة : ٤٤ .

(١١) ينظر : التبيان في المعاني والبدیع والبيان : ٣٤٣ .

(١٢) سورة البقرة : ٢٨٦ .

(١٣) مفتاح العلوم : ٥٣٣ . وينظر : الإيضاح في علوم البلاغة : ٣٣٨ .

(١٤) ينظر : الإيضاح في علوم البلاغة : ٣٤٠ . وينظر : أدعية الصحيفة السجّادية : ٩٧ - ٩٨ ، والسبك النصّي في القرآن الكريم ، دراسة تطبيقية في سورة : ١١٠ - ١١٣ .

(١٥) ينظر : الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة : ٢١٠ .

(١٦) الإيضاح في علوم البلاغة : ٣٤٠ . وينظر : الإشارات والتنبيهات : ٢١٠ .

(١٧) ينظر : لسانيات النصّ : ٢٥ ، وعلم لغة النصّ النظرية والتطبيق : ١١٠ ، نظرية علم النصّ ، رؤية منهجية في بناء النصّ النثريّ : ١١١ - ١١٦ ، إشكالات النصّ : ٣٦٦ ، السبك في القرآن الكريم : ١١٥ - ١١٦ .

فضلاً عن ذلك ، فهناك حالات أخرى ، ستذكر في أثناء البحث . تختلف العلاقة بين الكلمات من ناحية معناها المعجمي ، عن العلاقة بين الكلمات في المستوى التركيبي ؛ وذلك لأن ((تميز عمل الوحدات المعجمية من عمل الوحدات النحوية في تحقيق الترابط النصي ، تتمثل في أن كل وحدة معجمية يمكن أن تدخل في علاقة إساقية ، لكنها لا تحمل في ذاتها ما يدل على قيامها بهذا الدور ، أو عدم قيامها به ، وإنما يكون ذلك بحسب موقعها من النص . وبخلاف ذلك الطرق النحوية المحققة للإساق ، فإن الأمر أكثر انتظاماً ، وأشد وضوحاً ، ويمكن التكهّن مسبقاً بدورها الرباطي ... وبالتالي^(١) فلئن كان من الصحيح أن يُقال : إن إساق النص يحتاج إلى الروابط النحوية لقيامه عليها ، فإنه ليس أقل صحة أن نقول : إن الوحدات المعجمية في حاجة إلى النص ؛ ليتحدّد معناها السياقي النصي فيه))^(٢) . إن محاولة إيجاد علاقة بين كلمات متضامة في تركيب معيّن ، ليس أمراً هيناً ، إذ قد تتضام أزواج من الكلمات ، أو أكثر في علاقة تركيبية ، وتجد صعوبة في تحديد العلاقة الرابطة بينهما ، أو أن تتنازعهما أكثر من علاقة تضامية ، ولا يمكن البت في الراجح من العلاقتين ، ((وهذا يعني أننا لا نتوفر على مقياس آلي صارم يجعلنا نعتبر^(٣) هذه الكلمة أقرب إلى هذه المجموعة ، أو تلك ، ومن ثمّ فكل ما نستطيع نستطيع قوله هو أن هذه الكلمة أشد ارتباطاً بهذه المجموعة من ارتباطها بمجموعة أخرى))^(٤) . ولعلّ من المناسب أن يُذكر أنه قد كثرت علاقة التضاد في السور المدنية أكثر من غيرها من العلاقات ، ويبدو أن سبب ذلك هو الواقع الذي عاشه المسلمون ، وقد اختلفت عليهم الأطراف المعادية لهم ، إذ إن العداء في العهد المكي كان مع المشركين من أهل مكة فقط . أما في العهد المدني ، فقد زاد على مشركي مكة ، أهل الكتاب ، والمنافقون من أهل المدينة ، فضلاً عن القبائل العربية التي كانت تتخوّف من الإسلام ، فتحالف مع الأطراف المعادية له . وهذا جدول بأبرز العلاقات التضامية الموجودة في السور المدنية :

علاقة التضاد : ومن مظاهر التضاد في السور المدنية ، ما يأتي :

السلب والإيجاب : لا يؤاخذكم - يؤاخذكم (البقرة / ٢٢٥ ، المائدة / ٨٩) ، يؤذ - لا يؤذ (آل عمران / ٧٥) ، أمّا - لم تؤمن (المائدة / ٤١) ، تحيونهم - لا يحيونكم (آل عمران / ١٩٩) ، يستحيي - لا يستحيي (الأحزاب / ٥٣) ، لم يخرجكم - أخرجوكم (المتحنة / ٨-٩) ، يخادعون - ما يخدعون (البقرة / ٩٠) ، فلا تخشوه - اخشون (المائدة / ٣) ، يخشونه - لا يخشون (الأحزاب / ٣٩) يستخفون - لا يستخفون (النساء / ١٠٨) ، شرب منه - لم يطعمه (البقرة / ٢٤٩) ، ما ظننتم - ظنوا (الحشر / ٢) ، لا تعلمونهم - يعلمهم (الأنفال / ٦٠) ، تعاونوا - لا تعاونوا (المائدة / ٢) ، لا يغفر - يغفر (النساء / ٤٨ ، ١١٦) ، أستغفرت - لم تستغفر (المنافقون / ٦) ، لم يقاتلوكم - قاتلوكم (المتحنة / ٨-٩) ، قصصناهم - لم نقصصهم (النساء / ١٦٤) ، لا تكون - يكون (البقرة / ١٩٣) ، يمنون - لا تمنوا (الحجرات / ١٧) ، تمنوا - لن يتمنوه (البقرة / ٩٤-٩٥) ، لا تتناجوا - تناجوا (المجادلة / ٩) ، أنزرتهم - لم تنذرهم (البقرة / ٦) ، لا تنفقوا - انفقوا (المنافقون / ٧-١٠) ، لا ينقضون - ينقضون (الرعد / ٢٠-٢٥) ، لا ينهاكم - ينهاكم (المتحنة / ٨-٩) . تحسبوه من الكتاب - ما هو من الكتاب (آل عمران / ٧٨) ، هو ما الكتاب - ما هو من الكتاب (آل عمران / ٧٨) .

التضاد بالبناء للمعلوم والمجهول : تظلمون - تظلمون (البقرة / ٢٧٩) .

التضاد العام : فارض - بكر (البقرة / ٦٨) ، الأبيض - الأسود (البقرة / ١٨٧) ، تبيض - تسود (آل عمران / ١٠٦) ، ابيضت - اسودت (آل عمران / ١٠٧) ، أثم - منافع (البقرة / ٢١٩) ، الموسع - المقتر (البقرة / ٢٣٦) ، يقبض - يبسط (البقرة / ٢٤٥) ، يبسط - يقدر (الرعد / ٢٦) ، قليلة ، قل - كثيرة ، كثر (البقرة / ٢٤٩ ؛ النساء / ٧) ، للفقراء - أغنياء (البقرة / ٢٧٣) ، الغني - الفقراء (البقرة / ٢٧٣) ، آل عمران / ١٨١ ، النساء / ١٣٥ ، النور / ٣٢ ، محمد / ٣٨) ، أعداء - أخواناً (آل عمران / ١٠٣) ، المهدي - كهلاً (آل عمران / ٤٦) ، المائدة / ١١٠) أولنا - آخرنا (المائدة / ١١٤) ، الأول - الآخر (الحديد / ٣) ، العدو الدنيا - العدو القصوى (الأنفال / ٤٢) ، خفافاً - ثقلاً (التوبة / ٤١) ، أدنى - أكثر (المجادلة / ٧) ، صغيراً - كبيراً (البقرة / ٢٨٢) ، من فوقهم - من تحت أرجلهم (المائدة / ٦٦) ، السفلى - العليا (التوبة / ٤٠) ، ما بين أيديهم - ما خلفهم (البقرة / ٦٦ ، ٢٥٥ ؛ الرعد / ١١ ؛ الحج / ٧٦) ، يستعجلونك - أمليت (الحج / ٤٧-٤٨) ، فوقكم - أسفل منكم (الأحزاب / ١٠) ، تقدّم - تأخر (الفتح / ٢) ، يلج - يخرج (الحديد / ٤) ، ينزل - يعرج (الحديد / ٤) ، من قبل - من بعد (الحديد / ١٠) ، اشتراه - شروا به أنفسهم (البقرة / ١٠٢) ، يمح - يربي (البقرة / ٢٧٦) ، دخلوا - خرجوا (المائدة / ٦١) ، مغولة - مبسوطتان (المائدة / ٦٤) ، أوقدوا - أطفاها (المائدة / ٦٤) ، بحق الحق - يبطل الباطل (الأنفال / ٨) ، الخبيث - الطيب (النساء / ٢ ؛ المائدة / ١٠٠ ؛ الأنفال / ٣٧) ، ضاقت - رحبت (التوبة / ٢٥ ، ١١٨) ، الذين صدقوا - الكاذبين (التوبة / ٤٣ ؛ النور / ٦-٧ ، ٩) ، فليضحكوا قليلاً - فليبكوا كثيراً (التوبة / ٨٢) ، السيئة - الحسنة (آل عمران / ١٢٠ ؛ النساء / ٧٩ ؛ الرعد / ٢٢ ، ٦) ، تغيض - تزداد (الرعد / ٨) ، أسر - جهر (الرعد / ١٠) ، سراً - علانية (البقرة / ٧٧ ، ٢٧٤ ؛ الرعد / ٢٢ ؛ التغابن / ٤) ، مستخف بالليل - سارب بالنهار (الرعد / ١٠) ، طوعاً - كرهاً (آل عمران / ٨٣ ؛ التوبة / ٥٣ ؛ الرعد / ١٥) ، نفع - ضرر (البقرة / ١٠٢ ؛ المائدة / ٧٦ ؛ الرعد / ١٦ ؛ الحج / ١٢ ، ١٣ ؛ الفتح / ١١) ، الأعمى - البصير (الرعد / ١٦) ، يمح - يثبت (الرعد / ٣٩) ، شر - خير (آل عمران / ١٨٠ ؛ النور / ١١ ؛ البينة / ٨ ، ٧) ، تبذون - تكتمون (البقرة / ٣٣ ؛ آل عمران / ٢٩ ؛ المائدة / ٩٩ ؛ النور / ٢٩) ، تبذوا - تخفوه (البقرة / ٢٧١) ، ٢٨٤ ؛ آل عمران / ١١٨ ؛ النساء / ١٤٩ ؛ الأحزاب / ٣٧ ، ٥٤ ، بكرة - أصيلاً (الأحزاب / ٤٢ ؛ الفتح / ٩ ؛ الإنسان / ٢٥) ، أشدّاء على الكفار - رحماء بينهم (الفتح / ٢٩) ، اقتتلوا - أصلحوا (الحجرات / ٩) ، قوم من قوم - نساء من نساء (الحجرات / ١) ، رفعها -

(١) كذا ، والصحيح : ومن ثمّ .

(٢) أصول تحليل الخطاب : ١ / ١٤٢ - ١٤٣ .

(٣) كذا ، والصحيح : نعدّ .

(٤) لسانيات النص : ٢٥ .

وضع (الرحمن/٧)، الظاهر - الباطن (الحديد/١٣، ٥٧)، جميعاً - شَتَّى (النور/٦١؛ الحشر/١٤)، ثَبَات - جميعاً (النساء/٧١)، أصحاب النار - أصحاب الجنة (البقرة/٨١-٨٢؛ الحشر/٢٠)، أخفيتم - أعلنتم (المتحنة/١)، الغيب - الشهادة (التوبة/٩٤، ١٠٥؛ الرعد/٩؛ الحشر/٢٢؛ الجمعة/٨؛ التغابن/١٨)، ثَبَاتات - أَيْكَاراً (التحریم/٥)، أَمْسُكُوهُنَّ - فارقوهنَّ (الطلاق/٢)، إِمْسَاك - تسريح (البقرة/٢٢٩)، غُسْرًا - يُسْرًا (البقرة/١٨٥، ٢٨٠؛ الطلاق/٧)، تَكَرَّهُوا - تَحَبُّوا (البقرة/٢١٦)، الرشد - الغي (البقرة/٢٥٦)، محكمات - متشابهات (آل عمران/٧)، تَوْتِي - تنزع (آل عمران/٢٦)، تُعَزَّرُ - تُنْذَلُ (آل عمران/٢٦؛ المائدة/٥٤؛ المنافقون/٨)، خير - سوء (آل عمران/٣٠؛ النساء/١٤٩)، سوء - رحمة (الأحزاب/١٧)، أَحَلَّ - حُرِّمَ (البقرة/٢٧٥؛ آل عمران/٥٠، ٩٣؛ النساء/١٦٠؛ المائدة/٨٧، ٩٦؛ التوبة/٣٧؛ التحريم/١)، رضوان من الله - سخط من الله (آل عمران/١٦٢؛ التوبة/٥٨)، شَقَاق - إِصْلَاح (النساء/٣٥)، القاعدون - المجاهدون (النساء/٩٥)، الظَّنَّ - يَقِينًا (النساء/١٥٧)، يَبِينُ - تَخْفُون (المائدة/١٥)، تُعْتَب - نَغْفِر (البقرة/١٧٥، ٢٨٤؛ آل عمران/١٢٩؛ المائدة/١٨، ٤٠؛ الأنفال/٣٣؛ الفتح/١٤؛ الحديد/٢٠)، تُعْتَب - نَغْفِر (التوبة/٦٦)، العذاب - الرحمة (الحديد/١٣؛ الإنسان/٣١)، الْحَقَّ - الْبَاطِل (البقرة/٤٢؛ آل عمران/٧١؛ الرعد/١٧؛ الحج/٦٢)، اللَّيْل - النَّهَار (البقرة/١٦٤، ٢٧٤؛ آل عمران/٢٧، ١٩٠؛ الرعد/٣، ١٠؛ الحج/٦١؛ النور/٤٤؛ الحديد/٦)، تَقْسِدُوا - مَصْلُحُونَ (البقرة/١١)، الْمَفْسِد - الْمَصْلَح (البقرة/٢٢٠)، ذَكَر - أَنْثَى (آل عمران/٣٦، ١٩٥؛ النساء/١١، ١٢٤، ١٧٦؛ الحجرات/١٣)، خَوْف - طَمَع (الرعد/١٢)، ضَلَّ - هَدَى (البقرة/١٦، ٢٦، ١٧٥؛ النساء/٨٨؛ المائدة/١٠٥؛ التوبة/١١٥، ٢٧؛ الرعد/٢٧، ٣٣؛ الحج/٤)، صَالِحًا - سَيِّئًا (التوبة/١٠٢)، الدُّنْيَا - الْآخِرَةُ (البقرة/٨٦، ١١٤، ١٣٠، ٢٠٠، ٢٠١، ٢١٧، ٢٢٠؛ آل عمران/٢٢، ٤٥، ٥٦، ١٤٨، ١٥٢؛ النساء/٧٤، ٧٧، ١٣٤؛ المائدة/٣٣، ٤١؛ الأنفال/٦٧؛ التوبة/٣٨، ٦٩، ٧٤؛ الرعد/٢٦، ٣٤؛ الحج/١١، ١٥؛ النور/١٤، ١٩، ٢٣؛ الأحزاب/٢٨، ٢٩، ٥٧؛ الحديد/٢٠)، حَيَّ - مَات (البقرة/٢٨، ٢)، ٧٣، ١٥٤، ١٦٤، ٢٤٣، ٢٥٩، ٢٦٠؛ آل عمران/٢٧، ٤٩، ٦٩، ١٥٦، ١٦٩؛ التوبة/١١٦؛ الحج/٦، ٦٦؛ الحديد/٢، ١٧)، حَيَّ - هَلَكَ (الأنفال/٤٢)، أَحْيَا - قَتَلَ (المائدة/٣٢)، الْمَشْرِق - الْمَغْرِب (البقرة/١١٥، ١٤٢، ١٧٧، ٢٥٨)، الْمَشْرِقَيْن - الْمَغْرِبَيْن (الرحمن/١٧)، شَرْقِيَّة - غَرْبِيَّة (النور/٣٥)، شَمْسًا - زَمْهَرِيرًا (الإنسان/١٣)، أَطْفًا - نُور (التوبة/٣٢؛ الصافات/٨)، ظَلَمَات - نُور (البقرة/١٧، ٢٥٧؛ المائدة/١٦؛ الرعد/١٦؛ الأحزاب/٤٣؛ الحديد/٩؛ الطلاق/١١)، عَدُوَّ - أَوْلِيَاء (النساء/٤٥؛ المتحنة/١)، بَعَث - مَوْت (البقرة/٢٥٩)، تَأَسَّوْا - تَفْرَحُوا (الحديد/٢٣)، فَاتَكُم - آتَاكُم، آتُوا (الحديد/٢٣؛ المتحنة/١١)، أَخْطَأ - تَعَمَّد (النساء/٩٢، ٩٣؛ الأحزاب/٥)، عِبَاد - إِمَاء (البقرة/٢٢١؛ النور/٣٢)، يَصْلُون - يَقْطَعُونَ (النور/٢٠، ٢٥)، يَرِيدُونَ - يَأْبَى (التوبة/٣٢)، يَنْكُث - أَوْفَى (الفتح/١٠)، يَصْرَف - يُصِيب (النور/٤٣).

علاقة التلازم الذكري: تجارة - ربح (البقرة/١٦)، تجارة - بيع (النور/٣٧)، نار - ضوء (البقرة/١٧؛ النور/٣٥)، الْمَنْ - السَّلَوى (البقرة/٥٧)، سَقَى - شَرَب (البقرة/٦٠؛ الإنسان/٢)، الذَّلَّة - الْمَسْكَنَةُ (البقرة/٦١)، نَسَخ - نَسِيَان (البقرة/١٠٦)، عَدَلَ - شَفَاعَةُ (البقرة/٤٨، ١٢٣)، الرِّزْق - الثَّمَرَات (البقرة/٢٢، ٢٥، ١٢٦)، ظَلَّل - الْغَمَام (البقرة/٥٧، ٢١٠)، النِّسَاء - الْمَحِيض (البقرة/٢٢٢؛ الطلاق/٤)، الْأَمْهَات، الْوَالِدَات - رَضَعَ (البقرة/٢٣٣؛ النساء/٢٣)، وَصِيَّة - مَوْت، وَفَاة (البقرة/١٣٢، ٢٤٠؛ المائدة/١٠٦)، الْمَطْلَقَات - مَتَاع (البقرة/٢٤١)، ثَبَّت - قَدِم (البقرة/٢٥٠؛ آل عمران/١٤٧؛ الأنفال/١١؛ محمد/٧)، رَفَعَ - دَرَجَات (البقرة/٢٥٣؛ المجادلة/١١)، طَعَام - شَرَاب (البقرة/٢٤٩، ٢٥٩)، الْعِظَام - لَحْمًا (البقرة/٢٥٩)، نَار - حَرَق (البقرة/٢٦٦)، رَأَى - الْعَيْن (آل عمران/١٣؛ المائدة/٨٣؛ الأنفال/٤٤)، سَمِع - الدَّعَاء (البقرة/١٧١)، أَمَم - تَرَاب (آل عمران/٥٩)، بَكَّة - حَجَّ (آل عمران/٩٦)، الْحَيَّ - الْقَيُوم (البقرة/٢٥٥؛ آل عمران/٢)، الْكَاطِمِينَ - الْغِيظ (آل عمران/١٣٤)، انْقَلَب - عَقِبَهُ (البقرة/١٤٣؛ آل عمران/١٤٤، ١٤٥)، يَرْتَوِكُمْ - أَعْقَابِكُمْ (آل عمران/١٤٩)، نَكَص - عَقِبَهُ (الأنفال/٤٨)، رَحِمَةً - لَنْتَ (آل عمران/١٥٩)، فَظًا - انْفَضُّوا (آل عمران/١٥٩)، النِّسَاء - صَدَقَاتُهُنَّ (النساء/٤)، أَكَلَ - بَطَن (البقرة/١٧٤؛ النساء/١٠)، حَرَف - مَوَاضِع (النساء/٤٦؛ المائدة/١٣، ٤١)، حَكَم - شَجَرَ (النساء/٦٥)، بَرُوج - مَشِيدَةُ (النساء/٧٨)، الْجَهْر - الْقَوْل (النساء/١٤٨؛ الرعد/١٠؛ الحجرات/٢)، أَوْفَى - عَهْد (البقرة/٤٠، ١٧٧؛ آل عمران/٧٦؛ التوبة/١١١؛ الرعد/٢٠؛ الفتح/١٠)، أَوْفُوا - الْعُقُود (المائدة/١)، بَهِيمَةً - الْأَنْعَام (المائدة/١؛ الحج/٢٨، ٣٤)، تَيَمَّمُوا صَعِيدًا (النساء/٤٣؛ المائدة/٦)، الْعَدَاوَةُ - الْبَغْضَاء (المائدة/١٤، ٦٤، ٩١؛ المتحنة/٤)، قَقِينًا - آثَارُهُم (المائدة/٤٦؛ الحديد/٢٧)، حَبِطُث - أَعْمَالُهُم (البقرة/٢١٧؛ آل عمران/٢٢؛ المائدة/٥، ٥٣؛ التوبة/١٧، ٦٩؛ الأحزاب/١٩؛ محمد/٩، ٢٨، ٣٢؛ الحجرات/٢)، هَزَّوْا - لَعِبُوا (المائدة/٥٧، ٥٨)، مَائِدَةً - نَآكَل (المائدة/١١٢-١١٣)، الصَّمَّ - الْيَكْم (الأنفال/٢٢)، عَمُوا، أَعْمَى - صَمَّوْا، أَصَمَّهُم (المائدة/٧١، ٢)، مُحَمَّدٌ (٢٣)، إِلَّا - ذِمَّة (التوبة/٨، ١٠)، اشْتَرَوْا - ثَمَنًا (البقرة/٤١، ٧٩، ١٧٤؛ آل عمران/٧٧، ١٨٧، ١٩٩؛ المائدة/٤٤، ١٠٦؛ التوبة/٩)، غِيْظ - قُلُوب (التوبة/١٥)، أَضْغَان - قُلُوب (محمد/٢٩)، مَات - قَبِر (التوبة/٨٤)، أَعْيَن - الدَّمْع (المائدة/٨٣؛ التوبة/٩٢)، أَسَّس - بَنِيَان (التوبة/١٠٩)، الْبِرْق - الرِّعْد (البقرة/١٩؛ الرعد/١٢-١٣)، أَزْوَاج - ذَرِيَّة (الرعد/٢٣، ٣٨)، لَحُوم - دِمَاء (البقرة/١٧٣؛ المائدة/٣؛ الحج/٣٧)، الْفَلَك - الْبَحْر (البقرة/١٦٤؛ الحج/٦٥)، سَحَاب - الْوَدْق (النور/٤٣)، سَنَا - بَرَق (النور/٤٣)، الْظَّمَان - مَاء (النور/٣٩)، يُوْحَى - رَبِّكَ (الأنفال/١٢؛ الأحزاب/٢؛ الزلزلة/٥)، أَسْوَةٌ - حَسَنَةُ (الأحزاب/٢١؛ المتحنة/٤، ٦)، الْحَيَاة الدُّنْيَا - لَعِبَ وَلَهُو (محمد/٣٦؛ الحديد/٢٠)، صَرَاط - مُسْتَقِيم (البقرة/١٤٢، ٢١٣؛ آل عمران/٥١، ١٠١؛ النساء/٦٨، ١٧٥؛ المائدة/١٦؛ الحج/٥٤؛ النور/٤٦؛ الفتح/٢، ٢٠)، رَكَعَ - سَجَد (البقرة/١٢٥؛ آل عمران/٤٣؛ التوبة/١١٢؛ الحج/٢٦، ٧٧؛ الفتح/٢٩)، التَّوْرَةُ - الْإِنْجِيل (آل عمران/٣، ٤٨، ٦٥؛ المائدة/٦٦، ٦٨، ١١٠؛ التوبة/١١١؛ الفتح/٢٩)، سَمِع - عَلِيم (البقرة/١٢٧، ١٣٧، ١٨١، ٢٢٤، ٢٢٧، ٢٤٤، ٢٥٦؛ آل عمران/٣٤، ٣٥، ١٢١؛ النساء/١٤٨؛ المائدة/٧٦؛ الأنفال/١٧، ٤٢، ٥٣، ٦١؛ التوبة/٩٨، ١٠٣؛ النور/٢١، ٦٠؛ الحجرات/١)، الشَّمْس - الْقَمَر (الرعد/٢؛

الحج/ ١٨ ؛ الرحمن/ ٥) ، آلاء - رَيْكَمَا (الرحمن/ ٣٠ مَرَّةً) ، سميع - بصير (النساء/ ٥٨ ، ١٣٤ ؛ الحج/ ٦١ ، ٧٥ ؛ المجادلة/ ١ ؛ الإنسان/ ٢) ، آيات - بَيِّنَات (البقرة/ ٩٩ ؛ آل عمران/ ٩٧ ؛ الحج/ ١٦ ، ٧٢ ؛ النور/ ١ ؛ الحديد/ ٩ ؛ المجادلة/ ٥) ، آيات - بَيِّنَا ، يُبَيِّن (البقرة/ ١١٨ ، ١٨٧ ، ٢٢١ ، ٢٤٢ ، ٢٦٦ ؛ آل عمران/ ١٠٣ ، ١١٨ ؛ المائدة/ ٧٥ ، ٨٩ ، النور/ ١٨ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦١ ، آيات - مُبَيِّنَات (النور/ ٣٤ ، ٤٦ ؛ الطلاق/ ١١) ، آية - بَيِّنَة (البقرة/ ٢١١) ، البر - التقوى (البقرة/ ١٨٩ ، ٢٢٤ ؛ المائدة/ ٢ ؛ المجادلة/ ٩) ، عذاب - أليم (البقرة/ ١٠ ، ١٠٤ ، ١٧٤ ، ١٧٨ ؛ آل عمران/ ٢١ ، ٧٧ ، ٩١ ، ١٧٧ ، ١٨٨ ؛ النساء/ ١٨ ، ١٣٨ ، ١٦١ ، ١٧٣ ؛ المائدة/ ٣٦ ، ٧٣ ، ٩٤ ؛ الأنفال/ ٣٢ ؛ التوبة/ ٣ ، ٣٤ ، ٦١ ، ٧٩ ، ٩٠ ؛ الحج/ ٢٥ ؛ النور/ ١٩ ، ٦٣ ؛ الأحزاب/ ٨ ؛ الفتح/ ١٦ ، ١٧ ، ٢٥ ؛ المجادلة/ ٤ ؛ الحشر/ ١٥ ؛ الصف/ ١٠ ؛ التغابن/ ٥ ؛ الإنسان/ ٣١) ، غفور - رحيم (البقرة/ ١٧٣ ، ١٨٢ ، ١٩٢ ، ١٩٩ ، ٢١٨ ، ٢٢٦ ؛ آل عمران/ ٣١ ، ٨٩ ، ١٢٩ ؛ النساء/ ٢٣ ، ٢٥ ، ٩٦ ، ١٠٠ ، ١٠٦ ، ١٢٩ ، ١٥٢ ؛ المائدة/ ٣ ، ٣٤ ، ٣٩ ، ٧٤ ، ٩٨ ؛ الأنفال/ ٦٩ ، ٧٠ ؛ التوبة/ ٥ ، ٢٧ ، ٩١ ، ٩٩ ، ١٠٢ ؛ النور/ ٥ ، ٢٢ ، ٣٣ ، ٦٢ ؛ الأحزاب/ ٥ ، ٢٤ ، ٥٠ ، ٥٩ ، ٧٣ ؛ الفتح/ ١٤ ؛ الحجرات/ ٥ ، ١٤ ؛ الحديد/ ٢٨ ؛ المجادلة/ ١٢ ؛ الممتحنة/ ٧ ، ١٢ ؛ التغابن/ ١٤ ؛ التحريم/ ١) ، أزواج - طَلَقَ (التحريم/ ٥) ، سمع - قول (البقرة/ ٨٥ ، ١٠٤ ؛ آل عمران/ ١٨١ ؛ النساء/ ٤٦ ؛ المائدة/ ٧ ؛ الأنفال/ ٢١ ، ٣١ ؛ النور/ ١٦ ، ٥١ ، مُحَمَّد / ١٦ ؛ المجادلة/ ١ ؛ المنافقون/ ٤) ، طَلَقْتُم - النساء (البقرة/ ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٣٦ ؛ الطلاق/ ١) ، طعام - أكل (المائدة/ ٧٥ ؛ الحج/ ٢٨ ، ٣٦) .

علاقة الكلّ - بالجزء : تنبت الأرض (بقلها - قثانها - فومها - عدسها - بصلها) (البقرة/ ٦١) . لونها - صفراء (البقرة/ ٦٩) . بقرة (لا ذلول تثير الأرض - لا تسقي الحرث مُسَلِّمة - لا شية فيها) (البقرة/ ٧١) . الحج (الصفاء - المروة - الهدي - يطوّف - تحلقوا رؤوسكم) (البقرة/ ١٥٨) . الصيام (مريضاً - على سفر - فدية) (البقرة/ ١٨٣ - ١٨٤) . الشهوات (النساء - البنين - القناطير المقنطرة من الذهب والفضة - الخيل - الأنعام - الحرث) (آل عمران/ ١٤) . حفرة - شفا (آل عمران/ ١٠٣) . أولادكم (للذكر - الأنثيين) (النساء/ ١١) . اذكروا الله (قياماً - قعوداً - على جنوبكم) (آل عمران/ ١٩١ ، النساء/ ١٠٣) . اغسلوا (وجوهكم - أيديكم - المرافق) . امسحوا (رؤوسكم - أرجلكم - الكعبين) (المائدة/ ٦) . الذين يُحاربون الله ورسوله (يُقَتِّلُوا - يُصَلِّبُوا - تُقَطَّعُ أيديهم وأرجلهم من خلاف - يُنْفَوْا من الأرض) (المائدة/ ٣٣) . السارق والسارقة - أيديهما (المائدة/ ٣٨) . الذين كفروا (الأعناق - بنان) (الأنفال/ ١٢) . الذين يكتزون (جباهم - جنوبهم - ظهورهم) (التوبة/ ٣٥) . جَنَات (أعصاب - زرع - نخيل) (الرعد/ ٤) . الجنة (أكلها - ظلّها) (الرعد/ ٣٥) . الجنة (ماء غير آسن - أنهار من لبن - أنهار من خمر - أنهار من عسل - من كلّ الثمرات) (محمّد / ١٥) . جَنَّتَان (ذواتا أفنان - فيهما عينان - فاكهة - فرش - فيهنّ قاصرات الطرف) (الرحمن / ٤٦ ، ٤٨ ، ٥٠ ، ٥٢ ، ٥٤) . جَنَّتَان (مُدْهَمَّتَان - فيهما عينان - فاكهة ونخل ورمان) (الرحمن / ٦٢ ، ٦٤ ، ٦٦ ، ٦٨) . لهم (قلوب - آذان - الأبصار - الصدور) (الحج/ ٤٦) . بحر - موج (النور / ٤٠) . رجل (قلبين - جوفه) (الأحزاب / ٤) . النبيّين (نوح - إبراهيم - موسى - عيسى) (الأحزاب / ٧) . الأعراب (أموالنا - أهلونا - ألسنتهم - قلوبهم) (الفتح / ١١) . ميّت - لحم (الحجرات / ١٢) . المجرمون (النواصي - الأقدام) (الرحمن / ٤١) . أيديهم - أيماهم (الحديد / ١٢) . الناس - أفواجاً (النصر / ٢) . الناس - أشتاتاً (الزلزلة / ٦) . الأرض - زلزالها (الزلزلة / ١) . الأرض - أثقالها (الزلزلة / ٢) . دَين (أجل - شهيد) (البقرة/ ٢٨٢) . المستضعفين (الرجال - النساء - الولدان) (النساء / ٩٨) . النساء (مُثى - ثُلثات - رُبَاع) (النساء / ٣) . منكم (الأبصار - القلوب - الحناجر) (الأحزاب / ٢٠) . لتدخلنّ (مُحَلِّقِينَ رؤوسكم - مُقَصِّرِينَ الفتح / ٢٧) .

علاقة الجزء - الجزء : الذين آمنوا - الذين هادوا - النصارى - الصابئين (البقرة/ ٦٢ ؛ المائدة/ ٦٩ ؛ الحج/ ١٧) . ديارنا - أبنائنا (البقرة/ ٢٤٦) . سينة - نوم (البقرة/ ٢٥٥) . صفوان - تراب (البقرة/ ٢٦٤) . أبنائنا - نساءنا - أنفسنا (آل عمران/ ٦١) . ملجأ - مغارات - مُخَلَّاء (التوبة/ ٥٧) . ظمأ - مخمصة - نصب - ينالون من عدوٍ نيلاً - يطؤون موطناً يغيط الكفار - ينفقون نفقةً - يقطعون وادياً (التوبة/ ١٢٠) . كفيه - فاه (الرعد/ ١٤) . الطائفتين - القائمتين - الركع - السجود (الحج/ ٢٦) . صوامع - بيع صلوات - مساجد (الحج/ ٤٠) . الفجر - الظهر - العشاء (النور / ٥٨) . وجوههم - أديارهم (النساء / ٤٧ ، الأنفال / ٥٠ ، مُحَمَّد / ٢٧) . الأعمى - الأعرج - المريض (النور / ٦١) . أيديهم - ألسنتهم - أرجلهم (النور / ٢٤ ، الممتحنة / ٢) . أرحامكم - أولادكم (الممتحنة / ٣) . أيديهنّ - أرجلهنّ (الممتحنة / ١٢) . أموالكم - أنفسكم (آل عمران / ١٨٦ ؛ النساء / ٩٥ ؛ آل عمران / ٧٢ ؛ التوبة / ٢٠ ، ٤١ ، ٤٤ ، ٨١ ، ٨٨ ، ١١١ ؛ الحجرات / ١٥ ؛ الصف / ١١) . أموالكم - أولادكم (آل عمران / ١٠ ، ١١٦ ؛ الأنفال / ٢٨ ؛ التوبة / ٥٥ ، ٨٥ ؛ المجادلة / ١٧ ؛ المنافقون / ٩ ؛ التغابن / ١٥) . سلاسل - أغلالاً (الإنسان / ٤) . ألسنتكم - أفواهكم (النور / ١٥) .

علاقة لتزادف : توليتم - معرضون (آل عمران / ٢٣ ، النساء / ٣٥ ، الأنفال / ٢٣ ، التوبة / ٧٦) . البأساء - الضراء (البقرة / ١٧٧ ، ٢١٤) . جنفاً - إثماً (البقرة / ١٨٢) . ألدّ - الخصام (البقرة / ٢٠٤) . الإسلام - ديناً (آل عمران / ١٩ ، ٨٥ ؛ المائدة / ٣) . تفرّقوا - اختلفوا (آل عمران / ١٠٥) . نصيب - كفل (النساء / ٨٥) . يستنكف - يستنكر (النساء / ١٧٢) . شرعة - منهجاً (المائدة / ٤٨) . مكاء - تصديّة (الأنفال / ٣٥) . يكتزون - لا ينفقون (التوبة / ٣٤) . يوفون - لا ينفقون (الرعد / ٢٠) . يخشون - يخافون (الرعد / ٢١) . أعيد - لا أشرك (الرعد / ٣٦) . يعبدونني - لا يُشركون بي (النور / ٥٥) . وليّاً - نصيراً (البقرة / ١٠٧ ، ١٢٠ ؛ النساء / ٤٥ ، ٧٥ ، ٨٩ ، ١٢٣ ، ١٧٣ ؛ التوبة / ٧٤ ، ١١٦ ؛ الأحزاب / ١٧ ، ٦٥) . مولى - نصير (الأنفال / ٤٠ ، الحج / ٧٨) . لا ترفعوا - لا تجهروا (الحجرات / ٢) . أقيموا - لا تخسروا (الرحمن / ٩) . البيع - الربا (البقرة / ٢٧٥ ؛ آل عمران / ٢) .

علاقة الاختلاف : البخل – الفضل (آل عمران / ١٨٠ ، النساء / ٣٧ ، التوبة / ٧٦) . أهواء – حُكماً (المائدة / ٤٩) . أهواء – علم (البقرة / ١٢٠ ، ١٤٥ ؛ الرعد / ٣٧ ؛ محمد / ١٦) . أهواء – الحق (المائدة / ٧٧) . الإنسان ، الأنس – الجن ، الجن (الرحمن / ١٤ – ١٥ ، ٣٣ ، ٣٩ ، ٥٦ ، ٧٤) . رجالات – على كل ضامر (الحج / ٢٧) . رجالات – رُكبناً (البقرة / ٢٣٩) .

علاقة التدرج التسلسلي : خلقناكم من (تراب – نطفة – علقة – مضغة – طفلاً – لتبلغوا أشدكم – أرذل العمر) [سورة الحج : ٥] . أخرج شطاه – لأزره – فاستغلظ – فاستوى [سورة الفتح: ٢٩] . ننسخ – نأت [سورة البقرة: ١٠٦] .

المبحث الخامس : الوصل في اللغة والاصطلاح :

الوصل لغة ^(١) : وصلت الشيء وصلًا ، وصلته ، ووصل إليه وصولًا ، أي بلغ ، وكل شيء اتصل بشيءٍ فما بينهما وصلته ، والوصل : ضدّ الهجران ، والوصل : وصل الثوب والخُف . والوصل ضمّ شيءٍ إلى شيءٍ حتّى يعلقه ، والوصل خلاف الفصل . **الوصل اصطلاحاً** : عرّف الراغب الاتصال ، بقوله : ((اتحاد الأشياء بعضها ببعض كاتحاد طرفي الدائرة ، ويضادّ الانفصال ، ويستعمل الوصل في الأعيان ، وفي المعاني)) ^(٢) . وعرّف الشريف الجرجاني الوصل بأنه ((عطف بعض الجمل على البعض)) ^(٣) . وعرّف الكفوي الاتصال ، بقوله : ((أن يكون لأجزاء شيءٍ حدّ مشترك تتلاقى عنده)) ^(٤) . ونقل التهاني تعريفين للوصل ، أحدهما عن الفراء ، وهو ((عدم الفصل)) ^(٥) ، والآخر عن أهل المعاني ، وهو ((عطف بعض الجمل على بعض ، ويُقابله الفصل)) ^(٦) . ورأى بعض المحدثين أن الوصل ((يربط معنىً بمعنى بأداة لغرض بلاغي)) ^(٧) .

الوصل في الدراسات العربية القديمة : ارتبط موضوع الوصل والفصل في الدراسات العربية القديمة بموضوع العطف في النحو العربي ، ويُعرّف عبد القاهر الجرجاني [ت ٤٧١هـ] الفصل والوصل ، بقوله : ((العلم بما ينبغي أن يُصنع في الجمل من عطف بعضها على بعض ، أو ترك العطف فيها ، والمجيء بها منثورة تستأنف واحدة منها بعد أخرى)) ^(٨) . والعطف المقصود في التعريف ، هو عطف النسق ، وقد عرّفه ابن عصفور [ت ٦٦٩هـ] ، بقوله : ((هو حمل الاسم على الاسم ، أو الفعل على الفعل ، أو الجملة على الجملة بشرط توسّط حرفٍ بينهما من الحروف الموضوعة لذلك)) ^(٩) ، فهو تابع لمتبوع بتوسّط حرف عطف بينهما ^(١٠) . وعدّ ابن السراج ^(١١) حروف العطف ، عشرة أحرف ، هي (الواو – الفاء – أو – إمّا – لا – لكن – أم – حتّى) . والذي يُلاحظ من تعريف ابن عصفور المُتقدّم لعطف النسق ، أن النحاة لم يُركزوا على العطف بين المفردات فقط ، بل كان لعطف الجمل حضور في أذهانهم ، قال المُبرّد ((ولا يقع العطف على استواءٍ إلا أن تجعل الكلام الثاني على غير معنى الكلام الأول ، فذلك جائز متى أردته . وكلّ جملة بعدها جملة ، فعطفها عليها جائز ، وإن لم يكن منها ، نحو : جاءني زيد ، وانطلق عبد الله ، وأخوك قائم ، وإن تأتني أتك . فهذا على ذا)) ^(١٢) . وكانوا يرون أن العطف يربط الجمل بعضها ببعض ، ويحقّق الوصل بينها ، قال ابن يعيش : ((عطف جملة على جملة ، نحو : قام زيد وقعد عمرو ، وزيد منطلق وبكر قائم ، ونحوها من الجمل ، والغرض من عطف الجمل ربط بعضها ببعض ، واتصالها ، والإيذان بأنّ مُتكلّم لم يُرد قطع الجملة الثانية عن الأولى ، والأخذ في جملة أخرى ليست من الأولى في شيء)) ^(١٣) . وينطلق النحويون في بحثهم لعطف الجمل من مبدأ أن ((الجملة في الأصل كلام مُستقلّ ، فإذا قصدت جعلها جزء كلام ، فلا بدّ من رابطة تربطها بالجزء الآخر)) ^(١٤) . وقسم القدماء العلاقة بين الجمل على ثلاثة أقسام ^(١٥) ، هي :

- ١- كمال الاتصال : وهو أن يكون بين مفهومي الجملتين اتحاد وارتباط .
 - ٢- كمال الانقطاع : وهو أن يكون أحدهما مبايناً للآخر مُباينة الأجانب ؛ لانقطاع الروابط بينهما .
 - ٣- التوسّط بينهما : وهو أن يكون بينهما بعض الارتباط ، فيتوسّط حالهما بين الأولى والثانية .
- إن مصطلح الوصل أعمّ من مصطلح العطف ، وذلك لأنّ من علاقات الوصل ما يكون خارجاً عن العطف ، فالتعليل بـ (كي – للام) خارج عن العطف ، وعلاقة السبب والنتيجة ، وعلاقة الشرط وجوابه ، كلّها علاقات خارج إطار العطف ؛ ولذا إن اختيار مصطلح الوصل ، أو الربط في نحو النصّ أكثر شموليّةً من مصطلح العطف .

(١) ينظر : كتاب العين / ٧ / ١٥٢ ، وتاج اللغة وصحاح العربية : ١١٠٦ / ٤ ، ومعجم مقاييس اللغة : ٢ / ٦٣٤ ، وأساس البلاغة : ٦٩٣ – ٦٩٤ ، ولسان العرب : ٤ / ٤٢٩٦ ، والقاموس المحيط : ٩٨٦ (وصل) .

(٢) مفردات ألفاظ القرآن : ٨٧٣ (وصل) .

(٣) التعريفات : ٢٠٤ .

(٤) الكلّيات : ٣٢ .

(٥) كشاف اصطلاحات الفنون : ٤ / ٣٥٦ .

(٦) كشاف اصطلاحات الفنون : ٤ / ٣٥٦ .

(٧) الفصل والوصل في القرآن الكريم ، دراسة في الأسلوب : ٣١ .

(٨) دلائل الإعجاز : ٢٢٢ . وينظر : أصول المعايير النصّية في التراث النقديّ والبلاغيّ عند العرب : ٩٤ .

(٩) المُقَرَّب : ١ / ٢٥١ . وينظر : السبك النصّي في القرآن الكريم ، دراسة تطبيقية في سورة الأنعام : ١٥١ .

(١٠) ينظر : شرح الرضي على الكافية : ٢ / ٣٣١ – ٣٣٢ .

(١١) ينظر : الأصول في النحو : ٢ / ٥٥ – ٦١ .

(١٢) المقتضب : ٣ / ٢٧٩ . وينظر : السبك النصّي في القرآن الكريم : ١٥٢ .

(١٣) شرح المُفَصَّل : المجلد الثاني / ٨ .

(١٤) شرح الرضي على الكافية : ١ / ٢٣٨ .

(١٥) ينظر : مفتاح العلوم : ٣٥٧ . وينظر : لسانيات النصّ : ١١١ .

الوصل في الدراسات النصية الحديثة : هو أحد مظاهر الاتساق الخمسة التي وضعها هاليداي ورقية حسن في كتابهما (الاتساق في الإنكليزية)^(١) . فهو الطريقة التي ترتبط بها جملة من نص بالجملة السابقة لها ، أو بالتالية لها ، فالنص ليس جملاً مُترافعةً بلا رابط لفظي ، أو معنوي يُحدّد العلاقة بينها ، فالوصل ((تحديد للطريقة التي يترابط بها اللاحق مع السابق بشكلٍ منظمٍ))^(٢) . وقد استعمل دي بوجراند مصطلح (الربط) ، ورأى أنه ((يشير إلى العلاقات التي بين المساحات أو بين الأشياء التي في هذه المساحات ... ويشير الربط أيضاً إلى إمكان اجتماع العناصر والصور ، وتعلّق بعضها ببعض في عالم النص))^(٣) . ولكي يحصل التماسك في النص ، فهو يحتاج إلى عناصر تربط أجزاءه ، وهذه العناصر الرابطة للنص ، فرّعها الباحثان إلى أربعة أنواع^(٤):

١ - **الوصل الإضافي :** ويتمّ بواسطة الأداتين (الواو - أو) . وأضافا - هاليداي ورقية حسن - إليه علاقات أخرى ، مثل : التماثل الدلالي ، والذي يتحقّق فيه الربط بين الجمل بتعبير ، مثل (بالمثل) ؛ وعلاقة الشرح المُتملّة بتعبيرات ، مثل : أعني ، بتعبير آخر ؛ وعلاقة التمثيل المُتجسّدة في تعبيرات مثل : مثلاً ، نحو . وأطلق عليه دي بوجراند مصطلح (مطلق الجمع) .

٢ - **الوصل العكسي :** ويتمّ ذلك عندما تكون الجملة الثانية مُخالفة للجملة الأولى في معناها ، بمعنى : على عكس ما هو مُتوقّع ، وتعبّر عنه أدوات مثل : لكن - بل - أمّا . فضلاً عن تعبيرات أخرى ، تدلّ عليه ، مثل : خلاف ذلك - على العكس - وفي المقابل . ورأى دي بوجراند أنه في هذا النوع من الربط ((يربط الاستدراك على سبيل السلب صورتين من صور المعلومات بينهما علاقة تعارض ، إذ تكونان في بيئتهما مُتحدتين أو مُتشابهتين ؛ أو أنّ ذلك يكون بتناولهما لموضوعات بينهما علاقة لكن من خلال تجمع غير مُتوقّع في التنشيط المُوسّع ، وقد يكون كلّ من صورتين صادقاتاً بالنسبة لعالم النص ، ولكن تعلّق كلّ منهما بالآخر غير واضح))^(٥) .

٣ - **الوصل السببي :** ويُراد به وجود علاقة منطقية بين جملتين أو أكثر ، وذلك في علاقات ، مثل : السبب والنتيجة ، الشرط وجوابه . ويُعبّر عنه بالأدوات (لذلك - من أجل - لأن - اللام - كي - الفاء) . وقد أطلق عليه دي بوجراند اسم (التفريع) ، الذي يُشير ((إلى أنّ العلاقة بين صورتين من صور المعلومات هي علاقة التدرّج ، أي أنّ تحقّق إحداها يتوقّف على حدوث الأخرى))^(٦) .

٤ - **الوصل الزمني :** ويتمّ هذا الوصل بأن تكون العلاقة بين الجملتين علاقة تتابع ، أي يحصل مضمون أحدهما زمنياً ، وبعد ذلك يحصل مضمون الأخرى ، ويُعبّر عنه بأدوات ، مثل : الفاء - ثمّ .

ولم يكن النوع الرابع من ضمن الأقسام الأربعة التي وضعها دي بوجراند ، بل وضع بدلاً عنه قسم (التخيير) ، ورأى أنه ((يربط صورتين أو أكثر من صور المعلومات على سبيل الاختيار ، إذ تكونان مُتحدتين من حيث البيئة ، أو مُتشابهتين . وإذا كانت المُحتويات جميعاً عن مطلق الجمع صادقة في عالم النص ، فإنّ الصدق لا يتناول إلاّ مُحتوى واحداً في عالم التخيير))^(٧) . ويبدو أنّ التقسيم الذي وضعه هاليداي ورقية حسن كان أكثر شموليةً لأنواع الوصل ، من تقسيم دي بوجراند ، فهو لم يُفرّق بين الوصل السببي والوصل العكسي ، إذ جعلهما نوعاً واحداً ، هو التفريع ، مع وجود الفارق الدلالي بين النوعين . زيادة على ذلك ، فقد وجد البحث أنّ بعض المُفسّرين قد أوجد نوعاً من الوصل ، أطلق عليه اصطلاح (الرّتبّي) ، وهذا النوع من الوصل يلتفت إلى المعنى الموجود في الجملتين المُتعاظفتين ، ويوازن درجة تحقّقه فيهما . وقد وجد البحث أيضاً أنّ الاستعمال القرآني قد جمع أكثر من نوع من أنواع الوصل في موضع واحد ، وقد أشار العلماء القدماء إلى ذلك ، فالزركشي يضع (قاعدة تفسيرية : حيث دخلت واو العاطف على لام التعليل ، فله وجهان : أحدهما : أن يكون تعليلاً معلّله محذوف ، كقوله تعالى : ﴿ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسَنًا ﴾^(٨) ، فالمعنى : ولإحسان إلى المؤمنين فعل ذلك . الثاني : أن يكون معطوفاً على علة أخرى مضمرة ؛ ليظهر صحة العطف ، كقوله تعالى : ﴿ وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِيُجْزِيَ ﴾^(٩) ، التفسير : ليستدلّ بها المكلف على قدرته تعالى ولتجزي))^(١٠) . من ذلك قوله تعالى : ﴿ ... وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْذُلَكُمْ فِي مَا اتَّكُمْ فَاسْتَبَقُوا الْخَيْرَاتِ ... ﴾^(١١) . فالذي يُلاحظ على الآية الكريمة أنّ قوله (ولكن) ليلوكم) اجتماع (الواو - لكن - اللام) في موضع واحد ، ممّا يعني أنّ علاقة الوصل هذه قد جمعت (الإضافي ، والعكسي ، والسببي) عند الربط بين الجملتين في الآية الكريمة . ومثلها قوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِدُوبِكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾^(١٢) . فقد جمع بين الوصل (الإضافي ، والسببي) ، في قوله (ولتطمئنن) ، فالواو للجمع بين البشري والاطمئنان ، واللام لبيان السببية . ومنه قوله تعالى : ﴿ قُمْ تَقْدُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَلْبَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾^(١٣) . ففي موضعين من الآية الكريمة ، جمع بين

(١) ينظر : لسانيات النص : ١١ .

(٢) لسانيات النص : ٢٣ .

(٣) النص والخطاب والإجراء : ٣٤٦ .

(٤) ينظر : لسانيات النص : ٢٣ - ٢٤ .

(٥) النص والخطاب والإجراء : ٣٤٦ - ٣٤٧ .

(٦) النص والخطاب والإجراء : ٣٤٧ . وينظر : ادعية الصحيفة السجادية : ٧٨ .

(٧) النص والخطاب والإجراء : ٣٤٦ .

(٨) سورة الأنفال : ١٧ .

(٩) سورة الجاثية : ٢٢ .

(١٠) البرهان في علوم القرآن : ٦١/٣ - ٦٢ .

(١١) سورة المائدة : ٤٨ . ومثلها في سورة محمد : ٤ ، قوله تعالى : ﴿ ... وَلَكِنْ لِيَبْذُلَكُمْ بَعْضُ ... ﴾ ،

(١٢) سورة الأنفال : ١٠ .

(١٣) نفسها : ١٧ .

وصلين مختلفين ، فقد جمع بين الوصل (الإضافي ، والعكسي) في قوله (ولكن) ، وبين الوصل (الإضافي ، والسببي) في قوله (وليبني) . ومثلها قوله تعالى : ﴿ وَعَدَكُمْ اللَّهُ مَعَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُكُمْ فَعَجَلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَىٰ يَدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ (١) ، وقوله تعالى : ﴿ مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ ﴾ (٢) . فقد جمع الوصلين (الإضافي ، والسببي) في الآيتين ، وذلك في قوليه (ولتكون) ، و(وليخزي) . ومما لوحظ في الاستعمال القرآني أنَّ الواو قد استعملت للدلالة على الترتيب الزمني . فمما جاء في (الواو) تنفيذ الترتيب في السور المدنية في النصِّ الكريم ، قوله تعالى : ﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ... ﴾ (٣) . فقد تكرر استعمال (آمنوا وعملوا) ، ومشتقات الفعلين في مواضع (٤) كثيرة ، والتقديم للإيمان على العمل الصالح ؛ إذ لا قيمة لعمل صالح مع الكفر بالله تعالى . ومثله قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ لَا يَنْتُرُونَ يَأْتِيَتُكَ وَأَنْتَ لَا تَعْلَمُ أَنَّ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾ (٥) . فالتعبير بـ (ويطعمون) استعملت فيه (الواو) للترتيب ، إذ إنَّ وفاءهم بالندى ، وهو الصيام ، قد أعقبه الإطعام ، زيادة على ذلك ، فالتعبير بـ (مسكينًا ويتيمًا وأسيرًا) ، قد أفادت (الواو) فيها الترتيب ، فالأصناف الثلاثة من المحتاجين ، لم يكن إطعامهم في وقت واحد ، بل كان في ثلاث ليالٍ متتالية ، فدلَّ ذلك على إفادة (الواو) للترتيب في الآيات الكريمة . ومن ذلك أيضًا ، قوله تعالى : ﴿ ذَا زُلْزَلَتِ الْأَرْضُ زُلْزَالَهَا وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا ﴾ (٦) . فاستعمال (الواو) ، في الموضعين ، يدلُّ على الترتيب ، فالزلزلة أولاً ، ثم إخراج الأثقال ، فالسؤال من الإنسان عن سبب الحال التي عليها الأرض . وعند استقراء الأدوات الرابطة في النصِّ القرآني الكريم ، يُلاحظ أنه قد كثر استعمال (الواو) فيه ، علماً أنَّ البحث قد أخرج من الإحصاء (الواو) الحالية ، التي تُفيد الربط في النصِّ ، ولكن ليس على المستوى الشكلي ، بل على المستوى الدلالي ، وكذلك (الواو) الداخلة على جمل التذييل في أواخر الآيات الكريمة ، والتي تعمل على تأكيد المعنى . كما أخرج البحث الفاء الواقعة في جواب الشرط ؛ لكون العلاقة بين الشرط وجوابه علاقة دلالية ، قد لا تحتاج إلى (الفاء) في بعض استعمالاته . وفيما يأتي إحصائية تبين عدد الأدوات الرابطة في السور المدنية : الواو / ٣٤٤٣ مرة ، الفاء / ٥٤٧ مرة ، ذم / ١٠٨ مرة ، أو / ١٤٧ مرة ، لكن ، ولكن / ٥٤ مرة ، بل / ١٦ مرة ، لام التعليل / ١١٠ مرة ، حتى التعليلية / ٣ مرات ، أم / ٢٠ مرة ، إما / ٣ مرات ، لأن / مرتان ، لكي / ٣ مرات ، من أجل / مرة واحدة .

أدوات المقارنة :

المقارنة لغة : من قارن الشيءَ الشيءَ مُقارَنَةً ، وقرنا : اقترن به ، وصاحبه . وقرنن الشيءَ بالشيء : وصلته . فالمقارنة تدلُّ على الجمع بين شيتين ، في صفة من الصفات (٧) . **المقارنة اصطلاحاً :** عرّف الراغب الاقتران ، بقوله : ((اجتماع شيتين ، أو أشياء في معنى من المعاني)) (٨) . وقد استعمل علماء البلاغة القدماء مصطلح (التفريق) للدلالة على معنى المقارنة ، فقد عرّف التفريق بـ ((هو أن يأتي المتكلم ، أو الناظم بشيتين من نوع واحد ، فيوقع بينهما تبايناً ، وتفريقاً ، يفيد زيادة تشريح فيما هو بصده من مدح ، أو ذم ، أو نسيب ، أو غيره من الأغراض)) (٩) ، كقول الشاعر (١٠) :

مَا نُوَالِ الْعَمَامَ وَقْتَ الرَّبِيعِ
كُنُوَالِ الْأَمِيرِ يَوْمَ سَخَاءِ
فَوَالِ الْأَمِيرِ بَدْرَةَ عَيْنِ
وَنُوَالِ الْعَمَامَ قَطْرَةَ مَاءِ

وعرّف بعض المحدثين المقارنة ، بأنها : ((عملية ذهنية ، تقوم على ربط موضوع بآخر برابط واحد ؛ لاستخلاص أوجه الشبه ، والاختلاف بينهما . وقد يشمل هذا الربط موضوعين ، أو أكثر)) (١١) . ويدخل في باب المقارنة التشبيه ، والتفضيل ، وعرّف التشبيه بـ ((الدلالة على اشتراك شيتين في وصف من أوصاف الشيء الواحد في نفسه)) (١٢) . وعرّف التفضيل بأنه ((ما اشتق لما زاد على غيره في الفعل)) (١٣) . ومعنى ذلك أنَّ التفضيل يحصل في معنى مشترك بين اثنين ، أو أكثر . وقد يُستعمل لبيان الكمال ، والزيادة في وصفه الخاص ، وإنَّ لم يكن الوصف الذي هو الأصل مشتركاً . وقد يُقصد به تجاوز صاحبه ، وتباعده عن غيره في الفعل ، لا بمعنى تفضيله عليه بعد المشاركة في أصل الفعل ، بل بمعنى أنَّ صاحبه متباعد في أصل الفعل ، متزايد إلى كماله فيه على وجه الاختصار ، فيحصل كمال التفضيل ، نحو : الله أكبر (١٤) .

المقارنة في الدراسات النصّية الحديثة : عدّ هاليداي ورقية حسن المقارنة عنصراً إحيائياً ، وقد صنفها على صنفين : المقارنة العامة ، وهي التي تنقسم إلى التطابق ، والتشابه ، والاختلاف ، وتكون في مفردات ، مثل (شبه مساوٍ) — مطابق تقريباً — يشبه إلى حد ما — يشبه إلى حد كبير — مختلف إلى حد ما — مختلف إلى حد كبير) ؛ والمقارنة الخاصة ، وقد قسمها المؤلفان على قسمين : الأول : كمّي ، ويكون في مفردات ، مثل : أقل ، أكثر ، متساوٍ ؛ وكيفي ، ويكون في مفردات

(١) سورة الفتح : ٢٠ .

(٢) سورة الحشر : ٥ .

(٣) سورة البقرة : ٢٥ .

(٤) مثلاً : سورة البقرة : ٦٢ ، ٨٢ ، ٢٧٧ ؛ سورة آل عمران : ٥٧ ؛ سورة النساء : ٣٤ ، ٥٧ ، ١٢٢ ، ١٢٤ ، ١٧٣ ، وغيرها .

(٥) سورة الإنسان : ٧ - ٨ .

(٦) سورة الزلزلة : ١ - ٣ .

(٧) ينظر : لسان العرب : ٣ / ٣٢٠٦ ، معجم مقاييس اللغة : ٢ / ٣٩٤ - ٣٩٥ (قرن) .

(٨) مفردات الفاظ القرآن : ٦٦٧ (قرن) .

(٩) الكليات : ٢٤٨ . وينظر : مفتاح العلوم : ٥٣٥ ، والإيضاح في علوم البلاغة : ٣٥٢ ، وأصول المعايير النصّية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب : ٥٥ .

(١٠) ينظر : مفتاح العلوم : ٥٣٥ ، والإيضاح في علوم البلاغة : ٣٥٢ . وقد نسبته محقق الإيضاح إلى الطوطا .

(١١) المعجم الفلسفي : ٢ / ٤٠٥ . وينظر : معجم مصطلحات المنطق : ٣٠١ .

(١٢) الكليات : ٢٥٥ .

(١٣) نفسه : ٧٨ .

(١٤) الكليات : ٧٩ - ٨٠ .

، مثل : أجمل من ، جميل مثل ^(١) . ورأى محمد الشاوش أن ما ذهب إليه هاليداي ورقية حسن من عد المقارنة من أنواع الإحالة غير صحيح ، و((أن وجه المقارنة أقرب إلى السمات الدلالية منها إلى المبهمات ، والعناصر الإحالية ، وأن ما بدا للمؤلفين من اتصالها بالإحالة راجع إلى خصوصية في اللغة الانجليزية أو همث بذلك ، وإذا تجاوزنا خصوصية هذه اللغة لاحظنا أن الإطار الأنسب لتناول مظاهر الربط هذه ليس عملية المقارنة في حد ذاتها ، وإنما ما يصحبها من عمليات أخرى ، تعود أساساً إلى الإضمار والحذف . ومتى تسنى لك إرجاع نفس العدد من مظاهر الترابط إلى تفسير واحد (الحذف) بدل إرجاعها إلى تفسيرين(الحذف تارة والمقارنة تارة أخرى) لم تحتج إلى الاستدلال على تفضيل الحل الأول على الثاني))^(٢) . وقد أيد باحث آخر رأي محمد الشاوش ، ورأى أن التعامل مع الطرح الذي قدمه الباحثان ((لا يستقيم في العربية ، فهي - المقارنة - تظهر عند استعمالها في الممايزة والتفضيل واحدة من مقتضيات البنية الدلالية للألفاظ والصيغ المستخدمة ؛ لأن المفردات من قبيل (مثل - شبه) ، وما جاء من الكلمات على صيغة التفضيل تقتضي دلالية ، أو قل منطقياً بنية ثنائية ، وبالتالي ^(٣) لا يجري استعمالها إلا في بنية تركيبية تتوفر فيها الثنائية بوجه من الوجوه))^(٤) . إن الأثر الذي تنتجه أدوات المقارنة أقرب إلى الوصل بين جمل النص وعباراته منه إلى الإحالة ؛ ولذا ((سميت بالمقارنة لإجراء عملية المقارنة بين الأشياء القابلة للزيادة ، والتفاضل ، وتكون وظيفة هذه المفردات المقارنة هي أداء عملية الربط ، وتحقيق التماسك النصي ... فتخلق ... ربطاً مفهوماً بين السابق ، واللاحق في النص))^(٥) . وإذا كان للحذف - في بعض الأحيان - وجود في جمل المقارنة ، فإن ذلك لا يعني أن تكون المقارنة في عنصر الحذف - كما ذهب إلى ذلك محمد الشاوش ، وقد تقدم ذكر رأيه - ، ولا ضمن عنصر الإحالة . فالذي يلحظ أن أقسام المقارنة تجمع بين شيين منفصلين ، وتعمل على إيجاد الأواصر التي تربطهما به ، ففي التشبيه مثلاً يلحظ أن ((من خصائص التشبيه الدلالية زيادته المعنى وضوحاً ، وتوكيداً ، ومبالغةً ، فضلاً عما يفيد من الإيجاز ، والاختصار في الكلام . وكي يؤدي التشبيه تلك الأمور ، فلا بد من ملاحظة طرفين هما : المشبه ، والمشبه به اللذين يقوم عليهما التشبيه ؛ لتحقيق مستوى من الاتصال ، لا يبلغ درجة الالتحام ، والامتزاج بينهما))^(٦) . وإذا كان كذلك ، فكيف تكون - المقارنة - عنصراً إحالياً ، وعمل الإحالة قائم على التطابق الدلالي بين المحيل ، والمُحال عليه . وقد يأتي الاستعمال لنفي المشابهة بين طرفي المقارنة ، والنفي مبين للمطابقة الدلالية ، التي تقوم الإحالة عليها . وزيادة على ذلك ، فقد يقلب التشبيه بإدخال أداة التشبيه على المشبه ، وليس على المشبه به ، خلافاً للأصل في استعمال التشبيه ، وقد سوغ بعض العلماء ذلك ؛ ((لوضوح الحال ، كقوله تعالى : ﴿ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَى ﴾^(٧) . فإن الأصل : وليس الأنثى كالذكر ، وإنما عدل عن الأصل ؛ لأن معنى (وليس الذكر) الذي طلبت (كالأنثى) التي وهبت لها ؛ لأن الأنثى أفضل منه))^(٨) . زيادة على ذلك ، قد لوحظ أن عناصر الإحالة الأخرى (الضمائر - أسماء الإشارة - الأسماء الموصولة) تكون حاضرة في الجمل ، والعبارات التي تنتج المقارنة ، فإذا كانت وظيفة المقارنة الإحالة ، فما الوظيفة التي تؤديها باقي عناصر الإحالة ؟ . أما بالنسبة لعنصر الحذف ، فإن أدوات المقارنة تعمل على توجيه مُتلقِي النص إلى العنصر المحذوف اعتماداً على الطرف الثاني ، من طرفي المقارنة ، أي العنصر المذكور ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَفُؤًا وَبِالْأَرْهَامِ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾^(٩) . فالمقارنة في قوله (كمثل) دلّت على الطرف الآخر في المقارنة / التشبيه ، إذ إن قوله (كمثل) ((خبر لمبتدأ محذوف تقديره : مثلهم))^(١٠) . ومثله قوله تعالى ، في الآية التالية لهذه الآية ، وهو قوله - عز وجل - : ﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَقَامَ كُفْرًا قَالَ إِنِّي بِرِءٍ مُكِلٍّ إِنِّي خَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾^(١١) . فالتقدير للمحذوف في التشبيه ، يكون يمثل ما تقدم في الآية السابقة ، وقد ((أسند كل من الخبرين إلى ذلك المُقدّر المضاف إلى ضميرهما من غير تعيين ما أسند إليه بخصوصه ثقةً بأن السامع يردّ كلاً إلى ما يليق به ، وبمئاته ، كأنه قيل : مثل أولئك الذين كفروا من أهل الكتاب في حلول العذاب بهم كمثل الذين من قبلهم ، ومثل المنافقين في إغرائهم إياهم على القتال حسبما نُقل عنهم كمثل الشيطان))^(١٢) . والمخطط الآتي يبين الفارق بين عمل المقارنة، والإحالة :

(١) ينظر : لسانيات النص : ١٩ ، علم لغة النص النظرية والتطبيق : ١٢٤ ، السبك النصي في القرآن الكريم : ٥٦ ، وأدعية الصحيفة السجادية : ٤٢ .

(٢) أصول تحليل الخطاب : ١٣٠ / ١ .

(٣) كذا ، والصحيح : ومن ثم .

(٤) نحو النص ، إطار نظري ودراسة تطبيقية : ١٠٨ .

(٥) التماسك النصي في المثل القرآني : ٤٢ .

(٦) اللغة في الدرس البلاغي : ١٠٦ - ١٠٧ .

(٧) سورة آل عمران : ٣٦ .

(٨) البرهان في علوم القرآن : ٢٦٢ / ٣ .

(٩) سورة الحشر : ١٥ .

(١٠) روح المعاني : ٢٨ / ٣٥١ .

(١١) سورة الحشر : ١٦ .

(١٢) روح المعاني : ٢٨ / ٣٥٢ .

٢٥، ٤٥، ٤٦، ٤٨، ٥١، ٥٩، ٦٧، ٧٧، ٨٤، ٨٦، ٨٧، ١١٦، ١٢٢، ١٢٥، ١٣٥، ١٤٥، ١٥٣، ١٧١ . سورة المائدة / ٨، ٥٠، ٦٠، ٦١، ٨٢ . سورة الأنفال / ٢٢، ٣٤، ٥٥، ٧٠، ٧٥ . سورة التوبة / ٣، ٨، ١٣، ٢٠، ٢٤، ٦٩، ٧٢، ٨١، ٨٣، ٩٧، ١٠٨، ١٠٩ . سورة الرعد / ٣٤ . سورة الحج / ٥، ١٣، ٥٨، ٦٨، ٧٢ . سورة النور / ٢٧، ٢٨، ٣٠، ٣٨ . سورة الأحزاب / ٥، ٦، ٣٧، ٥١، ٥٣، ٥٩ . سورة محمد / ١٣، ٢٠، ٢١، ٣٥ . سورة الفتح / ٢٦ . سورة الحجرات / ٤، ٥، ١١، ١٣ . سورة الحديد / ٣ . سورة المجادلة / ٧، ١٢، ٢٠ . سورة الحشر / ١٣ . سورة الممتحنة / ١، ١٠ . سورة الصف / ١١، ١١ . سورة الجمعة / ١١ . سورة المنافقون / ٨ . سورة التغابن / ١٦ . سورة التحريم / ٥ . سورة البينة / ٦، ٧ .

علاقة التطابق : سواء : سورة البقرة / ٦ . سورة آل عمران / ١١٣ . سورة النساء / ٨٩ . سورة الأنفال / ٥٨ . سورة الرعد / ١٠ . سورة الحج / ٢٥ . سورة المنافقون / ٦ . تستوي : سورة الرعد / ١٦ . يستوي : سورة النساء / ٩٥ . سورة المائدة / ١٠٠ . سورة الرعد / ١٦ . سورة الحديد / ١٠ . سورة الحشر / ٢٠ . يستون : سورة التوبة / ١٩ .

الفصل الثاني : الحبكة

توطئة :

الحبكة هو المعيار الثاني من المعايير السبعة التي وضعها (روبرت دي بوجراند)^(١) للنص ، ويختص هذا المعيار بالبحث في تحقق ((الاستمرارية الدلالية التي تتجلى في منظومة المفاهيم ، والعلاقات الرابطة بين هذه المفاهيم ، وكلا هذين الأمرين هو حاصل العمليات الإدراكية المصاحبة للنص ، إنتاجاً ، وإبداعاً ، وتلقياً ، واستيعاباً ، وبها يتم احتباك المفاهيم من خلال قيم العلاقات ، أو إضفائها عليها ، إن لم تكن واضحة مستعلنة على نحو يستدعي بعضها بعضاً ، ويتعلق بواسطته^(٢) بعضها ببعض))^(٣) . إن الحكم على نص ما بأنه منسجم ، أو مترابط ، لا يمكن تحديده من الجانب الشكلي فقط ، أو في مستوى التركيب ، فقد يكون النص متماسكاً ، ولا يكون فيه انسجام دلالي . لكن انسجام جمل النص لا يتحقق من خلال عملية رصف لجمل صحيحة تركيبياً / نحوياً ، وإنما يتحقق انسجامها من خلال معرفة العلاقة الدلالية التي تربط كل جملة بما قبلها ، وما بعدها . وإذا كان بعض الباحثين يرى أنه ((ليس هناك نص منسجم في ذاته ، ونص غير منسجم في ذاته ، باستقلال عن المتلقي ، بل إن المتلقي هو الذي يحكم على نص بأنه منسجم ، وعلى آخر بأنه غير منسجم ... بتعبير آخر يستمد الخطاب انسجامه من فهم وتأويل المتلقي ليس غير))^(٤) ، فقد يكون النص منسجماً مترابطاً ، ولكن قصور ثقافة المتلقي ، أو قصور فهمه هو الذي لا يوصله إلى معرفة وجه الترابط الدلالي المتحقق في النص ، وقد يحكم على نص بأنه فقرات في موضوعات شتى ، إن لم يقل : إنه جمل مرصوفة ، لا يجمعها أي ترابط دلالي يحقق لها صفة النصية . ولعل غنى بعض النصوص المعرفي ، وعمقها الدلالي ، وقابليتها على التجدد (المعنوي) ، ومواكبتها لكل عصر في تطوره ، واختلاف مفاهيمه ، هو الذي يتطلب من المتلقي أن يكون على قدر كبير من الثقافة ؛ كي يستطيع التوصل إلى الدلالة التي يحتويها النص . فالحكم بنصية النص يتجاوز حدود اللغة إلى ما هو غير قائم فيها ، أي الواقع الخارجي ، ف ((تتحكم في إنتاج النص عدة عمليات لغوية ، ونفسية ، واجتماعية ، ومعرفية ، تشكل من الأجزاء وحدة منسجمة ، قائمة على قواعد تركيبية ، ودلالية ، وتداولية معا))^(٥) .

وفيما يأتي بحث تفصيلي للسور المدنية في ضوء هذا المعيار :

الحبكة لغة^(٦) :

الحبائك : هو رباط الحاضرة بقصبات ، واحتبكت إزاري : شدته . والحبيكة : كل طريقة في الشعر ، وحبكت الرياح الرمل ، إذا جرت عليه . وحبك الثوب حبكاً بمعنى : أجاد نسجه ، وكل ما أحكمته ، وأحسن عمله ، فقد احتبكته . والحبك يدل على الشد ، والتوثيق ، والإحكام . الحبك اصطلاحاً : عرّف الكفوي الاحتباك بقوله : ((هو من الحبك ، الذي معناه الشد ، والإحكام ، وتحسين الصنعة في الثوب . والاحتباك من لطف أنواع البديع ، وأبدعها ، وقد يُسمى حذف المقابل ، وهو : أن يُحذف من الأول ما أثبت نظيره في الثاني ، ومن الثاني ما أثبت نظيره في الأول ، كقوله تعالى : ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ وَ يُتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾^(٧) ، وكقوله تعالى : ﴿فَنَقَّالُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ﴾^(٨))).^(٩) وعرّف التهانوي الاحتباك ، وذكر أن الزركشي قد أورده في البرهان ، وسمّاه (الحذف المقابل) ، ومن أمثلته ، قوله تعالى : ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الْإِذْي يُعَقُّ﴾^(١٠) ، و((التقدير : ومثل الأنبياء ، والكفار ، كمثل الذي ينقع ، والذي يُنقع به ، فحذف من الأول الأنبياء ؛ لدلالة الذي ينقع عليه ، ومن الثاني الذي يُنقع به ؛ لدلالة

(١) ينظر : النص والخطاب والإجراء : ١٠٣ .

(٢) كذا ، والصحيح : بواسطته .

(٣) نحو النص بين الأصالة والحدأة : ١٠٩ .

(٤) لسانيات النص ، مدخل إلى انسجام الخطاب : ٥١ .

(٥) علم لغة النص ، المفاهيم والاتجاهات : ١٢٩ .

(٦) ينظر : كتاب العين : ٣ / ٦٦ ، تاج اللغة وصحاح العربية : ٤ / ٩٦٠ ، معجم مقاييس اللغة : ١ / ٣٣٢ ، أساس البلاغة : ١٠٨ ، ولسان العرب : ١ / ٧٢٦ -

٧٢٧ ، القاموس المحيط : ٨٦٢ (حبك) .

(٧) سورة الأحزاب : ٢٤ .

(٨) سورة آل عمران : ١٣ .

(٩) الكليات : ٤٧ .

(١٠) سورة البقرة : ١٧١ .

الذين كفروا عليه^(١))) وقوله تعالى: ﴿ خُلِّطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا ﴾^(٢) ، أي: ((عمالاً صالحاً بسيئاً ، وآخر سيئاً بصالحاً))^(٣) . إن الباحثين العرب لم يتفقوا على ترجمة موحدة للحبك ، فقد استعملت مصطلحات عدة للدلالة عليه ، منها : الحبك^(٤) ، الانسجام^(٥) ، التماسك^(٦) ، الالتحام^(٧) ، الاتساق^(٨) ، التماسك الدلالي^(٩) ، الترابط الدلالي^(١٠) ، الربط الموضوعي^(١١) ، التماسك المعنوي^(١٢) . واختلف الباحثون في ترجمتهم للمصطلح ، فقد اختلفوا في كيفية تحقق الحبك في النصوص ، زيادة على اختلافهم في تسمية تلك الكيفية ، فقد سماها محمد خطابي^(١٣) أولاً وسائل انسجام الخطاب ، ثم سماها مبادئ الانسجام ، وأفرد ترتيب الخطاب ، وموضوع الخطاب بمباحث منفصلة ، وسماها محمد الأخضر الصبيحي^(١٤) الاتساق ، وسمتها عزة شبل^(١٥) وسائل التماسك المعنوي .

الحبك في الدراسات العربية القديمة :

لم يكن مفهوم الحبك غائبا عن علماء اللغة القدماء ، فالملاحظ أنه كانت لهم إشارات كثيرة فيه ، ففي الدراسات الأدبية والنقدية يُلاحظ قول ابن طباطبا العلوي [ت ٣٢٢هـ] : ((إنَّ للشعر فصولاً كفصول الرسائل ، فيحتاج الشاعر إلى أن يصل كلامه ، على تصرفه في فنونه ، صلة لطيفة ، فيتخلص من الغزل إلى المديح ، ومن المديح إلى الشكوى ... بألطف تخلص وأحسن حكاية ، بلا انفصال للمعنى الثاني عما قبله))^(١٦) . ومثله القرطاجني [ت ٦٨٤هـ] ، الذي قسم القصيدة الشعرية على فصول ، وطالب بالترابط في الفصل الواحد ، ومناسبة النظم للغرض ، وتقديم الأهم ، وأن تكون بين أبياته علاقات رابطة : كالسببية ، والمحاكاة ، والتفسير . أما بين فصول القصيدة ، فطالب بأن يختم الفصل بشيء من أغراض الفصل الذي يتلوه ، إشارة إلى بعض معانيه ، فيكون بينهما ترابط بالعبرة والغرض ، أو بأحدهما ، وتكون العلاقة بين الفصول ، إما بالانتقال من الكل إلى الجزء ، أو على العكس من ذلك ، وأن يكون رأس الفصل دالاً على بقيته ، فتكون الأبيات التي تليه مُتمية له ، وأن يكون آخر القصيدة استنتاجاً على ما تقدم^(١٧) . أما عند علماء التفسير ، وعلوم القرآن ، فيُلاحظ وجود إشارات عن موضوع الخطاب / النص ، وتنظيمه ، وترتيبه ، والعلاقات بين الآيات ، والعبارات في السورة ، والمناسبة في القرآن الكريم ، التي انقسمت إلى أقسام ، من أهمها : المناسبة بين آيات السورة ، ومناسبة خاتمة السورة لفاتحتها ، ومناسبة فاتحة السورة لخاتمة التي قبلها ، زيادة على المناسبة بين السورة ، واسمها . فموضوع الخطاب ، الذي عرفه بعض المحدثين ، بأنه : ((بنية دلالية تصب فيها مجموعة من الآيات بتضافر مستمر عبر متواليات قد تطول ، أو تقصر حسب ما يتطلبه الخطاب من إيجاز ، أو إطناج أو شرح ...))^(١٨) ، يُلاحظ أن بعض المفسرين قد تناولوه بالبحث في أثناء تفسيره للسور الكريمة ، من ذلك قول الفيروز آبادي [ت ٨١٧هـ] ، وهو يتحدث عن موضوع سورة البقرة ، وقد سماه (المقصود) ، قال : ((مقصود هذه السورة مدح مؤمني أهل الكتاب ، وذم الكفار كفار مكة ، ومنافقي المدينة ، والرد على منكري النبوة ، وقصة التخليق ، والتعليم ، وتلقين آدم ، وملائمة علماء اليهود في مواضع عدة ، وقصة موسى واستسقائه ، ومواعدته ربه ، ومثته على بني إسرائيل ، وشكواه منهم ، وحديث البقرة ، وقصة سليمان ، وهاروت وماروت ، والسحرة ...))^(١٩) . وكان سيد قطب أكثر وضوحاً عند بيانه لموضوع السورة ، قال : ((هذه السورة تضم عدة موضوعات ، ولكن المحور الذي يجمعها كلها محور واحد مزدوج ، يترابط الخطان الرئيسيان^(٢٠) فيه ترابطاً شديداً ، فهي من ناحية تدور موقف بني إسرائيل من الدعوة الإسلامية في المدينة ... وهي من الناحية الأخرى تدور حول موقف الجماعة المسلمة في أول نشأتها ، وإعدادها لحمل أمانة الدعوة والخلافة في الأرض ... وكل موضوعات السورة تدور حول هذا المحور المزدوج بخطه الرئيسيين^(٢١)))^(٢٢) . ومن الإشارة إلى تغيير موضوع الخطاب ، قول الطبرسي عند الانتقال من قوله تعالى: ﴿ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾^(٢٣) ، إلى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ

(١) كشاف اصطلاحات الفنون : ٤٦١ / ١ .

(٢) سورة التوبة : ١٠٢ .

(٣) كشاف اصطلاحات الفنون : ٤٦٢ / ١ .

(٤) ينظر : نظرية علم النص : ١٢٧ ، والنص والخطاب والاتصال : ٨٧ .

(٥) ينظر : لسانيات النص ، النظرية والتطبيق مقامات الهمداني أنموذجاً : ١٣٨ .

(٦) ينظر : علم لغة النص ، المفاهيم والاتجاهات : ١٦٧ .

(٧) ينظر : النص والخطاب والإجراء : ١٠٣ . وينظر : نحو النص بين الأصالة والحدثة : ٨٣ .

(٨) ينظر : مدخل إلى علم النص ومجالات تطبيقه : ٨٢ .

(٩) ينظر : علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق : ٩٦ / ١ .

(١٠) ينظر : أسس لسانيات النص : ١٥٢ .

(١١) ينظر : المعايير النصية في القرآن الكريم : ٢٧ .

(١٢) ينظر : علم لغة النص ، النظرية والتطبيق : ١٨٤ .

(١٣) ينظر : لسانيات النص : ٣٤ - ٦١ .

(١٤) ينظر : مدخل إلى علم النص ومجالات تطبيقه : ٨٢ .

(١٥) ينظر : علم لغة النص ، النظرية والتطبيق : ١٨٧ .

(١٦) عبار الشعر : ٦ . وينظر : لسانيات النص : ١٤٤ .

(١٧) ينظر : منهاج البلاغة وسراج الأنبياء : ٢٨٨ - ٣٠٢ . وينظر : لسانيات النص : ١٤٩ - ١٦٣ .

(١٨) لسانيات النص : ١٨٠ .

(١٩) بصائر ذوي التمييز : ١٣٤ / ١ - ١٣٥ . وينظر : الجواهر الحسان : ١٧٤ / ١ - ١٧٦ .

(٢٠) كذا ، والصحيح : الرئيسان .

(٢١) كذا ، والصحيح : الرئيسين .

(٢٢) في ظلال القرآن : ٢٨ / ١ .

(٢٣) سورة البقرة : ٥ .

- 09 -

ذاك ((فلا بد من دعامة تؤذن باتصال الكلام ، وهي قرائن معنوية مؤذنة بالربط))^(١). وجعل له أسباباً^(٢)، لعل من أهمها : التظهير ، والمُضادة ، والاستطراد ، والانتقال من حديث إلى آخر تنشيطاً للسامع . ومن الإشارات إلى المناسبة بين فاتحة السورة ، وخاتمها ، ما ينقله الزركشي عن الزمخشري ، قائلاً : ((وقد جعل الله فاتحة السورة (قد أفلح المؤمنون) ، وأورد في خاتمها (إنه لا يفلح الكافرون) ، فشتان ما بين الفاتحة والخاتمة))^(٣). وقد أُلّف السيوطي في ذلك كتاباً سماه (مراصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع ، بحث في العلاقات بين مطالع سور القرآن وخواتمها) ، من ذلك قوله في سورة البقرة : ((وافق آخرها أولها من ذكر أوصاف المؤمنين ، ثم الإشارة إلى وصف الكافرين))^(٤)، وقوله في سورة آل عمران : ((افتتح بذكر أنزال القرآن ، والتوراة ، والإنجيل من قبل ، وختمت بذلك في قوله : «وَأِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ»^(٥)، وفتح بقوله : «إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ»^(٦)، وختمت بقوله : «إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ»^(٧))). أما مناسبة مطلع السورة اللاحقة لخاتمة السورة السابقة ، فقد بحث فيه معظم علماء التفسير ، وأصحاب علوم القرآن ، من ذلك قول الطبرسي ، وهو يبين مناسبة افتتاح سورة التوبة لخاتمة الأنفال ، قائلاً : ((لما ختم الله سبحانه سورة الأنفال بإيجاب البراءة عن الكفار ، افتتح هذه السورة بأنه تعالى ورسوله بريان منهم كما أمر المسلمين بالبراءة منهم))^(٨). ومثله قول أبي حيان [ت ٧٤٥هـ] ، وهو يبين مناسبة افتتاح سورة آل عمران لخاتمة سورة البقرة ، قال : ((ومناسبة هذه السورة لما قبلها واضحة ؛ لأنه لما ذكر في آخر البقرة «أَنْتَ مَوْلَانَا فَأَنْصِرْنَا عَلَى الْكُفَرِيِّينَ» ، ناسب أن يذكر نصرة تعالى على الكافرين ، حيث ناظرهم رسول الله ﷺ ، وردّ عليهم بالبراهين الساطعة ، والحجج القاطعة ، فقصّ تعالى أحوالهم ، وردّ عليهم في اعتقادهم ، وذكر تنزيهه تعالى عما يقولون ، وبداءة خلق مريم ، وابنها المسيح إلى آخر ما ردّ عليهم ، ولما كان مفتتح آية آخر البقرة «أَمَّا الرُّسُولُ فَإِنَّهُ يَأْتِيهِمْ مِنْ رَبِّهِ» ، فكان في ذلك الإيمان بالله ، وبالكتاب ، ناسب ذكر أوصاف الله تعالى ، وذكر ما أنزل على رسوله ، وذكر المنزل على غيره صلى الله عليه وسلم))^(٩). قول الألوسي ، وهو يبين مناسبة أول سورة الحشر لخاتمة سورة المجادلة ، قال : ((ومناسبتها لما قبلها أن في آخر تلك «كُتِبَ اللَّهُ لِلَّهِ لَأَعْلَيْنَا أَوْ رُسُلِي» ، وفي أول هذه «فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَفَّ فِي أَذُنِهَا الرُّعْبُ» . وفي آخر تلك ذكر من حادّ الله ورسوله ، وفي أول هذه ذكر ما حلّ باليهود ، وعدم إغناء تولي المنافقين إياهم شيئاً))^(١٠). من هذا يتبين أن اهتمام أصحاب علوم القرآن ، والمفسرين بإيجاد المناسبة بين فاتحة السورة ، وخاتمها ، وفاتحتها ، وخاتمة ما قبلها ، وخاتمها ، وفاتحة ما بعدها يدلّ على أنهم ينظرون للصور القرآنية مجتمعة على أنها نصّ واحد ؛ ولذا كانوا يبحثون عن الروابط الدلالية بين سورة ، وأخرى ، وبين آيات السورة الواحدة .

الحبك في الدراسات النصية الحديثة :

الحبك هو المعيل الثاني الذي وضعه روبرت دي بوجراند للنصّ ، ورأى أنه ((يتطلّب من الإجراءات ما تنتشط به عناصر المعرفة لإيجاد الترابط المفهومي ، واسترجاعه ، وتشتمل وسائل الالتحام على :

- (١) العناصر المنطقية ، كالسببية ، والعموم والخصوص .
- (٢) معلومات عن تنظيم الأحداث ، والأعمال ، والموضوعات ، والمواقف .
- (٣) السعي إلى التماسك فيما يتصل بالتجربة الإنسانية .

ويتدعم الالتحام بتفاعل المعلومات التي يعرضها النصّ مع المعرفة السابقة بالعالم))^(١٢) . ولا يقتصر تماسك النصّ على دراسة وسائل الربط الشكلية / اللفظية ، فيمكن أن يوجد نصّ متماسك شكلياً ، ولكن لا يوجد رابط دلالي بين ألفاظه ، فيحتاج إلى توافر وسائل أخرى للتماسك غير الوسائل النحوية والمعجمية ، تكون في مستويات أعلى من التحليل ، كالمستوى الدلالي ، والبراجماتي^(١٣) . فالنصّ يمكن أن يكون متماسكاً ((عندما يُمكن للقارئ أن يتحرّك بسهولة من جملة إلى أخرى ، ويقرأ النصّ كوحدة واحدة^(١٤) ، وليس مجموعة من الجمل المنفصلة ، فالتماسك هو الكيفية التي تمكن القارئ من إدراك تدفق المعنى الناتج عن تنظيم النصّ ، ومعها يُصبح النصّ وحدة اتصالية متجانسة))^(١٥) . ولذا يرى فان دايك ((أن أيّ نحو أن يصف جملاً مثلما يصف تتابعات الجمل أيضاً ، إذا لزم أن يتّضح أنه توجد بين جمل منطوق ما علاقات محدّدة ، كما توجد أيضاً علاقات بين الكلمات ، والمركّبات داخل الجملة . ويجب أن توصف هذه العلاقات بين الجمل على المستويات النحوية ذاتها (الصوتية ، والصرفية ، والنحوية ، والدلالية (كإبنية الجمل))^(١٦) ، فالعلاقات بين جمل النصّ ليست علاقة

(١) المصدر نفسه : ٤٨ / ١ . وينظر : لسانيات النصّ : ١٩٣ .

(٢) ينظر : المصدر نفسه : ٤٨ / ١ - ٥١ .

(٣) المصدر نفسه : ١٣٤ / ١ . وينظر : تفسير الكشاف : ٢٠١ / ٣ .

(٤) مراصد المطالع : ٤٧ - ٤٨ .

(٥) سورة آل عمران : ١٩٩ .

(٦) سورة آل عمران : ٩ .

(٧) سورة آل عمران : ١٩٤ .

(٨) مراصد المطالع : ٤٨ .

(٩) مجمع البيان : ١٠ / ٥ .

(١٠) البحر المحيط : ٩ / ٣ .

(١١) روح المعاني : ٣٢٤ / ٢٨ .

(١٢) النص والخطاب والإجراء : ١٠٣ .

(١٣) ينظر : علم لغة النصّ ، النظرية والتطبيق : ١٨٤ .

(١٤) كذا ، والصحيح : وحدة واحدة .

(١٥) علم لغة النصّ ، النظرية والتطبيق : ١٨٤ .

(١٦) علم النصّ ، مدخل متداخل الاختصاصات : ٤٥ .

رصف وتركيب ، لا علاقة بينها ، بل هي علاقات بين جمل ((ذات طبيعة دلالية في الغالب ، ومن ثم يُستند فيها إلى معنى الجمل والإحالة))^(١). ويتحقق هذا الربط الدلالي بين الجمل حين ترتبط معانيها الإحالية : أي أنّ الوقائع التي تُحبل عليها في تفسير ما مرتبطة بعضها ببعض^(٢). إنّ قيود الترابط ليست دلالية فحسب ، فقد تكون الدلالة عاجزة عن تحديدها ، فيجب أن تُدرس في علم البراجماتية ، أو علم النفس ، ويمتد ذلك إلى العلاقة بين المشاركين في المحادثة ، وعلى تصوّرهم عن الوقائع أيضاً . ففيما يخصّ بعض المتحدثين يُمكن أن ترتبط حقيقتان بعضهما ببعض ، وعند الآخرين لا يُمكن معرفة ذلك تبعاً لمعرفتهم عن العالم ، وأرائهم ، ورغباتهم^(٣). وقسم محمّد خطابي – في دراسته التطبيقية لقصيدة أدونيس – وسائل الحبك (التي سمّاها المستوى الدلالي)^(٤) على :

١- مبدأ الإشراف : وقسمه على : الإشراف بين العناصر ، والإشراف بين الجملتين .

٢- العلاقات : الإجمال/التفصيل ، العموم/الخصوص .

٣- موضوع الخطاب .

٤- البنية الكلية .

٥- التغيّض .

في حين قسّم عزّة شبل وسائل^(٥) التماسك المعنويّ على :

١- الربط بين القضايا ، أو العلاقات الدلالية بين تتابعات جمل النصّ .

٢- موضوع الخطاب .

٣- البنية الكبرى .

٤- البنية التنظيمية للمعلومات في الخطاب ، أو ترتيب الخطاب .

وقسم الأخضر الصبيحي^(٦) الحبك – الذي سمّاها الاتساق – على :

١- الترابط الموضوعي .

٢- ضرورة أن يتوفّر النصّ على نوع من التدرج .

٣- يتعيّن أن يتوفّر في النصّ معيار الاختتام : إنّ التدرج المنطقيّ المُنظم يقتضي الانتهاء بجملّة ، أو فقرة ختامية ، (فالخاصية الأولى لتحديد النصّ هي الاكتمال ، وليس الطول ، أو الحجم المُعيّن))^(٧).

٤- أن يكون للنصّ هوية ، وانتماء ، ومعنى ذلك أن يكون له نوع . وهذا ما يقتضي ممّن يُمارس الكتابة أن يحترم خصائص كلّ نوع ، إذا أراد أن يُحقّق للنصّ المنجز اتساقه .

وقد ذهب روبرت دي بوجراند إلى أن تحديد نوع النصّ يُعدّ إطاراً محدّداً للغلبة النسبية للعلاقات القائمة بين عناصر النصّ . فلكلّ نوع من النصوص عناصره المميزة له ، ففي النصوص الوصفية ، يكون إثراؤها بكثرة الاتجاهات إلى كشف الوصلات ، وتكرار وجود أنواع من الوصلات ، مثل : الحال ، والصفة ، والمثال ، والتخصيص . أمّا في النصوص القصصية ، فأغلبها تصورات للحدث ، والعمل ، حيث تنظم في توجّه مرتّب للوصلات ، ويكرّر ورود العلّة والسبب ، والغرض ، والمقاربة الزمنية وغيرها . ويُلاحظ على النصوص الجدلية قضايا ، تنسب إليها قيم الصدق ، وأسباب الاعتقاد كونها حقائق ، وتكرّر فيها مصطلحات ، مثل : القيمة ، والإفادة ، والإدراك ، وغيرها . وفي النصوص الأدبية يبدو عالم النصّ في علاقة متبادلة مع الأنماط المناسبة من المعلومات حول تصوّره العالم الواقعيّ المقبول ، حيث يريد المُنتج أن يصوّر الأحداث ، والمواقف بوصفها عناصر أنموذجية في نطاق البدائل الممكنة . وأمّا عالم النصّ في النصوص العلمية ، فهو يتفق اتفاقاً تاماً مع عالمه الواقعيّ المقبول ، والمقصود هنا هو الوصول إلى نظرة مفصّلة إلى النظام القائم في العالم الواقعيّ ، وإنشاء الوصلات للأحداث ، حيث يتخلّص في النهاية من طابع المشكلة من خلال التعبير عنها بتنظيم ، وترتيب . وكذلك عالم النصّ في النصوص التعليمية ، إذ يكون وصفه لنصّه من خلال عملية تدريجية من المزج ؛ لأنه يفترض فيمن يتلقّى النصّ أن تكون لديه معلومات كافية عن المعرفة التي يتطلّبها النصّ العلميّ . أمّا في نصوص المُحاورة ، فهناك مجال مُتشعّب من الوقائع المعلوماتية المُقبولة . ويتخذ تنظيم المحادثة طابعاً خاصاً بسبب التغيّر في نوبات التكلّم . إنّ المسألة الأساسية هي كيفية استعمال أطراف الخطاب للقارئ من أجل نسبة النصوص المختلفة التكوين إلى نوع ما . ويُمكن للقارئ أن يلتصق القارئ من خارج لنصوص نفسها ، فبعض أنواع المواقف مُحدّد عُرفياً بالنسبة لنوع النصّ الذي يقع عليه الاختيار ، مثل الصلاة ، كما يُمكن لنصّ واحد أن ينتقل من نوع إلى آخر ، حيث تتغيّر فيه المواقف ، وطرائق العرض^(٨) . ويبدو أنّنا نحكم على نظنّ القرآنيّ الكريم بأنّه قد تميّز بكونه نصّاً خطابياً نثرياً مخالفاً لكلّ الأجناس الأدبية ، الشعرية منها ، والنثرية ، فأخذ بطي من كلّ نوع من هذه الأنواع ، ومزج بينها ، فأخرج نصّاً أدبيّاً علميّاً تعليميّاً وصفيّاً للماضي ، والحاضر ، والمستقبل – بالنظر لوقت نزوله – فهيمن على كلّ الأنواع ، وأحاط بكلّ المعارف ، وتحّدّى أن يوجد فيه اختلاف على مدى الزمان زيادةً على ذلك ، فالنصّ الكريم لم يكن مقلّداً ، أو مشابهاً لتلك الأجناس في خصائصها ، فبعض سورته ، وآياته لها إيقاع ، ولكنه ليس إيقاع الوزن الشعريّ ، وفيه الفاصلة القرآنية ، ولكنها ليست القافية الشعرية في

(١) علم النصّ / مدخل متداخل الاختصاصات : ٤٦ .

(٢) ينظر : علم النصّ ، مدخل متداخل الاختصاصات : ٥٣ .

(٣) ينظر : المصدر نفسه : ٥٤ .

(٤) ينظر : لسانيات النصّ : ٢٥٩ – ٢٩٥ .

(٥) ينظر : لسانيات النصّ ، مدخل إلى انسجام الخطاب : ١٨٧ – ١٩٩ .

(٦) ينظر : مدخل إلى علم النصّ ومجالات تطبيقه : ٨٢ – ٨٦ .

(٧) بلاغة الخطاب وعلم النصّ : ٢٩٨ .

(٨) ينظر : النصّ والخطاب والإجراء : ٤١٤ – ٤١٨ .

نهايات القصائد ، وهكذا الأمر مع باقي الأجناس الأدبية . ولعلّ سائلاً يسأل ، ((ما هو النمط الذي ينتسب إليه القرآن الكريم ؟ هل هو تعبير علمي ، أو بالأحرى تعبير واقعي ، أو تعبير فني ، أو جمالي عن الحقائق المشار إليها))^(١) . فالنصّ الكريم يعتمد ثلاثة أنماط من التعبير ، هي : الواقعي من جانب ، والفني من جانب آخر ، والمشارك بينهما من جانب ثالث . والهدف الأساسي منه هو إيصال مبادئ الشارح الإلهي إلى الإنسان ، وعملية التوصيل المشار إليها ما زالت تتخذ قنوات عدّة ، والمطلوب هو افعال القناة ، التي توصل الحقيقة إلى المتلقي ، وعندها من الممكن أن نجد موقفاً ما يتطلب تعبيراً ، أو توصيلاً حقيقياً ، أو علمياً لهذه الظاهرة ، أو تلك ، وفي موقف آخر يتطلب الموقف تعبيراً فنياً ، وفي موقف ثالث ، يتطلب تعبيراً مشتركاً ، أي : إننا إذا قرأنا آية قرآنية كريمة ، سجدنا تعبيراً عن الحقيقة تعبيراً واقعياً ، وحين نقرأ سواها نجدنا تعبيراً فنياً ، وحين نطالع آية ثالثة ، نلاحظ أنها تجمع بين التعبير العلمي ، والتعبير الفني^(٢) . وإذا كان ((لا مفرّ لنا عند تحليل النصوص من توظيف معرفتنا الأدبية بخواص الأجناس التي تنتمي إليها هذه النصوص . غير أننا بالقدر الذي نرتضي فيه من النصّ الذي نقرأه إشباع النموذج النوعي ، نتوقع منه - أيضاً - أن يبتكر بعض الشفرات الجمالية الخاصة به ، أو أن يقوم بتوظيف ماهر جديد لبعض الشفرات المعروفة من قبل ، ومن ثمّ فإننا نبحث عن خصوصيته في الإطار العام المرين للجنس الأدبي ، أو النوعي المكتوب فيه))^(٣) . أمّا تقسيمات الباحثين لوسائل /مظاهر الحبك ، فيبدو أنّ هنالك اتفاقاً على أغلبها ، فالعلاقات الدلالية ، وترتيب الخطاب ، وموضوع الخطاب من المشتركات عندهم مع اختلافهم في المصطلحات الدالة عليها . أمّا البنية الكلية / الكبرى ، فيرى محمّد خطابي أنه لا فارق حقيقيّ بينها وموضوع الخطاب ، لذا ذهب إلى ((أن كلا من موضوع الخطاب ، والبنية الكلية تمثّل دلاليّ إمّا لقضية ما ، أو لمجموعة من القضايا ، أو الخطاب بأكمله))^(٤) . وحاول إيجاد الفارق بين الاثنين ، ثم عاد إلى جعلهما شيئاً واحداً ، قال : ((على أنّ الفرق الوحيد بين الاثنين هو أنّ تأسيس البنية الكلية يتم عبر عمليات أساسها الحذف والاختزال ، بينما موضوع الخطاب يستخلص عن طريق رصد مجموعة من الجمل التي تخصّ هذا الموضوع . لكن - في اعتقادنا - أنّ نفس العمليات^(٥) يُمكن أن تُنقذ للوصول إلى موضوع الخطاب ما دامت النتيجة التي نصل إليها هي هي))^(٦) .

المبحث الأول : العلاقات الدلالية

هي الروابط المعنوية بين جمل النصّ ، فاستمرارية النصّ وانسجامه يتطلب وجود علاقات رابطة بين جملة ، ويوضّح علماء النصّ ((الشروط التي تتيح لنا أن نعرف ما إذا كانت المتواليات النصية متماسكة أم لا ، إذ إنّ هذه الشروط التي يتوقف عليها وجود النصّ ، أو الاعتداد به ، فيرون أنّ التماسك اللازم للنصّ ذو طبيعة دلالية ، مهما تدخلت فيه العمليات التداولية . وهذا التماسك - بالإضافة إلى ذلك - يتميز بخاصية (خطية) أي أنه يتصل بالعلاقات بين الوحدات التعبيرية المتجاورة داخل المتتالية النصية . فالتماسك يتحدّد على مستوى الدلالات عندما تكون العلاقات قائمة بين المفاهيم ، والذوات ، والمشابهات ، والمفارقات في المجال التصوريّ ، كما يتحدّد على مستوى المدلولات ، أو ما تُشير إليه النصوص من وقائع وحالات))^(٧) ، وهذه العلاقات تتضح في أغلب الأحيان من خلال أدوات الوصل الموجودة بين الجمل ، أو من خلال عناصر الإحالة الرابطة بين الجمل ، فـ ((العلاقات التي تقوم بين الجمل ، أو العبارات في متتالية نصية يُمكن أن ترتكز على الدلالات ، وهي العلاقات الداخلية ، أو على الروابط بين العناصر المشار إليها ، أو المدلول عليها في الخارج ، وهي علاقات الامتداد الخارجية . فإذا لاحظنا الروابط التي تقوم بين العبارات باعتبارها^(٨) (كلاً موحّداً) أمكننا أن نصوغ لتربطها المبدأ التالي^(٩) : ترتبط العبارتان فيما بينهما إذا كان مدلولهما ، أي الظروف المنسوبة إليهما في التأويل مترابطة فيما بينهما))^(١٠) . وقد الباحثون^(١١) - أيضاً - في تقسيمهم للعلاقات الدلالية ، ولعلّ أوسع التقسيمات ، وأكثرها شمولاً ما نقله جميل عبدالمجيد عن أحد الباحثين الغربيين ، والذي رأى أنّ تقسيمه [أي الباحث الغربي] ينماز بـ :

- ١- أنّ العلاقات قابلة للدراسة التطبيقية على مختلف اللغات .
- ٢- قد يتعدّد الأسلوب المستعمل للتعبير عن علاقة دلالية ، أو أخرى ، فمثلاً علاقة الموازنة يُمكن التعبير عنها بفعل يدلّ على المفاضلة ، بدلاً من استعمال عبارة (أفضل من) .
- ٣- درجة وضوح العلاقات تختلف من لغة إلى أخرى .
- ٤- قد تدخل البنية الواحدة في أكثر من علاقة مع بنيات عدّة .
- ٥- هذه لعلاقات قابلة للتطبيق على مستويات متعدّدة من النصوص : الجمل ، والفقرات ، والأجزاء ، صعوداً إلى المجلدات .

وقد صُنّفت العلاقات الدلالية في هذا التقسيم على صنفين :

- ١- علاقات الربط : وهي تنقسم إلى علاقات إضافة ، وعلاقات ثنائية .

(١) دراسات في علوم القرآن : ٢٠٢ .

(٢) ينظر : دراسات في علوم القرآن : ٢٠٢ - ٢٠٣ .

(٣) بلاغة الخطاب وعلم النصّ : ٣٢٨ .

(٤) لسانيات النصّ : ٤٤ .

(٥) كذا ، والصحيح : العمليات نفسها .

(٦) نفسه : ٢٧٧ .

(٧) بلاغة الخطاب وعلم النصّ : ٣٢٨ - ٣٢٩ .

(٨) كذا ، والصحيح : بعدها .

(٩) كذا ، والصحيح : الآتي .

(١٠) بلاغة الخطاب وعلم النصّ : ٣٣٧ .

(١١) ينظر مثلاً : البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية : ١٤٢ - ١٤٨ ، وعلم لغة النصّ ، النظرية والتطبيق : ١٨٧ - ١٨٨ ، ونظرية علم النصّ ، رؤية منهجية في بناء النصّ النثري : ١٣٢ .

- ٢- علاقات التبعية : وهي تنقسم إلى : علاقات مؤهلة ، وعلاقات منطقية .
 وداخل هذا التصنيف ، والتقسيم تندرج تسعة عشرة علاقة دلالية ، وهي كالآتي ^(١) :
- أ- العلاقات الرابطة : وتُقسم على :
- ١- متكافئة : وتربط بين مفهومين تجمعهما دلالة واحدة ، غير أنهما في شكل سطحي مختلف ، مثل : هو لم يمكث ، هو قد غادر .
- ٢- مختلفة : تربط بين قضيتين مُتمثلتي المفهوم ، إلا أنه في القضية الثانية إضافة دلالية غير التي في القضية الأولى ، ويكون حدوثهما في بنيات متوازية ، أو معكوسة ، مثل : رمى المجلة جانباً ، وأخذ كتاباً ، أو مثل : قد كانت تثرثر داخل الغرفة ، وهو يعمل في المرآب .
- ب- العلاقات الثنائية : وتنقسم إلى :
- ١- إبدالية : وتكون في قضيتين ، إحداهما تكون بديلة عن الأخرى ، وتتم بأدوات ، كـ (أو) ، مثل : أنا سوف آتي ، أو سيأتي محمد ؛ أو مثل : أتحدث معه ، أو سأكتب له رسالة .
- ٢- تقابلية : وتكون بين قضيتين بينهما تقابل ، أو تضاد ، ومن أدواتها (لكن - على النقيض - مع ذلك - مع أن) ، مثل : كانت الطرق مزدحمة ، ولكن وصلنا في اللحظة الأخيرة . ولعل هذه العلاقة تتداخل مع علاقة دلالية شائعة في اللغة العربية ، وهي علاقة الاستدراك ، التي تؤدي غالباً بالأداة (لكن) .
- ٣- مقارنة : ويُقارن فيها بين شيئين ، أو حدثين ، ومن أدواتها (أفضل من - ك-مثل) ، مثل : هو أكثر حذراً من زيد .
- الثانية : العلاقات التبعية : وتُقسم على :
- أ- العلاقات المؤهلة : وتنقسم إلى :
- ١- الجوهر : ويُقسم على :
- أ- المحتوى : وهو ما يُمكن إيضاحه بوصفه خبيراً مكماً لخبر آخر ، مثل : هو أراد أن يذهب .
- ب- الإجمال والتفصيل : وذلك بأن تكون القضية الأولى تحمل صفة العموم ، فتتطرق القضية الثانية إلى تفصيلها ، أو تفسيرها ، أو تخصيصها .
- ٢- الوصف : ويُقسم على :
- أ- وصف الكل أو الجزء : مثل أن تجسد القضية الثانية وصفاً جزئياً للقضية الأولى ، مثل : أطلقنا النار على الدب الذي قتل الولد .
- ب- الكيفية : وتتم عن طريق وصف الحدث من خلال حاله ، مثل : أتى زيد إلى المدينة راكباً فرساً .
- ت- المحيط أو الإطار : تهتم بوصف عنصر الزمان ، والمكان ، وظروف حصول الحدث ، ولذا فهي تنقسم إلى :
- ١- الزمان : مثل : أمس عمل محمد بجهد كبير .
- ٢- المكان : مثل : في الملعب ركض زيد .
- ٣- الظرف : مثل : عندما سمع أحمد صوت سيارة الإطفاء تثنى جانباً .
- ب- العلاقات المنطقية : وتجسها العلاقات السببية باختلاف أشكالها ، وهي :
- ١- المسبب - الأثر : مثل : ذهب محمد إلى بغداد تسبب في مقابلة زيد .
- ٢- السبب - النتيجة : مثل : لأنَّ محمدًا أراد مقابلة زيد ، فقد ذهب إلى بغداد .
- ٣- الوسيلة - النتيجة : مثل : بالذهاب إلى بغداد قابل محمد زيداً .
- ٤- الوسيلة - الغرض : مثل : قرَّر محمد الذهاب إلى بغداد ، كان يريد مقابلة زيد .
- ٥- الشرط - الجواب : مثل : لو ذهب محمد إلى بغداد ، لكان قابل زيداً .
- ٦- الأساس - التحقق : مثل : زيد يسكن في بغداد ، قابله محمد في مكان ما فيها .
- ٧- المفترض - النتيجة : مثل : بما أنَّ محمدًا ذهب إلى بغداد ، فمن المؤكد أنه يُقابل زيداً .
- وهذا التقسيم على الرغم من تشعب علاقاته ، إلا أنه أغفل كثيراً من العلاقات الدلالية . ونقلنا عزّة شبل عن إحدى الباحثات الغربيّات تقسيمها العلاقات الدلالية على أساس يقوم على التمييز بين علاقات الاتصال ، وعلاقات الانفصال بين الجمل ، فكان تقسيمها كالآتي ^(٢) :
- ١- علاقات الاتصال : وهي تُقسم على :
- أ- علاقة الإضافة : بمثل : الواو - أيضاً .
- ب- علاقة التشابه : بمثل : على نحو مشابه - بالمثل .
- ت- علاقة الاستنتاج : بمثل : لهذا - ومن ثم .
- ث- علاقة مقدمة منطقية : بمثل : بسبب - لأن .
- ج- علاقة التمثيل : بمثل : على سبيل المثال - بالمثل .
- ح- علاقة التقرير : بمثل : بمعنى أنَّ - باختصار .

^(١) ينظر : البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية : ١٤٢ - ١٤٧ ، آليات الانسجام النصي في خطب مختارة من مستدرك نهج البلاغة للهادي كاشف الغطاء : ٨٨ - ٨٩ .

^(٢) ينظر : علم لغة النص ، النظرية والتطبيق : ١٨٩ . وينظر : نظرية علم النص ، رؤية منهجية في بناء النص النثري : ١٣٢ .

خ- علاقة التتابع : بمثل : التالي - وبعد .

٢- علاقات الانفصال : وتقسّم على :

أ- علاقة البديل : بمثل : أو - الآخر .

ب- علاقة التقابل : بمثل : من ناحية أخرى - على العكس .

ت- علاقة التضمن الممتنع : بمثل : ما زال - على الرغم من .

ث- علاقة المسلّم به : بمثل : بالطبع - تماماً .

ج- علاقة الاستثناء : بمثل : فيما عدا - إلا .

ح- علاقة الإحلال : بمثل : بدلاً من - مفضلاً عن .

خ- علاقة التتابع الشاذ : بمثل : في أثناء ذلك - فجأة .

ولم يذكر علماء النصّ المحدثون علاقة الطلب - الجواب ، وعلاقة السؤال - الجواب ، وغيرها من العلاقات الدلالية الرابطة للنصّ ، مع أنها متوافرة في اللغة العربية عامّة ، والقرآن الكريم خاصّة ، فضلاً عن معرفتها ، والإشارة إليها من النحويين ، والبلاغيين أقدماء . ولم يكن مفهوم البدلية المذكور في تقسيماتهم موافقاً لما موجود في اللغة العربية ، فالمفهوم الذي ذكره يشير إلى العطف القائم على التخيير بين شيئين بواسطة حرف العطف (أو) ، أمّا علاقة البدلية في اللغة العربية ، التي سيقوم البحث باعتمادها ، فهي جملة البديل بحسب مفهومها في النحو العربي . وكذلك لم يذكروا الجملة المعترضة ، فهي وإن كانت معترضتين تتابعات الجملة المترابطة ، إلا أنها تحقق أثراً دلالياً في توضيح غامض ، أو استدراك على معنى ، قد يساء فهمه ، أو أن يتبادر إلى الذهن إمكان نقضه ، وهو ما سيظهر في البحث . ومما يُمكن أن يُزاد إلى ذلك ، أن كلّ لفظ ، أو عبارة ، أو جملة ، تحقق أثراً دلالياً في النصّ يجب أن يدخل في هذا المبحث ، ولذا سيقوم البحث بالأخذ بكلّ العلاقات المتقدّمة الذكر ، زيادة على ما لم يكن للباحثين ذكر له ، ويظهر في أثناء الدراسة . من ذلك دلالة لفظ (مظلماً) في قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ يَمْثِلُهَا وَيَتَرَقَّطُهَا لَهُمْ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ غَاصِيَةٍ تَمَا تُعْشِبُ وَجُوهَهُمْ قِطْعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا وَلِئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾^(١) ، فقد نُصب قوله (مظلماً) ((على أنه حال من الليل ، وفيه زيادة معنى ؛ لأنّ الليل قد سُمّي ليلاً ، وإن كان مقمراً ، فإنما قال سبحانه : مظلماً ، على أن التشبيه إنما وقع به أسود ما يكون جلباباً ، وأبهم أثواباً))^(٢) . فموقع قوله (مظلماً) في الآية كان لتأدية معنى إضافي لوصف الليل ، وهو أنه خال من أي مقدار من الإضاءة ، التي قد يتبادر إلى الذهن وجودها من خلال ضوء للقمر في الليالي المقمرة ، فكان موقعه احتراساً من اعتراض قد يرد بهذا الخصوص ، وليس لبيان حال الليل . وفيما يأتي عرض أمثلة تطبيقية لتلك العلاقات الدلالية الموجودة في السور المدنية الكريمة :

١- علاقة الإضافة المتكافئة / المترادفة : من ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا لِّمَن كَانُوا فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾^(٣) ، فالنار في الآية قد تكون بمعنى : جهنم ، ويكون إطلاقها ((مجازاً مرسلاً بعلاقة الأول ، أو السببية ، أي ما يفضي بهم إلى عذاب جهنم ... وعلى هذا فعطف جملة (وسيصلون سعيراً) عطف مرادف لمعنى جملة (ياكلون في بطونهم ناراً) . ويجوز أن يكون اسم النار مستعاراً للألم ، بمعنى : أسباب الألم ، فيكون تهديداً بعذاب دنيوي ... ويكون عطف جملة (وسيصلون سعيراً) جازياً على ظاهر العطف من اقتضاء المغايرة بين المتعاطفين ، فالجملة الأولى تهديد بعذاب الدنيا ، والجملة الثانية وعيد بعذاب الآخرة))^(٤) . ولعلّ الرأي الأول هو الأقرب ، إذ إنّ تهديد أكل أموال اليتامى بالعقوبة الآخروية أكبر من الدنيوية ، فمعنى قوله (ياكلون في بطونهم ناراً) : ((إنّ فعل ذلك يصير إلى جهنم ، فتمتلئ بالنار أجوافهم عقاباً على ذلك الأكل منهم))^(٥) .

٢- علاقة الإضافة المختلفة : من ذلك قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ رَضِيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ لَا تَتَفَرَّغُوا يُعْتَبِكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلُ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾^(٦) ، فقوله (ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله أتألفتم) يعاتب به الله ((سبحانه المؤمنين في التناقل عن الجهاد ثم استفهم منهم بقوله [أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة] هذا استفهام واد به الإنكار ... ثم عقبه سبحانه بالتهديد ، والوعيد ، فقال (إلا تنفروا يعتبككم الله عذاباً أليماً)))^(٧) .

٣- علاقة البدلية : من ذلك قوله تعالى : ﴿ إِذَا نَأْتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسَقَىٰ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لِاحْتِلَافٍ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾^(٨) ، فجملة (ليهلك من هلك عن بينة) بدل^(٩) من جملة (ليقضي الله أمراً كان مفعولاً) .

٤- علاقة التقابل : من ذلك قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَلِلَّهِ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾^(١٠) ،

(١) سورة يونس : ٢٧ .

(٢) تلخيص البيان في مجازات القرآن : ١٥٥ .

(٣) سورة النساء : ١٠ .

(٤) ينظر : تفسير التحرير والتنوير : ٤ / ٤٣ .

(٥) التبيان في تفسير القرآن : ٣ / ١٢١ .

(٦) سورة التوبة : ٣٨ - ٣٩ .

(٧) مجمع البيان : ٥ / ٧٧ - ٧٨ .

(٨) سورة الأنفال : ٤٢ .

(٩) ينظر : البحر المحيط : ٥ / ٣٢٩ ، وروح المعاني : ١٠ / ٢٨٦ .

(١٠) سورة النساء : ١٣ - ١٤ .

قابل في الآيتين بين جملة (مَنْ يَطْعَ اللهَ ورسوله)، و(مَنْ يَعْصِ اللهَ ورسوله)، فـ ((لَمَّا ذَكَرَ ثَوَابَ مِرَاعِي الْحُدُودِ ذَكَرَ عِقَابَ مَنْ يَتَعَدَّاهَا، وَغَلِظَ فِي قِسْمِ الْمَعَاصِي، وَلَمْ يَكْتَفِ بِالْعَصِيَانِ، بَلْ أَكَّدَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ))^(١). وقد جمع الحال من قوله (وَمَنْ يَطْعَ) بـ (خَالِدِينَ)، وأفرده من قوله (مَنْ يَعْصِ) بـ (خَالِدًا)؛ ((لَأَنَّ أَهْلَ الطَّاعَةِ أَهْلَ الشَّفَاعَةِ، وَإِذَا شَفَعَ أَحَدُهُمْ فِي غَيْرِهِ دَخَلَهَا مَعَهُ، وَأَهْلُ الْمَعَاصِي لَا يَشْفَعُونَ، فَلَا يَدْخُلُ بِهِمْ غَيْرُهُمْ، فَيَبْقَوْنَ فِرَادَى. أَوْ لِلإِذْنِ بِأَنَّ الْخُلُودَ فِي دَارِ الثَّوَابِ بِصِفَةِ الْجَمَاعَةِ الَّذِي هُوَ أَجْلِبُ لِلْأَنْسِ، وَالْخُلُودُ فِي دَارِ الْعِقَابِ بِصِفَةِ الْإِنْفِرَادِ الَّذِي هُوَ أَشَدُّ فِي اسْتِجْلَابِ الْوَحْشَةِ))^(٢)، وقد ناسب في العقوبة بين العصيان، ووصف العذاب، فوصفه بـ (المهين)؛ ((لَأَنَّ الْعَاصِيَ الْمُتَعَدِّيَ لِلْحُدُودِ بَرَزَ فِي صُورَةٍ مِمَّنْ اغْتَرَّ، وَتَجَاسَرَ عَلَى مَعْصِيَةِ اللَّهِ، وَقَدْ ثَقُلَ الْمَبَالَاةُ بِالشَّدَائِدِ مَا لَمْ يَنْضَمَّ إِلَيْهَا الْهُوَانُ))^(٣).

٥- علاقة المقارنة: من ذلك قوله تعالى: ﴿أَمْ هُمْ كَانُوا عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمْ زَيْنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾^(٤)، فالعلاقة بين قوله (مَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ)، وقوله (مَنْ زَيْنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ) علاقة موازنة، وحرف الاستفهام (الهمزة) (مستعمل في إنكار المماثلة التي يقتضيها حرف التشبيه. والمقصود من إنكار المشابهة بين هؤلاء، وهؤلاء هو تفضيل الفريق الأول)^(٥). ويظهر التفضيل في كون الطرف الأول (على بَيِّنَةٍ)، و((البَيِّنَةُ: الدلالة الواضحة عقلية كانت أو محسوسة))^(٦)، وقد نسبها إلى الله تعالى، ووصفه بـ (من رَبِّهِ)، والرب لا يريد لمربوبه سوء، وقد أفاد حرف الجر (على) الاستعلاء المجازي^(٧)، فدلَّ أنه ((على يقين من دينه، وعلى حجة واضحة من اعتقاده في التوحيد والشرائع))^(٨). أما الطرف الآخر، فقد (زَيْنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ)، فدلَّ الفعل المبني للمجهول على عدم التكافؤ بين طرفي المقارنة، وعدم صلاحه ليكون مقارناً لـ (من رَبِّهِ) في الطرف الأول، والمقصود به - أي المُرَّيْنِ المحذوف - الشيطان^(٩)، وتكتمل صورة المقارنة بكونهم (اتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ) في مقابل (على بَيِّنَةٍ)، إذ إنهم ((شَغَفَهُمْ أَعْمَالُهُمُ السَّيِّئَةُ الَّتِي زَيْنَهَا لَهُمُ الشَّيْطَانُ، وَتَعَلَّقَتْ بِهَا أَهْوَاءُهُمْ، وَعَمِلُوا السَّيِّئَاتِ، فَكَمْ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ مِنْ فَرْقٍ))^(١٠).

٦- علاقة المحتوى: من ذلك قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَتُوبُوا يُعَذِّبُكُمُ عَذَابًا لِيْمًا وَيَسْتَبْلِي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ لَا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذَا خَرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا تَالِي أَتَيْنَ إِدَهُمَا فِي الْغَارِ إِذِ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ...﴾^(١١)، فجملة ((إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ)) جاءت مكملة لجملة ((لَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا))، إذ أكمل خبر عدم الضرر بخبر نصر الله - تعالى - له. وجواب الشرط لقوله ((إِلَّا تَنْصُرُوهُ)) ((محذوف تفسيره، فسينصره، ويدلَّ عليه (فقد نصره الله)، أي: ينصره في المستقبل كما نصره في الماضي))^(١٢)، فدلَّهم بما حصل في الماضي من عدم إصابته بالضرر على الرغم من ((قَلَّةِ نَاصِرِيهِ حِينَ كَانَ بِمَكَّةَ، وَهَمَّ بِهِ الْكَفَّارُ، فَتَوَلَّى اللَّهُ نَصْرَهُ))^(١٣)، على أن نصر الله تعالى له غير منقطع عن النبي ﷺ.

٧- علاقة العام - الخاص: من ذلك قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَتَوَكَّرَ اللَّهُ كَثِيرًا﴾^(١٤)، فقوله (لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ) ((بدل من قوله (لكم)، وهو تخصيص بعد العموم للمؤمنين، يعني أن الأسوة برسول الله إنما تكون (لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ)، أي يرجو ما عند الله من الثواب، والنعيم))^(١٥).

٨- علاقة الإجمال - التفصيل: من ذلك قوله تعالى: ﴿لَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُؤْذِنَ الْأَذْبَارُ ثُمَّ لَا يُنصُرُونَ﴾^(١٦)، فقوله (لنن أخرجوا لا يخرجون معهم)، وما بعده ((تكذيب تفصيلي لو عددهم بعد تكذيبه الإجمالي بقوله (والله يشهد إنهم لكانذبون))^(١٧).

٩- علاقة الكل - الجزء: من ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فُجْرًا وَهُ جَاهِنٌ مُعْتَدِلًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَكْفَى إِلَيْكُمُ السَّلَامُ لَسَنَتُ مُؤْمِنًا تَبَيَّنُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعَدَّ اللَّهُ مَعَائِمَ كَثِيرَةً كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ هُنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾^(١٨)، فـ ((لَمَّا بَيَّنَّ تَعَالَى أَحْكَامَ الْقَتْلِ، وَأَنْوَعَهُ، عَقَّبَ ذَلِكَ بِالْأَمْرِ بِالتَّبَيُّنِ، وَالتَّائِي حَتَّى لَا يَفْعَلَ مَا يَعْقِبُ

(١) البحر المحيط: ٥٥١ / ٣.

(٢) روح المعاني: ٦٠١ / ٤.

(٣) البحر المحيط: ٥٥١ / ٣.

(٤) سورة محمد: ١٤.

(٥) تفسير التحرير والتنوير: ٧٨ / ٢٦.

(٦) مفردات الفاظ القرآن: ١٥٧ (بان).

(٧) تفسير التحرير والتنوير: ٧٨ / ٢٦.

(٨) مجمع البيان: ٢٤٦ / ٩ - ٢٤٧.

(٩) ينظر: التبيان: ٢٣٥ / ٩، والميزان في تفسير القرآن: ٤٥٢ / ١٨.

(١٠) الميزان في تفسير القرآن: ٤٥٢ / ١٨.

(١١) سورة التوبة: ٣٩ - ٤٠.

(١٢) البحر المحيط: ٤٢٠ / ٥.

(١٣) مجمع البيان: ٧٩ / ٥.

(١٤) سورة الأحزاب: ٢١.

(١٥) مجمع البيان: ٢١٠ / ٨. وينظر: تفسير الكشاف: ٥١٥ / ٣.

(١٦) سورة الحشر: ١١ - ١٢.

(١٧) الميزان في تفسير القرآن: ١٦٣ / ١٩. وينظر: إرشاد العقل السليم: ٢٣١ / ٨، وروح المعاني: ٣٤٩ / ٢٨.

(١٨) سورة النساء: ٩٣ - ٩٤.

الندامة^(١))) فجملته (ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً) ترتبط بعلاقة الجزئية مع الأحكام المتقدمة عليها ، وفيها ((تعيين لمادة مهمة من المواد التي يجب فيها التبيين))^(٢) ؛ ولذا فقد جاء بها مستأنفة بعد أن ذكر الأحكام الخاصة بالقتل العمد للمؤمنين ((؛ استقصاءً للتحذير من قتل المؤمن يذكر أحوال قد يتساهل فيها ، وتعرض فيها شبهه))^(٣) .
١٠- علاقة الكيفية : من ذلك قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾^(٤) ، فقوله (وهم راكعون) حال من الضمير في قوله (يؤتون)^(٥) ، وجوز الزمخشري أن تكون (الواو) حالية من قوله (يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة) ، ((أي يعملون ذلك في حال الركوع ، وهو الخشوع ، والإخبات ، والتواضع لله إذا صلوا ، وإذا زكوا))^(٦) ، ويبدو أن هذا الرأي فيه نظر ، لأن ذلك يتعارض من حيث المعنى مع قوله (يقيمون الصلاة) ، والركوع جزء منها ، فلا يكون مبيناً لكيفيتها ، وقد نصت الروايات على أنها نزلت في حالة خاصة لمن قام بأداء الزكاة ، وهو راكع ، وذلك الشخص هو الإمام عليّ A ، إذ ((تصدق بخاتمه ، وهو راكع في الصلاة))^(٧) . وفي ذلك دلالة على أنه لا يترك علاقته الخيرة للمسلمين إلا ويشارك به ، ف ((المراد بيان كمال رغبتهم في الإحسان ، ومسارعتهم إليه))^(٨) .

١١- علاقة المحيط أو الإطار : وتقسم على :

أ- الزمان : من ذلك قوله تعالى : ﴿... الْيَوْمَ اكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ فَأَتِمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ...﴾^(٩) ، فظرف الزمان (اليوم) يدل على زمان معين ، يتناسب مع تشريع الهي ، قد بلغه النبي ﷺ ، وبه كان إكمال الدين ، وإتمام النعمة . ورأى بعض المفسرين أنه ((لم يرد به يوماً بعينه ، وإنما أراد به الزمن الحاضر ، وما يتصل به ، ويدانيه))^(١٠) ، في حين رأى آخرون أن فيه ((أكملت لكم فرائضي ، وحدودي ، وحلالي ، وحرامي بتنزيلي ما أنزلت ، وبياني ما بينت لكم ، فلا زيادة في ذلك ، ولا نقصان منه بالنسخ بعد هذا اليوم ، وكان ذلك يوم عرفة عام حجة الوداع))^(١١) . وفي تقديم الجار والمجرور في موضعين من قوله (أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي) ((إيدان من أول الأمر بأن الإكمال لمنفعتهم ، ومصلحتهم))^(١٢) .

ب- المكان : من ذلك قوله تعالى : ﴿إِذَا نُمْتُ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ ...﴾^(١٣) ، فالتعبير بـ (العدوة الدنيا) ، و(العدوة القصوى) ، و(أسفل منكم) ، ظروف مكانية ترتبط بالحدث الرئيس ، وهو يوم بدر^(١٤) ، ف ((الدنيا) بمعنى الأدنى إلى المدينة ، و(القصوى) بمعنى الأقصى منها جهة مكة ... فنزلا الوادي بهذه الصفة ... وقوله (والركب أسفل منكم) ، يعني أبا سفيان ، وأصحابه في موضع أسفل منكم إلى ساحل البحر ، وإنما نُصب (أسفل) ؛ لأن تقديره : بـمكان أسفل))^(١٥) .

ت- علاقة الظرف : من ذلك قوله تعالى : ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ أَنِّي مُبْدئكم بِأَفْ مِنْ الْمَلَائِكَةِ مُرْسِلِينَ﴾^(١٦) ، فالظرف (إذ) يربط جملة (تستغيثون ربكم) ، بجملة (فاستجاب لكم) . و(إذ) ظرف لما مضى ، وهي بمعنى : حين^(١٧) ، و((الاستغاثة) طلب المعونة ، والغوث ... والاستجابة : هي العطية على موافقة المسألة ، فمعناها : فأعائكم ، وأجاب دعاءكم))^(١٨) . وعلى الرغم من أن (إذ) داخلة على صيغة استقبال في قوله (تستغيثون) إلا أنها ((لحكاية الحال المضية ؛ لاستحضار صورتها العجيبة))^(١٩) . وجاءت دلالة (السين و التاء) في قوله (فاستجاب) مقابلة لنظيرتهما في قوله (تستغيثون) الدالة على الطلب ، أي تدل ((على قبول الطلب ، والسين والتاء للمبالغة ، أي تحقيق المطلوب))^(٢٠) .

١٢- العلاقات المنطقية : وتنقسم إلى :

أ- علاقة المسبب - الأثر : من ذلك قوله تعالى : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ الْكَلَامَ إِلَى الرَّسُولِ أَلَا يَتَذَكَّرُ الْمُنافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكُ صُدُودًا كَيفَ إِذَا صَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾

(١) مجمع البيان : ٢٣٨ / ٣ .

(٢) إرشاد العقل السليم : ٢١٨ / ٢ .

(٣) تفسير التحرير والتنوير : ٢٢٥ / ٤ .

(٤) سورة المائدة : ٥٥ .

(٥) ينظر : البيان في غريب إعراب القرآن : ٢٩٧ / ١ . وينظر : أنوار التنزيل وأسرار التأويل : ٣٣٩ / ٢ ، وإرشاد العقل السليم : ٥٢ / ٣ .

(٦) تفسير الكشاف : ٦٣٥ / ١ .

(٧) البحر المحيط : ٣٠١ / ٤ . وينظر : الكشاف : ٦٣٥ / ١ ، و أنوار التنزيل وأسرار التأويل : ٣٣٩ / ٢ ، وإرشاد العقل السليم : ٥٢ / ٣ ، وروح المعاني : ٦ / ٤٥٨ .

(٨) روح المعاني : ٤٥٨ / ٦ . وينظر : إرشاد العقل السليم : ٥٢ / ٣ .

(٩) سورة المائدة : ٣ .

(١٠) تفسير الكشاف : ٥٩٢ / ١ . وينظر : أنوار التنزيل وأسرار التأويل : ٢٩٣ / ٢ ، وروح المعاني : ٣١٨ / ٦ .

(١١) مجمع البيان : ٣٩٤ / ٣ . وينظر : التبيان في تفسير القرآن : ٤١٠ / ٣ ، وأسباب النزول : ٩٨ - ٩٩ ، وروح المعاني : ٣١٩ / ٦ .

(١٢) إرشاد العقل السليم : ٧ / ٣ .

(١٣) سورة الأنفال : ٤٢ .

(١٤) ينظر : التبيان في تفسير القرآن : ١١٤ / ٥ ، وتفسير الكشاف : ٢١٦ / ٢ ، وروح المعاني : ٢٨٤ / ١٠ .

(١٥) التبيان في تفسير القرآن : ١١٤ / ٥ . وينظر : تفسير الكشاف : ٢١٦ / ٢ .

(١٦) سورة الأنفال : ٩ .

(١٧) ينظر : وصف المباني : ١٤٨ ، والجنى الداني : ١٨٥ - ١٨٦ ، ومغني اللبيب : ٩٤ / ١ - ٩٥ .

(١٨) مجمع البيان : ٦٢١ / ٤ - ٦٢٢ .

(١٩) روح المعاني : ٢٢٧ / ٩ - ٢٢٨ .

(٢٠) تفسير التحرير والتنوير : ٣٣ / ٩ .

﴿١﴾ ، فجملة (يصدون عنك صدوداً) جاءت مسيبةً لأثر ، وهو جملة (فكيف إذا أصابته مصيبة) ؛ ولأن الصدود عما أنزل الله يُوجب غضبه - عز وجل - عليهم ، فيكون ذلك سبباً في أن يصيبهم بمصيبة ^(١) ، وذلك ((بافتضاحهم بظهور نفاقهم (بما قدّمت أيديهم) ؛ بسبب ما عملوا من الجنايات التي من جملتها التحاكم إلى الطاغوت ، والإعراض عن حكمك)) ^(٢).

ب- علاقة السبب - النتيجة : من ذلك قوله تعالى : ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنَّكُمْ خَفْتُمْ أَنْ يَقْتُلَكُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا﴾ ^(٣) ، فقوله (وإذا ضربتم في الأرض) سبب ، نتيجة جملة (تقصروا من الصلاة). ومعنى قوله (ضربتم في الأرض) : ((أي سرتم فيها)) ^(٤) . إن تقصير الصلاة في الآية مقيد بقوله (إن خفتم أن يقتلكم الذين كفروا) ، ف ((ظاهر الآية يقتضي أن القصر لا يجوز إلا عند الخوف ، لكننا علمنا جواز القصر عند الأمن ببيان النبي (p))) ^(٥) . ويبدو أن التشريع بدأ بتقصير الصلاة في السفر ، مع تقييد السفر بالخوف من العدو ، ثم اقتصر على السفر فقط ، ورأى العلامة الطباطبائي : أن قوله (إن خفتم أن يقتلكم الذين كفروا) ((قيد لقوله (فليس عليكم جناح) ، وتفيد أن بدء تشريع القصر في الصلاة إنما كان عند خوف الفتنة ، ولا ينافي ذلك أن يعم التشريع ثانياً جميع صور السفر الشرعي ، وإن لم يجمع الخوف ، فإما بين قسمين منه ، والسنة بينت شموله لجميع الصور)) ^(٦) . وقد جاء التعبير عن هذا الحكم الشرعي بتعبير يوهم عدم الوجوب فيه ، إذ قال (فليس عليكم جناح أن تقصروا) ، ((ونفي الجناح الظاهر وحده في الجواز لا ينافي وروده في السياق للوجوب كما في قوله تعالى ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ هُنَّ حَجٌّ الْبَيْتِ وَأَعْتَمَرُ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطُوفَ بِهِمَا﴾ ^(٧) ، مع كون الطواف واجباً ، وذلك أن المقام مقام تشريع)) ^(٨).

ت- علاقة الوسيلة - النتيجة : من ذلك قوله تعالى : ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ ...﴾ ^(٩) ، إذ جعل جملة (فلم يعذبكم بذنوبكم) وسيلة لبناء نتيجة عليها ، وهي جملة أنتم بشر ممن خلق ، فمعنى الجملتين : ((فلأي شيء يعذبكم بذنوبكم إن كان الأمر على ما زعمتم ، فإن الأب يشفق على ولده ، والحبيب على حبيبه ، فلا يعتبه ... ليس الأمر على ما قلتم : إكم أبناء الله وأحباؤه ، بل أنتم خلق من بني آدم ، إن أحسنتم جوزيتهم على إحسانكم ، وإن أسأتم جوزيتهم على إساءتكم كما يجازي غيركم)) ^(١٠).

ث- علاقة الشرط - الجواب : من ذلك قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ هَذَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ ^(١١) ، فقد رتب الجواب في جملة (فما بلّغت رسالته) على الشرط في جملة (إن لم تفعل) ^(١٢) ، بمعنى : ((إن لم تبلّغ منها أدنى شيء ، وإن كان كلمة واحدة ، فأنت كمن ركب الأمر الشنيع الذي هو كتمان كلامها)) ^(١٣).

ج- علاقة الأساس - التحقق : من ذلك قوله تعالى : ﴿وَاتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَيْرَ بِالْطَّبِيبِ وَلَا تَكُونُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ... لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾ ^(١٤) ، فقوله - عز وجل - (واتوا اليتامى أموالهم) جاء تأسيساً لحكم تحقق في جملة (للرجال نصيب مما ترك الوالدان ...) ، فالرابط الدلالي بين الآيتين أنه شرع ((في بيان أحكام الموارث بعد بيان أحكام أموال اليتامى المنتقلة إليهم بالإرث)) ^(١٥) . وقد أفرد المرأة بالذكر ، فلم يقل : للرجال والنساء ، وإنما خصّها بالذكر ؛ لأنه ((كانت العرب لا يعطون البنات)) ^(١٦) ، أو ((للإعتناء بأمرهن ، والإيدان بأصالتهن في استحقاق الإرث)) ^(١٧).

ح- علاقة المفترض - النتيجة : من ذلك قوله تعالى : ﴿وَأِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ ^(١٨) ، فجملة (تخافن من قوم خيانة) ، المفترضة الوقوع ، كانت نتيجة جملة (فانبذ إليهم على سواء) ،

(١) سورة النساء : ٦١ - ٦٢ .

(٢) ينظر : تفسير التحرير والتنوير : ١٧٣ / ٤ .

(٣) إرشاد العقل السليم : ١٩٥ / ٢ . وينظر : أنوار التنزيل وأسرار التأويل : ٢٠٨ / ٢ .

(٤) سورة النساء : ١٠١ .

(٥) نزاهة القلوب : ٣٠٧ . وينظر : مفردات ألفاظ القرآن : ٥٠٥ (ضرب). وينظر : بصائر ذوي التمييز : ٣ / ٤٦٥ ، إذ نقل أن معناها : الإسراع في السير .

(٦) مجمع البيان : ٢٥٢ / ٣ . وينظر : تفسير الكشاف : ٥٤٦ / ١ ، ٤٥٧ ، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل : ٢ / ٢٤٥ - ٢٤٦ ، وإرشاد العقل السليم : ٢٢٥ / ٢ .

(٧) الميزان في تفسير القرآن : ٤٥ / ٥ .

(٨) سورة البقرة : ١٥٨ .

(٩) الميزان في تفسير القرآن : ٤٥ / ٥ .

(١٠) سورة المائدة : ١٨ .

(١١) مجمع البيان : ٣ / ٤٣٦ - ٤٣٧ . وينظر : البحر المحيط : ٤ / ٢١٣ ، والميزان في تفسير القرآن : ١٧٩ / ٥ .

(١٢) سورة المائدة : ٦٧ .

(١٣) ينظر : إعراب القرآن : ٣٩١ - ٣٩٢ .

(١٤) تفسير الكشاف : ١ / ٦٤٦ . وينظر : البحر المحيط : ٤ / ٣٢١ - ٣٢٢ ، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل : ٢ / ٣٤٧ - ٣٤٨ ، وإرشاد العقل السليم : ٣ / ١٥٦ - ٦١ ، والتحرير والتنوير : ١٥٦ / ٥ .

(١٥) سورة النساء : ٢ ، ٧ .

(١٦) روح المعاني : ٤ / ٥٧٠ .

(١٧) البحر المحيط : ٣ / ٥٢٤ .

(١٨) إرشاد العقل السليم : ٢ / ١٤٦ .

(١٩) سورة الأنفال : ٥٨ .

فمعنى الآية : ((إن خفتَ - يا محمد - من قوم ، بينك وبينهم عهد ، خيانة فيهم ؛ لأنَّ الخيانة إما تكون بعد تقدّم العهد ، ولم يظهر نقض العهد بعد))^(١) . والخوف في اللغة : ((توقع مكروه عن إمارة مظنونة ، أو معلومة))^(٢) . ورأى الألوسي أنَّ الخوف في الآية ((مستعار للعلم ، أي : وإما تعلمن من قوم معاهدين لك نقض عهد فيما سيأتي بما يلوح لك منهم من الدلائل))^(٣) .

١٣- علاقة التشابه : من ذلك قوله تعالى : ﴿مَثَلُ الَّذِينَ خَضَعُوا لِلتَّوْرَةِ ثُمَّ دُفِعُوا يَدَهُمْ كَمَثَلِ الدَّمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَتَبُوا بِاللَّهِ وَإِلَّا يَهْدِي الْقَوْمُ الظَّالِمِينَ﴾^(٤) . فقد جاء التشبيه في الآية الكريمة لتقريب حال اليهود ، وهم قد حفظوا التوراة ، ولم يعملوا بها ، إذ إنها شبيهة ((حملة التوراة ، وقراؤها ، وحفاظ ما فيها ، ثم إتهم غير عاملين بها ، ولا متقنين بآياتها بالحمار حمل أسفاراً ، أي كتباً كباراً من كتب العلم ، فهو يمشي بها ، ولا يدري منها إلا ما يمرّ بجنبه ، وظهره من الكدِّ ، والتعب . وكلّ مَنْ علم ، ولم يعمل بعلمه فهذا مثله))^(٥) . ويبدو أنَّ استعمال الفعل المضغف (حُمِلُوا) ، وهو فعل متعدّ أصلاً ، ليتعدى إلى مفعولين ، أضاف معنى آخر ، وهو إتهم قد حُمِلُوا غير راغبين ، ولا مؤمنين بما حُمِلُوا ، وكأنَّ الأمر قد فُرض عليهم ؛ ولذا قال (ثم لم يحملوها) ((حقّ حملها من أداء حقها ، والعمل بموجبها ؛ لأنهم حفظوها ، ودونوها كتبهم ، ثم لم يعملوا بما فيها))^(٦) . وقد استعمل لفظ (الأسفار) بدل الكتب ؛ لأنَّ السفر هو ((الكتاب الذي يسفر عن الحقائق ... وخصّ لفظ الأسفار في هذا المكان تنبيهاً أنَّ التوراة - وإن كانت تحقّق ما فيها - فالجاهل لا يكاد يستبينها كالحمار الحامل لها))^(٧) .

١٤- علاقة التمثيل : من ذلك قوله تعالى : ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّبِينًا﴾^(٨) ، فقوله (ويوم حنين إذ أعجبكم كثرتكم) ، جاء تمثيلاً ((بشواهد ما سبق من نصر الله المسلمين))^(٩) ، التي أشار إليها في جملة (لقد نصركم الله في مواطن كثيرة) ، والمواطن جمع ، مفردة : موطن ، وهو ((الموضع الذي يقيم فيه صاحبه ، وإما قد أقاموا في هذه المواطن للقتال))^(١٠) . ورأى الزمخشري أنَّ قوله (يوم حنين) منصوب ((بفعل مضمّر لا بهذا الظاهر))^(١١) ، والتقدير : ونصركم يوم حنين ، ويبدو أنَّ هذا التقدير يدلّ على تخصيصه ، والاهتمام به ؛ وذلك لـ ((كون شأنه عجبياً ، وما وقع فيه غريباً للظفر بعد اليأس ، والفرج بعد الشدة))^(١٢) . وقد استشكل المفسرون التغاير بين المتعاطفين ؛ لدلالة الأول على المكان ، والثاني على الزمان ، ولذا فقد حاولوا أن يقدروا محذوفاً يجمعهما ، والتقدير : ((وموطن يوم حنين ، ويجوز أن يقدّر في أيام مواطن))^(١٣) . وقد يكون في هذا التغاير بعداً إعلامياً للحدث ، إذ إنّ هذا ((التغيير للإيماء إلى ما وقع فيه من قلّة الثبات من أول الأمر))^(١٤) . فهم قد أعجبهم كثرتهم أولاً ، وظنوا أنَّ النصر حليفهم في ذلك اليوم ؛ لأنهم قد انتصروا ، وهم قلّة فانتصارهم مع الكثرة أولى ، فحصل ما لم يتوقعوا ، فانهزموا بادئ الأمر ، ثم عادت الكفة إلى صالحهم بنصر من الله تعالى ، لا بسبب كثرتهم .

١٥- علاقة الاستثناء : من ذلك قوله تعالى : ﴿... فَلَا تَخْشَوْهُمْ مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَكُفُّوا عَنْهُمْ وَأَخْذُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَخْشَوْهُمْ مِنْهُمْ وَلَا تَنْصُرُوا إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمِ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَجَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يَقَاتِلُوكُمْ وَيَمِتُّوهُمْ قَوْمَهُمْ ...﴾^(١٥) ، فجملة ((إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق ...)) (استثناء متصل من مفعول (فخذوهم واقتلوهم))^(١٦) . ورأى أبو عبيدة أنَّ معنى (يصلون) : ينتسبون ، إذ إنّ معنى الآية : ((إذا كانوا من أولئك القوم الذين بينكم ، وبينهم ميثاق ، فلا تقتلوهم))^(١٧) . ونقل أبو حيان عن النحاس ، قوله : ((هذا غلط عظيم ؛ لأنه ذهب إلى أنه تعالى حظر أن يُقاتل أحد ، بينه وبين المسلمين نسب ، والمشركون قد كان بينهم ، وبين المسلمين السابقين أنساب))^(١٨) . وذهب أكثر المفسرين إلى أنَّ معنى (يصلون) هو الوجود المكاني ، فمعنى الآية : ((من وصل من هؤلاء إلى قوم بينكم ، وبينهم ميثاق ، وعهد ، فدخلوا فيهم بالحلف ، أو الجوار ، فحكمهم حكم أولئك في حق دمايتهم))^(١٩) . ويبدو أنَّ المعنيين مطلوبان في النصّ ، فالذي ينتسب إلى القوم الذين لهم ميثاق مع النبي ﷺ ،

(١) مجمع البيان : ٦٨٨ / ٤ . وينظر : البحر المحيط : ٣٤٠ / ٥ .

(٢) مفردات ألفاظ القرآن : ٣٠٣ ، وينظر : بصائر ذوي التمييز : ٥٧٦ / ٢ (خوف) .

(٣) روح المعاني : ٣٠٦ / ١٠ .

(٤) سورة الجمعة : ٥ .

(٥) تفسير الكشاف : ٥١٨ / ٤ . وينظر : التبيان في تفسير القرآن : ٦ / ١٠ ، ومجمع البيان : ١٢ / ١٠ .

(٦) مجمع البيان : ١٢ / ١٠ .

(٧) مفردات ألفاظ القرآن : ٤١٢ (سفر) . وينظر : بصائر ذوي التمييز : ٢٢٥ / ٣ .

(٨) سورة التوبة : ٢٥ .

(٩) تفسير التحرير والتنوير : ٥٧ / ١٠ .

(١٠) التبيان في تفسير القرآن : ١٧٧ / ٥ .

(١١) تفسير الكشاف : ٢٥١ / ٢ .

(١٢) روح المعاني : ٣٧٢ / ١٠ .

(١٣) تفسير الكشاف : ٢٥١ / ٢ ، وينظر : البحر المحيط : ٣٩٢ / ٥ ، وأثر التنزيل وأسرار التأويل : ١٣٧ / ٣ ، وإرشاد العقل السليم : ٥٥ / ٢ ، وروح المعاني : ٣٧٢ / ١٠ .

(١٤) إرشاد العقل السليم : ٥٥ / ٤ .

(١٥) سورة النساء : ٨٩ - ٩٠ .

(١٦) الجواهر الحسان : ٢٧٥ / ٢ . وينظر : البحر المحيط : ١١ / ٤ .

(١٧) مجاز القرآن : ١٣٦ / ١ . وينظر : مفردات ألفاظ القرآن : ٨٧٣ ، وبصائر ذوي التمييز : ٢٢٥ / ٥ ، إذ إنهما قد ذهبا إلى أنَّ هذا هو معنى المفردة .

(١٨) البحر المحيط : ١١ / ٤ .

(١٩) مجمع البيان : ٢٢٢ / ٣ . وينظر : البحر المحيط : ١١ / ٤ ، والجواهر الحسان : ٢٧٥ / ٢ .

من الأصل في ذلك العهد . ومن يصل إليهم بالمكان ، فداخل في الميثاق ، إذ إنهم قالوا في موادعتهم النبي p : ((على أن لا تحيف - يا محمد - من أتانا ، ولا نحيف من أتاك))^(١) .

١٦- علاقة الترتيب / التتابع : من ذلك قوله تعالى : ﴿الرَّجُلُ قَوَّامُونَ عَلَى النَّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا نَفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَأَلْصَقَاتِ الْفَاتَاتِ حَافِظَاتٍ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُورَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا﴾^(٢) ، فالعلاقة بين الجمل (فعظوهن) ، و(واهجروهن) ، و(واضربوهن) علاقة ترتيب ، وليس علاقة جمع ، قال الزمخشري : ((أمر بوعظهن أولاً ، ثم هجرانهن في المضاجع ، ثم بالضرب إن لم ينجح فيهن الوعظ ، والهجران))^(٣) . ومما له صلة بهذه العلاقة ، ما سماه بعض المفسرين^(٤) بـ (الترتيب الرتبي) ، من ذلك قوله تعالى : ﴿قَوْلٌ لِلَّذِينَ يُكْتَبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَدُودُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا قَوْلٌ لَهُمْ مِمَّا كُتِبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يُحْسِبُونَ﴾^(٥) ، قال أبو السعود [ت ٩٥١هـ] : ((وتم للتراخي الرتبي ، فإن نسبة المحرف والتأويل الزائغ إلى الله سبحانه صريحاً أشد شناعة من نفس التحريف والتأويل))^(٦) ، ومثله قوله تعالى : ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنِي مَرْيَمَ وَرَافِعُكَ لِي وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ هُوقٌ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ لِي مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾^(٧) . قال الألوسي : ((يحمل معنى (ثم) [الآية] على التراخي الرتبي ، والترقي من كلام إلى آخر ، لا على التراخي في الزمان))^(٨) . وقوله تعالى : ﴿... وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَكُسُوفُونَ﴾^(٩) ، فجمله (ثم) كثيراً منهم بعد ذلك في الأرض لمسرفون) ، أفادت ترتيباً رتبياً فضلاً عن الترتيب الزمني ؛ ((لأن مجيء الرسل بالبينات شأن عجيب ، والإسراف في الأرض بعد تلك البينات أعجب))^(١٠) .

١٧- علاقة الاستدراك : من ذلك قوله تعالى : ﴿إِذْ يَرْكَبُهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكُمْ كَثِيرًا لَفُشِنْتُمْ وَلَتَنَازَعُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾^(١١) ، فجمله (ولكن الله سلم) جاءت مستدركة للجمله الشرطية (ولو أراكم كثيراً لفشنتم) ، إذ إن المعنى : ((ولكن الله سلم من الفشل ، والتنازع ، والاختلاف بإرايته له p الكفار قليلاً))^(١٢) . وقد ذكر الله - تبارك وتعالى - وكانث القاعدة اللغوية تقتضي وضع الضمير العائد عليه موضعه ؛ وذلك ((للقصد زيادة إسناد ذلك إلى الله ، وأنه بعنايته ، واهتماماً بهذا الحادث))^(١٣) .

١٨- علاقة التقييد - الإطلاق : من ذلك قوله تعالى : ﴿كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَقْوَاهُمْ فَيُؤْتَوْنَ بِهِ دُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ... لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾^(١٤) ، فجمله (لا يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة) مقيدة بالمخاطبين من المسلمين ، وجاءت جملة (لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة) مطلقاً لهذا التقييد بدلالة لفظة (مؤمن) النكرة ، التي تقييد معنى التعميم^(١٥) ؛ وذلك للدلالة على ((أن عدم مراعاتهم حق الحلف ، والعهد خلق متاصل فيهم))^(١٦) . وزيادة على ذلك ، فقوله (فيكم) عائدة على المخاطبين من المؤمنين في عصر النبي p ، وإطلاقها بـ (مؤمن) العامة له ((تنبيه على الوصف الموجب للعداوة ، وهو الإيمان ، ولما كان قوله (لا يرقبوا فيكم) يتوهم أن ذلك مخصوص بالمخاطبين ، نبه على غلبة ذلك ، وأن سبب المنافاة هو الإيمان))^(١٧) .

١٩- علاقة الاستبدال / النسخ : من ذلك قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ الْآنَ خَفِيَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾^(١٨) ، ولعل هذه العلاقة مما امتازت به الشريعة الإسلامية ، التي راعت النفس الإنسانية ، التي تربت على أخلاق معينة ، وأعراف متوارثة ، كان أغلبها لا ينسجم مع مبادئ الدين الحنيف ؛ لذا جاءت أحكام الشريعة متدرجة على وجه العموم في القضايا الشرعية ، العبادية منها ، والتعاملية ، بل وفي مجال القضية الواحدة ، التي من مصداقها هاتان الآيتان اللتان تحددان تعداد الجيش المسلم المحارب ، إذ جاء الحكم المنسوخ في جملة (إن يكن منكم عشرون

(١) مجمع البيان : ٣ / ٢٢٣ .

(٢) سورة النساء : ٣٤ .

(٣) تفسير الكشاف : ١ / ٤٩٦ . وينظر : التبيان في تفسير القرآن : ٣ / ١٨٣ ، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل : ٢ / ١٨٥ ، وإرشاد العقل السليم : ٢ / ١٧٤ ، وروح المعاني : ٥ / ٣٤ - ٣٥ .

(٤) ورد هذا المصطلح عند أبي السعود ، والألوسي ، والطاهر بن عاشور .

(٥) سورة البقرة : ٧٩ .

(٦) إرشاد العقل السليم : ١ / ١٢٠ . ومثله في : ١ / ٨٨ ، ١٠١ ، ١٠٦ / ١٠٦ .

(٧) سورة آل عمران : ٥٥ .

(٨) روح المعاني : ٣ / ٢٤٣ .

(٩) سورة المائدة : ٣٢ .

(١٠) تفسير التحرير والتنوير : ٥ / ٩٠ .

(١١) سورة الأنفال : ٤٣ .

(١٢) البحر المحيط : ٥ / ٣٣٠ . وينظر : مجمع البيان : ٤ / ٦٧٣ ، وإرشاد العقل السليم : ٤ / ٢٤ ، وروح المعاني : ١٠ / ٢٨٨ ، وتفسير التحرير والتنوير : ٩ / ١١٧ .

(١٣) تفسير التحرير والتنوير : ٩ / ١١٧ .

(١٤) سورة التوبة : ٨ ، ١٠ .

(١٥) ينظر : البحر المحيط : ٥ / ٣٧٨ ، وروح المعاني : ١٠ / ٣٥١ .

(١٦) تفسير التحرير والتنوير : ١٠ / ٣٢ .

(١٧) البحر المحيط : ٥ / ٣٧٨ .

(١٨) سورة الأنفال : ٦٥ - ٦٦ .

صابرون يغلبوا منتين) ، ثم نسخ بقوله : (فإن يكن منكم مئة صابرة يغلبوا منتين) ؛ ((لأن في الأولى كان وجوب ثبات الواحد للعشرة ، والعشرة للمئة ، فلما علم الله تعالى أن ذلك يشق عليهم ، وتغيرت المصلحة في ذلك نقلهم إلى ثبات الواحد للثنتين ، والمئة للمنتين))^(١) . ومعنى قوله (علم فيكم ضعفاً) : ((ضعف البصيرة ، والعزيمة ، ولم يرد ضعف لبين ، فإن الذين أسلموا في الابتداء لم يكونوا كلاًهم أقوىاء البدن))^(٢) . وجاء هذا التشريع في عدد المقاتلين بصيغة الجملة الخبرية المتمثلة بجملة الشرط في المنسوخ ، والناسخ ، ف ((هاتان الجملتان الشرطيتان في ضمنهما الأمر بصبر عشرين لمنتين ، وبصبر مئة لألف ، ولذلك دخلها النسخ ، إذ لو كان خبراً محضاً لم يكن فيه النسخ ، لكن الشرط إذا كان فيه معنى التكليف جاز فيه النسخ ، وهذا من ذلك))^(٣) .

٢٠- علاقة الطلب - الجواب : من ذلك قوله تعالى : ﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَبْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورٌ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴾^(٤) ، فالطلب في قوله (قاتلوهم) ، جاء جوابه في جملة (يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ)^(٥) . وقد جاء جواب الطلب دالاً على الوعد للمسلمين بالنصر ، وأن الله يعتب المشركين ((بأيديهم قتلاً ، ويخزيهم أسراً ، ويوليهم النصر ، والغلبة عليهم))^(٦) . وقد أسند التعذيب للكفار إلى الله - عز وجل - للدلالة على أن ذلك لا يكون إلا بالمشيئة ، والأمر الإلهي ، وهم ليسوا سوى الأداة المنجزة لهذا الأمر . ومما يدخل في هذه العلاقة ، علاقة (السؤال - الجواب) ، وقد ورد هذا النوع من العلاقة كثيراً في النص القرآني الكريم ؛ وذلك لكثرة الأسئلة التي كان يتعرض لها النبي ﷺ من قبل المسلمين والمشركين ، وأهل الكتاب ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِئَلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِتَأْتِي الْبُيُوتِ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَلَوْ أَنَّ الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَأَتَقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾^(٧) .

٢١- علاقة الاعتراض : من ذلك قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدْ لَهُ مِنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾^(٨) ، فالجملة (وكثير حق عليه العذاب) جاءت في سياق الكلام عمن يسجد ، ف ((كيف رفع الكثير ، وهو لم يسجد ؟ فالجواب في ذلك أن قوله : (حق عليه العذاب) يدل على أنه : وكثير أبي السجود))^(٩) ، فقد ((انقطع ذكر الساجدين ، ثم ابتدأ فقال : (وكثير حق عليه العذاب) ، أي : ممن أبي السجود))^(١٠) ، فتكون الجملة معترضة ، وجملة (إن الله يفعل ما يشاء) في محل العلة لها ؛ ((لأن وجود حرف التوكيد في أول الجملة مع عدم المنكر يُمحض حرف التوكيد إلى إفادة الاهتمام ، فنشأ من ذلك معنى السببية والتعليل))^(١١) .

٢٢- علاقة التمهيد : من ذلك قوله تعالى : ﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ الْمُنَفَّكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴾^(١٢) ، فقوله (منفكين حتى تأتيتهم البينة) جاء تمهيداً^(١٣) لقوله (رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة) ، إذ إن الإتيان على ذكر البينة ، ثم التصريح بعدها بـ (رسول من الله) للدلالة على أن ((المراد هو الإشارة إلى أن الرسول p من مصاديق الحجة البينة القائمة على الناس ، التي تقتضي قيامها السلة الإلهية الجارية في عبادته))^(١٤) .

المبحث الثاني : موضوع الخطاب

يُعدّ موضوع الخطاب بنية دلالية ، بواسطتها يُوصف الخطاب بأنه منسجم ، ف ((موضوعات الخطاب ترد المعلومات السيمانتيقية ، وتنظمها ، وترتبها تراكييب متوالية ككل شامل))^(١٥) ، فهو ((بؤرة الخطاب التي تُوحده ، وتكون الفكرة العامة ، أو هو ما يدور حوله الخطاب ، أو ما يقوله ، أو ما يُقَدِّمه ... على أن ما نحمله في رؤوسنا بعد قراءة النص ، هي تلك العناصر التي تمثل موضوع الخطاب))^(١٦) . إن النص يتناول قضية ، أو مجموعة قضايا تجمعها وحدة موضوعية ؛ وذلك لأن ((مجموعة من الجمل لا تدور حول موضوع موحد يصعب إيجاد روابط بينها ، ومن ثم لا تكون نصاً . ومن مقتضيات الوحدة الموضوعية اجتذاب التناقض ، والانتقال غير المبرر^(١٧) من فكرة إلى أخرى ، لا تربطها بها أية صلة منطقية))^(١٨) . ((في سورة البقرة ، التي تنتظمها عشرات الموضوعات كما هو واضح ، نجد أن هذه الموضوعات تتناغم فيما بينها من

(١) التبيان في تفسير القرآن : ١٣٩ / ٥ . وينظر : تفسير الكشاف : ٢٢٧ / ٢ ، ومجمع البيان : ٦٩٨ / ٤ ، والبحر المحيط : ٣٤٩ / ٥ .

(٢) مجمع البيان : ٦٩٨ / ٤ .

(٣) البحر المحيط : ٣٤٩ / ٥ .

(٤) سورة التوبة : ١٤ .

(٥) ينظر : إعراب القرآن : ٣٨٣ .

(٦) تفسير الكشاف : ٢٤٤ / ٢ .

(٧) سورة البقرة : ١٨٩ .

(٨) سورة الحج : ١٨ .

(٩) معاني القرآن ، الفراء : ١٢٧ / ٢ .

(١٠) مجمع البيان : ٢٠٩ / ٧ .

(١١) تفسير التحرير والتنوير : ١٧ / ١٦٥ .

(١٢) سورة البينة : ١ - ٢ .

(١٣) ينظر : تفسير التحرير والتنوير : ٣٠ / ٤١٧ .

(١٤) الميزان في تفسير القرآن : ٢٠ / ٥٩١ .

(١٥) النص والسياق : ١٨٥ .

(١٦) علم لغة النص ، النظرية والتطبيق : ١٩١ .

(١٧) كذا ، والصحيح : المسوغ .

(١٨) مدخل إلى علم النص ، ومجالات تطبيقه : ١٢٩ .

جانب ، ويربطها خيط فكري من جانب ثانٍ ، أن كل موضوع أمّا يتسبّب عن سابقه ، وأمّا أن يُسبّب في لاحقه))^(١) . ويؤدّي موضوع الخطاب – عند بعض الباحثين في علم النص – أثرين مهمّين^(٢) ، هما:

- ١- أنه يُساهم في ترتيب أفكار الخطاب ؛ لكونه البؤرة الرئيسة لها .
 - ٢- أنه يُعدّ مؤشراً على معرفة الموضوع المتصلة بالقارئ ، أو السامع .
- ولعلّ من الأصحّ أن يُقال : إنه مؤشر على المعرفة المتصلة بالموضوع عند منتج النصّ ، فالمعرفة بالموضوع تتولّد من معرفة مرسل النصّ ، لا من متلقيه . فإنّ كانت المعلومات متصلة بالمتلقّي ، فإنّ ذلك يُلغي ، أو – في الأقلّ – يحدّ من معيار الإعلامية التي يجب أن توجد في النصّ . إنّ النصّ – أي نصّ – لا يُمكن أن يكون إنتاجه وليد الصدفة ، فقد تساهم في وجوده مجموعة من العوامل ، وهذه العوامل تنتمي إلى عالم ((خارج النصّ ، يُشير إليه النصّ ، وعادة ما نشير إلى هذا العالم باعتباره^(٣) عالماً فعلياً ، ولهذا^(٤) فعندما نقرأ نصّاً ، أو ندخل في عالم النصّ ، فإننا نتخيّل هذا العالم الفعليّ ، أو إننا نفهم عالم النصّ بناءً على فهمنا للعالم الخارجي))^(٥) . أمّا أن نقول : إنّ ((الترجمة وإعادة الصياغة من أفضل الوسائل لرؤية مدى العلاقة بين الخطاب والعالم))^(٦) ، فهذا أمر لا يُمكن قبوله – في النصّ القرآنيّ خاصّة – ؛ وذلك لأنّ ((كلّ اختيار لغويّ على مستوى الخطاب هو اختيار متميّز لرؤية العالم . وبالطبع تشمل عملية الاختيار ما يقع داخل النصّ ، فضلاً عن المسكوت عنه))^(٧) . فإذا كان المقصود من الترجمة (التفسير) ، فإنّ التفسير يخضع لقدرات المفسّر ، وتحصيله العلميّ ، زيادة على ميوله المذهبيّة ، والكلاميّة ، بل وحتىّ شعوره القوميّ . أمّا إذا كان المقصود من الترجمة (النقل إلى لغة أخرى) ، فنلجأ ما لا يُمكن أن يُحافظ على دقّة المعنى ، وشموليّته ، بل ومواكبته للتطور والتغيير . أمّا إعادة الصياغة ، فهي تؤدّي إلى توجيه النصّ باتجاه البناء القواعديّ للغة ، وليس إلى الفهم المعنويّ للمسألة البلاغيّة ، التي يضيفها التركيب على الصياغة ، زيادة على استمراريّة النصّ – القرآنيّ – ؛ لأنّ يقبل المزيد من التفسيرات بحسب اجتهاد المفسّر ، ومبلغه العلميّ . زيادة على ذلك ، للنصّ القرآنيّ كثيراً ما يتناول في سوره ، وآياته أموراً خاصّة بيوم القيامة ، والحياة الآخرة ، وهو ما لا يُمكن أن يكون معها رابط علائقيّ بين الخطاب ، وواقعه ، بل إنّ ما لا يدخل مضمونه فيما تقدّم من موضوعات ، لا يُمكن أيضاً ربطه بالواقع الآتي ، وذلك لا يعني التوقّف عن تحليل النصّ ، فالاستعانة بالنقل التاريخيّ للأحداث ، وأسباب النزول ، مع ما نُقل من تفسير للنصّ عن الأئمة والصحابه ، والتابعين ، والمفسّرين ، مع ما نُقل عن اللغويين من تفسير للمفردات المعجميّة ، وشواهدهم فيها ، كلّها وسائل معرفيّة مساعدة في تحليل النصّ ، والبحث عن دلالاته . وإذا كان للافتراضات المسبقة – المأخوذة من المنطق والفلسفة – المستعملة ((في تحليل الخطاب ، للإشارة إلى المعلومات المشتقة من النصّ ، سواء كانت معلومات ضمنيّة ، أو معلومات صريحة))^(٨) ، فإنّ هنالك علوماً أخرى ، لا يُمكن غضّ النظر عنها ، تدخل في تحليل النصّ القرآنيّ ، وفهمه ، فالأحكام العقائديّة ، والبلاغيّة ، والنحويّة ، وخصوصيّات الاستعمال في اللغة العربيّة ، زيادة على الأعراف الاجتماعيّة ، كلّ تلك العوامل تعمل متضافرة على توجيه عمليّة فهم النصّ القرآنيّ . وتعدّ عمليّة الاستنتاج ، وهي ((العمليّة التي يقوم بها القارئ (السامع) للانتقال من المعنى الحرفيّ لما هو مكتوب (أو مقول) إلى قصد الكاتب (أو المتكلّم) من وراء الخطاب من خلال تحديد الاستنتاجات اللازمة التي ينبغي القيام بها ، واكتشاف الحقائق المفقودة ، أو العلاقات غير التلقائيّة ، أو سدّ الفراغات في النصّ من أجل التوصل إلى فهم معيّن))^(٩) ، مصطلحاً يجمع المعلومات الضمنيّة التي يُمكن استنباطها من النصّ ؛ وذلك باستعمال المعرفة المسبقة ، أو الاستلزام ، أو التضمين ، أو غيرها . وإذا كان العنوان في النصوص يقوم بـ ((وظيفة إدراكيّة هامّة))^(١٠) ، تهبّ القارئ ، أو السامع لبناء تفسير للنصّ أو ما يتحدّث عنه النصّ))^(١١) ، فإنّ عناوين / أسماء السور في النصّ القرآنيّ ليست نازلة بوحى إلهيّ ؛ بدليل تعدّد الأسماء للسورة الواحدة عند المفسّرين ، وليست توقيفاً إلهيّاً ، وإنّ كان بعض العلماء يرى أنّه ((قد ثبت أسماء السور بالتوقيف من الأحاديث والآثار ، ولولا خشية الإطالة لبيّنت ذلك))^(١٢) ، وإذا كان العنوان ليس بمعزل عن مضمون السورة المشار إليها ، فقد اختير إمّا من أكثر الموضوعات الموجودة في السورة أهميّة ، وإمّا من مجموع موضوعات ثانوية ، حاول العلماء – قدر الإمكان – جمعها في إطار / عنوان واحد شامل لها . ويبيّن الزركشيّ سبب اختصاص كلّ سورة بما سُمّيَتْ به ، فيقول : ((ينبغي النظر في وجه اختصاص كلّ سورة بما سُمّيَتْ به ، ولا شكّ في أنّ العرب تراعي في الكثير من المسميات أخذ أسمائها من نادر ، أو مستغرب يكون في الشيء من حقّ ، أو صفة تخصّه ، أو تكون معه أحكم ، أو أكثر ، أو أسبق لإدراك الرائي للمسمّى . ويُسمّون الجملة من الكلام ، أو القصيدة الطويلة بما هو أشهر فيها ، وعلى ذلك جرّث أسماء سور الكتاب العزيز ، كتسمية البقرة بهذا الاسم لقريظة ذكر قصّة البقرة المذكورة فيها ، وعجيب الحكمة فيها . وسُمّيَتْ سورة النساء بهذا الاسم لما تردّد فيها من كثير من أحكام النساء ... كما ورد ذكر النساء في سور ، إلّا أنّ ما تكرّر ، وبُسط من أحكامهنّ لم

(١) دراسات في علوم القرآن : ١٩٧ .

(٢) علم لغة النصّ ، النظرية والتطبيق : ١٩١ – ١٩٢ .

(٣) كذا ، والصحيح : بعده .

(٤) كذا ، والصحيح : ولذا .

(٥) علم لغة النصّ ، النظرية والتطبيق : ١٩٢ .

(٦) علم لغة النصّ ، النظرية والتطبيق : ١٩٢ .

(٧) المصدر نفسه : ١٩٢ .

(٨) علم لغة النصّ ، النظرية والتطبيق : ١٩٢ .

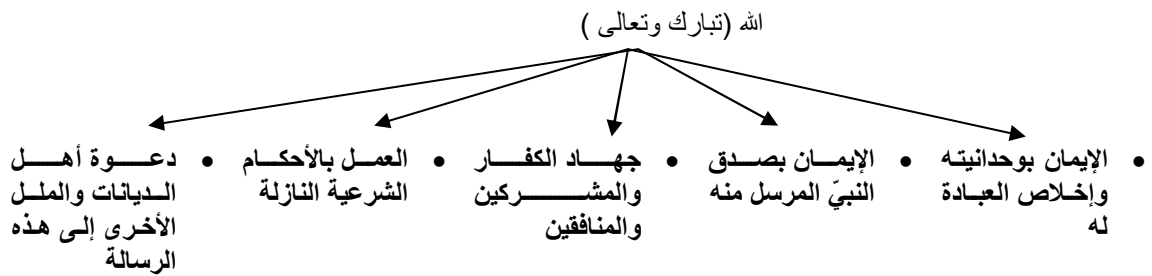
(٩) علم لغة النصّ ، النظرية والتطبيق : ١٩٢ – ١٩٣ .

(١٠) كذا ، والصحيح : مهمّة .

(١١) علم لغة النصّ ، النظرية والتطبيق : ١٩٣ .

(١٢) الإتيان في علوم القرآن : ١ / ١٠٦ .

يرد في غير سورة النساء . وكذا سورة المائدة لم يرد ذكر المائدة في غيرها ، فسُمِّيَتْ بما يخصُّها^(١) . ولعلَّ ممَّا يُمكن أن يكون مؤدِّباً وظيفية عنوان السورة ، الآية الأولى فيها ، فهي في الأغلب تدلُّ على الموضوع الذي تتناوله السورة الكريمة ، أو إته الموضوع الرئيس في السورة ، والموضوعات الأخرى مرتبطة به بطريقة ، أو بأخرى . إنَّ الإلحاح على عنوان النصِّ ، أو معرفة موضوع النصِّ يُساهم في ((بناء هيكل المعلومات لدى القارئ أثناء^(٢) عملية القراءة ، إذ يلجأ القارئ إلى تخمين هيكل المعلومات من خلال المحتوى . ولذلك فوجود العنوان المناسب يُسهِّل الفهم ، وتذكر موضوع الخطاب))^(٣) . ومحاولة لَمْ السور المدنية في موضوع واحد ليس أمراً سهلاً ؛ وذلك لكثرة الموضوعات الواردة في هذه السور ، وكثرة الأحداث التي حصلت في العهد المدني ، وتشعبها ، زيادةً على الموضوعات التي سبق ونزلت فيها السور ، والآيات الكريمة ، التي لم يُحسم الأمر في الإيمان بها ، وبصدق الرسول ، والرسالة أصلاً . وممَّا يُمكن التوصل إليه أنَّ الموضوع الرئيس في هذه السور ، هو (الإيمان بوحداية الله تعالى ، وعبادته ، واتِّباع أوامره ، والعمل بالأحكام الشرعية الملقاة إليهم على لسان نبيه الكريم ٦ ، ودعوة أهل الديانات الأخرى ، السماوية ، والمشركة إلى الإقرار بهذه الرسالة ، واعتناق هذا الدين الخاتم ، الذي بشر به الأنبياء السابقين) ، وعند محاولة رسم مخطط لهذه الموضوعات الواردة في السور المدنية ، يظهر الآتي :



ولو استقرت السور المدنية مفصلةً ؛ لمعرفة موضوعاتها^(٤) ، يتبيَّن الآتي ، وسأرتبها بحسب ترتيب نزولها المشهور :

- ١- سورة البقرة : بيان أنَّ من حقَّ الله تعالى أن يؤمن عباده بكلَّ ما أنزله على لسان رسله ، وإثبات أنَّ هذا الدين يسمو على غيره ممَّا سبقه ، وتشريع بعض الأحكام التي فيها صلاح المجتمع .
- ٢- سورة الأنفال : ذكر أحكام تتعلق بالجهاد ، وبيان حكم الأنفال ، وقسمتها ، وطاعة الرسول في أمر الغنائم .
- ٣- سورة آل عمران : دعوة المؤمنين إلى توحيد الكلمة في الدين ، والصبر ، والثبات عند مواجهة أعداء الدين من اليهود ، والنصارى ، والمشركين ممَّن يحاول بثَّ الفتنة في آيات القرآن ، وقد بيَّن الله - سبحانه - أنَّ آياته تنقسم إلى محكمة ومتشابهة .
- ٤- سورة الأحزاب : تتضمن مجموعة من الأحكام الدنيوية ، وتذكر جهاد المسلمين في معركة الخندق ، وفتح حصون بني قريظة ، والردَّ على المنافقين الذين ألقوا أقوالاً قصدوا بها أذى النبي ٦ ، وخاصةً في زواجه من زوجة دعيه زيد بن حارثة .
- ٥- سورة الممتحنة : تذكر السورة موالاة المؤمنين لأعداء الله من الكفار ، وموادتهم ، وتشدد النهي عن ذلك ، وفيها بعض الأحكام المتعلقة بالمؤمنات المهاجرات ، واختبار صدق إيمانهنَّ .
- ٦- سورة النساء : بيان أحكام الزواج ، كتعدّد الزوجات ، ومحرمات النكاح ، وأحكام المواريث ، وفيها أحكام أخرى في الصلاة ، والجهاد ، والشهادات ، وفيها تعرّض لحال أهل الكتاب .
- ٧- سورة الزلزلة : إثبات البعث ، وذكر أشرطه ، وما يعتري الناس عند حدوثه من الفزع .
- ٨- سورة الحديد : التذكير بجلال الله تعالى ، وصفاته العظيمة ، والتنبيه لما في القرآن من الهداية ، والحثُّ على الإنفاق في سبيل الله .
- ٩- سورة محمد : سيتمّ تناولها بشيء من التفصيل فيما بعد .
- ١٠- سورة الرعد : بيان صدق الرسول ٦ فيما أوحى إليه من وحداية الله - تبارك وتعالى - ، والردَّ على أقوال المكذّبين .
- ١١- سورة الرحمن : التذكير بدلائل القدرة الإلهية ، وتعداد النعم التي سكرها الله تعالى لتسهيل حياة الإنسان ، والتذكير بالحياة الآخرة .
- ١٢- سورة الإنسان : إثبات خلق الإنسان بعد ما لم يكن مذكوراً ، وهدايته ، وذكر عقاب الكفار ، وثواب الأبرار .

(١) البرهان في علوم القرآن : ١ / ١٩٠ .

(٢) كذا ، والصحيح : في أثناء .

(٣) علم لغة النصِّ : ١٩٣ .

(٤) اعتمدت في التعرّف على موضوعات السور على تفسيرين ، هما : الميزان في تفسير القرآن ، وتفسير التحرير والتنوير .

- ١٣ - سورة الطلاق : تحديد أحكام الطلاق ، وما يعقبه من العدة والإرضاع ، والإنفاق تنميماً للأحكام المذكورة سورة البقرة والنساء ، وتعقب ذلك عظة ، وإنذار من عدم اتباع الأوامر ، وتبشير للمطيع.
- ١٤ - سورة البينة : تسجل السورة أنّ رسالة محمد ﷺ لعامة الناس ، وفيها تعريض بأهل الكتاب والمشركين ، الذين كفروا بها ، وتناقض حالهم بين طلب البينة ، والكفر بها .
- ١٥ - سورة الحشر : تشير السورة إلى قصة إجلاء بني النضير من اليهود لما نقضوا عهدهم مع النبي ، ونعمة الله - جلّ وعزّ - بالنصر عليهم .
- ١٦ - سورة النصر : وعد بالنصر ، والفتح للنبي ﷺ ، وأنه سيرى الناس يدخلون في الإسلام أفواجا .
- ١٧ - سورة النور : تذكر نبذة من الأحكام الشرعية ، وجملة من المعارف الإلهية تناسبها ، ويذكر بها المؤمنون .
- ١٨ - سورة الحج : بيان أصول الدين بياناً تفصيلياً ، ينتفع بها المشرك ، والموحد ، وفروعها بياناً إجمالياً ، ينتفع بها الموحدون .
- ١٩ - سورة المنافقون : تصف السورة المنافقين ، وتسهم بشدة العداوة ، وتأمّر النبي ﷺ أن يحذرهم ، وتعط المؤمنين أن يتحرزوا من النفاق ، فلا يقعوا فيه ، فيجرّهم إلى المهلكة في النار .
- ٢٠ - سورة المجادلة : إبطال بعض الأحكام الجاهلية ، مثل المظاهرة . وتشريع صدقة النجوى ، ونسخها ، وذكر موالاة المنافقين لأهل الكتاب ، وذكر بعض آداب المجالس .
- ٢١ - سورة الحجرات : تتضمن مسائل من شرائع الدين ، التي بها تتم الحياة السعيدة للفرد ، منها ما هو أدب جميل للعبد مع الله - تبارك وتعالى - ، ومنها ما هو مع رسوله الكريم ، والإشارة إلى امتنان الله تعالى على المؤمنين بفيض الإيمان .
- ٢٢ - سورة التحريم : مخاطبة النبي ﷺ في تحريمه بعض ما أحلّ الله - جلّ اسمه - له ، وإفشاء بعض نساته السرّ الذي استودعها ، والتهديد لهّن بالطلاق والاستبدال بخير منهّن .
- ٢٣ - سورة الصف : تحذير من إخلاف الوعد ، والالتزام بواجبات الدين ، والتحريض على الجهاد في سبيل الله تعالى ، والتحذير من أذى النبي ﷺ .
- ٢٤ - سورة الجمعة : الحثّ البالغ على الاهتمام بصلاة الجمعة ، والتحذير من التخلف عنها ، والتنويه للمسلمين بأنّ بعث النبيّ ليعلّمهم الكتاب ، والحكمة .
- ٢٥ - سورة التغابن : التذكير بأنّ ما في السموات والأرض تسبّح لله - تبارك وتعالى - ، وتحريض المؤمنين ، وترغيبهم في الإنفاق في سبيل الله تعالى .
- ٢٦ - سورة الفتح : بيان ما امتنّ الله تعالى على نبيّه بما رزقه من الفتح المبين .
- ٢٧ - سورة التوبة : تتضمن البراءة من المشركين ، وتحديد مدة عهودهم ، وقتل المشركين ، وأهل الكتاب عند انقضاء المدة ، وفيها شطر كبير في أمر المنافقين ، فضلاً عن بعض الآيات في حكم الزكاة .
- ٢٨ - سورة المائدة : الدعوة إلى الوفاء بالعهود ، وحفظ المواثيق ، وقد احتوت تشريعات كثيرة تنبئ بأنها نزلت لاستكمال شرائع الإسلام .
- وعند بحث موضوع الخطاب في إحدى السور المدنية ، وقد رُشحت سورة (محمد) لذلك ، فعند قراءة السورة الكريمة يظهر أنها تصف ((الذين كفروا بما يخصّهم من الأوصاف الخبيثة ، والأعمال السيئة ، وتصف الذين آمنوا بصفاتهم الطيبة ، وأعمالهم الحسنة ، ثم تذكر ما يعقب صفات هؤلاء من النعمة ، والكرامة ، وصفات أولئك من النعمة ، والهوان ، وعلى الجملة ، فيها المقايسة بين الفريقين في صفاتهم ، وأعمالهم في الدنيا ، وما يترتب عليها في الآخرة ، وفيها بعض ما يتعلّق بالقتال من أحكام))^(١) ، ويمكن القول : إنّ موضوع السورة الكريمة هو (موقف الناس من الرسالة المحمدية ، والجزاء عليه في الآخرة) ، فالسورة الكريمة تبدأ بذكر الطرف الكافر بالرسالة ، والصادّ عن سبيل الله ، وعاقبته ، ثم تذكر الطرف المقابل له / المؤمن بالله تعالى ، وبالرسالة المنزلة على محمد ﷺ ، وعاقبته ، وفي أثناء المقابلة بين الطرفين ، يظهر الطرف الثالث / الذين في قلوبهم مرض ، وهم المترددون في أمر الدين ، وضعاف الإيمان ، ولا ريب أنّ هذا التقابل بين المؤمنين ، والكافرين ، والإصرار على الموقف منهما ، يؤدّي إلى القتال ، ويكون الطرف الثالث ممّن يخشون الأمر بالقتال ؛ وذلك لكونهم متحيّرين في أمر الدين ، فلم يكونوا مؤمنين بالحياة الآخرة ، ولا بالثواب الذي أعدّه الله تعالى لمن يُقتل في سبيله . وقد استقرأ الآيات المتعلقة بكلّ طرف ، يبدو واضحاً صلاح العنوان الذي اصطلح له ، وفيما يأتي بيان ذلك : تبدأ السورة بوصف الذين كفروا : الذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله
- أضلّ أعمالهم
 - ذلك بأنّ الذين كفروا اتبعوا الباطل
 - فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب
 - والذين كفروا فتعسّأ لهم أضلّ أعمالهم
 - ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم
 - أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها
 - ذلك بأنّ الله مولى الذين آمنوا وأنّ الكافرين لا مولى لهم
 - والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأمل الأنعام والنار مثوى لهم

(١) الميزان في تفسير القرآن : ١٨ / ٤٤٥ . وينظر : بصائر ذوي التمييز : ١ / ٤٣٠ ، وتفسير التحرير والتنوير : ٢٦ / ٦١ ، والتفسير الواضح : ٢ / ٤٠٨ .

وعند محاولة إيجاد العلاقات الدلالية الرابطة بين جزئيات السورة ، وموضوعها ، يظهر ما يأتي : عند البحث عن المناسبة بين فاتحة السورة ، وخاتمتها ، يلحظ أنها ((بدئت بالأمر بالقتال ، وختمت به))^(١). أما مناسبة فاتحتها لخاتمة السورة التي قبلها / سورة الأحقاف ، يلحظ قول الألوسي : ((ولا يخفى قوة ارتباط أولها بآخر السورة قبلها ، واتصاله ، وتلاحمه بحيث لو سقطت من البين البسمة ، لكانا متصلاً واحداً ، لا تنافر فيه ، كالأية الواحدة آخذاً بعضه بعنق بعض))^(٢). أما مناسبة خاتمتها لفاتحة السورة التي بعدها /سورة الفتح ، فيظهر أن ((الفتح بمعنى : النصر ، مرتب على القتال . وفي كل من ذكر المؤمنين المخلصين ، والمنافقين ، والمشركون ما فيه . وقد ذكر - أيضاً - في الأولى الأمر بالاستغفار ، وذكر هنا وقوع المغفرة))^(٣). وتبدأ السورة الكريمة بذكر الفريقين المتقابلين ، فقال تعالى : ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ضَلُّوا أَعْمَالُهُمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾^(٤). وعلى الرغم من أن السورة في شأن خاص بالمشركون والمؤمنين بدعوة النبي ﷺ ، إلا أن ((اللفظ عام يتناول كل كافر ، وكل مؤمن))^(٥) . وأما ذكر قوله (وآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ) ؛ فلأجل ((تخصيصه من بين ما يجب الإيمان به ، تعظيم لشأن الرسول ، وإعلام بأنه لا يصح الإيمان ، ولا يتم إلا به ، وأكد ذلك بالجملة الاعتراضية التي هي (وهو الحق من ربهم))^(٦). وبدأ قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الَّذِينَ كَفَرُوا أَتَّبِعُوا الْبَاطِلَ أَمْ الَّذِينَ آمَنُوا أَتَّبِعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ﴾^(٧) . فربط باسم الإشارة (ذلك) ، الذي يشير إلى فعل الكفار ، وفعل المؤمنين المتقدمين ، ثم بين سبب ذلك بقوله (بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل) ، وكذلك قوله (وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم) ، وزيادة على ذلك ، فقوله (الحق من ربهم) يحيل على الجملة الاعتراضية المتقدمة في الآية الثانية (وهو الحق من ربهم) ، وهذا الكلام ((يسميه علماء البيان : التفسير))^(٨). وأشار بقوله (كذلك يضرب الله للناس أمثالهم) إلى الاتباعين المذكورين للفريقين. وجاء قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا قُتِلُوا الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبُ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَتَخْتَمُوهُمْ قُتِلُوا أَوِتُكِلَ فَإِذَا مَمَاتَ بَعْدَ مَا فِدَاءٌ حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَرْزَامَهَا تِلْكَ وَكُلُّ يَشَاءُ اللَّهِ لَا تَنْتَصِرُ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيُنْذِرَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ قُلْ يُضِلُّ أَعْمَالُهُمْ﴾^(٩). والربط ظاهر في كون كفرهم ، ومعاداتهم للمؤمنين سيؤذي حتماً إلى القتال ، فأمرهم تعالى به ، وربط الكلام بالفاء في قوله (فإذا لقيتهم) ؛ ((لترتيب ما في حيزها من الأمر على ما قبلها))^(١٠) ، وقد عبر عنه بقوله (فضرب الرقاب) ، ولا يخفى ما ((في هذه العبارة من ، والشدة ما ليس في لفظ القتل ، لما فيه من تصوير القتل بأشنع صورة))^(١١). وجاء قوله (ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم) ، فنل اسم الإشارة (ذلك) على الأمر المتقدم بقتل الكفار ، ودلت الجملة الشرطية بعده على أن الله قادر على الانتقام منهم بهلاك ما ، فبين سبب عدم إهلاكهم المباشر من عنده ، بقوله (ولكن ليلو بعضكم ببعض) ، أي ((ولكن أمركم بالقتال ليلو بعضكم ، وهم المؤمنون ، أي يختبرهم ببعض ، وهم الكافرون بأن يجاهدوا ، وبصبروا ، والكافرين بالمؤمنين بأن يعاجلهم على أيديهم ببعض ما وجب لهم من العذاب))^(١٢). وفرع على قوله (والذين قُتلوا في سبيل الله ، فلن يُضِلَّ أعمالهم) ، بقوله تعالى : ﴿ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحْ بَالَهُمْ وَيُدْخِلَهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا لَهُمْ﴾^(١٣) ، فمن لوازم المواجهة ، والقتال أن يسقط القتلى من الطرفين ، فلما أمرهم بالقتال ، بشر قتلى المؤمنين بأنه - تبارك وتعالى - لن يضيع عملهم ، وقد ربط بين قوله (والذين قُتلوا) ، وقوله (فلن يُضِلَّ) بالفاء الدالة على السببية ؛ وذلك لكون الموصول يحمل معنى الشرط ، فكأنه جعل قتلهم في سبيل الله جوابه / نتيجته عدم ضلال أعمالهم^(١٤) ، وتضحيتهم ، وجاء قوله (سيهديهم ويصلح بالهم ويدخلهم الجنة عرفها لهم) ((كالبيان لقوله سبحانه (فلن يُضِلَّ أعمالهم))^(١٥) . وجاء قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالُهُمْ تِلْكَ آيَاتُ الَّذِينَ كَفَرُوا مَا نُزِّلَ اللَّهُ فَاحْبِطْ أَعْمَالَهُمْ﴾^(١٦) ، مرتبطاً بالكلام ، إذ قال (ولو يشاء الله لانتصر) ، بمعنى أن ((ما أمر به المسلمين من قتال الكفار إنما أراد منه نصر الدين ... [ف] أتبعه بالترغيب في نصر الله ، والوعد بتكفل الله لهم بالنصر إن نصروه))^(١٧) ، ولما ذكر المؤمنين ، ذكر الطرف المقابل لهم ، (والذين كفروا فتعساً لهم وأضلَّ أعمالهم) ، فالاسم الموصول مبتدأ ، خبره ، الفعل المضمر ، والذي دلَّ عليه مصدره (تعساً) ، أي : آتسهم تعساً^(١٨) ؛ ولذا ساغ أن يعطف عليه الجملة الفعلية (وأضلَّ) . ويبدو أن في الإتيان بالاسم للتعاسة ، والفعل للضلال دلالة على أن التعاسة محيطة بهم ، ملازمة لهم ، ولكون أعمالهم حادثة ، ومتجددة ، فقد استعمل الفعل للدلالة

(١) مراد المصطلح : ٦٥ .

(٢) روح المعاني : ٢٦ / ٢٦٩ . وينظر : البحر المحيط : ٩ / ٤٥٨ .

(٣) روح المعاني : ٢٦ / ٣٣٣ . وينظر : البحر المحيط : ٩ / ٤٨٢ .

(٤) سورة محمد : ١ - ٢ .

(٥) البحر المحيط : ٩ / ٤٥٨ .

(٦) البحر المحيط : ٩ / ٤٥٨ .

(٧) سورة محمد : ٣ .

(٨) روح المعاني : ٢٦ / ٢٧٢ . وينظر : البحر المحيط : ٩ / ٤٥٩ .

(٩) سورة محمد : ٤ .

(١٠) روح المعاني : ٢٦ / ٢٧٢ .

(١١) تفسير الكشاف : ٤ / ٣٠٩ .

(١٢) البحر المحيط : ٩ / ٤٦٢ .

(١٣) سورة محمد : ٥ - ٦ .

(١٤) تفسير التحرير والتنوير : ٢٦ / ٧١ .

(١٥) روح المعاني : ٢٦ / ٢٧٨ .

(١٦) سورة محمد : ٧ - ٩ .

(١٧) تفسير التحرير والتنوير : ٢٦ / ٧١ .

(١٨) ينظر : التبيان في تفسير القرآن : ٩ / ٢٣٣ ، والبحر المحيط : ٩ / ٤٦٣ .

على تجدد الضلال مع حدوث الأعمال . واسم الإشارة في قوله (ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم) إلى ((ما ذكر من التمس ، والإضلال))^(١) . ثم احتج على الكافرين ، بقوله تعالى : ﴿ أَقَمَّ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَهَظُّوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ نَمَرَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴾^(٢) ، فقد ربط جمل الخطاب دلاليًا بالضمائر العائدة عليهم في (يسيروا) ، و(فهيظروا) ، (قبلهم) ، ثم أنذرهم بقوله (وللكافرين أمثالها) ، وجاء الإنذار بالجملة الاسمية للدلالة على أن عقاب الكافرين سنة إلهية ثابتة . ليأتي قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ يَأْتِي اللَّهُ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ ﴾^(٣) . فاسم الإشارة (ذلك) يربط الكلام الذي بعده بالذي قبله ، إذ إنه يشير ((إلى ثبوت أمثال عاقبة ، أو عقوبة الأمم السالفة لهؤلاء ... [أو إشارة إلى النصر])^(٤) ، الذي وعد الله به المؤمنين ، ولعله جامع للآيتين معاً . ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ بِأَكْلَانِ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ ذَٰلِكَ مِنْ قَرِيبٍ هِيَ آسَدُ قُوَّةٍ مِنْ قَرِينِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلُكُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴾^(٥) . فأكد - تبارك وتعالى - ثواب الامتثال للأمر الإلهي ، إذ إن هذا التبشير بالجنان ((بيان لحكم ولايته تعالى لهم ، وثمرتها الأخروية))^(٦) . أما قوله (وكأين من قرية هي أشد من قرينك) ، فقد جاء للمقابلة مع حال المؤمنين أولاً ، وللوعيد^(٧) لهم بالعذاب بعد أن احتج عليهم بهلاك من قبلهم في قوله (أفلم يسيروا في الأرض). ثم فرغ عليه بقوله تعالى : ﴿ أَهَٰؤُلَاءِ كَانُوا عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا هَوَاءَهُمْ ﴾^(٨) . فالاستفهام الإنكاري جاء لنفي المشابهة بين الفريقين ، المؤمنين (كان على بيينة من ربهم) ، والكافرين (كمن زُيِّنَ له سوء عمله). ثم قال تعالى : ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَعْفُورَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاهُمْ ﴾^(٩) ، إذ إنه - عز وجل - ((لما بين الفرق بين الفريقين في الهداء ، والضلال ، بين الفرق بينهما فيما يؤولان إليه . وكما قدم من كان على بيينة على من اتبع هواه ، قدم حاله على حاله))^(١٠) . وهذه الموازنة بين الفريقين صيغتها الإثبات ، ومعناها النفي للمشابهة ، قال الزمخشري : ((هو كلام في صورة الإثبات ، ومعناه النفي ، والإنكار ؛ لانطوائه تحت حكم كلام مصدر بحرف الإنكار ، ودخوله في حيزه ، وانخراطه في سلكه))^(١١) . وجاء قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا هَوَاءَهُمْ ﴾^(١٢) ؛ ليصف حال طائفة من الكفار بدليل المجيء بالضمير العائد عليهم في قوله (منهم) ؛ لذا يجب أن يكون عائد على متقدم في الكلام ، ف ((الضمير للذين كفروا ، والمراد باستماعهم إلى النبي ﷺ إصغائهم إلى ما يتلو من القرآن ، وما يبين لهم من أصول المعارف ، وشرائع الدين))^(١٣) . ورأى بعض المفسرين أن المقصود بقوله (ومنهم من يستمع) هو المنافقون ، إذ إنهم كانوا ((يحضرون عند الرسول ، ويستمعون كلامه ، ويبدو أن الرأي الأول هو الأقرب عند توجيهه نصياً ، وذلك لأن الضمير يحتاج إلى عائد مذكور قبله ، فدل ذلك على أنهم ((صنف آخر من الكافرين ، أسروا الكفر ، وتظاهروا بالإيمان))^(١٤) . والمراد بـ (الذين أوتوا العلم) المؤمنون الذين وصفهم فيما سبق . وكان قول الكافرين (ماذا قال آنفاً)) (على سبيل الهزاء ، والاستخفاف ، أي لم نفهم ما يقول ، ولم ندر ما نفع ذلك))^(١٥) . ثم قابل ذلك بقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾^(١٦) ، إذ إنه يعود على قوله (الذين أوتوا العلم) ، فهذه المقارنة في استماعهم للنبي ﷺ فيما يتلو من القرآن يبين أثر القرآن في كل من الفريقين موضوع السورة . ثم أوعد طرف الكفر ، بقوله تعالى : ﴿ فَبَلِّغْهُمْ رُسُلَنَا إِلَى السَّاعَةِ نُنَايِهِمْ بَعَثَ قَدْ جَاءَ شَرَّاهَا فَا تَى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذُكْرَاهُمْ ﴾^(١٧) . فالضمير في قوله (ينظرون) عائد على الكافرين المستهزئين ، والكلام ((تفريع على ما مضى من وصف أحوال الكافرين))^(١٨) ، وربط الكلام في قوله (فقد جاء أشرطها) بالفاء لاتصال أشرط الساعة : أي علاماتها بها ((اتصال العلة بالمعلول))^(١٩) ، ثم فرغ على مجيء الساعة بقوله (فأتى لهم إذا جاءتهم ذكراهم) ، والاستفهام الوارد فيه جاء منكراً لمنفعة التذكير عند مجيئها^(٢٠) . ثم فرغ الكلام بقوله تعالى : ﴿ قَاعِلَامُ لَآ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ

(١) روح المعاني : ٢٦ / ٢٨٠ .

(٢) سورة محمد : ١٠ .

(٣) سورة محمد : ١١ .

(٤) روح المعاني : ٢٦ / ٢٨١ .

(٥) سورة محمد : ١٢ - ١٣ .

(٦) روح المعاني : ٢٦ / ٢٨١ .

(٧) ينظر : تفسير التحرير والتنوير : ٢٦ / ٧٦ .

(٨) سورة محمد : ١٤ .

(٩) سورة محمد : ١٥ .

(١٠) البحر المحيط : ٩ / ٤٦٧ .

(١١) تفسير الكشاف : ٤ / ٣١٣ .

(١٢) سورة محمد : ١٦ .

(١٣) الميزان في تفسير القرآن : ١٨ / ٤٥٤ . وينظر : تفسير التحرير والتنوير : ٢٦ / ٨٣ .

(١٤) البحر المحيط : ٩ / ٤٦٧ . وينظر : روح المعاني : ٢٦ / ٢٨٧ .

(١٥) تفسير التحرير والتنوير : ٢٦ / ٨٣ .

(١٦) البحر المحيط : ٩ / ٤٦٧ . وينظر : روح المعاني : ٢٦ / ٢٨٧ ، والميزان في تفسير القرآن : ١٨ / ٤٥٤ ، وتفسير التحرير والتنوير : ٢٦ / ٨٥ .

(١٧) سورة محمد : ١٧ .

(١٨) سورة محمد : ١٨ .

(١٩) تفسير التحرير والتنوير : ٢٦ / ٨٦ .

(٢٠) تفسير الكشاف : ٤ / ٣١٥ .

(٢١) ينظر : روح المعاني : ٢٦ / ٢٩٠ ، وتفسير التحرير والتنوير : ٢٦ / ٨٧ - ٨٨ .

يَعْلَمُ مُتَبَلِّغَكُمْ وَمُتَوَكِّمَكُمْ^(١) . فالأمر في قوله (اعلم) ((مسبب عن مجموع القصة من مفتتح السورة))^(٢) ، أي : إذ إنك علمت ((أن الأمر كما ذكر من سعادة هؤلاء ، وشقاوة أولئك ، فاثبت على ما أنت عليه من العلم بوحداية الله سبحانه ، فمعنى الأمر بالعلم على هذا هو الأمر بالثبات على العلم))^(٣) ، ثم دُيِّلَ الكلام بقوله (والله يعلم متقلِّبكم ومتوَكِّمكم) ، ومعنى ((متقلِّبكم)) : متصرِّفكم في حياتكم الدنيا ، و(متوَكِّمكم) : إقامتكم في قبوركم ، وفي الآخرة^(٤) ، وفي الإتيان به جملة اسمية دلالة على أن هذا العلم ثابت ، غير حادث ، ((والمراد من علمه تعالى بذلك تحذيرهم من جزائه ، وعقابه سبحانه ، أو الترغيب في امتثال ما يأمرهم - جلَّ شأنه - به ، والترهيب عما ينهاهم - عزَّ وجلَّ - عنه ، عن طريق الكناية))^(٥) . ثم قال تعالى : ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذِكْرٌ فِيهَا الْقِتَالُ لَأَيُّ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَئِكَ لَهُمْ^(٦) ﴾ ، فذكرت طلب الفريق المؤمن أن ينزل الله - عزَّ وجلَّ - سورة من القرآن ، وليس طلبهم هذا إلا أن تكون متضمنة ((أمرنا بمجاهدة العدو ، وفضح المنافقين))^(٧) . وفي هذه الآية يظهر الفريق الثالث (الذين في قلوبهم مرض) ، وقد سبقت الإشارة إلى أنهم ليسوا المنافقين ، والمقصود بهم ((الضعفاء الإيمان من المؤمنين دون المنافقين ، فإن الآية صريحة في أن الذين أظهروا الرغبة في نزولها هم الذين آمنوا ، ولا يعم الذين آمنوا المنافقين))^(٨) ، وقد شبه حالهم ، وهم (ينظرون إليك) ، كالناظر وهو يعاني سكرات الموت ، وقد حذف حرف التشبيه من الكلام ، إذ إن المعنى : كنظر المغشي . ويبدو أن حذف الأداة ؛ لإظهار كمال المشابهة بينهما ، مبالغة في ذمهم . ثم واصل كلامه في شأن الفريق الثالث ، بقوله تعالى : ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ قُوَّصِدْقُوا لِلَّهِ لَكُمْ خَيْرٌ لَّهُمْ قَهْلٌ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ^(٩) ﴾ . فقد بيَّن - سبحانه وتعالى - أن الأمر منه يوجب طاعة من عباده ، فقوله (طاعة) خبر لمبتدأ محذوف ، تقديره : أمري طاعة وقول معروف ، أو أن يكون مبتدأ ، خبره محذوف ، والتقدير : طاعة وقول معروف أمثل^(١٠) . ووجه ارتباطه بما قبله أنه بمعنى : طاعة وقول معروف ((أولى بهم من النظر إليك نظر المغشي عليه))^(١١) ؛ ولذا جاقوله (فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم) متصلاً ((اتصالاً بيناً ، والمعنى : أن الأمر هو ما واثقوا الله عليه من قولهم : سمعنا وأطعنا ، فلو أنهم حين عزم الأمر صدقوا الله فيما قالوا ، وأطاعوه فيما يأمر به ، ومنه أمر القتال ، لكان خيراً لهم))^(١٢) . ثم خاطب (الذين في قلوبهم مرض) بطريق الالتفات ((على سبيل التوبيخ ، وتوقيفهم على سوء مرتكبكم))^(١٣) ، وذلك في قوله (فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم) . وقوله (إن توليتم) بين عسيتم ، وخبرها (أن تفسدوا) ، والمعنى : أنكم بإعراضكم عن أمر الله تعالى سوف تفسدون في الأرض ، وتقطعوا أرحامكم بأن يسفك بعضكم دماء بعض^(١٤) . فهذه الآية كالتعليل لقوله (لكن خيراً لهم) المتقدم^(١٥) . وجاء قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ^(١٦) ﴾ مبدوءاً باسم الإشارة الدال على البعد ، والمقصود به المخاطبين في الآية السابقة ؛ ((ليداناً بأن ذكر هنتهم أوجب إسقاطهم عن درجة الخطاب ، وحكاية أحوالهم الفظيعة لغيرهم))^(١٧) . وقد ذكر - وجل - أنه لعنهم : أي طردهم من رحمته أولاً ، ورتب عليه (فأصمهم وأعما أبصارهم) ، وأشار إلى إصابتهم بالصمم من دون ذكر الأذن ، على عكس ذكر العمى ، الذي شفعه بذكر الأبصار ؛ ((لأن الأذن لو أصيب ، أو قلع لسمع الكلام ، فلم يحتج إلى ذكر الأذن . والبصر - وهو العين - لو أصيب لامتنع الإبصار ، فالعين لها مدخل في الرؤية))^(١٨) . وزاد تفريعهم ، بقوله تعالى : ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا^(١٩) ﴾ ، بهذا الاستفهام الإنكاري المويخ لهم في قوله (أفلا القرآن) ؛ لعدم تدبرهم ما في القرآن من مواعظ ، وزواجر^(٢٠) . وجاء قوله (أم على قلوب أقفالها) ، متمماً التوبيخ في الآية . ويجوز في (أم) الواردة فيه أن تكون متصلة ، أي : إنها المعادلة ، والهمزة في أول الآية للاستفهام ، والكلام ((تمثيل لعدم وصول الذكر إليها / وانكشاف الأمر لها ، فكأنه قيل : أفلا يتدبرون القرآن إذا وصل إلى قلوبهم أم لم يصل إليها؟))^(٢١) . ورأى أبو حيَّان^(٢٢) أن (أم) هنا منقطعة ، والهمزة جاءت لمعنى التقرير ، فيكون معناها على ذلك ((للانتقال من التوبيخ

(١) سورة محمد : ١٩ .

(٢) روح المعاني : ٢٦ / ٢٩٣ . وينظر : تفسير التحرير والتنوير : ٢٦ / ٨٨ .

(٣) الميزان في تفسير القرآن : ١٨ / ٥٦ . وينظر : روح المعاني : ٢٦ / ٢٩٣ ، وتفسير التحرير والتنوير : ٢٦ / ٨٨ .

(٤) البحر المحيط : ٩ / ٤٦٩ . وينظر : روح المعاني : ٢٦ / ٣٠٨ ، وتفسير التحرير والتنوير : ٢٦ / ٨٩ .

(٥) روح المعاني : ٢٦ / ٣٠٨ .

(٦) سورة محمد : ٢٠ .

(٧) البحر المحيط : ٩ / ٤٦٩ - ٤٧٠ . وينظر : روح المعاني : ٢٦ / ٣٠٨ ، تفسير التحرير والتنوير : ٢٦ / ٩٠ .

(٨) الميزان في تفسير القرآن : ١٨ / ٥٧ .

(٩) سورة محمد : ٢١ - ٢٢ .

(١٠) الكتاب : ١ / ١٤١ ، ٢ / ١٣٦ .

(١١) روح المعاني : ٢٦ / ٣١٠ .

(١٢) الميزان في تفسير القرآن : ١٨ / ٥٧ .

(١٣) البحر المحيط : ٩ / ٤٧١ . وينظر : روح المعاني : ٢٦ / ٣١١ ، الميزان في تفسير القرآن : ١٨ / ٥٨ ، وتفسير التحرير والتنوير : ٢٦ / ٩٤ .

(١٤) ينظر : روح المعاني : ٢٦ / ٣١٢ . وينظر : الميزان في تفسير القرآن : ١٨ / ٥٨ .

(١٥) ينظر : الميزان في تفسير القرآن : ١٨ / ٥٨ .

(١٦) سورة محمد : ٢٣ .

(١٧) إرشاد العقل السليم : ٨ / ٩٩ . وينظر : روح المعاني : ٢٦ / ٣١٢ .

(١٨) روح المعاني : ٢٦ / ٣١٣ .

(١٩) سورة محمد : ٢٤ .

(٢٠) ينظر : البحر المحيط : ٩ / ٤٧٣ ، وإرشاد العقل السليم : ٨ / ٩٩ ، وروح المعاني : ٢٦ / ٣١٨ ، والميزان في تفسير القرآن : ١٨ / ٤٥٨ .

(٢١) روح المعاني : ٢٦ / ٣١٨ .

(٢٢) ينظر : البحر المحيط : ٩ / ٤٧٣ .

التدبر إلى التوبيخ يكون قلوبهم مقفلة لا تقبل التدبر، والتفكر^(١). ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ آلَمًا مَلِيًّا﴾^(٢)، وهو — أيضاً — في شأن الفريق الثالث (الذين في قلوبهم مرض)، فهم ((كانوا قد آمنوا حقاً، ثم رجعوا إلى الكفر؛ لأنهم كانوا ضعفاء الإيمان، قليلي الإطمئنان))^(٣)، وقد أكد ضلالهم بـ ((إن))، والخبر الجملة الاسمية (الشيطان سَوَّلَ لَهُمْ) ، ويكرر شبه الجملة (لهم). ثم بيّن سبب الكلام المتقدم، بقوله تعالى: ﴿تِلْكَ يَأْتِيهِمْ أَفْئَاتُ الَّذِينَ كَفَرُوا مَا يُزِيلُ اللَّهُ عَنْهُمْ سِتْرَ الْإِيمَانِ فَهُمْ يَنْتَابِعُونَ الشَّيْطَانَ مِنْ حِرَافِيزِهِ إِذْ يَخْلَوْنَ عَلَيْهِمْ حُجُوبٌ﴾^(٤)، فالإشارة بقوله (ذلك) — على رأي بعض المفسرين- إلى الارتداد^(٥)، في حين رأى آخرون أن اسم الإشارة عائد على تسويل الشيطان، ((إذ التقدير أن يسأل سائل عن مظهر تسويل الشيطان لهم بالارتداد بعد أن تبين لهم الهدى، فأجيب بأن الشيطان استدبرهم إلى الضلال عندما تبين لهم الهدى، فسؤل لهم أن يوافقوا أهل الشرك، والكفر))^(٦). والمقصود بـ (الذين كرهوا ما أنزل الله) هم الفريق الأول / الكافرون^(٧). ثم رتب عليه قوله تعالى: ﴿فَقِيلَ إِذَا تَوَقَّعْتُمُ الْمَلَائِكَةَ يَصْرِيحُونَ وَجُوهَهُمْ أَتَابًا لِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(٨)، فالفاء في قوله (فكيف)؛ ((لترتيب ما بعدها على ما قبلها))^(٩)، ولعل الضمير المنسوب في قوله (توقّعهم) عائد على الفريقين، الكافرين، والذين في قلوبهم مرض، إذ إن العذاب لا يقع على فئة من دون أخرى ممن وافاه الأجل، وهو غير تائب إلى الله — عز وجل —، والعمل في (كيف) محذوف، يفهم من السياق، إذ إن تقدير الكلام: ((يفعلون في حياتهم ما يفعلون من الحيل، فكيف يفعلون إذا توقّعهم الملائكة))^(١٠)، ويبدو أن هذا الحذف لتبنيهم من النجاة، و((تعجب المخطب من حالهم عند الوفاة))^(١١). ثم أتبعه ببيان سبب هذا العذاب، وذلك في قوله تعالى: ﴿تِلْكَ يَأْتِيهِمْ أَفْئَاتُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ أَعْمَالَهُمْ﴾^(١٢)، فاسم الإشارة (ذلك) يحيل على الكيفية التي يعتب بها الفريقان في الآية السابقة، ثم علل سببه بقوله (اتبعوا أسخط الله وكرهوا رضوانه)، وقد عبر عن اتباعهم ما أسخط الله بالجملة الفعلية الواقعة صلة للموصول؛ للدلالة على معرفة المخطب بما أسخط الله، وزيادة على ذلك فهي تفيد تجدد هذا الفعل منهم، وأما كراهيتهم، فهي لـ (رضوانه)، وقد عبر عنه بالمصدر الصريح؛ للدلالة على أنه ثابت لا يتغير، وقد ناسب بين ضرب الوجه في الآية السابقة، واتباع ما أسخط الله، الذي يقتضي المقابلة بالوجه، وضرب الأدبار، وكراهة رضوان الله — تبارك وتعالى —، ((ففي الكلام مقابلة بما يشبه اللف، والنشر))^(١٣)، ولا يخفى الطباق الموجود بين (اتبعوا، وكرهوا)، وبين (أسخط، ورضوانه)^(١٤). ثم أردف تهديده بقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَصْعَانَهُمْ﴾^(١٥). فقد انتقل من تهديدهم إلى إنذارهم، أعاد استعمال اسمهم الصريح على الرغم من تقدمه في الكلام؛ لتخصيصهم بهذا الإنذار من دون الكافرين. وزاد في إنذارهم بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ لَأَرْسَلْنَاكُمْ قَدْرَهُمْ قَدَرَهُمْ بِيْئَاتِهِمْ وَلَتَجِدُنَهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾^(١٦)، إذ إنه — عز وجل — ينذرهم بتعريفهم للنبي p، ثم بيّن له علامة منهم، وهي في قوله (ولتعرّفنهم في لحن القول)، ومعنى لحن القول: ((صرف الكلام عن سننه الجاري عليه، إما بإزالة الإعراب، أو التصحيف، وهو المذموم، وذلك أكثر استعمالاً، وإما بإزالة الله عن التصريح، وصرفه بمعناه إلى تعريض، وفحوى))^(١٧)، ثم ذلّل الكلام بقوله (والله يعلم أعمالكم)، فالضمير في (أعمالكم) للفرق الثلاثة / موضوع السورة، فهو خطاب عام جاء؛ بالوعد للمؤمنين، والوعيد للكافرين، والذين في قلوبهم مرض، ويدلّ على عمومته، قوله تعالى: ﴿وَلَتَجِدُنَهُمْ حَتَّىٰ تَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَلَيَتَذَكَّرُنَّ أَعْمَالَكُمْ﴾^(١٨)، فالابتلاء ((بالأمر بالجهاد، وسائر التكاليف الشاقة))^(١٩)، أما قوله (أخباركم)، فهي ((الأعمال من حيث إثباتها تصدر عن العاملين، فيكون إخباراً لهم، يخبر بها عنهم))^(٢٠). ثم جاء قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَنْ يَضُرَّوْا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْطِطُ أَعْمَالُهُمْ﴾^(٢١)، عانداً على الفريق الأول ((الكفار)، عاد الكلام إليهم بعد الفراغ من ذكر المنافقين، الذين يخفون الكفر))^(٢٢)، ثم قابلهم بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا

(١) إرشاد العقل السليم: ٩٩ / ٨. وينظر: روح المعاني: ٣١٨ / ٢٦.

(٢) سورة محمد: ٢٥.

(٣) تفسير التحرير والتنوير: ٩٦ / ٢٦.

(٤) سورة محمد: ٢٦.

(٥) ينظر: إرشاد العقل السليم: ٩٩ / ٨، وروح المعاني: ٣٢٠ / ٢٦.

(٦) تفسير التحرير والتنوير: ٩٨ / ٢٦. وينظر: الميزان في تفسير القرآن: ٤٥٨ / ١٨.

(٧) ينظر: الميزان في تفسير القرآن: ٤٥٨ / ١٨.

(٨) سورة محمد: ٢٧.

(٩) إرشاد العقل السليم: ١٠٠ / ٨، وينظر: روح المعاني: ٣٢١ / ٢٦، والميزان في تفسير القرآن: ٤٥٩ / ١٨، وتفسير التحرير والتنوير: ٩٩ / ٢٦.

(١٠) إرشاد العقل السليم: ١٠٠ / ٨. وينظر: روح المعاني: ٣٢١ / ٢٦.

(١١) تفسير التحرير والتنوير: ٩٩ / ٢٦.

(١٢) سورة محمد: ٢٨.

(١٣) روح المعاني: ٣٢١ / ٢٦.

(١٤) ينظر: تفسير التحرير والتنوير: ١٠٠ / ٢٦.

(١٥) سورة محمد: ٢٩.

(١٦) سورة محمد: ٣٠.

(١٧) مفردات ألفاظ القرآن: ٧٣٨ (لحن). وينظر: بصائر ذوي التمييز: ٤ / ٢٤.

(١٨) سورة محمد: ٣١.

(١٩) أنوار التنزيل وأسرار التأويل: ١٩٦ / ٥. وينظر: إرشاد العقل السليم: ١٠١ / ٨، وروح المعاني: ٣٢٤ / ٢٦.

(٢٠) الميزان في تفسير القرآن: ٤٦٠ / ١٨.

(٢١) سورة محمد: ٣٢.

(٢٢) تفسير التحرير والتنوير: ١٠٥ / ٢٦.

أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تَبْطُلُوا أَعْمَالَكُمْ^(١). ويلحظ التقابل بين حالي الفريقين في (كفروا - آمنوا) ، و(صدّوا - أطيعوا) ، و(شاقوا الرسول - أطيعوا الرسول) ، و(سيحبط أعمالهم - لا تبطلوا أعمالكم) ، والآية الأخيرة معترضة بين الآية التي قبلها ، والآية الآتية بعدها ، وسبب اعتراضها لتحذير ((المؤمنين أن يكونوا أمثالهم ، فيفاوضوا المشركين ، ويميلوا إليهم ، فيتبعوا ما أسخط الله ويكرهوا رضوانه))^(٢). وجاء قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾^(٣) ، تكملة لما تقدّم في شأن الكفار ؛ ((لأنّ تلك مسوقة لعدم الاكتراث بمشاقهم ، ولبيان أنّ الله مبطل صنائعهم ، وهذه مسوقة لبيان عدم انتفاعهم لمغفرة الله ، إذ ماتوا على ما هم عليه من الكفر))^(٤). ولعلّ في الآية ارتباطاً بالآية التي تخاطب المؤمنين -أيضاً - ، إذ هي ((تعليل لمضمون الآية السابقة ، فيفيد أنّكم لو لم تطيعوا الله ، ورسوله ، وأبطلتم أعمالكم باتّباع ما أسخط الله ، وكرهه رضوانه أدّاكم ذلك إلى اللّحوق بأهل الكفر))^(٥). وأعقب ذلك بالخطاب للمؤمنين ، وذلك في قوله تعالى : ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتَرَكَمُ اللَّهُ﴾^(٦) ، أي ((إذا علمتم أنّ الله تعالى يبطل أعمالهم ، ومعاقبهم ، فهو خاذلهم في الدنيا ، والآخرة ، فلا تبالوا بهم ، ولا تظهروا ضعفاً))^(٧). ثم قال تعالى : ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ إِنْ تَوَلَّوْا يَتَّبِعْكُمْ أَرْجَاؤُكُمْ وَلَا يَسْأَلُكُمْ مَوْلَاكُمْ﴾^(٨). فقوله ((إنما الحياة الدنيا لعب ولهو) ؛ ((ترغيب لهم في الآخرة))^(٩) ، وفي الخطاب توجيه للمؤمنين بالأعمال التي تقرّبهم من الله - تبارك وتعالى - . ومعنى قوله (لا يسألكم أموالكم) ، أي ((لا يسألكم جميعها))^(١٠) ، يدلّ على هذا المعنى ما جاء في الآية اللاحقة لها ، إذ المعنى : ((إن يسألكم جميع أموالكم فيجهدكم بطلب كلّها كففتكم عن الإيعاء لحبكم لها ، ويخرج أحقاد قلوبكم ، فضلتكم))^(١١) . ثم أتى خطابه لهم في قوله تعالى : ﴿إِنْ يَسْأَلْكُمْ عَنْهُمْ فَأْتُوا بِحُكْمٍ وَأَنْتُمْ عَلَى أَعْيُنٍ وَأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَدْعُونَ لِيُتَّقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ هُنْكَ مَنْ يَبْخُلُ وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾^(١٢) . فقوله ((إن يسألكموا فيحكم) ((تعليل لنفي سؤالهم أموالهم))^(١٣) . وجاء قوله (ها هؤلاء تدعون) كالتمثيل على كفهم عن الإيعاء ، الذي سبق . ومعنى قوله ((لتتفقوا في سبيل الله) : ((يعمّ نفقة الغزو ، والزكاة ، وغيرهما))^(١٤) . ولعلّ معنى الغزو هو الأقرب ؛ لتقدّم الأمر بالقتال فيما سبق من السورة أولاً ، ولأنّ الزكاة من الأمور الواجبة على الأغنياء ، ويبدو أنّ قوله ((تدعون لتتفقوا في سبيل الله) ليس من الأمور الواجبة ، وإنّما من الأعمال التطوعيّة . وجافقوله (وإن تتولّوا يستبدل قوماً غيركم) مقابلاً لقوله (إن تؤمنوا وتتقوا) ، ومعنى تتولّوا : ((تعرضوا عن الإيمان والتقوى))^(١٥) ، ويدلّ على هذا المعنى استبدال ((الإيمان بالكفر ؛ ولذلك جعل جزاؤه استبدال قوم غيرهم كما دين الله بدين الشرك))^(١٦) .

المبحث الثالث : الخطط التنظيمية للموضوع / ترتيب الخطاب ، وخطط التأكيد

إنّ ثمرة النشاط اللغوي للإنسان هي النصوص المنتجة ، وهي ((تتابعات منطوق مكوّنة من جمل ، أو تراكيب مكافئة للجمل (تكوينات مجتزأة^(١٧) غير مكتملة) تربط حالاً معينة ممثلة في وعي المتكلّم بمكونات . ولكن كما لا ينتج ربط للمفردات جملة صحيحة ، فإنّ تتابعاً للجمل مكوّناً بشكل عشوائيّ لا يشكل نصّاً ، بل صفّاً لجمل مرتبطة بعضها ببعض بلا علاقة))^(١٨) . فالمعلومات المقدّمة في النصّ يجب أن تنتظم ((بطريقة معيّنة ، بحيث تتلاءم مع غرض اتّصاليّ معيّن ... وتتحقّق الاستمراريّة في النصّ بواسطة^(١٩) العناصر الناقلة ، إمّا داخل كلّ فقرة ، أو بين الفقرات المختلفة ، فتتحقّق استمراريّة ، ونمو الموضوع من خلال الانتقال بالمعنى على حياة سلاسل من الأفكار الأساسيّة ... إنّ الخاصيّة المميزة لتصور المعلومات هي أنّها منظمة بطريقة ثابتة كوحدة متكاملة من المعارف النموذجيّة الراسخة في الذاكرة . من هذا المنظور تعدّ عمليّة فهم الخطاب أساساً عمليّة استرجاع المعلومات المخزّنة في الذاكرة ، وربطها بالخطاب الذي نتعامل معه))^(٢٠) . ومما يتّصل بهذا المبحث معرفة أيّ طريقة يُدرس بها النصّ القرآنيّ الكريم ، هل يُدرس بحسب ترتيب نزوله على النبيّ ٦ ، وفي ذلك يكون موضوع الدراسة (السور المدنيّة) غير ملزم بمراعاة موضع السورة من الكتاب الكريم ، بل يكون جُلّ اهتمامه بترتيب نزولها ، ومعرفة ما سبقها ، وما لحقها من السور ، وهذا بالطبع يتعارض مع ما تعارف عليه المفسّرون

(١) سورة محمد : ٣٣ .

(٢) الميزان في تفسير القرآن : ١٨ / ٤٦٢ . وينظر : تفسير التحرير والتنوير : ٢٦ / ١٠٦ .

(٣) سورة محمد : ٣٤ .

(٤) تفسير التحرير والتنوير : ٢٦ / ١٠٨ .

(٥) الميزان في تفسير القرآن : ١٨ / ٤٦٣ .

(٦) سورة محمد : ٣٥ .

(٧) روح المعاني : ٢٦ / ٣٢٧ .

(٨) سورة محمد : ٣٦ .

(٩) الميزان في تفسير القرآن : ١٨ / ٤٦٤ .

(١٠) تفسير الكشاف : ٤ / ٣٢١ . وينظر : البحر المحيط : ٩ / ٤٧٧ ، وإرشاد العقل السليم : ٨ / ١٠٢ .

(١١) الميزان في تفسير القرآن : ١٨ / ٤٦٤ .

(١٢) سورة محمد : ٣٧ - ٣٨ .

(١٣) تفسير التحرير والتنوير : ٢٦ / ١١٣ .

(١٤) أنوار التنزيل وأسرار التأويل : ٥ / ١٩٧ . وينظر : البحر المحيط : ٩ / ٤٧٨ ، وإرشاد العقل السليم : ٨ / ١٠٣ .

(١٥) روح المعاني : ٢٦ / ٣٣٠ .

(١٦) تفسير التحرير والتنوير : ٢٦ / ١١٦ - ١١٧ .

(١٧) كذا ، والصحيح : مجزئة .

(١٨) سمات دلاليّة وبنية النصّ (ضمن كتاب : إسهامات أساسيّة في العلاقة بين النصّ والنحو والدلالة) : ٢٨٧ .

(١٩) كذا ، والصحيح : بوساطة .

(٢٠) علم لغة النصّ ، النظريّة والتطبيق : ١٩٧ - ١٩٨ .

للنصّ الكريم ، والمؤلفون في علوم القرآن ، وهم قد رَووا ((أَنَّ القرآن الكريم نزل بعض منه سوراً كاملة ، ونزل البعض الآخر منه آيات متفرقة ، وأنّ النبي ٦ كان يأمر بأن توضع الآيات المتفرقة في مواضعها من السور في سياق خاص ، كلاً بحسب ما يتطلبه الموقف ، وهذا يعني أنّ للسورة المنتظمة في آيات : لها خصوصيتها ؛ ولذلك ينبغي البحث عن هذا الجانب أيضاً ، فالمطلوب ، أو المستهدف هو ملاحظة النصّ الكريم في صيغته النهائية المتمثلة في عنصر السورة ، وهي الطابع الذي يسم القرآن الكريم ، وبخرجه عن سواه من الأشكال الفنية))^(١) . ويرى بعض الباحثين المحدثين أنّ مؤلف النصّ يعرضون منظورهم عن الموضوع من خلال خططهم التنظيمية ، وقد اقترح محلّو الخطاب مجموعة من العلاقات المنطقية ، التي تعمل على مستوى النصّ ، يُمكن تحديدها في خمس علاقات أساسية ، هي^(٢) :

- ١- علاقة الاتحاد / الجمع .
- ٢- علاقة السببية .
- ٣- علاقة الاستجابة ، مثل : (المشكلة والحلّ ، والسؤال والجواب ، والتعليق والردّ ...) .
- ٤- علاقة التقابل .
- ٥- علاقة الوصف .

ويستعمل محلّو النصوص هذه العلاقات للتفكير في الموضوعات عند بنائهم التمثيل المعرفي للنصّ ، ويوظفونها على المستوى الأعلى للنصّ كلّاً ، أو على المستوى الأدنى بين الجمل ، والفقرات . أمّا خطط التأكيّد ، فهي ((معلومات مقدّمة في النصّ ، لا تُضيف محتوى جديداً للفكرة الأساسية ، ولكنها تعطي تأكيداً على جانب مُعيّن للمحتوى الدلاليّ ، أو تشير إلى بنية المحتوى))^(٣) ، وتشمل أنواع الإشارة^(٤) :

- ١- التقرير الصريح لنوع العلاقات في محتوى البنية (ذكر نوع العلاقة) ، مثل : على العكس - على نحو مشابه
- ٢- التقرير المسبق / التمهيد ، الذي يكشف عن المعلومات مجرّدة عن المحتوى ، الذي سيظهر فيما بعد في النصّ ، مثل : مشكلة - اعتقاد - اعتراض - نتيجة ... ، أو ما يُطلق عليه إشارة الاستهلال ، أو الجمل الاستهلالية .
- ٣- التقرير الملخص ، أو تكرار الإشارة ، باستعمال الجمل التلخيصية ، التي يُكرّر بها في الغالب العبارة الاستهلالية .
- ٤- استعمال وسائل الإشارة ، أو العلامات الصريحة ، مثل التعبير : النقطة المهمة هي : أريد التأكيد على أنّ ... ، أو وضع خطّ أسفل الكتابة ، أو الكتابة المائلة ، أو التقنيات الأخرى المشابهة .

وعند محاولة تطبيق ما تقدّم على سورة الزلزلة (المدنية) ، يُلاحظ أنّ السورة الكريمة تبدأ بقوله تعالى : ﴿بَا زُلْزَلَتِ الْأَرْضُ زُلْزَالَهَا﴾^(٥) ، فالآية الكريمة تبدأ بتقرير تمهيديّ لموضوع السورة (يوم البعث والجزاء) ؛ ((مخوّفاً لعباده أهوال يوم القيامة ، ومنذراً لهم بالآيات الباهرة))^(٦) . وكان ذلك باستعمال علاقة الاستجابة / الشرط والجواب ، وقد عبّر عن يوم البعث بإضافة ضمير الزلزلة إلى الأرض ، وذلك في قوله (زلزالها) ؛ ((لأنّها تعمّ جميع الأرض بخلاف الزلازل المعهودة ، التي تختصّ ببعض الأرض))^(٧) ، ولم يتحقّق معنى الشرط بهذه الآية فقط ، بل بمجموع الآيتين بعدها ، وهما قوله تعالى : ﴿وَأُخْرِجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا﴾^(٨) ، فجُمعت علاقة الاتحاد / الجمع ، بين الآيات ؛ ليكون مضمون الآيات مجتمعةً هو جملة الشرط ، والجمع بين الآيات ليس جمعاً مطلقاً ، بل هو جمع ترتيبيّ ، إذ تحصل الزلزلة أولاً ، ثم إخراج الأثقال ، ثم السؤال . لأنّ معنى قوله (أثقالها) هو : الموتى^(٩) ، ولعلّ ما يؤيّد هذا المعنى ، ورود قوله (الإنسان) في الآية الآتية بعدها ، إذ إنّ استعمال اسم الجنس فيه دلالة على العموم للبشر جميعاً ، وهو ما يناسب موضوع السورة (إثبات يوم القيامة) ، ((أي يقول الإنسان : ما لهذه الأرض قد زُلزلت ؟ وذلك لا يكون إلا بعد عملية الانبعاث التي ترتبط بالإنسان الذي يرقد تحت الأرض))^(١٠) . وقد أعاد ذكر (الأرض) على الرغم من تقدّمها في الآية السابقة لها ؛ ((لزيادة التقرير ، أو للإيماء إلى تبدّل الأرض غير الأرض ، أو لأنّ إخراج الأثقال حال بعض أجزائها))^(١١) ، أو ((لقصْد التهويل))^(١٢) . واحتمل قوله (أثقالها) أن يكون ما فيها من ((كنوزها ، ومعادنها ، فتلقاها على ظهرها ؛ ليراها أهل الموقف وتكون الفائدة في ذلك أن يتحسّر العصاة إذا نظروا إليها ؛ لأنهم عصوا الله فيها ، ثم تركوها لا تغني عنهم شيئاً . وأيضاً فإنّه تكوى بها جباههم ، وجنوبهم ، وظهورهم))^(١٣) . وقد ذهب كثير من المفسّرين إلى أنّ المقصود بـ (الإنسان) المتقدّم هو ((الكافر ؛ لأنّه كان لا يؤمن بالبعث))^(١٤) . ويبدو أنّ المقصود به عموم البشر ، يؤيّد ذلك ما جاء في قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ يَوْمَ تَرَوُنَّهَا تُدْخَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا

(١) دراسات في علوم القرآن : ٤١ - ٤٢ . وينظر : البرهان في علوم القرآن : ١ / ١٨٤ . إذ ذهب إلى أنّ ترتيب السور توقيفيّ .

(٢) علم لغة النصّ ، النظرية والتطبيق : ١٩٣ - ١٩٤ .

(٣) علم لغة النصّ ، النظرية والتطبيق : ١٩٤ .

(٤) المصدر نفسه : ١٩٤ .

(٥) سورة الزلزلة : ١ .

(٦) التبيان في تفسير القرآن : ٣٢٦ / ١٠ . وينظر : مجمع البيان : ١٠ / ٦١٦ .

(٧) مجمع البيان : ١ / ٦١٧ . وينظر : البحر المحيط : ١٠ / ٥٢٢ - ٥٢٣ .

(٨) سورة الزلزلة : ٢ - ٣ .

(٩) الميزان في تفسير القرآن : ٢٠ / ٥٩٧ .

(١٠) التفسير البناني للقرآن الكريم : ٥ / ٣٨٢ .

(١١) إرشاد العقل السليم : ٩ / ١٨٨ . وينظر : روح المعاني : ٣٠ / ٦٠٤ .

(١٢) تفسير التحرير والتنوير : ٣٠ / ٤٣٣ .

(١٣) مجمع البيان : ١٠ / ٦١٧ .

(١٤) تفسير الكشاف : ٤ / ٧٧٥ . وينظر : معاني القرآن ، الفراء : ٣ / ١٧٣ ، ومجمع البيان : ١٠ / ٦١٧ ، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل : ٥ / ٥١٨ .

وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ^(١) . فقد خاطب الله - عز وجل - الناس جميعاً ، ووصف حالة الذهول ، والخوف لعامتهم . فيأتي جواب الشرط في قوله تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾^(٢) ، وهو تقرير مسبق / تمهيدى ، إذ إن جواب الشرط تمهيد للجواب ، أو المقصود من الكلام ؛ لأن الكلام مسوق لإثبات الحشر ، والتذكير به . و(أخبارها) يقصد به ((شهادتها بما عمل عليها من عمل صالح ، وفاسد))^(٣) . ويأتي قوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَرْبُّكَ وَحَىٰ لَهَا ﴾^(٤) ، تصريحاً بسبب الأحداث بالعلاقة السببية^(٥) ، التي تبين أن الأمر صادر من الله تعالى لها / الأرض . والمشهور في قوله (أوحى) أن يُعَذَى بـ (إلى) ، ((وعذّي هنا باللام مراعاة للفواصل))^(٦) ، أو لأن (اللام) تأتي - هنا - لمعنى التبليغ^(٧) ، فيأتي قوله تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ يُصْدِرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لَّيُرَوَّاْ عَمَلَهُمْ ﴾^(٨) ، بياناً للسبب الرئيس لهذه الأحداث ، فيصف حالهم بقوله (يصدر الناس أشتاتاً) ، فيكون تفرقهم الأخرى معللاً بالجزاء على الأعمال ، وذلك في قوله (ليروا أعمالهم) ، فيتفرع^(٩) عليه قوله تعالى : ﴿ هُمْ يَعْمَلُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾^(١٠) ؛ لتوضيح ما تقدّم من رؤية ، إذ إن ((الهدف إضاعة صورة الحكم والقرار في جملة واحدة يحسم بها الأمر))^(١١) ، فجاءت علاقة المقابلة بين الفريقين العاملين . من ذلك يتبين أن آيات السورة مرتبطة فيما بينها بعلاقات دلالية تبين ((مدى إحكام النص ، وجماليته من حيث صلة أقسامه بعضها مع الآخر))^(١٢) .

المبحث الرابع : البنية الكبرى وقواعد البناء

يرى بعض الباحثين أن ((أوجه الترابط التي تركز على النص بوصفه كلاً ، أو على كل حال بالوحدات الكبرى للنص . ونطلق على هذه الأبنية النصية العامة الأبنية الكبرى))^(١٣) . فالبنية الكبرى تمثيل دلالي لموضوع ما ، وقد يضم هذا الموضوع قضايا جزئية تأتلف ؛ لتكون الموضوع العام / البنية الكبرى^(١٤) . فالبنية الكبرى الشاملة للنص مرتبطة بموضوعه الكلي^(١٥) ، أو هي مجموعة من البنات الصغرى ، انسجمت فيما بينها مكونة القضية الأساسية التي يدور النص في فلكها ، وقيل هي : ((بنية تصوورية أو مفهومية (قضية ما) ، قد تصبح موضوع خطاب ، إذا نظمت بنية تصوورية (قضائية) متوالية تنظيماً تراتبياً))^(١٦) . فالنص بعده منجزاً لغوياً ((يحتوي على دلالة غير قابلة للتجزئة ، مثل (أن يكون قصة) ، أو (أن يكون وثيقة) ، أو (أن يكون قصيدة) ، مما يعني أنه يحقق وظيفة ثقافية محددة ، وينقل دلالتها الكاملة))^(١٧) ، ومن ذلك يتضح أن ((البنية الكبرى للنص ترتبط بموضوعه الكلي ، إذ تتجلى في ضوئها تلك الكفاية الجوهرية لمتكلم ما ، التي تسمح له بأن يجيب عن سؤال ، مثل : عمّ كان الكلام ؟ ، أو : ماذا كان هدف هذا الحوار؟))^(١٨) . ومن خلال البنية الكبرى استطاع علماء النص إثبات أن التماسك النصي لا يتحدد على مستوى علاقات الترابط بين الفقرات الجمليّة فحسب ؛ لأن هذا المستوى لا يُقدّم سوى الأبنية الصغرى ، أمّا التمثيل الدلالي الكليّ ، فتحده البنية الكبرى ، وتجعل من النصّ عملاً كلياً فريداً^(١٩) . ورأى فان دايك أنه لكي يتوصّل إلى الأبنية الكبرى للنصوص ، يجب أن تطبق فيها القواعد الكبرى على التتابعات الجمليّة / القضايا في النصّ ، وهذه القواعد هي^(٢٠) :

- ١- الحذف : وهذه القاعدة ((تتضمن أن كل معلومة غير مهمّة ، غير جوهرية يُمكن أن تُحذف))^(٢١) . فالمعلومات المحذوفة من النصّ غير أساسية ، أو أنها غير لازمة في النصّ . وقد مثّل لذلك بالتتابعات الجمليّة (مرّفتي - يحمل كتاباً - الكتاب كبير) . فالجملتان الأخيرتان غير لازمتين في النصّ ؛ ولذا يُمكن حذفهما من دون التأثير على المعنى المطلوب . وقد أشار عبد القاهر الجرجاني إلى هذه القاعدة ، قبل المحدثين ، وذلك عند بحثه عن المفعول في قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءٌ مَّذْيَنٌ وَجَدَ عَلَيْهِ أَمَةً مِنَ النَّاسِ يَسْفُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نُسْقِيكَ حَتَّىٰ يُصَدِّرَ الرَّعَاءُ وَابُنَا شَيْخٌ كَبِيرٌ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ ، إذ قال : ((ففيها حذف مفعول في أربعة مواضع ، إذ المعنى : (وجد عليه أمة من الناس يسفون) أغنامهم أو مواشيهم - وامرأتين تذودان غنمهما - وقالتا لا نسقي غنمنا - فسقى لهما غنمهما ... وما ذاك إلا أن الغرض في أن يُعلم أنه كان

(١) سورة الحج : ١ - ٢ .

(٢) سورة الزلزلة : ٤ .

(٣) الجواهر الحسان : ٦١٥ / ٥ . وينظر : أنوار التنزيل وأسرار التأويل : ٥١٨ / ٥ ، وإرشاد العقل السليم : ١٨٨ / ٩ .

(٤) سورة الزلزلة : ٥ .

(٥) ينظر : تفسير الكشاف : ٧٧٦ / ٤ ، والجواهر الحسان : ٦١٦ / ٥ ، وإرشاد العقل السليم : ١٨٩ / ٩ .

(٦) الجواهر الحسان : ٦١٦ / ٥ . وينظر : معاني القرآن ، الأخفش : ٣١١ .

(٧) ينظر : الجني الداني : ٩٩ .

(٨) سورة الزلزلة : ٦ .

(٩) ينظر : أنوار التنزيل وأسرار التأويل : ٥١٩ / ٥ ، وإرشاد العقل السليم : ١٨٩ / ٩ .

(١٠) سورة الزلزلة : ٧ - ٨ .

(١١) النسق القرآني ، دراسة أسلوبية : ٥١٣ .

(١٢) التفسير البنائي للقرآن الكريم : ٣٨٤ / ٥ .

(١٣) علم النصّ ، مدخل متداخل الاختصاصات : ٧٤ .

(١٤) ينظر : لسانيات النصّ : ٤٤ .

(١٥) ينظر : بلاغة الخطاب وعلم النص : ٣١ ..

(١٦) النصّ والسياق : ١٨٨ .

(١٧) بلاغة الخطاب وعلم النصّ : ٣٠١ .

(١٨) بلاغة الخطاب وعلم النصّ : ٣٣٦ .

(١٩) نفسه : ٣٤٤ .

(٢٠) ينظر : علم النصّ ، مدخل متداخل الاختصاصات : ٨١ - ٨٥ .

(٢١) علم النصّ ، مدخل متداخل الاختصاصات : ٨١ .

بَيِّنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولِي يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ^(١)، مكملاً لقاعدة الاختيار في الآية السابقة، فالآية تدلّ على انقضاء رسالة موسى ٧، وبعث النبي عيسى ٧ بعده، فرسالته مصدقة لرسالة موسى، ومبشرة برسالة لاحقة. ويتبين من ذلك أنّ رسالة عيسى A مثبتة لهم على أحكام شريعتهم، إلا ما دعئ إليه طبيعة التغيرات الإنسانية من نسخ لبعض الأحكام المتوافقة مع هذه التغيرات، كما أنّ الآية الكريمة تشير إلى أنّ الرسالة المبشّر بها متممة للرسالتين السابقتين أولاً، وأفضل منهما ثانياً؛ ولذا استعمل تعبير (مبشراً)، والبيشارة إما تكون بما هو أفضل للإنسان من الحال التي هو عليها، فهي تفيد ((كون ما أتى به النبي أحمد p أرقى، وأكمل ممّا تضمّنته التوراة، وبعث به عيسى A، وهو A متوسط رابط بين الدعوتين))^(٢). وجاءت قاعدة الإدماج أو التركيب؛ لتبيّن بعث النبي المبشّر به، بالبيّنات الدالّة على صدق نبوّته، ورميهم له بالسحر المبين، ((وذكر القرآن تبشيراً عيسى بمحمّد عليهما الصلاة، والسلام إصاح في خلال المقصود، الذي هو تنظير ما أودى به موسى من قومه، وما أودى به عيسى من قومه إدماجاً يؤيد به النبي p، ويثبت فواده، ويزيده تسليّة، فيها تخلص إلى أنّ ما لقيه من قومه نظير ما لقيه عيسى من بني إسرائيل))^(٣). ثم جاء التعميم بالحكم في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ ظَلَمَ مِمَّنْ اقْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾^(٤). قد أشار في الآية السابقة إلى الرسول الموعود، الذي سيأتي بعده، فجاء قوله هذا رابطاً له بحاضر الدعوة الإسلامية، إذ إنه ((لمّا أدمج في حكاية دعوة عيسى بشارته برسول يأتي بعده، ناسب أن ينتقل الكلام إلى ما قابل به قوم الرسول الموعود دعوة رسولهم؛ فلذلك ذكر في دعوة هذا الرسول دين الإسلام، فوصفوا بأنهم أظلم الناس تشبيحاً لحالهم))^(٥). وقد أشارت الآية إلى معادتهم للنبي، وتكذيبه في قوله ((اقتري على الله الكذب)، وعلا ذلك بقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُنِيرُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾^(٦)، فهم يريدون أن يمنعوا الرسول من نشر دعوته؛ كي يمنعوا ((ظهوره بكلامهم، وأكاذيبهم))^(٧). وجاء قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾^(٨) مراعيًا لقاعدة الاختيار، إذ إنّ قوله ((ليظهره على الدين كلّاه ولو كره المشركون)) يحمل كثيراً من الأحداث الغائبة في النصّ، فالمنافسة بين إظهار الدين، وكره المشركين تتطلّب كثيراً من المواجهة، والصعوبات، والشدائد، فحذفت من النصّ إمعاناً في تبيين الكفار، وتقوية لعزيمة المؤمنين بأنّ الغلبة ستكون لهم مع الصبر. وجاءت الآيات الأخيرة من السورة خاتمة للموضوع الذي بدأت به، وهو الجهاد في سبيل الله، فقال - تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُجِيزُكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِمَا كُنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ تَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ يَغْفِرْ لَكُمْ تَوْبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ تِلْكَ الْأَنْقُورُ الظُّظُمُورُ أُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرَ مِنَ اللَّهِ وَهَجْرَ قَرِيبٍ وَيَبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي لِي اللَّهُ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَأَمْنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَوَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾^(٩). فالآيات الكريمة - بحسب قاعدة الإدماج - تحت المؤمنين على الإيمان بالله، والجهاد في سبيله، وتتخذ من مصطلح التجارة عنواناً جديداً للجهاد، فكأنهم بطاعتهم لله - تبارك وتعالى - وجهادهم في سبيله يعملون بمتاجرة ينتظرون الربح منها (يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار)، ولم يقصر الأمر على الآخرة، بل بشرهم بربح دنيوي (نصر من الله وفتح قريب). وضرب لهم مثلاً من الحواريين الذين أخلصوا في دينهم لله تعالى، وأطاعوا رسوله، فكانت النتيجة (فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين).

المبحث الخامس: التغييض

إنّ مفهوم التغييض ذو علاقة وثيقة بموضوع الخطاب، وعنوان النص؛ وذلك لأنّ ((الخطاب ينتظم على شكل متتاليات من الجمل متدرّجة، لها بداية ونهاية، فإنّ هذا التنظيم يعني الخطبة، سيتحكم في تأويل الخطاب، بناءً على أنّ ما يبدأ به المتكلم، أو الكاتب سيؤثر في تأويل ما يليه))^(١٠). ويتمّ التغييض بوسائل عدّة، لعلّ من أهمّها: تكرير اسم، واستعمال ضمير محيل إليه، وتكرير جزء من اسمه، واستعمال ظرف زمان يخدم خصيصاً من خصائصه. وهذا النوع من التغييض يُستعمل حين يدور موضوع الخطاب عن شخص ما، و ((أهميّة مبدأ الإعادة بالنسبة لتماسك النصّ تكمن أساساً في أنّه في أوجه الإعادة المختلفة للنصّ يعبر لغويّاً عن توحّد موضوع النصّ... ولذلك ما يجعل تتابع^(١١) من جمل تتابعاً جملياً متماسكاً، أي يجعله نصّاً أساساً ليس مبدأ الإعادة، بل آخر الأمر التوجيه الموضوعي، أي التركيز الاتصالي على موضوع موحّد))^(١٢). وهناك إجراء آخر يُستعمل في تغييض الخطاب، وهو (العنوان)، فهو يثير لدى القارئ توقّعات قويّة حول ما يمكن أن يكون موضوع الخطاب^(١٣). وممّا يُلاحظ على هذا الإجراء أنّ السور القرآنيّة الكريمة جميعها

(١) سورة الصف: ٦.

(٢) الميزان في تفسير القرآن: ١٩٥ / ١٩.

(٣) تفسير التحرير والتتوير: ١٦٦ / ٢٨ - ١٦٧.

(٤) سورة الصف: ٧.

(٥) تفسير التحرير والتتوير: ١٦٧ / ٢٨ - ١٦٨.

(٦) سورة الصف: ٨.

(٧) روح المعاني: ٣٩٢ / ٢٨.

(٨) سورة الصف: ٩.

(٩) سورة الصف: ١٠ - ١٤.

(١٠) لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب: ٥٩.

(١١) كذا، والصحيح: تتابعاً.

(١٢) التحليل اللغوي للنص، مدخل إلى المفاهيم الأساسية والمناهج: ٧٢.

(١٣) ينظر: لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب: ٦٠.

(قضية الطلاق) قضية (عامة) ترتبط بمجمل سلوك الإنسان ، وهي : التقوى ، ثم التوكل ... [ف] التقوى تفضي إلى تفريج الشدائد ... وأما من حيث (التوكل) فقد عقب النص بقوله (فهو حسب) هذه الفقرة - أيضاً - تحقيق قمة ما يتطاع إليه الإنسان من إشباع لحاجاته الدنيوية ، والأخروية ، فإذا كان الله تعالى يكفي الإنسان حاجاته حينئذٍ ، فإن الإشباع يتحقق بما لا مزيد عليه))^(١) .

الفصل الثالث : السياق والتناص

المبحث الأول : السياق

السياق في اللغة والاصطلاح :

السياق لغةً : ساق الماشية سوفاً وسيقاً ، والسوق : حدو الشيء . وتساوقت الإبل : تتابعن ، وهو يسوق الحديث أحسن سياق . وجئت بالحديث على سوقه : أي على سرده^(٢) . **السياق اصطلاحاً :** لم يذكر أصحاب معاجم المصطلحات^(٣) تعريفاً للسياق . في حين عرّفه بعض المحدثين بقوله : ((سياق الكلام : أسلوبه ومجره ، تقول : وقعت هذه العبارة في سياق الكلام ، أي جاءت متفقة مع مجمل النص . وللتقيد بسياق الكلام في تفسير النصوص ، وتأويلها فائدة منهجية ؛ لأن معنى العبارة يختلف باختلاف مجرى الكلام ، فإذا شئت أن تفسر عبارة من نص ، وجب عليك أن تفسرها بحسب موقعها في سياق ذلك النص))^(٤) . وعرّفه آخر بقوله : ((تسلسل المعاني التي ينطوي عليها نص من النصوص))^(٥) . وعرّفه أحد الغربيين بقوله : ((هو أصوات ، أو كلمات ، أو عبارات تسبق ، وتتبع مفردة ، أو هي عنصر لغوي في لفظة ، أو معنى . وتتأثر أصوات الكلام غالباً بالأصوات المجاورة لها ، وكذلك البيئة اللغوية المحيطة بها . علاقة سمات العالم الخارجي بمعنى اللفظة ، أو النص ، تعد مفاهيم لنص ، أو الحالة للمحور المركزي من فروع علم الدلالة جميعاً ؛ لكون جميع الرموز الكتابية ، والفعلية تمثل العالم المحيط بالمتحدث))^(٦) . وأما تحليل السياق ، فقد عرّفه بقوله : ((هو نمط من التحليل اللغوي الذي يعترف بأن معاني الوحدات اللغوية هي محدّدة بالنص الذي توجد فيه ، وتحدث القيود السياقية على المستوى الفونولوجي لمستوى الاستبدال الخطّي ، والمستوى النحوي ، والمعجمي))^(٧) .

السياق عند القدماء :

عرف علماء اللغة القدماء السياق ، وأثره في بيان المعنى المطلوب ، واستعملوا هذا المصطلح حرفياً ، كما استعملوا مصطلحات^(٨) تكاد تكون مرادفة له ، منها : الحال ، والمقام ، والموقف ، وغيرها . وقد استعمل البلاغيون مصطلحي (الحال ، والمقام) للدلالة على الظروف الخارجية المحيطة بالمتكلم ، والمخاطب ، دليل ذلك قول الجاحظ : ((والمعنى ليس يشرف بأن يكون من معاني الخاصة ، وكذلك ليس يضع بأن يكون من معاني العامة ، وإنما مدار الشرف على الصواب ، وإحراز المنفعة مع موافقة الحال ، وما يجب لكل مقام من المقال))^(٩) . ويجمع الباقلائي [ت ٤٠٣ هـ] في معرض دفاعه عن وقوع التنبه في القرآن الكريم بين السياقين ، اللغوي وغير اللغوي ، بقوله : ((لا يأتيه ما يبطله من شبهة سابقة تقدح في معجزته ، أو تعارضه في طريقه ، وكذلك لا يأتيه من بعده قط أمر يشكك في وجه دلالاته ، وهذا أشبه بـ **سياق** الكلام ونظامه))^(١٠) . ومثله قول عبد القاهر الجرجاني ، وهو يبين وجوه إعجاز القرآن ، قائلاً : ((أعجزتهم مزايا ظهرت لهم في نظمه ، وخصائص صادفوها في **سياق** لفظه))^(١١) . إن فكرتي الحال ، والمقام - في مفهوم البلاغيين - مرتبطتان بالبعدين الزمني ، والمكاني ؛ وذلك ((أن الأمر الذي يدعو المتكلم إلى تقديم صياغته على وجه معين ، إما أن يتصل بزمان هذه الصياغة ، فيسمى (الحال) ، وإما أن يتصل بمحلّها ، فيسمى (المقام) ؛ لأن الكلام لا بدّ له من بُعد زمني ، وبُعد مكاني يقع فيه ، ومن هنا ارتبطت فكرة الحال ، والمقام بالمقال ، واختلاف صور هذا المقال يعود - بالضرورة - إلى اختلاف الحال ، والمقام . وتمتدّ فكرة المقام إلى علاقة المجاورة التي تكون بين كلمتين متتابعتين ، فقالوا : إن (لكل كلمة مع صاحبها مقام))^(١٢) . ويفصل ابن الأثير [ت ٦٣٧ هـ] في أنواع السياقات التي تتصل بالمقام ، فيرى أن ((صاحب الصناعة اللفظية يحتاج في تأليفه إلى ثلاثة أشياء : الأول : اختيار الألفاظ المفردة ، وحكم ذلك حكم اللآلي المبذبة ، فإنها تختار ، وتتقى قبل النظم . الثاني : نظم كل كلمة مع أختها المشكلة لها ؛ لئلا يجيء الكلام قلقاً نافرأ عن مواضعه ، وحكم ذلك حكم العقد المنظوم في اقتران كل لؤلؤة منه بأختها المشكلة لها . الثالث : الغرض المقصود من ذلك الكلام على اختلاف أنواعه ، وحكم ذلك حكم الموضع الذي يوضع فيه العقد المنظوم ، فتارة يجعل إكليلاً على الرأس ، وتارة يجعل قلادة في العنق ، وتارة يجعل شنفاً في الأذن ، ولكل موضع من هذه المواضع هيئة من الحسن تخصّه))^(١٣) . وقد كان السياق حاضراً في أذهان اللغويين عند

(١) التفسير البنائي : ٣٧ / ٥ .

(٢) ينظر : تاج اللغة وصحاح العربية : ٩١١ / ٣ ، ومعجم مقاييس اللغة : ٥٧٨ / ١ ، وأساس البلاغة : ٣١٥ - ٣١٦ ، ولسان العرب : ٢ / ١٩٤١ - ١٩٤٤ ،

والقاموس المحيط : ٨٢٥ - ٨٢٦ (سوق) .

(٣) ينظر : التعريفات ، والكليات ، وكشاف اصطلاحات الفنون .

(٤) المعجم الفلسفي : ٦٨١ / ١ .

(٥) معجم مصطلحات المنطق : ١٥٨ .

(٦) معجم اللغة واللسانيات : ١٠٧ .

(٧) المصدر نفسه : ١٠٨ .

(٨) ينظر : دلالة السياق : ٤٢ ، تفسير من وحي القرآن ، دراسة في ضوء علم اللغة النصّي : ٧٨ .

(٩) البيان والتبيين : ١٣٦ / ١ . وينظر : الدلالة السياقية : ٧٧ .

(١٠) إعجاز القرآن : ٦٥ .

(١١) دلائل الإعجاز : ٣٩ .

(١٢) البلاغة والأسلوبية : ٣٠٦ - ٣٠٧ .

(١٣) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر : ١٤٩ / ١ . وينظر : البلاغة والأسلوبية : ٣٠٨ - ٣٠٩ .

دراستهم لمفردات اللغة ، ومحاولة التعرّف على معني المفردة من خلال وضعها في سياقات متعدّدة ، أو الاستشهاد بالنصوص الدالّة على المعاني التي تحملها تلك المفردة ^(١) ، من ذلك قول الخليل [ت ١٧٥هـ] ، وهو يبين معاني (شجع) ، فقال : ((الشّجّع في الإبل : سُرعة نقل القوائم ... والشّجعة من النساء : الجريئة الجسورة على الرجال في كلامها ... والأشجع في اليد والرجل : العصب الممدود فوق السلامي ما بين الرسغ إلى أصول الأصابع))^(٢) . ويشير سيبويه إلى السياق غير اللغوي ، بقوله : ((فإن كان عربياً نعرفه ولا نعرف الذي اشتق منه فإنما ذلك لأننا جهلنا ما علم غيرنا ، أو يكون الآخر لم يصل إليه علم وصل إلى الأول المسمي))^(٣) . ويشير أبو عبيدة إلى كيفية التوصل إلى المعاني القرآنية ، وفهم معناها بمعرفة السياق الذي تقع فيه ، فأراد بكتابه (مجاز القرآن) ((الطرق التي يسلكها القرآن في تعبيراته))^(٤) . ونقل السيوطي عن ابن الأعرابي قوله ، الذي يشير فيه إلى السياق الاجتماعي ، فقال : ((كلّ حرفين أوقعتهما العرب على معنى واحد ، في كلّ منهما معنى ليس في صاحبه ، ربّما عرفناه فأخبرنا به ، وربّما غمض علينا ، فلم نلزم العرب جهله))^(٥) . ويهتم ابن قتيبة بمراعاة مقتضى الحال في الألفاظ والمعاني عند الكاتب ، فيقول : ((نستحبّ له [أي من يحترف التأليف] ... أن يُنزل ألفاظه في كتبه فيجعلها على قدر الكاتب والمكتوب إليه ، وأن لا يعطي خسيس الناس رفيع الكلام ، ولا رفيع الناس ضيع الكلام))^(٦) . أمّا المفسرون ، فقد كانوا من أسبق العلماء الذين اهتموا بالسياق بعدّه وسيلة من وسائل الكشف عن المعنى المطلوب للشارع المقدّس ، إذ تحتاج النصوص التشريعية ، ومنها القرآن الكريم ، إلى بيان مُراد الشارع الحكيم من النصّ . وكان تفسير القرآن بالمأثور يتم بطرق ثلاث ، هي : تفسير القرآن بالقرآن ، والتفسير بالسنة ، والتفسير بأقوال الصحابة . وهذه الطرق الثلاث تعتمد السياق بنوعيه (اللغوي ، وغير اللغوي) ، فتفسير القرآن بالقرآن يعتمد السياق اللغوي في التفسير ، وكان (وضوح مبدأ وحدة النصّ عند العلماء العرب يجد تعبيره الصريح في اشتراطهم استحضر النصّ القرآني جميعه عند تفسير بعضه))^(٧) ؛ لذا قد قرّر الزركشي أنّ ((أحسن طريق التفسير أن يُفسّر القرآن بالقرآن ، فما أجمل في مكان فقد فُصل في موضع آخر ، وما اختصر في مكان ، فإنّه يُسط في آخر))^(٨) . أمّا التفسير بالسنة ، فهو إن لم يكن قولاً / لغوياً ، فهو فعل ، أو تقرير / غير لغوي . ويبدو السياق غير اللغوي في تفسير الصحابة ، إذ إتهم شاهدوا القرائن ، والأحوال التي نزل بها الذكر الحكيم ، التي عُرفت فيما بعد بـ (أسباب النزول)^(٩) . وقد كان للمفسرين طريقتان في معرفتهم للسور المكية والمدنية ، هما : سماعي ، ومعرفته كمعرفة أسباب النزول ، والآخر قياسي ، وهو مبني على دراسة نصّية موضوعيّة لما ضمّه المسموع من المكي والمدني ^(١٠) . ويشير علماء التفسير ، وأصحاب علوم القرآن إلى بعض الضوابط القياسية لكلّ المكي والمدني ، وهي مُنصّبة على الأسلوب ، والمضمون الذي تتناوله آيات الصنفين . فهي تبين أثر السياق ، والمقام (من زمان ومكان) ، وصنف المخاطب في النصّ ، وهذه كلّها عناصر سياقيّة كانت معياراً يمتاز به المكي عن المدني . بل يلحظ أنّ بعض المفسرين يتخذ من سياق الكلام ، وموضوعه أداة يُرجّح بها مكيّة النصّ ، أو مدنيته ، مثاله العلامة الطباطبائي ، إذ ذهب في ترجيحه نزول (سورة الرحمن) في مكة ، معتمداً سياقها ، قال : ((والسورة يحتمل كونها مكية ، أو مدنيّة ، وإن كان سياقها بالسياق المكي أشبه))^(١١) . ويلاحظ أنّ الضوابط ^(١٢) التي وضعوها للمدني موضوعيّة صرفة ، مثل :

- ١- كلّ سورة فيها فريضة ، أو حدّ .
- ٢- كلّ سورة فيها ذكر المنافقين ، سوى سورة العنكبوت .
- ٣- كلّ سورة فيها مجادلة أهل الكتاب .
- ٤- كلّ سورة فيها عبارة (يا أيّها الناس) ، سوى البقرة ، والحج . ويرى الدكتور محمود البستاني أنّ وجود هذه العبارة ليس له علاقة بمكيّة السورة ، أو مدنيّتها ، بل إنّ السياق هو الذي يُحدّد ذلك ، ففي قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ... فَإِنَّ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْجِبَارَةُ أُوْعِدَتْ لِلْكَافِرِينَ﴾^(١٣) ، يقول : ((الحديث هنا ينصبّ جميعاً على الكافرين ، وعلى تشكيكهم بما أنزل الله سبحانه وتعالى على نبيّه p ، ويحذاهم بالإتيان بسورة قرآنيّة ... إذن السياق هو الذي فرض هنا عبارة (يا أيّها الناس) ، وليس كون السورة مدنيّة ، أو مكيّة))^(١٤) . إنّ سياق الحال بين مكة ، والمدينة مختلف ؛ لأنّ المجتمع المكيّ مجتمع كافر بالله ، وبنبوّة الرسول . أمّا أهل المدينة ، فأغلبهم مؤمنون مصدّقون بالرسالة ، فلذا كان حال الدعوة - في مكة - يقتضي تثبيت النبيّ ، وتسليته ، ومجادلة المشركين في أمور الوجدانيّة ، والبعث ، والتحدي بأنّ يأتيوا بمثل القرآن الكريم ، في حين كان حال أهل المدينة - وكان أغلبهم من المؤمنين - يقتضي قبول أمور التشريع في العبادات ، والمعاملات . والأمر المهم -

(١) ينظر : الدلالة السياقية عند اللغويين : ٩٤ .

(٢) كتاب العين : ٢١١ / ١ (شجع) .

(٣) الكتاب : ١٠٢ / ٢ . وينظر : الدلالة السياقية : ٩٤ .

(٤) مجاز القرآن ، مقدمة المحقّق : ١٩ / ١ . وينظر : الدلالة السياقية : ٩٥ .

(٥) المزهّر في علوم اللغة وأنواعها : ٣٩٩ / ١ - ٤٠٠ . وينظر : الدلالة السياقية : ٩٥ .

(٦) أدب الكاتب : ٢٦ . وينظر : الدلالة السياقية : ٩٥ .

(٧) السياق في الفكر اللغويّ عند العرب : ١١٧ .

(٨) البرهان في علوم القرآن : ١١٣ / ٢ .

(٩) ينظر : دلالة السياق : ١٠٣ - ١١٣ .

(١٠) ينظر : الإتيان في علوم القرآن : ٢٤ / ١ - ٣٥ .

(١١) الميزان في تفسير القرآن : ٧٣ / ١٩ .

(١٢) ينظر : البرهان في علوم القرآن : ١٣٦ / ١ ، ومباحث في علوم القرآن : ١٨٣ ، وعلوم القرآن : ٨٥ - ٨٦ ، وموجز علوم القرآن : ١٤٨ ، ودراسات في علوم القرآن الكريم : ١٢٩ .

(١٣) سورة البقرة : ٢١ ، ٢٤ .

(١٤) دراسات في علوم القرآن الكريم : ١٢٩ .

في المدينة المنورة - هو وجود فريقين من غير المؤمنين بالرسالة ، وهم المنافقون ، وأهل الكتاب ، وكان من الأمور الحتمية أن يكون في النص الكريم ذكر لمواقفهم المعادية ، وإنكارهم الرسالة ، وتوجيههم على النبي ^(١) .

السياق في علم اللغة الحديث :

يُستعمل لفظ (السياق) مقابلاً للمصطلح الانكليزي (context) ، الذي يُطلق ويراد به : المحيط اللغوي الذي تقع فيه الوحدة اللغوية سواء أكانت كلمة أم جملة في إطار العناصر اللغوية أو غير اللغوية . ويرى (هاليداى) أن السياق هو : النص الآخر ، أو النص المصاحب للنص . ويُقسم (بروس أنغام) السياق على اثنين : ((أولاً : السياق اللغوي ، وهو ما يسبق الكلمة ، وما يليها من كلمات أخرى ، وثانياً : السياق غير اللغوي : أي الظروف الخارجية عن اللغة التي يرد فيها الكلام))^(٢) . ويؤكد (روبرت دي بوجراند) على أنه ((ينبغي للنص أن يتصل بموقف يكون فيه ، تتفاعل فيه مجموعة من المرتكزات ، والتوقعات ، والمعارف ، وهذه البيئة الشاسعة تسمى سياق الموقف . أما التركيب الداخلي للنص ، فهو سياق البنية))^(٣) . والاهتمام بالسياق اللغوي في العصر الحديث يرجع إلى (دوسوسير) ، الذي أشار إلى أثر المنطوق الكلامي في معرفة معنى المفردة اللغوية ، فقال : ((ويكتسب العنصر قيمته في السنتاخم لأنه يتقابل مع كل ما يسبقه ، أو يأتي بعده ، أو معهما في آن واحد))^(٤) .

علم اللغة النصي والسياق :

من أهم ما يُميّز نظرية النص إزلاها الجملة وحدة تحليل بعدها نظاماً افتراضياً ، واتخاذها النص بعده نظاماً فعالاً ، فينظر إلى النص في هذه النظرية بوصفه تجلياً ((لعمل إنساني ينوي به شخص أن ينتج نصاً ، ويوجه السامعين به إلى أن يبنوا عليه علاقات من أنواع مختلفة))^(٥) . وينظر إلى النصوص في هذه النظرية على أنها تراقب المواقف ، وتوجهها ، في حين ينظر إلى الجملة على أنها ليست ((عملاً ؛ ولهذا كانت ذات أثر محدود في المواقف الإنسانية ؛ لأنها تستعمل لتعريف الناس كيفية بناء العلاقات النحوية فحسب))^(٦) . إن اللغة في المقام الأول جزء من نشاط تواصل / اجتماعي ، ومن ثم إن معرفة السياق الذي تستعمل فيه توضح المعنى الوظيفي للغة ، ويفرض عليها قيمة حضورية معينة . وتبدو أهمية السياق في الكشف عن عملية إنتاج النص واضحة ، وتؤدي إلى عملية فهم النص ، وتفسيره بعد النص واقعة اتصالية يشارك فيها المتكلم / الكاتب ، والمستمع / القارئ في زمان ، ومكان معينين ؛ لذا يكون معنى النص متميزاً سياقياً ، فما يعنيه النص يعتمد على (من) يتلقاه ، ولماذا ، ومتى ، و(من) هو المستمع ، وما موضوع التواصل ، وبأية وسيلة تم التواصل (مكتوبة / منطوقة) ، وما وظيفة التواصل (الإخبار / التعليم / الإقناع) ، فالعلاقة متبادلة بين النص ، والسياق ، إذ يكونان معاً وحدة عمل . فالنص هو اللغة الفعالة في سياق الموقف . ووصف ، أو تفسير سياق الموقف يساعد - إلى حد ما - على التعامل مع المعلومات (في النص المكتوب) ، وفهم المعاني المتبادلة (في الحديث) ، والقدرة على التنبؤ بالمعاني التي ستقال ، مما يسهم في شرح كيفية التفاعل اللغوي بين الناس . ويظهر أثر سياق الموقف في تحقيق الترابط النصي عندما تكون هناك تتابعات ليست مقبولة منطقياً ، ولكنها مقبولة ومترابطة بالنظر إلى السياق الفعلي والبنية الكبرى . فالسياق تجريد لما نعني به الموقف الاتصالي ، وعناصر الموقف الاتصالي هي التي تحدد قبول الكلام المنطوق ، أو عدم قبوله ، وكفايته ، أو عدم كفايته^(٧) . إن السياق يتضمن أحداثاً تعين مناسبة العبارات المتعارف عليها . وجزء من هذه السياقات قد يكون اعتقادات المشاركين ، وثقافتهم ، ومقاصدهم ، وأغراضهم ، والظروف الزمانية ، والمكانية للسياق حتى يمكن قبول تحققها^(٨) . وتوجد مجموعة غير متناهية من السياقات الممكنة ، التي يستطيع أحدها أن يكون له فيها أوضاع مخصوصة ، أي يكون السياق فيها واقعياً ، ويتحدد السياق الواقعي بمدة من الزمان ، والمكان ، وتتحقق النشاطات المشتركة لكل من المتكلم ، والمخاطب ، إذ تستوفي خواص (الآن) ، (هنا) من الوجهة المنطقية والفيزيائية ، والمعرفية . إن العبارة قد تكون مناسبة لثقافة في سياق محدد ، وتكون غير لائقة ، ولا ملائمة في سياق آخر . ولعل ما قاله (براون) ، و(بول) يشير إلى ذلك بشكل مباشر ، وصريح ، قالا : ((ومن الوحدات اللغوية التي تطلب أكثر من غيرها معلومات عن السياق لتيسير فهمها نورد الأدوات الإشارية مثل : هنا ، الآن ، أنا ، أنت ، هذا ، ذلك ... وغيرها فإذا أردنا أن نفهم مدلول هذه الوحدات إذا ما وردت في مقطع خطابي ، استوجب ذلك منا - على الأقل - معرفة هوية المتكلم ، والمتلقي ، والإطار الزمني ، والمكاني للحديث اللغوي))^(٩) . إن الذي اختارته نظرية النص هو هو عد النص منجزاً قولياً حقيقياً للمتكلم ، وبهذا تواءمت مع نظرية السياق ، التي تعول على استكناه المعنى من السياق . فالنصيون يرون أن واحداً من المعايير التي يهدفون في دراساتهم إلى تطبيقها بما يقود إلى القول بنصية النص هو رعاية الموقف ، إذ تتضمن هذه الرعاية العوامل التي تجعل النص مرتبطاً بموقف سائد يمكن استرجاعه . ويرى هاليداى أن مفهوم السياق مع النص يكونان وجهين لعملة واحدة على النحو الذي يكون فيه السياق هو ((النص الآخر ، أو النص المصاحب للنص الظاهر ، والنص الآخر لا يشترط أن يكون قولياً ، إذ هو يمثل البيئة الخارجية للبيئة اللغوية بأسرها ، وهو بمثابة

(١) ينظر : دلالة السياق : ١١٤ - ١١٥ .

(٢) دلالة السياق : ٥١ .

(٣) النص والخطاب والإجراء : ٩١ . وينظر : دلالة السياق : ٥١ .

(٤) علم اللغة العام : ١٤٢ ، محاضرات في علم اللسان العام : ١٨٢ ، وينظر : سورة البقرة دراسة في ضوء علم لغة النص : ٤٦ .

(٥) النص والخطاب والإجراء : ٩٢ . وينظر : دلالة السياق : ٢٣٧ .

(٦) النص والخطاب والإجراء : نفسها .

(٧) ينظر : علم النص ، مدخل متداخل الاختصاصات : ١١٦ ، وعلم لغة النص ، النظرية والتطبيق : ١ .

(٨) ينظر : النص والسياق : ٢٥٧ .

(٩) نحو النص ، اتجاه جديد في الدرس النحوي : ٥٠ .

الجسر الذي يربط التمثيل اللغوي ببيئته الخارجية^(١))). ويرى أحد الباحثين الغربيين أن للسياق دوراً مزدوجاً ((إذ يحصر مجال التأويلات ... ويدعم التأويل المقصود))^(٢) ، ولهذا السياق - عنده - خصائص ، يُمكن تصنيفها على^(٣) :

- ١- المرسل : هو المتكلم ، أو الكاتب الذي ينتج القول .
- ٢- المتلقي : هو المستمع ، أو القارئ الذي يتلقى القول .
- ٣- الحضور : هم مستمعون آخرون يساهم وجودهم في تخصيص الحدث الكلامي .
- ٤- الموضوع : هو مدار الحدث الكلامي .
- ٥- المقام : هو زمان ، ومكان الحدث التواصل .
- ٦- القناة : كيف يتم التواصل بين المشاركين في الحدث الكلامي : كلام - كتابة - إشارة .
- ٧- النظام : اللغة ، أو اللهجة ، أو الأسلوب اللغوي المستعمل .
- ٨- شكل الرسالة : ما هو الشكل المقصود : درشة - جدال - عظة ...
- ٩- المفتاح : يتضمن التقويم : هل كانت الرسالة موعظة حسنة - شرحاً مثيراً للعواطف .
- ١٠ - الغرض : أي أن ما يقصده المشاركون ينبغي أن يكون نتيجة للحدث التواصل .

هذه الخصائص هي جملة الأركان للحدث الاتصالي ، وعلاقته الخارجية / المقام ، مع الاهتمام بالموضوع ، والشكل ، وهو ما لم يغفل في الدراسات اللغوية^(٤) . ويجعل محمد خطابي السياق واحداً من مبادئ انسجام النص ، وهو مبدأ لا يقوم إلا بما في النص مما يُحيل على خارجه في عملية الاتصال من علامات لغوية للزمان ، والمكان ، والتكلم ، والحضور ، وغيرها . ويظهر من ذلك أن دراسة النص تستلزم النظر في سياق الموقف بطريقة مزدوجة الاتجاه ، فهي تقدم للنص مسوغ وجوده ، وقصديته ؛ كونه سابقاً له ، ونزوع المتكلم منه ، وهي في الوقت نفسه تكون المسوغ الدلالي للنص ، وفهمه واستجابة المخاطب له^(٥) .

أنواع السياق :

اختلف علماء اللغة المحدثون في تقسيم السياق ، ولكثهم جميعاً لا يخرجون عن قسمين ، وجميع التقسيمات التي وضعوها ترجع إليهما بطريقة أو بأخرى ، وهذان القسمان هما : السياق اللغوي ، والسياق غير اللغوي . أما الأنواع التي قسّموا عليها قسمي السياق ، فهي :

السياق اللغوي : هو تجسيد للتتابعات اللغوية في الخطاب ، من الوحدات الصوتية ، والصرفية ، والمعجمية ، وما بينها من علاقات في التركيب ، والترتيب^(٦) . فالعنصر اللغوي هو ما يبين نوع السياق . والسياق الصوتي أقل حدود السياق في النص ، وحين تكون الكلمة هي العنصر المطلوب تحليله ، فإن حدود السياق تمتد إلى ما هو أكبر منها ، وهي الجملة ، وهكذا^(٧) ؛ ولذا قد قسموه على أقسام ، هي : السياق الصوتي ، والسياق الصرفي ، والسياق التركيبي / النحوي ، و السياق المعجمي .

السياق غير اللغوي : هو ((مجموع الظروف الاجتماعية ، أو العلاقات الاجتماعية التي يُمكن أن تؤخذ بنظر الاعتبار لدراسة العلاقات الموجودة بين السلوك الاجتماعي ، والسلوك اللغوي ، وهو الجو العام الذي يتم فيه الحدث الكلامي ، فهو يشمل الزمان ، والمكان ، والمتكلم ، والسامع ، والأفعال التي يقومون بها ، ومختلف الأشياء ، والحوادث التي لها صلة بالحدث الكلامي ، ويتسع السياق ليشمل المعرفة المشتركة بين المتكلم ، والسامع لكل ما له علاقة بفهم المنطوق ، كما يتسع ليشمل القبول الضمني من قبل المتكلم ، والسامع لكل الأعراف التي لها علاقة بالموضوع ، والاعتقادات ، والمسلمات السابقة المعتمدة بها من قبل الجماعة اللغوية التي ينتمي إليها المتكلم ، والسامع . فالسياق هو كل عامل يؤثر في تفسير التعبير ، أو هو الأجزاء المحذوفة من السياق اللغوي))^(٨) ، وقد قسموه على :

السياق العاطفي / النفسي : ويحدد هذا السياق الأثر النفسي في الحدث الكلامي ، مما يقتضي تأكيداً ، أو اعتدلاً ، أو مبالغةً ، من ذلك استعمال كلمة (يكره أو يبغض) في سياقات معينة ، فتعبر كل منهما عن الحالة العاطفية ، أو النفسية للشخص في حال استعماله لأي منهما ؛ لأن الأداء اللغوي قصد من المرسل ، فهو يُعبر عن الحالات الذهنية ، والنفسية ، وهذه الحالات مناط اهتمام الوصف ، والتفسير التداولي ، بوصفها السياق النفسي لإنتاج اللغة ، وفهمها .

سياق الموقف / المقام : يوقر سياق الموقف ، أو المقام جزئياً بعض العوامل ، أو المحددات التي تسهم في تحديد معاني التعبيرات اللغوية . فمعرفة الظروف الخارجية التي أنجز الفعل اللغوي تساعد في تنوير القارئ / الباحث في توجيه المعنى ، وتحديدده . فالفاظ الزمان ، والمكان لا يُمكن لأحد أن يتعرف إلى معناها ما لم يكن محيطاً بظروف الموقف الذي حدث فيه الفعل اللغوي .

السياق الثقافي / الوجودي : إن التتابعات اللغوية ، أو الدلالية تكتسب معانيها من علاقاتها بمراجعها ، ويتم الانتقال من الدلالة إلى التداولية عندما يدرك أن المرسل ، والمرسل إليه ، وكذلك موقعهم الزماني ، والمكاني هي مؤشرات للسياق الوجودي ، وعندما توضع هذه الإشارات في

(١) دلالة السياق : ٢٤٠ .

(٢) لسانيات الخطاب : ٥٢ .

(٣) ينظر : المصدر نفسه : ٥٣ .

(٤) دلالة السياق : ٢٤٢ .

(٥) المصدر نفسه : ٢٤٤ .

(٦) ينظر : استراتيجيات الخطاب : ٤٠ - ٤١ .

(٧) ينظر : دلالة السياق : ٥٣ .

(٨) نظرية المقام عند العرب في ضوء البراهمية : ٢٠ .

الحسبان ، فإنه يُمكن وصف معنى التعبيرات اللغوية إشارياً . فمثلاً كلمة (جذر) يتم التعرف على معناها المقصود إذا عرفنا أنَّ مستعملها هو (عالم لغة ، أو عالم رياضيات ، أو مزارع) . فكل واحد منهم قد استعملها بمعنى يختلف عن الآخر لاختلاف المرجعية الثقافية لكل واحد منهم ^(١) .

عناصر السياق :

يقضي السياق عناصر عدّة منها ما هو ذاتي ، يتعلّق بمعتقدات المتكلّم ، واهتماماته ، ورغباته ، ومقاصده ، ومنها ما هو موضوعي ، يتعلّق بالوقائع الخارجية التي تمّ القول فيها ، وهي الظروف الزمانية والمكانية . أمّا العنصر الشخصي الآخر ، فهو المخاطب . والمعرفة المشتركة بين المتخاطبين لها أثر كبير في تحليل النصّ ، ومعرفة المعنى المطلوب . ومن ذلك يتبيّن أنَّ السياق يتمثّل فيما يُمكن أن يُسمّى الجوّ الخارجي الذي يحيط بإنتاج الخطاب ، من ظروف ، وملابس ، وما بينهما من علاقة ، العنصر الشخصي ، فيُعدّ من أهمّ عناصر السياق ، ويُمثله طرفا الخطاب : المرسل ، والمرسل إليه ، وما بينهما من علاقة ، زيادةً على مكان الحدث الكلامي ، وزمانه ، وما فيه من شخوص ، وأشياء ، وما يُحيط بهما من عوامل حياتية : اجتماعية ، وسياسية ، وثقافية ، وأثر التفاعل الخطابي في أطراف الخطاب الأخرى . ولا يقتصر أثر عناصر السياق على لحظة التلقظ فقط ، بل يمتدّ إلى ما سبق الخطاب ، وكذلك ما لحقه ^(٢) .

المرسل : الخطاب نتاج المتكلّم ، فهو يعبر عن مقاصده ، ويُجسّد ذاته فيه ، ولا يُمكن للغة الطبيعية أن تنتج ، وتُمارس دورها الحقيقي إلا بالاستعمال ، الذي تُصبح به اللغة موجودة بالفعل بعد أن كان وجودها بالقوّة فقط ، ويكون وجودها ذا فعل مناسب للسياق . فالمرسل هو الذي وُفّق مستويات اللغة المتميزة بتفعيلها في نسيج خطابه ، إذ لا يكون هذا الخطاب ذا معنى إلا إذا نطقه ، وتواصل به مع الناس . وبهذا التلقظ ينقل المرسل اللغة من المستوى التنظيري إلى المستوى التطبيقي . ولا يقتصر حضور ذات المرسل على لحظة الفعل الخطابي ، فقد يرتبط بقاؤه ببقاء الخطاب ^(٣) .

المرسل إليه : يوجّه المرسل خطابه إلى طرف آخر ، وهو المرسل إليه ، عمداً . وقد أشار البلاغيون القدماء إلى تأثير المرسل بالمرسل إليه عند إنتاج الخطاب . فبناء الخطاب مرهون إلى حدّ كبير بمعرفة مقامه ، أو بافتراض ذلك المقام . فالعناية بدءاً موجهة إلى المرسل إليه ، وكذلك فيما يُعرف بالمحسنات البديعية بوصفها تحقّق هدف مرسل الخطاب ، وذلك بالتأثير من خلاله . وعند إنتاج الخطاب يكون المرسل إليه حاضراً في ذهن المرسل ، سواء أكان ذلك الحضور عينياً أم ذهنيّاً ، وهذا الحضور هو ما يُسهم في فاعلية الخطاب ، ويمنحه أفقاً لممارسة أسلوب خطابه ^(٤) .

العناصر المشتركة : ولا يقتصر السياق على أحد طرفي الخطاب بمعزل عن الطرف الآخر ، أو بمعزل عن محيطهما ، فالعلاقة بينهما ، والمعرفة المشتركة من أهمّ العناصر السياقية التي تؤثر في تحديد أسلوب الخطاب المناسب ، الذي يجب أن يراعيه المرسل دوماً عند إنتاجه للخطاب ، وذلك بوصفه مُحدّداً سياقياً ، وله دوره الكبير في إنجاح عملية التواصل . وتُعدّ المعرفة المشتركة الأرضية التي يعتمد عليها المرسل عند إنتاج خطابه ، إذ ينطلق منها في عملية الإنجاز اللغوي ، ويُعوّل عليها المرسل إليه في تفسير الخطاب . ويُمكن أن تنقسم هذه المعرفة إلى :

أ- معرفة عامة بالعالم ، ومعرفة كيف يتواصل الناس مع بعضهم ، وكيف يفكرون ، وكيف ينجزون أفعالهم اللغوية .

ب- المعرفة بنظام اللغة في كلّ مستوياتها ، وبالأخصّ دلالاتها ، وعلاقتها بثقافتها .

ت- حضور المعرفة التداولية للغة ، التي يكون لها أثر في التفاعل الاجتماعي ^(٥) .

السياق اللغوي في السور المدنية :

السياق الصوتي :

إنّ هدف السياق الصوتي هو الوصول إلى المعنى المطلوب من الصوت في النصّ ^(٦) . وهناك قرائن صوتية كثيرة تساعد على توضيح المعنى ، لعلّ من أهمّها : التنغيم ، والنبر ، والفصل والوصل والحركات ^(٧) . إنّ السياق الصوتي المطلوب في هذا المبحث ، ليس السياق الذي يُحدّد طريقة نطق صوت معيّن في بناء معيّن لكلمة ، مع موازنة اختلافه في النطق مع الصوت نفسه في بناء آخر ، مثل أن نقول : ((النون في (نهر) من الناحية الصوتية الخالصة ، أي من حيث تكوينها الفسيولوجي غير النون في (مذك) ، و(عذك))) ^(٨) . بل يبحث في السياق الصوتي الذي يؤثّر البناء الصوتي للكلمة فيه في المعنى المطلوب من النصّ ، والبحث عن الفارق المعنوي الذي يُستنبط من النصّ عند نطق الصوت بطريقة ، أو تغيير نطقه إلى أخرى .

التكرار الصوتي للحرف في النصّ : للصوت علاقة قوية بالمعنى ، وتكرار بعض الأصوات في سياقات معيّنة يوحي بمعان معيّنة ، توضّح الدلالة المراد إظهارها ، وتنبّه المتلقي إليها . ويظهر ذلك بوضوح في آيات الجهاد من السور المدنية ، المبينة لاحتدام المعارك ؛ لذلك يكثر تكرار حرف (القاف) ، ليشكل مظهراً أسلوبياً ^(٩) ، لا تكاد تخلو آية تُصوّر المعركة منه ، كقوله تعالى : ﴿ وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَكَوْنُوا سَوَاءً فَلَا تَنَجُّوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخَنَوْهُمْ وَافْلَحُوا دَيْتٌ وَجَدْنَاهُمْ وَلَا نَنجِيهِمْ ﴾

(١) ينظر : علم الدلالة : ٧١ .

(٢) ينظر : استراتيجيات الخطاب : ٤٤ - ٤٥ .

(٣) ينظر : استراتيجيات الخطاب : ٤٥ - ٤٧ .

(٤) ينظر : المصدر نفسه : ٤٧ - ٤٨ .

(٥) ينظر : استراتيجيات الخطاب : ٤٨ - ٥١ .

(٦) ينظر : الدلالة السياقية عند اللغويين : ٥٤ .

(٧) ينظر : المصدر نفسه : الصحيفة نفسها .

(٨) علم اللغة ، مقدمة للقارئ العربي : ١٩٤ .

(٩) ينظر : السور المدنية ، دراسة أسلوبية : ١٣٣ - ١٣٤ .

مَهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا إِلَّا الَّذِينَ يَصُدُّونَ إِلَى قَوْمِ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِثْقَالُ أَوْجٍ جَاءُوكُمْ حَصِيصَ صُدُورِهِمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَ هُمْ عَلَيْكُمْ فَقَاتَلُوكُمْ فَإِنْ اعْتَرَفُوكُمْ قَدْ يَقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقُوا إِلَيْكُمْ السَّلَمَ هَذَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿١﴾ فصوت (القاف) يمتاز بالجهر ، والشدة ، وهو من الحروف المانعة لإمالة الألف ، أي الحروف المستعلية ، أو المفخمة (١) ، وهذه الصفة تناسب جو المعركة ذي الوطأة الشديدة ، وقراع السيوف (٢) ، ومثله صوت الراء في نحو قوله تعالى : ﴿ قُمْ تَعْلَمُ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَلْبُهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٣) ، إذ تكرر صوت (الراء) ثلاث مرات ، وصفة هذا الصوت أنه مجهور ((مكرر بضرب اللسان معه ضربات متتالية)) (٤) ، وهي صفة توحى بهيأة الرمي شدته ، وكثافته ، وتكراره ، كما يتكرر الصوت المنطوق به (٥) .

جرس الألفاظ : تعرف المحاكاة الصوتية بأنها ((عملية تجسيد الصوت للمعنى ، فيكون الشكل بذاته دالاً على مضمونه)) (٦) . ولجرس الألفاظ دلالة توحى بمعناه الذي تحمله ، وهذا الجرس يتناغم مع السياق الكلامي الذي تقع فيه ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنَاقْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ هَذَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ (٧) . فقد أوحى التعبير ((أنأقتم إلى الأرض)) بمعنى ثقل الأرض ، ومطامعها ، وطلب الحياة ، والمال ، واللذائذ ، وألقى - بجرس ألفاظه - كل هذه الظلال ، التي تمثل الجسم الثقيل المسترخي ، الذي يزيد حبه للحياة من ثقل وزنه ، وإخلاده إلى الأرض كي لا يترك هذا المكان ، الذي فيه مأمنه ، ونجاته (٨) . ومثله قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِنْكُمْ لِلْإِيطُنِّ قَارِئًا صَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا نَعْمَ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا ﴾ (٩) ، ففي الآية الكريمة يظهر الفعل ((لِإِيطُنِّ)) سعي المنافقين لتعويق مسيرة المجاهدين ، فاللفظة تشعر بما فيها من ثقل ، وتعثر يحكي تباطؤ هؤلاء المعوقين عن اللحاق بالمحاربين ، وإثنا لتصور تصويراً فنياً الحركة الجسدية المصاحبة بهذا التعثر ، والتثاقل في نطقها (١٠) . ومنها أيضاً قوله تعالى : ﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّخَتَا ﴾ (١١) . فقد استعمل ((النضخ) ، ولم يستعمل ((النضج) ؛ وذلك للدلالة على قوة الماء المندفع من العين ، قال ابن جني : ((فجعلوا الحاء لرقها للماء الضعيف ، والحاء لغظها لما هو أقوى منه)) (١٢) ، وفي استعمالها ما يدل على قوة الماء ، وهذه القوة مناسبة للسياق الذي وردت فيه هذه المفردة ، وهو سياق وصف الجنة التي وعد بها المؤمنون ، فـ ((النفس إذا رأث الماء يفور كان أمتع)) (١٣) ، فوعدهم بكل ما يبعث على السرور لنفوسهم . ومنه قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَتْهُمُ بِصُدُونٍ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴾ (١٤) . إذ استعمل لفظ الفعل المشدد ((لَوَّوْا) ، فتشديد صوت (الواو) مع تكراره يحكي الصورة التي كانوا عليها ، وهم يحركون رؤوسهم في حركة دائرية تعبر عن تمتعهم عن الحضور أمام الرسول ﷺ من دون أن يبينوا ردّهم في كلام منطوق يفضح سرانثرهم المريضة بالكبرياء ، والصدود عن طاعة الأمر الإلهي . وقد فسّر بعض العلماء هذا الفعل بأنه ((استهزاء بدعائهم إلى ذلك)) (١٥) ، وفسّره آخرون بأنهم ((عطفوها ، وأمالوها إعراضاً عن ذلك ، واستكباراً)) (١٦) . ويلحظ أنه قد جرس الكلمة ثقيل النطق على اللسان ، فيستعمل ما يؤدي معناه من دون إخلال بالفصاحة ، والبيان ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ (١٧) ، فقد وردت كلمة (السماء) في النص القرآني مفردة ، وجمعاً ، ولم تجمع كلمة (الأرض) في القرآن مطلقاً ، ويبين الرافعي سبب ذلك ، بقوله : ((عكس ذلك لفظة (الأرض) فإنها لم ترد فيه إلا مفردة ، فإذا ذكرت السماء مجموعة جيء بها مفردة في كل موضع منه ، ولما احتاج إلى جمعها أخرجها على هذه الصورة التي ذهب بسرّ الفصاحة ، وذهب بها ، حتى خرجت من الروعة بحيث يسجد لها كل فكر سجدة طويلة ... ولم يقل : سبع أرضين لهذه الجساء التي تدخل اللفظ ، ويختل بها النظم اختلالاً)) (١٨) .

تغير حركة آخر الكلمة : جاءت القراءات القرآنية في النص الكريم موافقة لقواعد العربية ، فجاءت أواخر الكلمات منتهية بالحركة الإعرابية التي تعارف عليها العرب في كلامهم ، ولم يشدّ منها إلا القليل من القراءات الموثوقة ، وكان لشذوذها أثر معزّي تركه السياق في تلك الحركة ، فجعل لفظها مخالفاً للقاعدة النحوية التي وضعها علماء العربية وفقاً لمسموعهم من كلام العرب . من ذلك تحريك (هاء) الضمير المذكور بعكس القاعدة النحوية المعمول بها ، فالقاعدة تقتضي أن

(١) سورة النساء : ٨٩ - ٩٠ .

(٢) ينظر : الكتاب : ٤ / ٤٣٤ .

(٣) ينظر : السور المدنية ، دراسة أسلوبية : ١٣٤ .

(٤) سورة الأنفال : ١٧ .

(٥) دراسة الصوت اللغوي : ٣٤٠ .

(٦) ينظر : السور المدنية : ١٣٤ .

(٧) جماليات المفردة القرآنية : ٢٢٢ .

(٨) سورة التوبة : ٣٨ .

(٩) ينظر : في ظلال القرآن : ٣ / ١٦٥٥ . وينظر : السور المدنية ، دراسة أسلوبية : ١٢٦ .

(١٠) سورة النساء : ٧٢ .

(١١) ينظر : في ظلال القرآن : ٢ / ٧٠٥ . وينظر : التطور الدلالي بين لغة الشعر ولغة القرآن : ٨٣ - ٨٤ ، والسور المدنية ، دراسة أسلوبية : ١٢٧ .

(١٢) سورة الرحمن : ٦٦ .

(١٣) ينظر : الخصائص : ٢ / ١٥٨ .

(١٤) التبيان في تفسير القرآن : ٩ / ٣٨٧ .

(١٥) سورة المنافقون : ٥ .

(١٦) التبيان في تفسير القرآن : ١٠ / ١٢ .

(١٧) تفسير الكشاف : ٤ / ٥٢٩ .

(١٨) سورة الطلاق : ١٢ .

(١٩) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية : ١٦٥ .

تكون ((حركة هاء المذكر ضمة إلا أن يكون قبلها ياءً ، أو كسرة . فإن كان قبلها أحدهما ، فأهل الحجاز يُيقون ضمّتها ، ويقولون : بهو ، ولديه ، وغيرهم يكسرونها))^(١) . وقد وردت بعض القراءات موافقة لهجة أهل الحجاز ، من ذلك قراءة قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ هُمْ تَكْتُفًا يُكْتُفَى عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمِنْ بَيْنِ يَدَيْهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾^(٢) ، قرأ حفص (عليه) بالضم ، وقرأ باقي القراء بالكسر^(٣) . ورأى الدكتور فاضل السامرائي أن في هذه القراءة دلالة تعبير ، جاءت متناسبة مع سياق الكلام الواردة فيه ، فقد استعمل القارئ حركة ((الضمة التي هي أثقل الحركات للدلالة على ثقل هذا العهد وعظمته ، وذلك من جملة نواحي منها :

- ١- أنه قال : (إن الذين يبايعونك) ، وهذه البيعة كانت يوم الحديبية ، وكانت بيعة على الموت في نصرة الرسول ٦ ونصرة دينه . والبيعة على الموت أشد أنواع البيعات وأقواها .
- ٢- وقال : (إنما يبايعون الله) ، وهذا تعظيم لهذه البيعة التي يكون فيها الله هو الطرف المبايع .
- ٣- وقال : (يد الله فوق أيديهم) ، وهذا تأكيد لما قبله ، وتوثيق لأمر هذه البيعة العظيمة .
- ٤- حذر من نكت هذه البيعة ، ونقض هذا العهد ، وقال : إن ضرر نكته يعود على الناكث نفسه .
- ٥- وكرر أن من أوفى بهذا العهد سيؤتيه الله أجراً عظيماً . فهو كما ترى عهد عظيم ثقل ، فناسب أن يأتي بأثقل الحركات ، وهي الضمة المجانسة لثقل هذا العهد . ثم إن الضمة يُطلق معها لفظ الجلالة بتفخيم اللام ، بخلاف الكسرة ، فإنها يُطلق معها لفظ الجلالة بترقيق اللام ، فجاء بالضم ليتفخّم النطق بلفظ الجلالة إشارة إلى تفخيم العهد ، فناسب بين تفخيم الصوت ، وتفخيم العهد^(٤) .

الفاصلة القرآنية: عرّف الرماني [ت ٣٨٦هـ] الفواصل بأنها ((حروف متشابهة في المقاطع ، توجب حسن الإفهام))^(٥) ، أو هي : ((كلمة آخر الآية ، ككافية الشعر ، وقرينة السج))^(٦) . ولها قيمة موسيقية عالية ، فهي تعطي الآية جرساً موسيقياً مناسباً ، وقد أخذ اسمها من عملها ؛ ((لأنه ينفصل عندها الكلامان ، وذلك أن آخر الآية فصل بينها ، وبين ما بعدها))^(٧) . ونوع الفاصلة في السور المكية مختلف عما كان في السور المدنية تبعاً لطبيعة النوعين ، لذا كانت الفواصل أحد الفروق الأسلوبية بين العهدين (المكي ، والمدني)^(٨) . وهذا الاختلاف يعود إلى اختلاف الموضوعات التي تناولتها السور المدنية ، والتي يغلب عليها طابع التشريع ، والجهاد ، والقوانين التي تنظم حياة المجتمع المسلم ، زيادة على ذلك فهناك مجادلة أهل الكتاب ، وفصح أحوال المنافقين ، كلّ هذه الأمور مجتمعة أدّت إلى أن لا تكون ((العناية بالفاصلة كالعناية بها في نظيرتها))^(٩) المكية فظراً لطول الآيات المدنية ، فقد كانت الفواصل متباعدة ، وتغلب فاصلتنا النون ، والميم على فواصلها^(١٠) . إن بحث الفاصلة القرآنية يُعدّ بحثاً في البلاغة ، أو الإعجاز أكثر من كونه تفسيراً مباشراً لمفاهيم الآية . وأهمّ يميز الفاصلة القرآنية المناسبة بينها ، وبين موضوعها^(١١) . فقد أفضى البحث في الفاصلة القرآنية إلى الكشف عن السمات البلاغية فيها ، من ذلك العلاقة النصية / المعجمية بين الفاصلة ، والآية السابقة لها ، تتمثل فيما سمّوه : التمكين ، والتوشيح ، والإيغال ، والتصدير ، وكلّها تبحث في الترابط بين معنى الآية ، وتوافقه مع خاتمتها . وعند البحث في هذه الوجوه ، والتعريف بها ، يُلاحظ ما يأتي :

- ١- **التمكين :** ((وهو أن تمهّد قبلها تمهيداً تأتي به الفاصلة ممكنة في مكانها ، مستقرّة في قرارها ، مطمئنة في موضعها غير نافذة ، ولا قلقة ، متعلّقة معناها بمعنى الكلام تعلّقة تامّة بحيث لو طرحنا لاختلّ المعنى ، واضطرب الفهم))^(١٢) . منه قوله تعالى : ﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَظِيمِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴾^(١٣) . يُلاحظ أن ((الكلام لو اقتصر فيه على قوله (وكفى الله المؤمنين القتال) لأوهم ذلك بعض الضعفاء موافقة الكفار في اعتقادهم أن الريح التي حدثت كانت سبب رجوعهم ، ولم يبلغوا ما أرادوا ، وأن ذلك أمر اتقاهي ، فأخبر سبحانه في فاصلة الآية عن نفسه بالقوة ، والعزة ؛ ليعلم المؤمنين ، ويزيدهم يقيناً ، وإيماناً على أنه الغالب الممتنع))^(١٤) .
- ٢- **التوشيح :** وهو ((كون نفس الكلام يدل على آخره ... وتعلم الفاصلة فيه قبل ذكرها))^(١٥) . من ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾^(١٦) ، ((فإن معنى اصطفاء المذكورين يعلم منه الفاصلة ، إذ المذكورون نوع من جنس العالمين))^(١٧) .

(١) شرح الرضي على الكافية : ٢ / ٤٢١ ، وينظر : همع الهوامع : ١ / ١٩٦ ، وبلاغة الكلمة في التعبير القرآني : ١١٤ .

(٢) سورة الفتح : ١٠ .

(٣) ينظر : السبعة في القراءات : ٦٠٣ ، التذكرة في القراءات : ٤٧٥ .

(٤) بلاغة الكلمة في التعبير القرآني : ١١٦ .

(٥) النكت في إعجاز القرآن : ٨٩ .

(٦) البرهان في علوم القرآن : ١ / ٥٢ .

(٧) البرهان في علوم القرآن : ١ / ٥٢ .

(٨) السور المدنية ، دراسة أسلوبية : ١٣٦ .

(٩) المصدر نفسه : ١٣٦ .

(١٠) المصدر نفسه : الصحيفة نفسها .

(١١) ينظر : دلالة السياق : ١١٧ - ١١٨ .

(١٢) البرهان في علوم القرآن : ١ / ٧٠ . وينظر : دلالة السياق : ١١٨ .

(١٣) سورة الأحزاب : ٢٥ .

(١٤) البرهان في علوم القرآن : ١ / ٧٠ . وينظر : دلالة السياق : ١١٨ .

(١٥) البرهان في علوم القرآن : ١ / ٨٤ .

(١٦) سورة آل عمران : ٣٣ .

(١٧) البرهان في علوم القرآن : ١ / ٨٤ . وينظر : دلالة السياق : ١١٩ .

٣- (الإيغال: ((سُمِّيَ به لأنَّ المتكلم قد تجاوز حدَّ المعنى الذي هو أخذ فيه ، وبلغ إلى زيادة على الحد))^(١). نحو قوله تعالى : ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا يَقُومَ يُوقِظُونَ ﴾^(٢) ، قال الزركشي : ((فإنَّ الكلام تمَّ بقوله (ومن أحسن من الله حكماً) ، ثم احتاج فاصلة تناسب القرينة الأولى ، فلمَّا أتى بها أفاد معنى زائداً))^(٣).

٤- التصدير : وهو ((ما توافق فيه صدر الآية ، والفاصلة لفظاً))^(٤)؛ وقد ضرب الزركشي مثلاً له ، قوله تعالى : ﴿ قَالِ لَهُمْ مُوسَى وَيَكُنْ لَكُمْ آيَاتِي مِنْ أَنْبَاءِ الْآيَاتِ ، وَبَيْنَ السُّورِ . وَفَانَدَى عِلْمَ الْمَنَاسِبَاتِ - كَمَا يُشِيرُ إِلَيْهَا الزركشي - «جعل أجزاء الكلام بعضها أخذاً بأعناق بعض ، فيقوى بذلك الارتباط ، ويصير حاله حال (الأكيد) البناء المحكم المتلائم))^(٥).

وإذا كان الأمر كذلك من الربط بين الصدور ، والفواصل في الآيات ، فإنَّ ذلك لا يكون إلا من خلال دراسة نصية لسياق الآية ، وعلاقة أولها بآخرها ، أو بعبارة أكثر وضوحاً العلاقة بين المفاهيم المصدرة بها الآية مع الفاصلة ممَّا هو من باب المناسبة. هذه المناسبة السياقية ذات المنحى الدلالي بين أول الآية ، وآخرها بلغ بها بعض المفسرين مبلغاً تجاوز علاقة التناسب بين الآية ، وخاتمتها إلى العلاقة بين الآيات ، وبين السور . وفائدة علم المناسبات - كما يشير إليها الزركشي - «جعل أجزاء الكلام بعضها أخذاً بأعناق بعض ، فيقوى بذلك الارتباط ، ويصير حاله حال (الأكيد) البناء المحكم المتلائم))^(٦).

ولعلَّ ممَّا يتعلَّق بمبحث الفاصلة ، ما يُلاحظ من تعطيل - إنَّ صحَّ التعبير - للقاعدة النحوية ؛ من أجل الحفاظ على وحدة الفاصلة القرآنية في موضع ، والأخذ بالقاعدة النحوية في موضع آخر ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَرْوَاجَكُمْ لِلنَّارِ نَظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ تَلْكَمُ قُلُوبُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴾^(٧) ، مقارنة مع قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَا أَطْعَمْنَا سَادَتَنَا وَكِبْرَاءَنَا فَأَصْلَوْنَا السَّبِيلَا ﴾^(٨) . فقد

جاءت كلمة (السبيل) بغير مدِّ في الآية الأولى ، وجاءت في الآية الأخرى (السبيل) بالمدِّ . وهذا المدُّ في أصله يلحق الأسماء النكرة حين تكون منصوبة ، فيلحقها تنوين الفتح على الألف ، ثم تقرأ بإطلاق اللفظ بمدِّ الألف من دون التنوين . قال ابن يعيش : إنَّ ((الألف قد تلحق المنصوب مع الألف واللام في القوافي ، ورؤوس الآي))^(٩) . واللافت هنا أنَّ الكلمة نفسها ، قد جاءت ممدودة في موضع ، وغير ممدودة في موضع آخر ، وقد أرجع الدكتور فاضل السامرائي السبب إلى مقام كلٍّ منهما ، فالآية الأولى ((إنما هي قول الله مقررًا حقيقة عقلية معلومة ... فالمقام لا يقتضي المدَّ ههنا))^(١٠) . في حين أنَّ الآية الثانية ((من قول أهل النار ، وهم يصطرخون فيها ، ويمدون أصواتهم بالبكاء ... فالمقام هنا مقام صراخ ومدِّ صوت فناسب المدَّ))^(١١) . ومثلها قوله تعالى : ﴿ إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ قَرْيَةٍ مِنْكُمْ أَرْسِلْ مِنْكُمْ رِجُلًا وَارْعَ الْأَبْصَارَ وَبَلَّغِ الْقُلُوبَ الْخَاجِرَ يَا اللَّهُ الظُّلُمَاتِ ﴾^(١٢) . فقد مدَّ (الظنون) وأطلقها ؛ ((لأنهم ظلُّوا ظنوناً كثيرةً مختلفةً ، فأطلقها في الصوت مناسبةً لتعددها وإطلاقها ... والمؤمنون ههنا في موقف ضيق وخوفٍ شديدين ، وزلزلة عظيمة ، كما أخبر عنهم ربنا ، فغرتهم الظنون ، وشرقوا ، وغربوا فيها ، فأطلق الصوت مناسبةً لإطلاق الظنون ، وتعددها))^(١٣).

ومن تعطيل القاعدة النحوية - أيضاً - ما جاء في النصِّ الكريم من تقديم المفعول به ، وهو الضمير المتصل (ياء المتكلم) ، وهو ما استدعى قبل تقديمه نون الوقاية فاصلاً بين الضمير ، والفعل كي تقي الفعل من الكسر^(١٤) ، لكنه أصبح ضميراً منفصلاً عند تقدُّمه على فعله ، وكان ذلك يوجب حذف (نون الوقاية) ؛ لانتفاء الحاجة إليها بعد تقدُّم الضمير ، ولكن الاستعمال القرآني أبقي هذه النون ؛ رعاية للفاصلة القرآنية ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اتَّكِرُوا نِعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُون ﴾^(١٥) . فالفعل (فارهبون) نصب الضمير المتصل (الياء) التي حُذفت ؛ ((لأنها في رأس آية ، ورؤوس الآيات يُنَوَّى الوقف عليها ، والوقوف على الياء يُستتَل ، فاستغنوا عنها بالكسرة))^(١٦) . ويُلاحظ اختلاف العلماء في الضمير المقدم ، هل هو الضمير نفسه الذي تدلُّ عليه حركة الكسر في الفاصلة ؟ أو إنه ضمير آخر . فالزمخشري يرى أنه عين الضمير المتأخر ، وقد جاء بهذا الاستعمال ؛ لأنه ((أوكد في إفادة الاختصاص من (إيَّاك نعبد)))^(١٧) . وردَّ أبو حيان قول الزمخشري ، بقوله : ((إنَّ الكلام جملتان في التقدير ، و(إيَّاك نعبد) جملة واحدة ، والاختصاص مستفاد عنده من تقديم المفعول على العامل ... وإنا لا نذهب إلى ما ذهب إليه من ذلك))^(١٨) . وقد وجَّه الآية وجهين : أحدهما : أنَّ يكون التقدير : وإياي ارهبوا ، تنبَّهوا فارهبون ، فتكون الفاء دخلت في جواب الأمر ، وليست مؤخِّرة

(١) البرهان في علوم القرآن : ٨٥ / ١ .

(٢) سورة المائدة : ٥٠ .

(٣) البرهان في علوم القرآن : ٨٥ / ١ .

(٤) البرهان في علوم القرآن : ٧٠ / ١ .

(٥) سورة طه : ٦١ .

(٦) البرهان في علوم القرآن : ٤١ / ١ . وينظر : دلالة السياق : ١٢٠ .

(٧) سورة الأحزاب : ٤ .

(٨) سورة الأحزاب : ٦٧ .

(٩) شرح المفصل : مج ٢ / ٣٧٠ .

(١٠) بلاغة الكلمة في التعبير القرآني : ٣٨ .

(١١) المصدر نفسه : الصفحة نفسها .

(١٢) سورة الأحزاب : ١٠ .

(١٣) بلاغة الكلمة في التعبير القرآني : ٣٨ .

(١٤) ينظر : شرح المفصل : مج ٢ / ٧٧ .

(١٥) سورة البقرة : ٤٠ . ومثلها الآية (٤١) من السورة نفسها .

(١٦) نزهة القلوب : ١٢٠ . وينظر : إعراب القرآن ، النحاس : ١١٨ .

(١٧) تفسير الكشاف : ١٣٤ / ١ . وينظر : التبيان في المعاني والبدع والبيان : ٩٨ .

(١٨) البحر المحيط : ٢٨٤ / ١ .

من تقديم . والوجه الثاني : أن يكون التقدير : وتنبهوا فارهيون ، ثم قدم المفعول فانفصل ، وأخرت الفاء حين قدم المفعول ، وفعل الأمر الذي هو تنبهوا محذوف ، فالتقى بعد حذفه حرفان : الواو العاطفة ، والفاء ، التي هي جواب الأمر ، فتصارت الفاء ، فقدم المفعول ، وأخرت الفاء لصالحاً للفظ ، ثم أعيد المفعول على سبيل التأكيد ، ولتكميل الفاصلة ، وعلى هذا التقدير لأخير لا يكون (إيائي) معمولاً لفعل محذوف ، بل معمولاً لهذا الفعل الملفوظ به ، ولا يبعد تأكيد الضمير المنفصل بالضمير المتصل ، كما أكد المتصل بالمنفصل في نحو : ضربتك (إياك))^(١) . ورأى أبو البركات الأنباري أن الضمير ((إيائي) ضمير منصوب منفصل ، وهو منصوب بفعل مقدر ، وتقديره : إيائي ارهبوا فارهبوني . وإنما وجب تقدير (ارهبوا) ، ولم يعمل فيه (فارهبون) الملفوظ به لأنه مشغول بالضمير المحذوف ، وهو الياء ، ووجب أن يكون هذا الفعل المقدر بعد (إيائي) لأنه ضمير منفصل ، والضمير المنفصل إنما يعمل فيه على هذا الحد ما بعده لا ما قبله ؛ لأنه لو كان قبله لصار متصلاً لا منفصلاً ، ولم يأت ذلك إلا في ضرورة الشعر))^(٢) . ورأى بعض المفسرين المحدثين أن ((التقديم إذا اقترن بالفاء كان فيه مبالغة لأن الفاء ، كلفي هذه الآية مؤذنة بشرط مقدر ، ولما كان هذا الشرط لا دليل عليه إلا الفاء تعين تقديره عاملاً ، نحو : إن يكن شيء ، أو مهما يكن شيء ... فالمعنى هنا : وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم ، ومهما يكن شيء فإيائي ارهبون ، فلما حذفت جملة الشرط بعد (واو) العطف بقيت (فاء) الجواب موالية لواو العطف ، فزحلت إلى أثناء الجواب كراهية توالي حرفين ، فقيل : وإيائي فارهبون ، بدلاً عن أن يقال : (فارهبون))^(٣) . ومما يدخل في هذا المبحث مجيء الفاصلة بحرف معين ، وكان من الممكن مجيؤها في كلمة أخرى ، منتهية بحرف الفاصلة نفسه ، ولكنه اختار إحداها دلالة خاصة ، من ذلك قولهن تعالى : ﴿جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ عَذْنٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ حَشِيَ رَبَّهُ﴾^(٤) . فقد جاءت الفاصلة في الآية بكلمة (ربه) منتهية بحرف (هاء) ، ولو جاء بلفظ الجلالة الصريح لكان منتهياً بالحرف نفسه ، وفي الإتيان بلفظ (ربه) بدلاً من (الله) ؛ ((تعريض بأن الكفار لم يرعوا حق الربوبية إذ لم يخشوا ربهم ، فهم عبید سوء))^(٥) .

السياق الصرفي :

هو السياق الذي يبحث ((دراسة المفردات لا بوصفها صيغاً ، وألفاظاً فقط ، وإنما بحسب ما فيها من خواص تفيد في خدمة الجملة ، أو العبارة ، فالسياق الصرفي لا يدرس الصيغ ، والعلامات منفردة ، بل لاحقة في الكلمات من خلال سياق معين ، يؤدي إلى دلالة معينة ... وهذا النوع من السياق يتابع التغيرات التي تعترى صيغ الكلمات ، فتحدث معنى جديداً في الجملة ، أو التركيب ، يبرزه السياق الصرفي))^(٦) . وقد يكون للسياق النحوي أثر في السياق الصرفي ، فيتفاعل السياقان في إنتاج المعنى ، فيؤدي ((تشابك العلاقات بين المعطيات الصرفية ، والنحوية لتجسد بشكل بارز أهمية القرائن اللفظية ، والمعنوية ، والحالية في إعطاء الدلالة ، ويُعتبر^(٧) هذا التعدد من مستلزمات الفهم الكامل لمدلول الكلمة من واقع استعمالها (سياقها) مع احتفاظها أصلاً بالانتماء إلى أي من أقسام الكلام))^(٨) . وقد استعمل النص القرآني صيغاً ، وأوزاناً صرفية تلائم مع السياق / المقام ، الذي وردت فيه ، وقد يستعمل صيغة في مقام ، أو موقف ، أو موضوع ، ولم يستعمل مرادفتها ، أو وزناً آخر يحمل المعنى نفسه ، ويمكن أن يُلاحظ ذلك في مواضع كثيرة ، منها :

الجمع على (فعلاء ، وفعال) : يطرود جمع (فعليل) بمعنى (فاعل) ، أو (مُفعل) على وزن (فعلاء) ، مثل : كريم – كرماء . فإن كان (فعليل) مضاعفاً ، أو منقوصاً جُمع على (أفعلاء) ، مثل : شديد – أشداء ، وتقي – أتقياء . وقد يُجمع (فعليل) غير المنقوص ، صحيح العين ، أو معتلها على (فعال) ، مثل : كريم – كرام ، وطويل – طوال . وأكثر ما يجيء وزن (فعلاء) دالاً على سجية مدح ، أو ذم^(٩) ، أو للدلالة على الغرائز^(١٠) . والفرق بين الجمعين ((أن (فعلاء) يكاد يختص بالأمور المعنوية ، و(فعالاً) بالأمور المادية))^(١١) . من ذلك قوله تعالى : ﴿يَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾^(١٢) ، وقوله تعالى : ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(١٣) ، إذ استعمل وزن (ضعفاء) للدلالة على الضعف المعنوي ، في حين يُلاحظ أن قوله تعالى : ﴿وَلَا يَحْشُرُ الَّذِينَ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾^(١٤) ، قد استعمل وزن (ضعاف) الذي ((يعني الضعف المادي ، أي محتاجين إلى المال ، فقراء . وأما الثانية [أي في آيتي سورة البقرة وسورة التوبة] ، فليس المقصود بها الضعف المادي ، بل الضعف المعنوي ، أي : عدم

(١) البحر المحيط : ٢٨٥ / ١ .

(٢) البيان في غريب إعراب القرآن : ٧٧ / ١ .

(٣) تفسير التحرير والتنوير : ١ / ٤٤٠ – ٤٤١ .

(٤) سورة البينة : ٨ .

(٥) تفسير التحرير والتنوير : ٣٠ / ٤٣٠ .

(٦) الدلالة السياقية عند اللغويين : ٥٨ – ٥٩ .

(٧) كذا ، والصحيح : يُعَد .

(٨) أقسام الكلام العربي من حيث الشكل والوظيفة : ٢٧٣ . وينظر : الدلالة السياقية : ٦٠ .

(٩) ينظر : الخصائص : ١٥٨ / ٢ ، وشرح شافية ابن الحاجب : ٣٠٥ / ٢ .

(١٠) شرح الألفية ، ابن الناطم : ٢٠٧ .

(١١) إعجاز القرآن والدلالات الصرفية : ١٤٣ ، ١٤٥ .

(١٢) سورة البقرة : ٢٦٦ .

(١٣) سورة التوبة : ٩١ .

(١٤) سورة النساء : ٩ .

القيام بالأمر ، بدليل أن أباهم له جنة ، فيها من كل الثمرات ، وإما هم ضعفاء إلى من يقوم بأمرهم))^(١) . ومثله قوله تعالى : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ... ﴾^(٢) ، فقابل بين الشدة والرحمة ، وهما أمران معنويان ، في حين وصف ملائكة العذاب بصيغة (فعال) ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَظٌ شِدَادًا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَقْعُدُونَ مَا يُمْرُونَ ﴾^(٣) ، فقد استعمل (شداد) بدل (أشداء) التي استعملها في الأمور المعنوية ، وكان استعمال هذه الصيغة هنا ؛ ((للدلالة على شدة الأجسام وضخامتها))^(٤) .

جمع (فاعلة) على (فواعل) : تجمع (فاعلة) على فَعَلَ ، وعلى (فواعل) ، مثل : ضاربة - ضَرْب ، ضوارب ؛ وفاطمة - فُطِم ، وفواطم^(٥) ، ((والفرق بين (فَعَلَ) ، و(فواعل) أن فَعَلًا ... فيه عنصر الحركة بخلاف هذا الجمع ، ليس فيه هذا العنصر ، بل هو أقرب إلى الاسمية ، وأدل على الثبوت ، فإنه ... وزن لجمع الأسماء أكثر مما هو لجمع الصفات . فالرَّحُل هم الذين يرتحلون كثيراً ، والرواحل جمع الراحلة ، وهي كل بعير نجيب))^(٦) . ومن أمثلة هذا الاستعمال في السور المدنية ، قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾^(٧) . فقد استعمل وزن (القواعد) للدلالة على ثبوتها ، واستقرارها .

اختيار جمع القلة : يختار النص القرآني جمع القلة على جمع الكثرة في بعض المواضع ، من ذلك استعمال جمع القلة (أذلة) على جمع الكثرة (أذلاء) ، أو (ذلائل) ، أو (ذلان) ، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ يُبَيِّرُ وَأَنزِلُ أَدْلَةً فَانقَلَبُوا خَائِبِينَ لَا يُشْكِرُونَ ﴾^(٨) ، فقد كان موقف المسلمين النفسي ، والاجتماعي أقرب إلى الضعف ، وعدم الاستقرار ، فوصف النص الكريم حالهم بـ (الأذلة) جمع القلة ؛ ((ليدل على أنهم على ذلتهم كانوا قليلاً ، وذلتهم ما كان بهم من ضعف الحال ، وقلة السلاح ، والمال ، والركوب))^(٩) .

اختيار صيغة الجمع : قد يأتي اختيار صيغة الجمع ، وإيثارها على المفرد لمعنى المبالغة ، أو التكرير ، من ذلك استعمال لفظ (ظلمات) في قوله تعالى : ﴿ مِثْلَهُمْ كَمَلٌ الَّذِي اسْتَوْقَّ نَارًا فَمَا أَصَاغَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبٌ اللَّهُ يُوْرِهِمْ وَتَرْكُهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴾^(١٠) . فالكلام في شأن المنافقين ، وهم في حالة من التحير ، والضلال ، ((ففي هذا الموضع يُمثل الله تعالى لتكاثر الشبهات على المنافقين بتخليتهم عن الإيمان ، بمن أنطفأ نوره ، فصار في ظلمة حالكة ، ولكنه جمع هذه الظلمة ليناسب بها كثرة الشبهات التي تعرض للمنافق ، وتحيط به حتى ينخلع عن ربة الإيمان والإسلام . أو يكون تكثير الظلمات باعتبار محالها في القلب ، والبصر ، والحال))^(١١) ، ورأى الألويسي أنها ((ظلمة واحدة ، لكنها لشدتها استعير لها صيغة الجمع مبالغة ... ومن اللطائف أن الظلمة حيثما وقعت في القرآن ، وقعت مجموعة ، والنور حيثما وقع وقع يدخل في هذا الباب ، استعمال صيغة جمع التفسير للدلالة على الكثرة ، واستعمال صيغة جمع المؤنث السالم للدلالة على مطلق الجمع ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ مِثْلَ الَّذِينَ يَقُولُونَ أَمْوَالُهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمِثْلِ حَبَّةٍ أُتْبِتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سَنَابِلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾^(١٢) ، وذلك عند مقارنته بقوله تعالى : ﴿ قَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنَابِلَاتٍ خُضِرَ وَأُخْرٍ يَأْسِتَانِ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَتُوقِنُ فِي رُؤْيَايَ إِنَّكُمْ لِرُؤْيَايَ تُعْبِرُونَ ﴾^(١٣) . يُلاحظ أن الآيتين قد استعملتا العدد (سبعة) ، وكان مفرد المعداد واحداً ، وهو (سنبل) ولكن اختلفت صيغتا الجمع في الآيتين ، ومرد ذلك إلى سياق كل منهما ، فأية سورة البقرة جاءت في سياق التكرير لثواب من ينفق ماله في سبيل الله - تبارك اسمه - فكن ذلك مناسباً لاستعمال الصيغة الدالة على الكثرة (سنابل) ، أما أية سورة يوسف ، فقد جاءت لبيان عدد السنابل التي رآها الملك في منامه ، وهو ما يتطلب استعمال الصيغة التي تدل على مطلق الجمع ، فناسب كل آية سياقها **المزاوجة بين المفرد والجمع :** قد يرد في النص الكريم تعبيران ، استعمل في أحدهما صيغة الجمع ، واستعمل في الآخر صيغة المفرد ، وذلك يخرج لدلالة يحددها سياق النص الواردة فيه ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُخْذِلْهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَيُجْزِيهِ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارَ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُخْذِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾^(١٤) . فقد وصف ثواب المطيعين بقوله (خالدين) ، ووصف عقاب العاصين بقوله (خالداً) ، وذلك ((من معاني الإذلال ، والتعذيب بالوحشة والانفراد ما فيه))^(١٥) ، وقد أشار أبو السعود إلى ذلك ، بقوله :

(١) إعجاز القرآن والدلالات الصرفية : ١٤٣ ، ١٤٥ .

(٢) سورة الفتح : ٢٩ .

(٣) سورة التحريم : ٦ .

(٤) إعجاز القرآن والدلالات الصرفية : ١٤٥ . وينظر : شرح شافية ابن الحاجب : ٢ / ٢٩١ .

(٥) ينظر : شرح المفصل : مج ٢ / ٤٤٥ .

(٦) إعجاز القرآن والدلالات الصرفية : ١٣٣ .

(٧) سورة البقرة : ١٢٧ . ومثلها في سورة (النور : ٦٠) .

(٨) سورة آل عمران : ١٢٣ .

(٩) تفسير الكشاف : ٤٠٢ / ١ . وينظر : الإعجاز الصرفي : ١١٧ ، وشرح شافية ابن الحاجب : ٢ / ٢٨٥ .

(١٠) سورة البقرة : ١٧ . ومثلها الآية (١٩) من السورة نفسها .

(١١) الإعجاز الصرفي : ١١٣ .

(١٢) روح المعاني : ٢٢٦ / ١ .

(١٣) سورة البقرة : ٢٦١ .

(١٤) سورة يوسف : ٤٣ .

(١٥) ينظر : البرهان في علوم القرآن : ١٧ / ٤ .

(١٦) سورة النساء : ١٣ - ١٤ .

(١٧) الإعجاز الصرفي : ١١٢ .

((الخلود في دار الثواب بصفة الاجتماع أجليب للأنس ، كما أنَّ الخلود في دار العذاب بصفة الانفراد أشدَّ في استجلاب الوحشة))^(١). ومما يمكن أن يُضاف إلى ذلك أنَّ ((هذه المزاوجة المذكورة في هذا الموضع ، هي طريقة القرآن ، ونهجه في التعبير عن عذاب الكافر ، ونعيم المتقين ، حيث يطرد الأفراد بالنسبة للكافر ، والجمع بالنسبة للمؤمن ... وهنا تؤدي صيغة الفرد دورها في إحداث ذلك التقابل البديع بين انفراد الكافر ، ومعاناته عذاب الوحشة ، والوحدة فوق عذاب الجحيم في مقابل انتناس المؤمن بصحبته ، ورفاقه في جنات النعيم ، فترى التقابل بين ذلك العذاب المضاعف ، وذلك النعيم المضاعف))^(٢).

دلالة المصادر والمشتقات : يستعمل المصدر للدلالة على الحدث الخالي من الزمن ، وقد يستعمل في النصِّ القرآني مصدر للدلالة على معنى معيَّن ، ويُستعمل مصدر آخر – للفعل نفسه – للدلالة على معنى آخر . وتستعمل المشتقات للدلالة على معانٍ خاصة بكلِّ نوع منها ، فاسم الفاعل يدلُّ على فاعل الحدث ، واسم المفعول على مَنْ وقع عليه الحدث ، وهكذا ، ولكنَّ يُلاحظ على النصِّ الكريم استعمال نوع من المشتقات بدلاً من الآخر ، كان أولى بالاستعمال منه ، وكان في هذا الاستبدال دلالة يحددها السياق الذي وردت الآية الكريمة فيه ، وفيما يأتي تفصيل لهذه الاستعمالات :

استعمال صيغة المفاعلة : تتعدد أوزان الفعل من حيث وجود حروف الزيادة على بنائه المجرد ، ويكون لكلِّ صيغة زيادة دلالة خاصة بها ، تأتي مناسبة للسياق الذي ترد فيه ، فمن ذلك صيغة المفاعلة التي تدلُّ على وجود طرفٍ آخر في حال حدوث الفعل ، يشارك الفاعل الأول في عمل الفعل ، وهو يخالف الفعل في صيغة تجرِّده ، من ذلك الفعل (غبن) ويعني ((الغبن أن تبخس صاحبك في معاملة بينك وبينه بضرب من الإخفاء))^(٣). وقد ورد هذا الفعل بصيغة المفاعلة فقط ، وفي موضع واحد من النصِّ الكريم^(٤) ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ الْقَوْمُ الْعَظِيمُ ﴾^(٥) . ف ((يوم التغابن : يوم القيامة ؛ لظهور الغبن في المبايعة المشار إليها بقوله : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ ... ﴾^(٦) ، ويقول تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ... ﴾^(٧) ، ويقول : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا ... ﴾^(٨) ، فعملوا أنهم عُبنوا فيما تركوا من المبايعة ، وفيما تعاطوه من ذلك جميعاً))^(٩).

اختيار صيغة الفعل المجرد على المزيد : وذلك أن يكون للفعل المجرد دلالة غير دلالة المزيد منه ، فيستعمل كلُّ واحد منهما في سياقه الخاص به ، من ذلك استعمال الفعلين (سقى ، وأسقى) ، إذ إنَّ ((السقي ، والسقيا : أن يعطيه ما يشرب ، والإسقاء : أن يجعل له ذلك حتى يتناولوه كيف شاء . فالإسقاء أبلغ من السقي ؛ الإسقاء هو أن تجعل له ما يسقى منه ، ويشرب))^(١٠) . وهذا التوجيه للفرق بين الفعلين أرجح ممَّا ذهب إليه الزركشي ، الذي قال : ((الفرق بين (أسقى) ، و(سقى) بغير همز لما لا كلفة معه في السقيا ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴾^(١١) ، فأخبر أنَّ السقيا في الآخرة يقع فيها كلفة ، بل جميع ما يقع فيها من الملاذ يقع فرصة ، وعفواً ، بخلاف (أسقى) بالهمزة ، فإنه لا بدَّ فيه من الكلفة بالنسبة للمخاطبين))^(١٢). وقد استعمل النصُّ الكريم (سقى) فيما يدلُّ على الكلفة ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا تُدْأِلُ تَبِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ ﴾^(١٣) . ومن أمثلة استعمال الفعل المزيد قوله تعالى : ﴿ وَأَكُوْا مِنْ ثَمَرِهِمْ حَتَّىٰ لَئِنْ أَقَامُوا الصَّلَاةَ لَآتَيْنَهُم مِّنْ ثَمَرِهِ بِضِعْفٍ كَثِيرٍ ﴾^(١٤) ، وقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا رِوَاسِيَّ شَامَخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا ﴾^(١٥) .

اختيار اسم المفعول بدلاً من اسم الفاعل : جاء في الاستعمال القرآني استعمال صيغة اسم المفعول ، وكان ظاهر الكلام يستدعي اسم الفاعل ، ولكنَّ مجيء صيغة المفعول حَقَّ لمسة إعجازية أدقَّ من صيغة الفاعل ، ويمكن أن تكون الصورة أوضح عند التمثيل لها بقوله تعالى : ﴿ وَيَشْرِي الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رُّزِقُوا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَنُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَنْهَارٌ مَّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ فقد استعمل النصُّ الكريم صيغة المفعول (مُطَهَّرَةٌ) بدل من صيغة الفاعل (طاهرة) ، وقد علَّل الزمخشري ذلك ، بقوله : ((في (مُطَهَّرَةٌ) فخامة لصفتين ليست في (طاهرة) ، وهي الإشعار بأنَّ مطهراً طهره ، وليس ذلك إلا الله – عزَّ وجلَّ – المرید بعباده الصالحين أن يخولهم كلَّ مزية فيما أعدَّ لهم))^(١٦). فقد أثبت استعمال اسم المفعول بدل اسم الفاعل أنَّ لهذا التطهير فاعلاً ، وهو الله – تبارك وتعالى – ، فدلَّ سياق الكلام على تشريف تلك الأزواج ؛ لكونهنَّ مطهَّرات من الله تعالى .

دلالة اسم الفاعل على حالية الحدث : تستعمل بعض أسماء الفاعلين الدالة على المؤنث فقط من دون تاء في آخرها ؛ وذلك لكون المذكر لا يشاركها في تلك الصفات ، مثل : مرضع ، حامل ، حائض ، وقد استعمل النصُّ الكريم بعض هذه

(١) إرشاد العقل السليم : ١٥٤ / ٢ . وينظر : الإعجاز الصرفي : ١١٢ .

(٢) الإعجاز الصرفي : ١١٢ .

(٣) مفردات ألفاظ القرآن : ٦٠٢ .

(٤) ينظر : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم (غبن) .

(٥) سورة التغابن : ٩ .

(٦) سورة البقرة : ٢٠٦ .

(٧) سورة التوبة : ١١١ .

(٨) سورة آل عمران : ٧٧ .

(٩) مفردات ألفاظ القرآن : ٦٠٢ (غبن) .

(١٠) مفردات ألفاظ القرآن : ٤١٥ .

(١١) سورة الإنسان : ٢١ .

(١٢) البرهان في علوم القرآن : ٢٣٨ - ٢٣٩ .

(١٣) سورة البقرة : ٧١ . ومثلها في : سورة يوسف : ٤١ ، وسورة الشعراء : ٧٩ ، وسورة القصص : ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ، وغيرها .

(١٤) سورة الجن : ١٦ .

(١٥) سورة المرسلات : ٢٧ .

(١٦) سورة البقرة : ٢٥ .

(١٧) تفسير الكشاف : ١١٥ / ١ . وينظر : إعجاز القرآن والدلالات الصرفية : ١٠٨ .

الأسماء مزيدة بالتاء ، وكان في تلك الزيادة دلالة إضافية جاد بها النص المقدس ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَرُؤُهَا تَدْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾^(١) . فقد استعمل (مرضعة) بدل (مرضع) ؛ وذلك ((أنه أراد ... الفعل ، ولو أراد الصفة فيما نرى لقال : مرضع))^(٢) ؛ لأن (مرضع) ((من كان لها لبن رضاع ، وإن لم تباشِر الإرضاع في حال وصفها به ، و (المرضعة) فهي التي في حال الإرضاع مُلقمة نديها للصبى ... وهو أبلغ من (مرضع) في هذا المقام))^(٣) .

اختلاف صيغتي المصدر : ورد في النص القرآني الكريم استعمال أكثر من صيغة مصدراً للفعل ، وكان في كل صيغة دلالة لا توجد في الثانية ، وقد بين السياق مناسبة صيغة المصدر للمعنى المطلوب ، من ذلك استعمال بعض المصادر على وزني (فعل - وفعل) ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ أَهْلُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّحِيلٍ وَأَغْنَابُ تُجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾^(٤) ، إذ استعمل صيغة (كبر) في هذه الآية ، في حين استعمل صيغة (كبر) في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ يَعْرِضُونَ سُلْطَانًا أَتَاهُمْ إِنَّ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾^(٥) . فقد استعمل صيغة (كبر) للدلالة على معنى الشيخوخة ، في حين استعمل صيغة (كبر) للحالة ((التي يتخصّص بها الإنسان من إعجابه بنفسه ، وذلك أن يرى نفسه أكبر من غيره))^(٦) . ومثله تخصيص مصدر (صوم) بالدلالة على الصمت ، ولم يرد ذلك إلا مرة واحدة وذلك في سورة مكية ، وهو في قوله تعالى : ﴿ قُلِّي وَاشْرَبِي وَهَرِي عَيْنًا قَامًا تَرَى مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنَّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا قَلْنِ أَكَلَمَ الْيَوْمِ لِنِسَاءٍ ﴾^(٧) . أمّا في العهد المدني ، فلم يرد مصدر الفعل (صام) إلا بصيغة (صيام) ، وذلك في تسعة مواضع^(٨) ، وكلّها دلالة على فعل عبادي من ذلك قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾^(٩) ، وهو ما يتناسب مع سياق العهد المدني الذي انماز بالأحكام ، والتشريعات ، ومنها فرض الصوم العبادي^(١٠) ، فاستعمل المصدر (صيام) فيه دلالة على معنى الإمساك عن الطعام ، والشراب ، من طلوع الفجر إلى الليل ، وهو عمل عبادي يتمثل في صيام شهر رمضان ، أو أن يكون كفارة عن ذنب قد فعله من وقع عليه حكم الصيام .

احتمال الصيغة لأكثر من دلالة : يرد في النص الكريم أبنية قد تحتمل دلالتها أن تكون وزناً لصنفين من المشتقات ، كأل يكون الاشتراك بين المصدر ، واسم مكان ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّ تَجْتَبِئُوا كِبَارًا مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ تُكْفَرُ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلِنُدْخِلَكُمْ مِذْلًا كَرِيمًا ﴾^(١١) ، ومثله قوله تعالى : ﴿ لِنُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴾^(١٢) ، فقد جاءت صيغة الكلمة (مُدْخَلًا) ، وقد احتملت دلالتها أن تكون مصدرًا ، وأن تكون اسم مكان ، ((والمصدر له وجه ، وهو أن يكون الإدخال نفسه كريماً . وكذلك الحمل على المكان ، وهو الجنة ... فالحمل في مثل هذا الموضع من الإعجاز القرآني ، لما فيه من تناعم المعاني ، واتساقها ، وتازرها على توفية المقام حقّه ، وهو الترغيب في اجتناب مناهيه ، وزواجره سبحانه وتعالى))^(١٣) .

السياق التركيبي :

عرّفه بعض المحدثين ، بقوله : ((هو السياق الذي يدرس البنية النحويّة التي ترد فيها الكلمة بوصفها وحدة نحويّة في كلّ مَسْقٍ . إنَّ الكلمات في الجمل تتوالى على نسق مرتّب ، وتخضع في ترتيبها إلى أنساق تركيبية مطّردة ، وعلاقات شكلية داخلية تشكّل في مجموعها قواعد التركيب النحويّ ، وتحكم بالسياق))^(١٤) . فالسياق النحويّ يبحث في معنى الجملة ، ((ومعنى الجملة ليس مجموع معاني الكلمات المفردة التي ترد فيها ، إذ إنّ التغيّر في البنية النحويّة ، وعلاقات الكلمات ، ووظائفها ، وموقعها في الترتيب من شأنه أن يبدّل في المعنى))^(١٥) . ويظهر أثر السياق التركيبيّ / النحويّ منسجماً مع مباحث علم المعاني البلاغيّ ، فهو يبحث في مناسبة الكلام لمقتضى الحال ، ولعلّ من أمثلة السياق التركيبيّ ما يأتي :

استعمال الجملة الاسمية : تستعمل الجملة الاسمية للدلالة على ثبوت الخبر للمبتدأ ، وقد استنبط النحويون ، والبلاغيون هذه القاعدة من الاستعمال القرآني لهذه الجملة ، والتي تأتي بصورة مطّردة في النصّ الكريم ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ حَبِطَتْهُمْ يَوْمَ يُكْفَرُ سَلَامٌ وَأَعْزَلَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴾^(١٦) . فقد استعمل الجملة الاسمية (تحيبتهم سلام) للدلالة على ثبوت الأمن

(١) سورة الحج : ٢ .

(٢) معاني القرآن ، الأخفش : ٢٥٣ .

(٣) إعجاز القرآن والدلالات الصرفية : ٥٦ - ٥٧ . وينظر : الكتاب : ٣ / ٣٨٤ ، إذ رأى سيبويه أنّ زيادة التاء في هذه الأسماء للدلالة على الاستقبال ، وهذا ما يوحى به معنى الآية الدالّ على الحدث (يوم القيامة) في المستقبل .

(٤) سورة البقرة : ٢٦٦ .

(٥) سورة المؤمن : ٥٦ .

(٦) مفردات ألفاظ القرآن : ٦٩٧ (كبر) .

(٧) سورة مريم : ٢٦ .

(٨) ينظر : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم (صوم) .

(٩) سورة البقرة : ١٨٣ .

(١٠) ينظر : معاني الأبنية في العربية : ٢١ - ٢٢ ، إعجاز القرآن والدلالات الصرفية : ٤١ - ٤٢ .

(١١) سورة النساء : ٣١ .

(١٢) سورة الحج : ٥٩ .

(١٣) الإعجاز الصرفي في القرآن الكريم : ١٣٧ .

(١٤) الدلالة السياقية : ٦٠ - ٦١ .

(١٥) التطور الدلالي بين لغة الشعر ولغة القرآن : ٧٥ . وينظر : الدلالة السياقية : ٦٠ - ٦١ .

(١٦) سورة الأحزاب : ٤٤ .

لهم، إذ إنهم في الآخرة لا يشوب حياتهم تعب، ولا نصب، بل تكون حياة أبدية لا تكدير لصفوها. ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَذَلَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ وَلَوْ أَنَّنَا بَيُوتُنَا غَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِغَوْرَةٍ إِنَّا بَرِيدُونَ إِلَّا فَرَارًا﴾^(١). فقد استعمل النصّ الكريم - حاكباً كلام المناققين - صيغة الجملة الاسمية المنفية بـ (لا) النافية للجنس في قوله (لا مُقَامَ لَكُمْ)، وهي تدلّ على تأكيد الكلام بنفي جميع أفراد جنسه، فقد نفى أن يكون لهم أيّ عذر في البقاء والثبات في المعركة. ويلاحظ أن النداء الذي تخاطبوا به يحمل في طياته عنصريّة النسب، والسكن، لا رابط العقيدة والدين، إذ كان نداؤهم (يا أهل يثرب)، فهم لم يقولوا: يا أيّها المسلمون، ولا يا أهل المدينة؛ لأنها ستكون في الأولى مستعملة على أساس رابطة العقيدة الدينيّة التي تلغي العنصريّة القبلية، أو تكون في الثانية شاملة لجميع الساكنين فيها، من المهاجرين والأنصار. أما وقد استعملوا عبارة (يا أهل يثرب)، فقد كان مقصودهم الأنصار من دون غيرهم، زيادة على استعمالهم للاسم الجاهليّ لمدينتهم (يثرب)، وفيه دليل على عدم يقينهم من الاسم الذي وضعه لها النبيّ ٦، وهو ما ينعكس على عدم يقينهم بلدين، وبنوّة النبيّ أصلاً. ولأنهم كانوا يطلبون العذر في الفرار من المعركة، فقد استعملوا في عذرهم الموهّم أسلوب التوكيد بالحرف المشبّه بالفعل (إنّ) الداخلة على الجملة الاسمية الدالة على ثبوت الخبر للمبتدأ، وذلك في قوله (إنّ بيوتنا غورة)، فكان الردّ عليهم بمثل قولهم (وما هي بغورة) مؤكداً بحرف الجرّ الزائد، الذي ينفي اتصاف المبتدأ بالخبر، ثمّ أردف تكذيبهم بالتوكيد لسبب تركهم المعركة بأسلوب القصر بحرف النفي (إنّ)، وحرف الاستثناء (إلا)، وذلك في قوله (إنّ يريدون إلا فراراً). وحكى الفعل المضارع (يريدون) حالهم، واستحضرها كأنها ماثلة أمام العين

التقديم والتأخير: قد يأتي المبتدأ، أو الخبر مصدرًا مؤوّلًا، والمصدر المؤوّل ما يُكوّن من الحرف المصدريّ، والفعل، الذي يحمل دلالة الحدوث، والتجدّد. وقد يُقدّم الخبر (الصريح) على المبتدأ (المصدر المؤوّل)؛ وذلك لدلالة يحدّدها السياق التركيبيّ الذي وقعت فيه، من ذلك قوله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولَدُوا وَجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ...﴾^(٢) فقد قرأ ((حمزة وحده: (ليس البرُّ أن تولدوا). وقرأ الباقر: (ليس البرُّ أن تولدوا). وروى حفص عن عاصم: (ليس البرُّ) مثل حمزة))^(٣). وعلّل ابن عاشور القراءتين، بقوله: ((فوجه قراءة رفع (البرُّ) أن البرُّ أمر مشهور معروف لأهل الأديان مرغوب للجميع، فإذا جُعِلَ مبتدأ في حالة النفي أصغت الأسماع إلى الخبر. وأما النصب؛ فلأن أمر استقبال القبلة هو الشغل الشاغل لهم، فإذا ذكر خبره قبله ترقب السامع المبتدأ، فإذا سمعه تقرّر في علمه))^(٤). ورأى أن الإخبار في قوله: (ولكنّ البرُّ من آمن) ((إخبار عن المصدر باسم الذات للمبالغة))^(٥) ولعلّ سبب مجيء الخبر اسماً صريحاً للدلالة على ثبوت معناه، ووجوده، أمّا مجيء المبتدأ فعلاً متضمناً في المصدر المؤوّل، فللدلالة على تجدّد التولية، وحدثها المتكرّر، والذي يحصل عند القيام للصلاة في أوقاتها المتجدّدة، والحادثة في كلّ يوم، فناسب ذلك استعمال الصيغة الفعلية، في حين أنّ البرُّ يحدث بالتوجّه لأداء الصلاة، وبغيرها من الأعمال الحسنة. وممّا يمكن أن يكون داخلاً في هذا المبحث هو أن يستعمل النصّ الكريم أسلوباً معيّناً، ويخالفه في بعض المواضع؛ لكون السياق هو ما يحدّد هذا التغيير في الأسلوب، من ذلك ما يلحظ من قول الزركشيّ في تقديم الرحمة على العذاب، إذ قال: ((من أساليب القرآن: حيث ذكر الرحمة، والعذاب أن يبدأ بذكر الرحمة، كقوله: ﴿يَغْفِرْ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبْ مَنْ يَشَاءُ﴾^(٦)... وقد خرج عن هذه القاعدة مواضع، اقتضت الحكمة فيها تقديم ذكر العذاب؛ ترهيباً، وزجراً، منها قوله: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرْ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(٧)؛ لأنها وردت في ذكر قطاع الطرق، والمحاربين، والسراق، فكان المناسب تقديم ذكر العذاب، ولهذا ختم آية السرقة بـ (عزيز حكيم) ... وختمها [الآية] بالقدرة مبالغة في الترهيب؛ لأنّ من توعدّه قادر على إنفاذ الوعيد))^(٨).

تقديم شبه الجملة على متعلّقها: تقوم العلاقة الإسنادية في الجملة العربية على عنصرين أساسيين، هما: المسند إليه، والمسند، المتمثّلين في المبتدأ، والخبر؛ أو المسند، والمسند إليه، المتمثّلين في الفعل، والفاعل. وقد تلحق عنصري الإسناد عناصر، تقوم بدور يكون في أكثر الأحيان ثانوياً، ولكنّ وجودها في الجملة يضيف شيئاً من المعنى على العلاقة الإسنادية، بل قد تتوقّف صحة العلاقة الإسنادية على وجود هذه الفضلة، من ذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ...﴾^(٩). فجملة الحال (وأنتم سكارى) يتوقّف على وجودها صحّة الجملة الأساس / الإسنادية (لا تقربوا الصلاة)، إذ لو كان يمكن حذف الفضلة / الحال، لكان معنى الكلام النهي عن مقاربة الصلاة، وهو غير ما يطلبه الشارع المقدّس. والمتعارف عليه أنّ الفضلة تكون تابعة لجملة الإسناد، فتأتي بعدها، ولكن قد تُقدّم الفضلة عليها لإضفاء معنى جديد على الكلام، من ذلك قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِم بِالْكَفَرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾^(١٠). فقد قدّم شبه الجملة (في النار) على متعلّقها

(١) سورة الأحزاب: ١٣.

(٢) سورة البقرة: ١٧٧.

(٣) السبعة في القراءات: ١٧٦. وينظر: التذكرة في القراءات: ٢٠٠، وكتاب العنوان في القراءات السبع: ٧٣، والنشر في القراءات العشر: ٢ / ٢٢٦.

(٤) تفسير التحرير والتنوير: ٢ / ١٢٨.

(٥) المصدر نفسه: الصحيفة نفسها.

(٦) سورة المائدة: ١٨.

(٧) سورة المائدة: ٤٠.

(٨) البرهان في علوم القرآن: ٤ / ٤٣.

(٩) سورة النساء: ٤٣.

(١٠) سورة التوبة: ١٧.

وهي جملة (هم خالدون) ، و تحقق في هذا التقديم أمران : الأول : رعاية للفاصلة القرآنية ، والآخر : أن تقديم شبه الجملة بين تعجيل العقاب الذي ينتظرهم في حال بقائهم على الكفر ، فإذا علموا ذلك عند سماعه ، كان سبباً في ترهيبهم من هذه العقوبة^(١).

الفصل بين الجمل بالوقف : يأتي في السياق التركيبي للنص القرآني الوقف على بعض الجمل ، ثم الاستئناف للكلام بعد ذلك ، وسبب ذلك أن الجملة التالية مقطوعة عن الجملة السابقة لعدم اشتراك الاثنين في المعنى ، فيكون الوقف هو ما يظهر هذا الانقطاع بينهما ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ وَاللَّائِي يَنْسِنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحْضُنْ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴾^(٢) . فالوقف على قوله (لم يحضن) ، وسببه كون الكلام بعدها مستأنفاً لحكم آخر غير الحكم السابق له ، فقد عطف قوله (اللائي لم يحضن) على قوله (اللائي ينسن من المحيض) ، فلا علاقة معنوية رابطة لها بما بعدها ، وهو قوله (وأولات الأحمال) ، المبتدأ الذي خبره قوله (أجلهن أن يضعن حملهن) ، فقوله (واللائي لم يحضن) غير داخل في مضمون هذا الخبر ، ولذا وجب الوقف ، ثم الاستئناف بالحكم الآخر ، فهذا الأخير ((إتمام لأحوال العدة ... وتقدير الكلام : وأولات الأحمال منهن ، أي من المطلقات ، أجلهن أن يضعن حملهن))^(٣) . ولعل مما يدخل في باب الفصل ما يلحظ في الاستعمال القرآني من الفصل بين الفعل والفاعل بالمفعول به ، وذلك حين يكون الفاعل لفظ الموت ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ مَ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي ... ﴾^(٤) . فقد فصل بين الفعل والفاعل بالمفعول به في قوله (حضر يعقوب الموت) ، ويستعمل الحضور في اللغة ((الشهادة مكان ، أو إنسان ، أو غيره))^(٥) . ولعل سبب هذا الاستعمال هو بيان كون الفصل معبراً عن عدم وقوع فعل الفاعل على المفعول به ، وإنما يدل علمقاربتة له ، إذ إنه ((كأن بالموت عن مقدماته ؛ لأنه إذا حضر الموت نفسه لا يقول المحتضر شيئاً ... وفي قوله (حضر) كناية غريبة ، أنه غائب لا بد أن يقدم))^(٦) .

التعريف والتكثير : هذا المبحث يشترك فيه النحويون ، والبلاغيون ، فاستعمل المفردة بصيغة المعرفة ، أو بصيغة النكرة له دلالات خاصة في اللغة العربية ، لعل من أهمها هي كون المخاطب عالم بمقصود الكلام عندما يرد معرفاً ، ويكون خالي الذهن عندما يكون مُكرراً ، والسياق هو ما يحدد استعمال كل منهما ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾^(٧) . إذ استعمل النص الكريم اسمي المعرفة (الفقر) ، و(الفحشاء) ، عند الكلام عن موعدة الشيطان ، واستعمل اسمي النكرة (مغفرة) ، و (فضلاً) ، عند الكلام عنة موعدة الله للناس . واستعمل الفعل (يعدكم) مسنداً للشيطان ، مع أن الوعد – في الاستعمال – للخير ، والوعيد للشر ؛ لكون الشيطان يظهر في غوايته لهم أنه يريد لهم الخير بتخويفهم من الإنفاق ، وأن عقابه إنفاقهم الفقر الذي يخشون ، ثم أردف الوعد بالفعل (يأمركم) ، الدال على الاستعلاء ؛ ((لأنه بالوعد يحصل الاطمئنان إليه ، فإذا اطمأن إليه ، وخاف الفقر تسلط عليه بالأمر))^(٨) . ويبدو أن سبب ذلك كون الموعدة التي وعدهم بها الشيطان هي ما موجود في حياتهم الدنيا مما تعارفوا عليه ، وألفوه من أنواع الفقر ، والفحشاء ، فهي لا تخرج عما كان متداولاً في حياتهم الدنيا . أما موعدة الله – عز وجل – فهي ما لا يمكن أن يحدها خيال ، ولا تدركها أبصار ، فجاءت بصيغة التكثير (مغفرة) ، ف ((التنوين فيها للتخيم ، وكذا وصفها بقوله تعالى (منه) ، فهو مؤكد لفخامتها))^(٩) ؛ للدلالة على جهل المخاطبين بهذه المغفرة ، وكذلك قوله (فضلاً) ، فقد دلّ تنكيره على عدم تصوّرهم لمقدار الفضل الذي أعده لهم ، والفضل هنا إن كان بمعنى الرزق في الدنيا ، فقد قدّم منافع الآخرة (مغفرة) على منافع الدنيا (فضلاً) ؛ لكون الآخرة هي الباقية ، وإن كان كلاهما في الآخرة ، فقد تقدّم الأهم ، وهو (مغفرة) الذنب ، فكان بها نجاتهم من النار ، ثم زاده (فضلاً) بثواب الجنة ؛ ((لكون دفع المفاسد أولى من جلب المصالح))^(١٠) ، فكان إسناد الكلام إلى الشيطان يناسبه سياق التعريف ، في حين كان إسناد الكلام إلى الله – تبارك وتعالى – يناسبه سياق التكثير .

السياق يوضح كون الجملة إنشاء لا إخباراً : استعمل النص القرآني بعض صيغ الكلام ، ظاهرها أنه إخبار بالحدث ، وحققة الأمر إنشاء ، الغاية منه أمر المكلفين بالحكم الشرعي من المسلمين بالامتنال له ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ الرِّائِي لَا يَنْكُحْ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكُحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحَرَّمَ عَلَيْكَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾^(١١) . فالذي ((يلوح في بادئ من ظاهر الآية أن صدرها إلى قوله (أو مشرك) إخبار عن حال تزوج امرأة زانية ، وأنه ليس لتشريع حكم النكاح بين الزناة المسلمين ، ولا نكاح بين المشركين . فإذا كان إخباراً لم يستقم معنى الآية ، إذ قد ينكح الحبيبة ، والمشرك قد ينكح الحبيبة ... [ولو] قبلنا أن تكون لتشريع حكم ، فالإشكال أقوى ، إذ لا معنى لتشريع حكم نكاح الزاني ، والزانية ، والمشرك ، والمشركة ، فتعين تأويل الآية بما يُفيد معنى معتبراً . والوجه في تأويلها : أن مجموع الآية مقصود منه التشريع دون

(١) ينظر : تفسير التحرير والتنوير : ١٠ / ٤٥ .

(٢) سورة الطلاق : ٤ .

(٣) تفسير التحرير والتنوير : ٢٨ / ٢٨٦ .

(٤) سورة البقرة : ١٣٣ . ومثلها البقرة : ١٨٠ ، والنساء : ١٨ ، والمائدة : ١٠٦ ، الأنعام : ٦١ ، والمؤمنون : ٩٩ ، والمنافقون : ١٠ ، وغيرها إذ فصل بين الفعل والفاعل بالجار والمجرور .

(٥) مفردات ألفاظ القرآن : ٢٤١ (حضر).

(٦) البحر المحيط : ١ / ٦٤٠ .

(٧) سورة البقرة : ٢٦٨ .

(٨) روح المعاني : ٣ / ٥٥ .

(٩) روح المعاني : ٣ / ٥٥ .

(١٠) روح المعاني : ٣ / ٥٦ .

(١١) سورة النور : ٣ .

الإخبار ؛ لأنَّ الله تعالى قال في آخرها (وَحَرَّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ) ... وبينني على هذا التأصيل أنَّ قوله (الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة) تهديد للحكم المقصود^(١).

السياق المعجمي :

عرّف بعض المحدثين السياق المعجمي ، بقوله : ((تلك العلاقة البنوية الأفقية التي تقوم في العبارة بين المفردات بوصف هذه الأخيرة وحدات معجمية دلالية ، لا بوصفها وحدات نحوية ، وأقساماً كلامية عامة))^(٢). وترى الدكتورة عواطف كنوش أنَّ ((هذا النوع من السياق يمكن تسميته بالسياق الدلالي أفضل من السياق المعجمي ؛ لأنه يبحث في التركيب أكثر من بحثه في معنى المفردة داخل السياق))^(٣). ويظهر أثر السياق المعجمي عند اختيار المفردة المناسبة للمعنى المطلوب في النص ، وذلك يتطلب دقة في تخير الألفاظ التي تفي بالمعنى ، وتبينه ، كما تتناسب مع المقام المستعملة فيه . ويلحظ أنَّ النصَّ الكريم قد استعمل الألفاظ التي تناسب الحدث ، أو الموقف الذي تقع فيه . من ذلك قوله تعالى : ﴿ هُمْ حَاجُّكَ فِيهِ مِنْ بَعْمَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ قُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ آبَاءَنَا وَنَدْعُ بَنَاءَنَا وَنِسَاءَنَا وَبَنَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ لَمْ نَبْتَلِ فَعَجَلٌ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾^(٤). فالآية الكريمة نزلت في مباهلة نصارى نجران للنبي ، لأنهم كتبوا النبي في إثبات نبوته ، وصحة دعوته ، فدعاهم الرسول إلى اللجوء (للمباهلة) ، التي لم يستعمل لفظها في غير هذا الموضع^(٥) ، ومعنى البهل : ((والابتهال في الدعاء : الاسترسال فيه ، والتضرع ... وَمَنْ فَسَّرَ الْإِبْتِهَالَ بِاللَّعْنِ فَلَأَجَلَ أَنَّ الْإِسْتِرْسَالَ فِي هَذَا الْمَكَانِ لِأَجْلِ اللَّعْنِ))^(٦). والذي يتضح من سياق الموقف أنَّ دعوة نصارى نجران للمباهلة يعني المداومة على الدعاء ، والتلاعن حتى يُظهر الله - تبارك وتعالى - صدق أحد الطرفين المتلاعنين بإزالة العذاب على الطرف الآخر ، وهو ما يبين سبب انسحاب النصارى عن تلك الملاعة لما رأوه من تقديم النبي ٦ لأهل بيته المقربين لهذا الأمر ، وهو ما كان مؤكداً لصحة دعواه في نفوسهم ؛ لأنَّ صدقه في دعوته لم يزيلها الشك ، فقدم لأجلها أحبَّ الناس ، وأقربهم إليه ، ولم يكن يفعل ذلك لو كان غير صادق فيها . فكان استعمال هذا اللفظ مناسباً لهذا الموقف الذي تطلب ذلك المعنى . ومن ذلك ما يلحظ من اختتام آيتين كريمتين ، مرة بالافتراء ، وأخرى بالضلال ، وكان السياق هو ما أوجب استعمال كل مفردة منهما في مكانها ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ إِنْ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا ﴾^(٧) ، وقوله تعالى : ﴿ إِنْ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾^(٨). فالذي يلحظ أنَّ الآيتين متناصتان ، والفارق بينهما أنَّ جواب الشرط في الأولى قد تضمن الافتراء ، وجواب الشرط في الثانية قد تضمن الضلال ، وسبب ذلك ((أنَّ الأولى نزلت في اليهود ، وهم الذين افتروا على الله ما ليس في كتابه ، والثانية نزلت في المشركين ، ولا كتاب لهم ، وضلالهم أشدَّ))^(٩) . ومما يدخل في هذا الباب استعمال بعض الألفاظ التي يدل معناها الحقيقي على مدنية السورة ، ولو حاول أحد النظر إليها على أنها من المجاز ، فقد ينقل ذلك معنى الآية ، أو معنى السورة أجمع ، إلى العهد المكي ، كالذي يلحظ في تفسير بعض المفسرين للفظ (الأسير) في قوله تعالى : ﴿ وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾^(١٠) . فالأسير الوارد في الآية - بحسب تفسيره - ليس أسير الحرب ، إذ لم يكن للمسلمين أسرى في مكة ، ولذا ((فالمراد بالأسير العبد من المسلمين ، إذ كان المشركون قد أجاعوا عبيدهم الذين أسلموا ... والعبودية تنشأ من الأسر ، فالعبد أسير))^(١١) . وقد استبعد هذا المفسر أنَّ تكون هذه السورة مدنية اعتماداً على ما جاء في أسباب ، من أنها ((نزلت في إطعام علي بن أبي طالب بالمدينة مسكيناً ليلة ، ويتيماً أخرى ، وأسيراً أخرى ، ولم يكن للمسلمين أسرى بمكة حملاً للفظ أسير على معنى : أسير الحرب))^(١٢) . وقد ردَّ العلامة الطباطبائي هذا الرأي ، مثبتاً مدنية السورة ، قال : ((فما تشير إليه من القصّة سبب النزول ، وليس سياقها سياق فرض موضوع ، وذكر آثارها الجميلة ، ثم الوعد الجميل عليها ، ثم إنَّ عدَّ الأسير فيمن أطعمه هؤلاء الأبرار نعم الشاهد على كون الآيات مدنية ، فإنَّ الأسر إما كان بعد هجرة النبي ، وظهور الإسلام على الكفر ، والشرك لا قبلها))^(١٣) . ومما يدخل في هذا المبحث استعمال مفردتين ، قد يُظنُّ أنَّهما بمعنى واحد ، وأنَّهما مترادفتان ، ولكنَّ استعمال كل منهما في موضع لا يصلح له الآخر ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتًا ﴾^(١٤) . فقد استعمل النصَّ الكريم كلمة (نصيب) مع الشفاعة الحسنة ، واستعمل كلمة (كفل) مع الشفاعة السيئة ، فإذا كانت المفردتان مترادفتين ، فلمَّ استعمل كلا منهما في سياق مختلف ، وإنَّ كان ثمة اختلاف ، فما هو ؟ رأى الفراء^(١٥) أنَّ الكفل : الحظ ، أو

(١) تفسير التحرير والتنوير : ١٢٤ / ١٨ .

(٢) الدلالة السياقية عند اللغويين : ٧٦ .

(٣) الدلالة السياقية : ٦٨ .

(٤) سورة آل عمران : ٦١ .

(٥) ينظر : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم (بهل) .

(٦) مفردات ألفاظ القرآن : ١٤٩ (بهل) .

(٧) سورة النساء : ٤٨ .

(٨) سورة النساء : ١١٦ .

(٩) معترك الأقران : ٣٦ / ١ .

(١٠) سورة الإنسان : ٨ .

(١١) تفسير التحرير والتنوير : ٣٥٧ / ٢٩ .

(١٢) تفسير التحرير والتنوير : ٣٤٤ / ٢٩ .

(١٣) الميزان في تفسير القرآن : ٤١١ / ٢٠ . وينظر : أسباب النزول : ٢٣٠ .

(١٤) سورة النساء : ٨٥ .

(١٥) ينظر : معاني القرآن ، الفراء : ١٩٤ / ١ .

الضعف . وتبعه محمد بن عزيز السجستاني^(١) [ت ٣٣٠هـ] ، فرأى أنَّ الكفل : النصيب ، أو الضعف . وفرَّق الراغب بينهما ، فقال : ((قوله (يكن له كفل منها) ، فإنَّ الكفل ههنا ليس بمعنى الأول ، بل هو مستعار من الكفل ، وهو الشيء الرديء ، واشتقاقه من الكفل ، وهو أنَّ الكفل لما كان مركباً ينبو براكبه صار متعارفاً في كلِّ شدة ... ومعنى الآية : مَنْ يَنْضَمُّ إِلَى غَيْرِهِ مَعِيناً لَهُ فِي فَعْلَةٍ حَسَنَةٍ يَكُونُ لَهُ مِنْهَا نَصِيبٌ ، وَمَنْ يَنْضَمُّ إِلَى غَيْرِهِ مَعِيناً لَهُ فِي فَعْلَةٍ سَيِّئَةٍ يَنَالُهُ مِنْهَا شِدَّةٌ))^(٢) . ورأى الألوسي أنَّ هذا التفريق بين الشفاعتين بالنصيب مرّة ، وبالكفل مرّة أخرى لغرض التّفنّن^(٣) ، كما نقل رأياً آخر آخر فرَّق فيه بين معنى المفردتين ، فقال : ((النصيب يشمل الزيادة ، والكفل هو المثل المساوي ، فاختيار النصيب أولاً لأنَّ جزاء الحسنه يُضاعف ، والكفل ثانياً لأنَّ مَنْ جاء بالسّيئة لا يُجزى إلا مثلاً ، ففي الآية إشارة إلى لطف الله تعالى بعباده))^(٤) . وممّا يدخل في مبحث السياق المعجمي المشترك اللفظي ، إذ يتمّ التعرف على معنى الكلمة ذات المعاني المتعددة من خلال سياقها الذي جاء فيه ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ أَسْكُنُوا مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وَجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُمْ وَلَا لَنْ يُضَارُّوا عَلَيْهِمْ وَإِنْ كُلُّ وَلَاتٍ حَمَلٌ قَاتِفٌ فَعَلَيْهِمْ حَتَّى يَضَعُوا حِمْلَهُمْ فَإِنْ أَرْضَعْنَكُمْ فَآتَوْهُمْ أَجُورَهُمْ وَتَمْرُوهُمْ بِبَيْتِكُمْ مَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسَرَّضْ لَهُمْ أُخْرَىٰ ۖ ﴾^(٥) . فقد استعمل كلمة (معروف) ، وليس هو المعروف الذي يقابل المنكر ، أي ليس العمل الحسن لذي أمر المسلمون بفعله ، إنما هو مأخوذ من العُرف ، بمعنى : ما متداول ، ومتعارف في مثل هذه الأحوال من الأجر الموضوع للرضاعه ، فكان تقييد ((الانتمار بالمعروف ، أي انتماراً ملابساً لما هو المعروف في مثل حالهم ، وقومهم ، أي معتاد مقبول ، فلا يشطّ الأب في الشخ ، ولا تشطّ الأم في الحرص))^(٦) . ومثلها قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ۖ ﴾^(٧) . فقد استعملت كلمة (قوم) في هذه الآية بمعنى : رجال ، ((وهو في الأصل الرجال دون النساء ؛ لقيامهم بالأمور المهمة دونهن))^(٨) ، وليس بمعناها الذي يدلّ على التعميم لجميع الناس من رجال ، ونساء ، وقد دلّ على هذا المعنى مقابلتها في الآية بالنساء ، فعُرف بذلك اقتصار معناها على الرجال فقط ، ((وخصّ النساء بالذكر مع أنَّ القوم يشملهم بطريق التغلب العرفي في الكلام ... ؛ دفعا لتوهم تخصيص النهي بسخرية الرجال ، إذ كان الاستسار متأصلاً في النساء))^(٩) .

سياق الموقف / أسباب النزول :

لا يمكن التعرف على معنى الألفاظ المعجمية ، وهي مفردة ، من دون أن تدخل عناصر خارجيّة ، تُسهم في الكشف عن معناها في الكلام ، وتحديد . وتشمل تلك العناصر كلّ الظروف التي تُصاحب إنتاج النصّ ، وتُحيط به^(١٠) . وإذا كان البلاغيون قد عرفوا هذا السياق بمصطلحات ، مثل : مقتضى الحال ، الذي يُفسّره عبارات مثل : لكلِّ مقام مقال ، ولكلِّ كلمة مع صاحبها مقام ، وهاتان العبارتان عُتتا الركيزة الأساسية في دراسة اللغة في الفكر المعاصر^(١١) ، فقد اعتمد المفسّرون السياق في دراسات مختلفة ، فمن الضوابط التي وضعها المفسّرون ، وعلماء القرآن لتمييز السور المكيّة من المدنيّة ، أنَّ كلّ سورة فيها مجادلة أهل الكتاب ، هي سورة مدنيّة ؛ والسبب في ذلك أنَّ النبيّ ﷺ لم يلتق ((أهل الكتاب في موقف صراع في مكة ، فقد كان المجتمع المكيّ مجتمعاً وثنيّاً مشركاً إلا من بعض أفراد قلائل ؛ ولذا لم نجد في الآيات التي نزلت في مكة ما يُشير إلى أيّ جدال ، أو حوار بينه ، وبينهم لأنّه كان مشغولاً بمحاربة تيار الشرك ، والوثنيّة من جهة ، ولأنهم لا يعتبرون مشكلة إسلاميّة من جهة أخرى ... وهاجر النبيّ ﷺ إلى المدينة ليعني قواعد المجتمع الإسلاميّ الجديد على أساس من قوة ، وعلم ، وتقوى . فواجه اليهود هناك ؛ إذ لم يكن في المدينة نصارى))^(١٢) . فمن الآيات الكريمة التي يبين سياق الموقف أنّها في اليهود ، قوله تعالى : ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَاهُمْ عَنْ قِبَلِهِمُ الَّذِينَ كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۖ ﴾^(١٣) ، فالمقصود بـ ((السفهاء من الناس ، وهم اليهود ... ذكروا ذلك طعناً في الإسلام ؛ لأنّ النسخ عند اليهود باطل ، فقالوا الانتقال عن قبلتنا باطل ، وسفه))^(١٤) . ومن المواضع التي يكون التعرف على أسباب النزول سبباً إلى معرفة أطراف الخطاب ، من المخاطبين ، والحضور غير الداخلين فيه ، قوله تعالى : ﴿ قَدْ سَمِعَ أَنقُولَ الَّذِينَ تَجَادَلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ۖ ﴾^(١٥) . فالسورة بدأت بالإشارة إلى حادثة وقعت في المجتمع الإسلاميّ ، ويمكن من معرفة هذه الحادثة التعرف على المقصود من قوله (التي تجادلنك) ، إذ يحيل الاسم الموصول إحالة مقاميّة خارج النصّ ، يمكن معرفة صاحبها بالرجوع إلى أسباب النزول . فالآية

(١) ينظر : نزّهة القلوب : ٣٨٥ .

(٢) مفردات ألفاظ القرآن : ٧١٨ (كفل).

(٣) ينظر : روح المعاني : ١٢٨ / ٥ .

(٤) المصدر نفسه : الصحيفة نفسها .

(٥) سورة الطلاق : ٦ .

(٦) تفسير التحرير والتنوير : ٢٨ / ٢٩٥ . وينظر : إرشاد العقل السليم : ٨ / ٢٦٣ ، وروح المعاني : ٢٨ / ٤٦٣ .

(٧) سورة الحجرات : ١١ .

(٨) الميزان في تفسير القرآن : ١٨ : ٥١٥ .

(٩) تفسير التحرير والتنوير : ٢٦ / ٢٠٦ .

(١٠) ينظر : أدعية الصحيفة السجادية ، دراسة في ضوء علم اللغة النصّي : ٢٦٢ .

(١١) ينظر : اللغة معانيها ومبناها : ٢٠ - ٢١ .

(١٢) الحوار في القرآن ، قواعده ، أساليبه ، معانيه : ١١٧ - ١١٨ .

(١٣) سورة البقرة : ١٤٢ .

(١٤) البحر المحيط : ٩ / ٢ .

(١٥) سورة المجادلة : ١ .

وصفت شدتها بأنها أشد من خشيتهم الله تعالى^(١). وقد أكد الكلام بلام التوكيد ، والجملة الاسمية ، ثم وصفهم بقوله (قوم) للدلالة على أن هذه الصفة أصبحت من مقومات أنفسهم ، ثم وصفهم بعدم الفقه ؛ ((لأن الفقه : فهم المعاني الخفية ، والحقائق المطلقة ، وهم لعدم فقههم تبعوا دواعي الخوف المشاهد ، وذهلوا عن الخوف المغيب عن أبصارهم ، وهو خوف الله ، فكان ذلك من قلة فهمهم للخفيات))^(٢). فهؤلاء القوم من شدة خوفهم (لا يقاتلونكم جميعاً) ، إذ المعروف أن اجتماع القوم يزيد من ثقتهم بأنفسهم ، أما هؤلاء ، فلا يقاتلون حتى لو كانوا مجتمعين ، ثم وصف شدة خوفهم من اللقاء في المعركة بأنهم يقاتلون في حال كانوا في قرى شديدة التحصين (محصنة) ، ((أي مجعولة بالإحكام كالحصون))^(٣) ، أو إذا كانوا متخفين وراء (جدر) ، وقد استعمل جمع التكسير الدال على الكثرة ؛ للدلالة على شدة تحرّزهم من المواجهة المباشرة . ومن أمثلة السياق النفسي ، قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ طَلِقَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتُلَا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَاجْتَنِبَا حَتَّى يَأْتِيَ إِلَيْكَ مِنَ اللَّهِ أَمْرٌ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾^(٤). إذ يُلاحظ أن الآية الكريمة لم تذكر في الإصلاح الأول اقترانه بالعدل ، في حين اقترن الآخر به ، ((وتقييد الإصلاح هنا بالعدل ، لأنه مظنة الحيف لوقوعه بعد المقاتلة ، وقد أكد ذلك بقوله تعالى (وأقسطوا) ، أي اعدلوا في كل ما تأتون ، وما تنزرون))^(٥). فالنص الكريم قد نبّه على التزام العدل في الإصلاح ؛ لأنه سيكون بعد أن تقع الحرب من قبل القوم المصلحين ، فقد تكون أنفسهم أميل للطرف الآخر لوقوع القتال بينهم والطرف الأول ، فكان التأكيد على العدل مراعاة للأثر النفسي الذي فيه القوم المصلحون . وكذلك فإن الصلح الثاني غير الصلح الأول ، إذ الأول غرضه الحيلولة دون وقوع الأذى ، في حين أن الثاني سيكون بعد حصول البغي ، في قوله (فإن بغت إحداهما على الأخرى) ، فيكون الإصلاح ((لا إصلاحاً بوضع السلاح ، وترك القتال فحسب ، بل إصلاحاً متلبساً بالعدل بإجراء أحكام الله فيما تعدّث به المعتدية من دم ، أو عرض ، أو مال ، أو أي حق آخر ضيعته))^(٦) .

السياق الثقافي :

يظهر دور السياق الثقافي عند استعمال مفردة ، أو معلومة يكون المخاطبون قد تعارفوا عليها ، فلا تكون موضع إشكال لديهم ، إذ إن أذهانهم تتجه مباشرة إلى المعنى الذي قد تعارفوا عليه ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴾^(٧) فالآية الكريمة تقرّ تعلل المشركين لأهل الكتاب بعدم مجيء رسول لهم ، كما جاء لأهل الكتاب ، قال تعالى : ﴿ إِنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ أَوْ يَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ هُنَّ أَظْلَمَ مِنْكُمْ كَتَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ ﴾^(٨) كما تقرّر تعلل أهل الكتاب حين يدعوهم النبي للإسلام ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ قَالُوا لِلَّهِ عَهْدٌ إِنَّا أَلَا نُؤْمِنُ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْآنٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ قُلْتُمْ لَهُمْ فَتَقْتُلُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾^(٩) . فبعث الرسول الخاتم شائع عند اليهود ، والنصارى ، وهم قد نقلوا هذه المعلومة للمشركين ، فكان ((شيوعه عند الفريقين قرينة على أن المراد من سياقه دمعهم بالحجة ، وبذلك كان التعبير بالضمائر المستقبلي في قوله (حتى تأتيهم البينة) مصادفاً المحرّ ، فإنهم كانوا يقولون ذلك قبل مجيء الرسول))^(١٠) . والظاهر أن التعريف في (البينة) ((تعريف ذهني ، وهو أن يُراد معهود بنوعه ، لا بشخصه))^(١١) . وقد قدّم أهل الكتاب على المشركين مع أنهم أصحاب ديانة سماوية ؛ ((لأن لأهل الكتاب سبق هذا المقام ، فهم الذين بثوا بين المشركين شبهة انطباق البينة الموصوفة بينهم ، فأيدوا المشركين في إنكار نبوة محمد p بما هو أقرن من ثروات المشركين))^(١٢) . وهذا التعبير ((أحسن ما تترجم به العبارة الواقعة في كتب أهل الكتاب ممّا يحوم حول معنى الشهادة الواضحة لكل متبصّر))^(١٣) ، وقد جاءت في إنجيل متي عبارة ((وتصل الشهادة لكل الشعوب))^(١٤) .

المبحث الثاني : التناص

التناص لغة واصطلاحاً :

التناص لغة : جاء في المعاجم : نصصت الحديث إلى فلان نصّاً : أي رفعته ، ونصصت الشيء حرّكته . ونصصت الرجل : استقصيت مسأله عن الشيء ، يقال : نصص ما عنده : أي استقصاه . ونصص كل شيء : منتهاه . والنصص : الإسناد إلى الرئيس الأكبر ، والنصص : التوقيف ، والنصص : التعيين على شيء ما^(١٥) . **التناص اصطلاحاً :** لم يذكر القدماء^(١) هذا

(١) تفسير التحرير والتنوير : ٩١ / ٢٨ .

(٢) تفسير التحرير والتنوير : ٩٣ / ٢٨ .

(٣) مفردات ألفاظ القرآن : ٢٣٩ (حصن).

(٤) سورة الحجرات : ٩ .

(٥) روح المعاني : ٢٦ / ٤٢٠ .

(٦) الميزان في تفسير القرآن : ١٨ / ٥١١ .

(٧) سورة البينة : ١ .

(٨) سورة الأنعام : ١٥٦ - ١٥٧ .

(٩) سورة آل عمران : ١٨٣ .

(١٠) تفسير التحرير والتنوير : ٣٠ / ٤١٦ .

(١١) نفسه : ٣٠ / ٤١٨ .

(١٢) تفسير التحرير والتنوير : ٣٠ / ٤١٩ .

(١٣) نفسه : ٣٠ / ٤١٨ .

(١٤) الكتاب الشريف ، إنجيل متي / ٢٤ : ١٤ .

(١٥) ينظر : كتاب العين : ٨٦ / ٧ - ٨٧ ، ومعجم مقاييس اللغة : ٢ / ٥٢٦ ، وتاج اللغة وصحاح العربية : ٣ / ٦٥٤ ، ولسان العرب : ٤ / ٣٩٣٠ ، والقاموس المحيط : ٥٨٣ - ٥٨٤ .

المصطلح في كتبهم ، ومما ورد لديهم مصطلح (التنصيص) الذي عرّفه الكفوي بأنه : ((مبالغة في النص))^(١) . أما المحدثون ، فقد نقل بعض الباحثين تعريفاً عن (ل . جيني) ، عرّف التناص ، بقوله : ((عمل تحويل ، وتشرب (استيعاب ، وتمثل) لعدة نصوص يقوم به نصّ مركزيّ ، يحتفظ بمركز الصدارة في المعنى))^(٢) . وقد جعل (روبرت دي بوجراند) التناص أحد المعايير السبعة التي يقوم عليها النص ، وهو عنده ((يتضمّن العلاقات بين نصّ ما ، ونصوص أخرى مرتبطة به ، وقعت في حدود تجربة سابقة ، سواء بوساطة أم بغير وساطة))^(٣) . وعرّفه آخر بقوله : ((العلاقة بين نصّين ، أو أكثر ، وهي التي تؤثر في طريقة قراءة النصّ المتناص ، أي الذي تقع فيه آثار نصوص أخرى ، أو أصداؤها))^(٤) . وحاول باحث محدث إيجاد تعريف للتناص يستوعب كلّ أنواعه ، ومضامينه ، فقال : ((التناص يعني دخول النصّ في علاقة ، أو علائق مع نصّ آخر ، أو نصوص أخرى ، أدبيّة ، وغير أدبيّة ، سابقة له ، أو متزامنة معه ، من نوعه وجنسه ، ونمطه ، أو من غيرها ، بشكل عفويّ ، أو إراديّ ، ظاهراً كان ، أو خفياً ، جزئياً كان ، أو كلياً ، باليةً ، أو أكثر ، على سبيل التحقيق ، أو التحويل ، أو الخرق ، أو بهم جميعاً ، لغرض فكريّ ، أو قنيّ ، أو كليهما))^(٥) . يُعدّ التناص وليد الدراسات الأدبيّة ، والنقدية ، واللغوية في العصر الحديث ، وإنّ كان لمفهومه ، وتطبيقه جذور عميقة ، وأصلية في التراث العربيّ ، ولكنّ العلماء العرب لم يستعملوا مصطلح التناص ، بل استعملوا مصطلح الاقتباس للدلالة على مفهومه . ويُعدّ (جوليا كريستيفا) مؤسّسة مصطلح التناص على أساس من انعكاس واحد ، أو مجموعة من الأصول الثقافية في كلّ نصّ ، ممّا يجعل التناص حواراً للنصوص ، وترى أنّ النصّ ((كجهاز عبر لسانيّ يُعيد توزيع نظام اللسان بواسطة^(٦) بالربط بين كلام تواصلية ، يهدف إلى الإخبار المباشر ، وبين^(٧) أنماط عديدة من الملفوظات السابقة عليه ، أو المتزامنة معه . فالنصّ إذن إنتاجيّة ، وهو ما يعني ... أنّه ترحال للنصوص ، وتداخل نصّيّ ، ففي فضاء نصّيّ معين ، تتقاطع ، وتتنافى ملفوظات عديدة مقطّعة من نصوص أخرى))^(٨) . ويرى الدكتور صلاح فضل أنّ التناص لا يتحقّق في النصّ بدرجة واحدة ، أو على مستوى واحد ((بل هناك درجات عديدة للتناص ، ممّا يمكن أنّ يقودنا إلى التحليل النصّيّ ، فهناك مثلاً خواص شكلية محدّدة ، مثل : الإيقاعات

والأوزان ، والأبنية المقطعية ، ومثل أنماط الشخصيات ، والمواقف التي يمكن استخدامها كحدّ أدنى للتناص على اعتبار ما تقرضه في استخدامها مجموعة الأعراف التقليدية المتصلة بكلّ جنس من الأجناس الأدبيّة ، وتتمثّل الدرجة الوسطى من التناص في الإشارات المتضمنة والانعكاسات غير المباشرة سواءً كانت بالقبول ، أو الرفض لنصوص أخرى تتعلّق معها ، ممّا يعتدّ به مجالاً للتناص الحقيقيّ . أمّا الدرجة القصوى من التناص ، فنقوم فيها تلك الممارسات الاقتباسيّة ... وهو المجال الذي تمثّله أبواب السرقات في النقد القديم مغفلة أهميّة التوليد ، والتوالي ، ومدرجةً للتحليل الأدبيّ في نطاق النقد المعياريّ والأخلاقيّ بالرغم من استخدامها لمصطلح الحسن في بعض الأحيان))^(٩) . ويرى (رولان بارت) أنّ ((كلّ نصّ هو تناص ، والنصوص الأخرى تتراءى فيه بمستويات متفاوتة ، وبأشكال ليست عصيّة على الفهم بطريقةٍ ، أو بأخرى ، إذ نتعرّف نصوص الثقافة السالفة ، والحاليّة . فكلّ نصّ ليس إلّا نسجاً جديداً من استشهادات سابقة . وتعرض موزعة في النصّ قطع مدوّنات ، صيغ ، نماذج إيقاعيّة ، بُد من الكلام الاجتماعيّ ... لأنّ الكلام موجود قبل النصّ وحوله))^(١٠) .

التناص في دراسات القدماء :

درس القدماء من الأدباء ، والبلاغيين ، واللغويين هذه العلاقة بين نصوص سابقة ، ونصوص لاحقة ، استفادوا منها ، وتأثّروا بها ، وتفاعلت معها . وقد أفرد بعض العلماء مؤلّفات لدراسة هذه العلاقة ، منها : الاقتباس من القرآن الكريم لأبي منصور الثعالبيّ [ت ٤٢٩ هـ] . وإذا كان الثعالبيّ قد سمّاه اقتباساً ، فإنّ غيره قد اصطلح عليه اسم (السرقات) ، أو ما يرادها ، مثل : سرقات الشعراء وما اتفقوا عليه لابن السكيت [ت ٢٤٤ هـ] ، وإغارة كثير على الشعراء للزبير بن بكار ، وسرقات أبي نؤاس لمهلهل بن يموت ، والموضحة في ذكر سرقات المتنبيّ وساقط شعره للحاتميّ ، والإبانة عن سرقات المتنبيّ للعميديّ . وتناول بعضهم سرقات الشعراء من القرآن الكريم ، مثل : سرقات الكميت من القرآن وغيره لابن كناسة^(١١) . وقد وضع أصحاب هذ المؤلفات حول السرقات أصولاً ، وشروطاً للاقتباس ((فالمنطلق الذي صدر عنه النقاد ، والبلاغيون العرب في تناولهم للعلاقة بين السابق ، واللاحق أنّه يحقّ لللاحق الإفادة من السابق ، من معناه مطلقاً ، ومن لفظه بشرط أنّ يُغيّر فيه بالنقص منه ، أو الزيادة فيه ، أو بنقله من معنًى إلى معنًى ، أو تحويله من قالب قنيّ إلى قالبٍ آخر))^(١٢) . وتتفق نظرة القدماء للتناص مع نظرة علماء النصّ المحدثين ، إذ ليس التناص عندهم مجرد نقل شيء من نصوص سابقة إلى النصّ الحاضر ، وإنّما لا بدّ أنّ يقتضي هذا النقل تفاعلاً ، وتعالقاً بين النصّ الغائب ، والنصّ الحاضر ؛ ولذا إنّ كلّ

(١) ينظر : التعريفات ، والكليات ، وكشاف اصطلاحات الفنون .

(٢) الكليات : ٧٦٥ .

(٣) المصطلحات الأساسيّة في لسانيات النصّ ، وتحليل الخطاب دراسة معجميّة : ١٠١ .

(٤) النصّ والخطاب والإجراء : ١٠٤ .

(٥) المعايير النصيّة في القرآن الكريم : ١٧٥ .

(٦) التناص ، دراسة في الخطاب النقديّ العربيّ : ١٧٠ .

(٧) كذا ، والصحيح : بوساطة .

(٨) كذا ، والصحيح أنّ تُحذف ؛ لأنّ (بين) المتقدمة دالّة على التوسط بين اثنين من دون الحاجة إلى تكرارها .

(٩) علم النصّ : ٢١ . وينظر : المعايير النصيّة في القرآن الكريم : ١٧٥ .

(١٠) بلاغة الخطاب وعلم النصّ : ٣٠٩ - ٣١٠ . وينظر : المعايير النصيّة في القرآن الكريم : ١٧٦ - ١٧٧ .

(١١) نظرية النصّ ، ضمن كتاب (دراسات في النصّ والتناصية) : ٣٨ .

(١٢) ينظر : المعايير النصيّة في القرآن الكريم : ١٧٧ - ١٧٩ .

(١٣) المعايير النصيّة في القرآن الكريم : ١٧٩ .

التنافس في دراسات العرب المحدثين :

أخذ علماء النص العرب المحدثون هذا المصطلح عن الغربيين ، ولكنهم اختلفوا في فهمهم لهذا المصطلح ، وكيفية وجوده ، وتحققه ، فالدكتور تمام حسان يرى أنَّ التناص ((علاقة تقوم بين أجزاء النص ببعض، كما تقوم بين النصّ ، والنصّ ، كعلاقة المسوّدة بالتبويض ، وعلاقة المتن بالشرح ، وعلاقة الغامض بما يوضّحه ، وعلاقة المحتمل بما يُحدّد معناه ، وهذه العلاقة الأخيرة هي المقصودة بعبارة : القرآن يُفسّر بعضه بعضاً))^(٢) . ويرى الدكتور سعيد بحيري أنَّ التناص ((يختص بالتعبير عن تبعيّة النصّ لنصوص أخرى ، أو تداخله معها))^(٣) ، أمّا الدكتور محمد عبد المطلب ، فيحصر التناص في نمطين أساسيين : ((أولها : يقوم على العفويّة ، وعدم القصد ، إذ يتمّ التسرب من الخطاب الغائب إلى الحاضر في غيبة الوعي ، أو يتمّ ارتداد النصّ الحاضر إلى الغائب في نفس الطرف الذهني . ثانيهما : يعتمد على الوعي ، والقصد بمعنى أنَّ الصياغة في الخطاب الحاضر تُنبئ إلى نصّ آخر ، وتكاد تحدده تحديداً كاملاً يصل إلى درجة التنقيص ، وهنا يطفو على السطح مفاهيم الملاقحة ، والمثاقفة ، والسراقات الأدبيّة ، والمعارضة ...))^(٤) . والتناص الذي يكون ألصق بنحو النصّ هو الذي ((يحمل خصوصيّة التطبيق ، فبدلاً من أن تكون هذه المفاهيم ، والصور المطروحة بين نصّ حاضر ، ونصوص أخرى غائبة ، فإنّ التناص المقصود هنا ينصبّ على النصّ الواحد دون نصوص أخرى))^(٥) . ويتبيّن من ذلك أنَّ للتناص مفهومين : أحدهما : يدلّ على تداخل نصوص ماضية في نصّ حاضر ، تتفاعل ، وتتربط معه على المستوى النحويّ ، والدلاليّ ، وهذا شأن في الدراسات الأدبيّة ، والنقدية ، والأسلوبية ، والعلاقة وثيقة بينها ، وبين نحو النصّ في التحليل النصّي . أمّا الآخر : فهو التناص لغرض تفسير شيء غامض ، أو تحديد لمعنى محتمل ، أو جواب عن سؤال ، أو تفصيل مجمل ، وغيرها من الوجوه ، وعلاقة نحو النصّ بهذا أوثق من الأول^(٦) . إنّ العلاقة القائمة على التناص ((بين النصّ المُبدع ، والنصوص المستلّهة هي علاقة اتصال وانفصال ، هدم وبناء ، امتصاص وتحويل ، أي أنّها علاقة تفاعل ، وحوار ، وهذا ممّا يتأسّس على وجود مسافة بين النصّ ، والتراث من جهة ، وبينه وبين الواقع من جهة ثانية ... السياق –إذاً – فكرة لا بدّ من تواجدها عند نظرنا للتناص ، فبدون وضع النصّ في سياق ، يُصبح من المستحيل أن نفهمه فهماً صحيحاً ، وبدون فكرة السياق نفسها يتعثر علينا الحديث عن الترسيب ، أو النصّ الغائب ، والإزاحة ؛ لأنّ هذه المفاهيم –أيضاً – تكتسب معناها المحدّد من السياق الذي تظهر فيه ، وتتعامل معه . وهو لا يُسهّم فقط في تحديد الإزاحة ، وبلورة آلياتها ، ولكنه –أيضاً – يقوم بدور فعال في صياغة ملامح النصّ الجديد ، وفي

يظهر فيه))^(٧) .

تحديد علاقته بالعالم الذي

(١) نحو النص ، اتجاه جديد في الدرس النحوي : ٨١ . وينظر : المعايير النصية في القرآن الكريم : ١٧٩ .

(٢) المعايير النصّية في القرآن الكريم: ١٨٠ - ١٨١.

(٣) علم لغة النص ، المفاهيم ، والاتجاهات : ١٦٧ .

(٤) قضايا الحادثة عند عبدالقاهر الجرجاني: ١٥٣.

(٥) نحو النص ، اتجاه جديد في الدرس النحوي : ٨٣ .

(٦) ينظر: المعايير النصّية في القرآن الكريم: ١٨١ - ٢

(٧) نظرية علم النص : ١٩٧ .

(٨) سورة المائدة : ٤٥ .

(٩) سورة الفتح : ٢٩ .

(١٠) سورة البقرة : ٣٠ .

(١١) سورة البقرة : ١٣ .

(١٢) السورة نفسها : ١١٣ .

(١٣) الإِتْقَانُ فِي عُلُومِ الْقُرْآنِ: ٢ / ١٧٦. وينظر: المعايير النصّية في القرآن الكريم: ١٨٢ - ١٨٣.

(١٤) البرهان في علوم القرآن : ١ / ٤٢ .

المعرفة الواعية الضمنية لما سبقها من النصوص ، أو على الأقل بالتقاليد الأدبية التي تعارف عليها في هذا الجنس من الكتابة^(١). وللتناص ((بؤرة مزدوجة : إنه يلفت انتباهنا إلى النصوص الغائبة ، والمسبقة ، وإلى التخلّي عن أغلوطة استقلالية النص ؛ لأنّ أي عمل أدبي يكتب ما يحقّه من معنى بقوة كلّ ما كتب قبله من نصوص . كما يدعونا إلى اعتبار هذه النصوص الغائبة مكونات لشفرة خاصّة ، يُمكننا وجودها من فهم النصّ الذي نتعامل معه ... والتناص بذلك يطرح العديد من القضايا حول علاقة النصوص بعضها ببعض الآخر من جهة ، وعلاقتها بالعالم ، والمؤلف الذي يكتبها من جهة أخرى^(٢)). وطبقاً لهذا الفهم ، فالعمل الأدبي استعمال خاصّ للغة ، ورسالة مصوغة بلغة الفنّ ، وهو بذلك لا يكون منقطعاً عن اللغة التي كتب بها ، ولا يكون بمعزل عن وسائل الاتصال الاجتماعيّ الأخرى . ففهم العمل الأدبي يفرض علينا فهمه ، ومنحه معناه ضمن إطار اللغة التي أنتج فيها ، والسياقات ، والصياغات التركيبية ، والبلاغية التي تعرف عليها أهل هذه اللغة ، فأبى محاولة من القارئ لفك شفرته وفق أي نظام لا يراعي مرجعيته اللغوية ، والثقافية ، تؤدّي إلى تشويه معناه^(٣). وهذا لا يعني أنّ النصّ يجب أن يكون صورة مطابقة للمعهود من النصوص السابقة ، فقد يأتي النصّ الحديث بصياغة تخالف ما سبقه ، مع عدم خروجها عن المألوف ، والمتعارف . وقد جاء النظم القرآنيّ بفردة الصياغة القائمة على فكرة التمايز التي ((لا تستبصر النصّ إلا من خلال علاقته بغيره من النصوص ، معتنية بعناصر الاختلاف التي تميّز هذا الخطاب من ذاك ، على حين تصبو فكرة التفاضل إلى فحص القيمة الجمالية التي حققتها الخصائص التمييزية في هذا النصّ ، أو ذاك . كأنّ نظرية النص التي أنجزتها دراسات الإعجاز القرآنيّ كانت تستبصر النصّ الأدبيّ من خلال بعده : المرجعيّ ، وفردة التكوين الفنيّ له ... من هنا جاءت فكرة الموازنة بين النصّ القرآنيّ ، والنصّ غير القرآنيّ^(٤)). ففردة التكوين عند الرمانّيّ تؤسس على مقومات أربعة ، يوضّحها قوله : ((هذا الضرب من الإيجاز كثير ، وقد استحسّن الناس من الإيجاز قولهم : القتل أنفى للقتل ، وبينه وبين^(٥) لفظ القرآن تفاوت في البلاغة ، والإيجاز ، وذلك يظهر في أربعة أوجه : إنه أكثر فائدة ، وأوجز في العبارة ، وأبعد من الكلفة بتكرار الجملة ، وأحسن تأليفاً بالحروف المتلائمة^(٦)). فهذا التناص في المعنى بين القول العربيّ ، والآية القرآنية قد أثبت الفائدة للنصّ القرآنيّ ، وأنه يستطيع ((أداء المعنى المراد منه أدائه ، متقوفاً في هذا الأداء على أداء نصّ آخر في المعنى عينه من جهة ، ومضيفاً إليه معاني آخر تستحسن من جهة ثانية^(٧)).

أقسام التناص : قسم بعض المحدثين التناص على :

التناص الخارجي : ويعني العلاقة التي تربط النصّ المفرد بغيره من النصوص ، علاقة الفنون بعضها ببعض ، سواء أكانت من آثار المنتج نفسه ، أم من آثار غيره .

التناص الداخلي : هو الذي يعني ارتباط الأجزاء المختلفة للنصّ ، بعضها مع بعضها الآخر . والتناص الخارجي يقوم على كلّ التراكمات المعرفية السابقة للنصّ ، أو المتزامنة معه ، ف ((النصّ هو حالة بناء فنيّة هرمية التشكل ، والبناء ، فكلّ نصّ هو ذاكرة لما قبله من النصوص ، والتناص هو دراسة ، ورصد هذه التأثيرات النصّية في النصّ^(٨))) ، إذ يوظف النصّ كلّ ما يمكن أن يكون وسيلة لفهم النصّ ، أو جلب الانتباه ، أو قد يكون توضيحاً لغموض في النصوص السابقة ، فيقوم النصّ الجديد بإزالة هذا الغموض ، وهو ما سيُلاحظ في النصّ القرآنيّ الكريم . أمّا التناص الداخليّ ، فيكون في النصّ ذاته ، وهو - أيضاً - يحمل غايات استعماله ، فهو قد يضيف معلومة جديدة في الجزء اللاحق من النصّ ، أو قد يخصّص عاماً ، أو يقيّد مطلقاً ، أو يؤكد معيّ ، وغيرها . وعند دراسة التناص في السور المدنيّة من القرآن الكريم ، في ضوء هذين النوعين من التناص ، يُمكن أن نقسّم كل نوع منهما حسب الآتي :

التناص الخارجي في السور المدنيّة ، ويتحقّق في :

تناص المفردات : لورود مفردات غير عربيّة في النصّ القرآنيّ الكريم ، استعمال العرب بعضاً منها ، وجاء النصّ الكريم ببعضها الآخر . وهذه الألفاظ قد وردت إلى العرب ؛ لكون مسمياتها مستوردة من البلدان الأخرى ، وقد حُمِلَتْ للعرب مع احتفاظها بتسمياتها الأصلية - كما نستعمل اليوم السلع الحديثة الصنع مع مسمياتها - وقد تكون مناسبة للسياق الذي سَتعمل فيه من النصّ الكريم ، وقد يكون بعضها وصفاً لأشياء في الحياة الآخرة ، في الجنة ، أو في النار . فمن أمثلة المفردات الداخلة إلى العربيّة بسبب مسمياتها الأصلية ، مفردة (دينار) ، وذلك في قوله تعالى : ﴿مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقَبْطَارٍ يُؤَدُّ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدُّ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا تِلْكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾^(٩) فالدينار ((فارسيّ معرّب ... وهو وإن كان معرّباً فليس تعرف له العرب اسماً غير الدينار^(١٠))). فليس للعرب صناعة للعملة كي يطلقون عليها اسماً ، بل كانت النقود تُصنع في البلاد المجاورة لهم فكان اسم العملة مستورداً معها . ومن أمثلة استعمال الألفاظ المناسب للسياق الواردة فيه ، مفردة (الربانيون) ، إذ استعملت في قوله تعالى : ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّاتِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا

(١) ينظر : نظرية علم النص ، رؤية منهجية في بناء النصّ النثريّ : ١٩٤ - ١٩٥ .

(٢) نظرية علم النصّ : ١٩٥ .

(٣) ينظر : نظرية علم النصّ : ١٩٦ .

(٤) التأويل وقراءة النصّ في دراسات الإعجاز القرآنيّ ، دراسة في الهومينوطيقا الأدبية الإسلامية : ٧٦ - ٧٧ .

(٥) كذا ، والصحيح أن تحذف ؛ للاستغناء بالأولى .

(٦) النكت في إعجاز القرآن : ٧٧ .

(٧) التأويل وقراءة النصّ : ٧٨ . وينظر : النكت في إعجاز القرآن : ٧٧ - ٧٨ .

(٨) المعنى خارج النصّ : ١٣١ - ١٣٢ .

(٩) سورة آل عمران : ٧٥ .

(١٠) المعرّب من الكلام الأعجميّ على حروف المعجم : ١٨٧ . وينظر : مفردات ألفاظ القرآن : ٣١٨ .

اسْتَحْفَظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ...^(١) فقد جاء استعمال هذه المفردة مناسباً لسياقها ، إذ إنها : ((ليست بعربية ، إنما هي عبرانية ، أو سريانية))^(٢) . فقد ناسب استعمال هذه المفردة السياق الذي جاء فيه ، إذ إنَّ الكلام عن علماء اليهود ، وعُبادهم ، فكان ورود هذه المفردة مناسباً لما عُرف لديهم من مسميات يطلقونها على أهل الديانة فيهم . ومثلها مفردة (صلوات) في قوله تعالى : ﴿... وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهْذَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُتُكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا...﴾^(٣) . فالصلوات ((هي كنائس اليهود ، وهي بالعبرانية صلوتا))^(٤) . فقد ناسب استعمال هذه المفردة السياق الذي وردت فيه ، إذ جاء في سياق عذ أماكن العبادة ، فكان استعمالها مبيّناً للديانة المقصودة في الآية الكريمة . أمّا استعمال مفردات من الحياة الآخرة ، فمنها مفردة (جهنم) ، التي وردت في النصّ الكريم أكثر من سبعين مرّة ، منها قوله تعالى : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ الْأَعَزَّةُ بِالْإِثْمِ فَقَسَبَهُ جَهَنَّمَ وَلَيْسَ الْمُهَادَّةُ﴾^(٥) . فالمفردة ((اسم لنار الله الموقدة ، قيل : وأصلها فارسيّ معرّب))^(٦) . ومما يُمكن أن يُضاف إلى ما تقدّم أن ((أسماء الأنبياء - صلوات الله عليهم - كلّها أعجميّة ، نحو : إبراهيم ، واسماعيل ، واسحق ، وإلياس ، وإدريس ، وإسرائيل ، وأيوب ، إلا أربعة أسماء ، هي : آدم ، وصالح ، وشعيب ، ومحمد))^(٧) . كما يُمكن تأكيد الكلام المتقدّم في استعمال هذه الألفاظ في سياقاتها الخاصّة بها ، عند مراجعة بعض الألفاظ الأعجميّة ، ومنها لفظة (اليوم) ، التي استعملت في النصّ القرآنيّ ثمانين مرّة^(٨) ، كلّها في سياق الكلام عن فرعون ، أو عن بني إسرائيل ، من ذلك قوله تعالى : ﴿فَأَشْنَعْنَا مِنْهُمُ فَأَعْرَقَاهُمْ فِي الْيَمِّ يَأْتُهُمْ كُتُبٌ وَآيَاتُنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾^(٩) . ولعلّ هذا التخصيص في الاستعمال يُجيز احتمالاً آخر غير أن تكون الكلمة ((البحر بالسريانية))^(١٠) ، فيُقرّبها من اللغة القبطيّة .

تناسّ العبارات : تناسّ النصّ القرآنيّ - على مستوى العبارة - مع عبارات من الكتب السماويّة السابقة ، من تلك العبارات : عبارة (لا إله إلا الله) ، التي وردت في السور المدنيّة في موضعين^(١١) ، وقد وردت في بعض الكتب السابقة^(١٢) ومثلها عبارة (لا إله إلا هو) التي وردت في مواضع^(١٣) من النصّ القرآنيّ ، وهذه العبارة وردت في الكتب السابقة^(١٤) ، ومنها عبارة (الرحمن الرحيم) التي وردت في موضعين^(١٥) ، وهذه العبارة قد وردت في الكتب السابقة^(١٦) ، وغيرها من العبارات .

تناسّ القصص والأحداث : تتناول الكتب السماويّة السابقة للقرآن الكريم الكثير من الأحداث ، والقصص التي حصلت من خلق آدم A إلى خلق عيسى A ، وما جاء به من معجزات ، وما بشر به بعده . ولكنّ التزييف ، والتحريف الذي أصاب الكتب المقدّسة قبل بعث النبيّ محمد p ، وفي أثناء البعثة ، يجعل الباحث عن أيّ معلومة -فضلاً- عن التناسّ بين الكتب المقدّسة - حذراً في الأخذ بصحة هذه المعلومة . وكلّ ما يمكن فعله هو التعرّف على أصل هذه المعلومة ، وكيفية تطوّرها من كتاب إلى آخر ، ليكون النصّ القرآنيّ الكريم هو الفيصل في صحة ما يُنقل عن هذه الكتب ، فيكون المعيار في تصديقه ، أو تكذيبه لها . فمن القصص الرئيسيّة التي تناولتها الكتب السماويّة السابقة ، ووردت في القرآن الكريم ، ما يأتي :

رواية خلق الإنسان ، وعصيان آدم : تظهر هذه القصة في التوراة في صياغتين ، مرّة في نطاق خلق الأيام الستة (التكوين ١ : ١ - ٤) ، والثانية : رواية منفصلة (التكوين ٢ : ٢٤ - ٢٥) . وفيها يتمّ تخصيص الجنة لأوّل زوجين ، وإعلان تحريم الأكل من شجرة المعرفة ، وتنتهي الرواية بالعصيان ، والطرّد من الجنة (التكوين ٣ : ١٧) . وتظهر هذه القصة في القرآن الكريم في مواضع عدّة ، فقد وردت قصة خلق آدم عندما أعلن الله - تبارك وتعالى - للملائكة جعل الخليفة في الأرض ، وذلك في سورة البقرة (٣ - ٣٩) . وعند محاولة إجراء مقارنة بين النصّين ، يتبيّن ما يأتي :

ما ورد في العهد القديم

ما يُشر النصّ الكريم إلى المادة التي خلّق منها آدم A

القصة على شكل حوار ، وليس سرداً للأحداث . وهذا الحوار كان سببه التعرّف على دقائق أفكار الملائكة من

الإشارة إلى خلق الإنسان من تراب الأرض .

وصف الجنة بأنّ أنواع الشجر موجود فيها ، وفي وسط الجنة شجرة الحياة ، وشجرة معرفة الخير والشرّ .

- (١) سورة المائدة : ٤٤ . واستعملت في سورة آل عمران : ٧٩ ، وسورة المائدة : ٦٣ .
- (٢) المعرّب : ٢٠٩ . وينظر : مفردات ألفاظ القرآن : ٣٣٧ .
- (٣) سورة الحج : ٤٠ .
- (٤) المعرّب : ٢٥٩ .
- (٥) سورة البقرة : ٢٠٦ .
- (٦) مفردات ألفاظ القرآن : ٢٠٩ - ٢١٠ (جهنم). وينظر : المعرّب : ١٥٥ .
- (٧) المعرّب : ٦١ .
- (٨) ينظر : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم (بم) .
- (٩) سورة الأعراف : ١٣٦ . وينظر : سورة طه ، الآيات (٣٩ ، ٧٨ ، ٩٧) ، وسورة القصص ، الآيات (٧ ، ٤٠) ، وسورة الذاريات ، الآية (٤٠) .
- (١٠) المعرّب : ٤٠٣ .
- (١١) وردت في سورة محمد : ١٩ ، ووردت بصيغة (ما من إله إلا الله) في سورة آل عمران : ٦٢ .
- (١٢) ينظر : الكتاب الشريف ، الكتاب الثاني للنبيّ صموئيل ٧ : ٢٢ ؛ ٢٢ : ٢٢ ، والكتاب الأول أخبار الأيام ١٧ : ٢٠ ، والمزامير ١٨ : ٣١ ، وأشعيا ٤٥ : ١٤ ، وإنجيل مرقس ١٢ : ٣٢ .
- (١٣) وردت في سورة البقرة : ١٦٣ ، ٢٥٥ ؛ آل عمران : ٢ ، ٦ ، ١٨ ؛ النساء : ٨٧ ، وغيرها .
- (١٤) الكتاب الشريف ، التنبيه : ٤ / ٣٥ .
- (١٥) ينظر : سورة البقرة : ١٦٣ ؛ سورة الحشر : ٢٢ .
- (١٦) الكتاب الشريف ، الخروج : ٣٤ ؛ المزامير ٨٦ : ١٥ ، ١٠٣ ؛ إنجيل لوقا ١ : ٧٨ .
- (١٧) ينظر : أسس الحوار في القرآن الكريم ، دراسة في علاقة الإسلام باليهوديّة والمسيحيّة : ١٠١ .

الإشارة إلى أَنَّ الله وضع الإنسان في الجنة ليفلحها ، ويعتني بها .

تحذير الإنسان من الأكل من شجرة معرفة الخير والشرّ (لأنك إن تَأْكَل منها تموت) .

الإشارة إلى إحضار الوحوش ، والطيور أمام آدم ليرى ما يُسميها ، فكان كلّ اسم يطلقه يصير اسم ذلك الكائن .

الإشارة إلى خلق (حواء) من ضلع آدم ، وتعليل تسميتها امرأة ؛ (لأنها من امرئ أخذت) .

الإشارة إلى غواية الحية لأدم وحواء بالأكل من شجرة معرفة الخير والشرّ .

الإشارة إلى معرفتهما بعريتهما بعد الأكل من الشجرة ، ومحاولتهما صناعة ملابس من ورق شجرة التين .

الإشارة إلى أَنَّ آدم سمى زوجته حواء ؛ (لأنها أم كلّ حي) .

الإشارة إلى تخوّف الله تعالى من أَنَّ الإنسان قد يمدّ يده ، فيأخذ من شجرة الحياة ، كما أخذ من شجرة معرفة الخير والشرّ ، فيحيا إلى الأبد ، فطرده الله من جنة عدن ؛ ليفلح في الأرض التي أخذ منها ^(١) .

خلال ألسنتهم مباشرة .

يُلاحظ أَنَّ القصة تُشير إلى إخبار الله تبارك وتعالى للملائكة بجعل الخليفة في الأرض ، وموقفهم حيال هذا الخليفة ، مع معرفة أَنَّ تراكيبهم لا يتجاوزها طرفان من الصراع بين الخير والشرّ ، أو بين العقل والشهوة .

القصة تسير باتجاه هدف معين تريد تحقيقه هو إبراز (علم الله) الذي يجعل الملائكة المختارين وفق تركيبة خاصة لا يُمكنهم أَنْ يقفوا على أسرار هذا العلم .

تُظهر القصة إكساب الشخصية الأدمية قدراً من التقدير والتفضيل من خلال إنبائهم بالأسماء التي عجز عنها الملائكة ، ثمّ الأمر للملائكة بالسجود له إشعاراً بأهميته بعد أَنْ مهّد أسباب التفضيل .

ظهور عنصر جديد في القصة ، وهو إبليس ، وقد أحاطته القصة بغموض فني من حيث صلته بالملائكة ، وسبب الغموض أَنَّ هدف القصة الأول إبراز أهمية الكائن المخلوق ، والمُعَد لخلافة الأرض .

دخول عنصر جديد في القصة ، هو الزوجة ، ولم يذكر لها اسم في القرآن كلّاه .

شدّدت القصة على شيء من الجنة ، وهي الشجرة التي لم يوضّح نوعها ، وتأكيد عدم التقرب منها ، والأكل من ثمرها .

إزال ل إبليس لهما ، وإخراجهما من الجنة بسبب ذلك ^(٢) .

يتبيّن من هذه المقارنة أَنَّ قصة خلق آدم A في الكتب الماضية كانت أشبه بسرد لحدث تاريخي خالي من أيّ قيمة فنيّة ، وحُدثت أحداث ، وأضيفت أحداث غير مقبولة ، ولا مناسبة لوصف الله تعالى بها . أمّا القصة القرآنية ، فقد أكدت أَنَّ (وجود خليفة في الأرض ، مزوّدة بطاقيّة (علميّة) تنبئ له معالم الخلافة ، هو عصب القصة ، كما أَنَّ وجود طرف آخر يقف حجراً أمام الطريق ، هو المسوّغ لدلالة التجربة الجديدة : ميلاد البشرية ، فالتجربة تتطلّب طرفين من الصراع ، من الممكن تجاوزها ما دام (العلم) الذي أودعته السماء في الشخصية الأدمية كفيل بإنارة الطريق لها ... [و] القصص القرآنيّ حينما يتّجه إلى شكل فنيّ خاص ، إمّا يستهدف من ذلك إلقاء إنارة ضخمة على دلالات القصة قبل كلّ شيء ، وإفادتنا - نحن القراء - من ذلك في محاولتنا لتعديل السلوك عبر مهمة خلافتنا في الأرض)) ^(٣) .

قصة هابيل وقابيل : سرّدت قصة ابني آدم A (قابيل وهابيل) ^(٤) ، وذلك في (التكوين ٤ : ١ - ٦) . وقد وردت قصتهما في سورة المائدة ، الآيات (٢٧ - ٣٢) ، ((وتعدّ القصة مختصرة للغاية مقابل قصة التوراة رغم ^(٥) أنها شملت بعض الإضافات)) ^(٦) . وعند محاولة إجراء مقارنة بين الروايتين ، يتبيّن ما يأتي :

القصة في القرآن الكريم

لم يُعرّف النصّ باسمي ولدي آدم .
ذكر القريانيين اللذين قدماهما ، من دون ذكر السبب لهما

تقبّل أحد القريانيين ، ورفض القرياني الآخر ، من دون ذكر السبب .

الحوار الذي دار بين الأخوين يُشكل تفسيراً لسبب الرفض ، والقبول ، فجواب هابيل المتملّ في قوله (إمّا يتقبّل الله من المتقين) .

لم يذكر النصّ نوع القرياني لأيّ منهما .
هدف النصّ الكريم إلى إبراز ظاهرة نقاء الأعماق ، أو التقوى من خلال جزئية سلوكيّة .

النصّ الكريم ركّز على تحديد السلوك ، وقد حدّده في

القصة في الكتاب الشريف

الإشارة إلى اسميهما ، و أنّهما أوّل ولدين لآدم .
بيّنت عمل كلّ واحد منهما ، (هابيل يرعى الغنم - قابيل فلاح الأرض) .

الإشارة إلى ذكر القرياني من دون ذكر السبب لذلك القرياني ، ولكّنها وضّحت نوع القرياني لكلّ واحد منهما ، مع الإشارة إلى أَنَّ هابيل قدّم (أفضل أبقار غنمه) .

الإشارة إلى قبول الله لقرياني هابيل ، وعدم رضاه عن قابيل وقربانه .

أشارت القصة إلى غضب قابيل ، وتحذير الله له من الخطيئة إنّ لم يُحسن التصرف .
الإشارة إلى طلب قابيل من أخيه الخروج للخلاء ،

(١) ينظر : الكتاب الشريف ، التكوين / ٢ : ٧ - ٢٥ ، ٣ : ١ - ٢٤ .

(٢) هذا الكلام يعتمد على ما جاء في سورة البقرة : ٣٠ - ٣٩ . والتحليل لمضامين الآيات اعتمد على كتاب (دراسات فنيّة في قصص القرآن : ١٢ - ٢١) .

(٣) دراسات فنيّة في قصص القرآن : ١٩ .

(٤) أسس الحوار في القرآن الكريم : ١٠٣ ، إذ ذكّرت اسميهما ، علماً أَنَّ النصّ القرآنيّ لم يُصرّح باسميهما .

(٥) كذا ، والصحيح : على الرغم من .

(٦) أسس الحوار في القرآن الكريم : ١٠٣ . وقد جعل المترجم اسم (قايين) بدل (قابيل) .

ثم هجمه عليه ، وقتله
حكم الله عليه باللعنة والطرده من الأرض

أشدّ مستوياته متملاً في عملية القتل التي تجسّد سلوكاً
مضاداً للتقوى لدى الطرف الآخر .

التناص الداخلي في السور المدنية :

يتحقّق التناص الداخلي في السور المدنية بالعلاقات الدلالية ، ومنها علاقات التكرار للعبارات ، والتراكيب اللغوية ، والآيات القرآنية ، وتكرار بعض القصص القرآنية ، وفيما يأتي تفصيل لها : يظهر التناص في العلاقات الدلالية الآتية :

علاقة الإطلاق – التقييد : يضع الزركشي قاعدة في الإطلاق ، والتقييد ، يقول فيها : ((إن وجد دليل على تقييد المطلق صير إليه ، وإلا فلا ، والمطلق على إطلاقه ، والمقيّد على تقييده ؛ لأن الله تعالى خاطبنا بلغة العرب . والضابط أن الله تعالى إذا حكم في شيء بصفة ، أو شرط ، ثم ورد حكم آخر مطلقاً نظر ، فإن لم يكن له أصل يردّ إليه إلا ذلك الحكم المقيّد وجب تقييده به ، وإن كان له أصل غيره لم يكن رده إلى أحدهما بأولى من الآخر))^(١). ورأى الزركشي أن اشتراط الرقبة المؤمنة في كفارة القتل ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً فَحَرِيرٌ رَقِيَّةٌ مُؤْمِنَةٌ وَدِيَّةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَحَرِيرٌ رَقِيَّةٌ مُؤْمِنَةٌ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَرِيَّةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرٌ رَقِيَّةٌ مُؤْمِنَةٌ هُنَّ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامَ شَهْرٍ يَنْتَابِعِينَ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾^(٢) ، وعدم اشتراطها في قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَظَاهَرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَحَرِيرٌ رَقِيَّةٌ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَمَاسَا ذِكْرَكُمْ تَوْعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾^(٣) ، فهو يرى عدم التصريح بالقيّد (مؤمنة) ، مع أنها مطلوبة في كفارة الظهار . وقد علّل أبو حيان تقييد الرقبة بـ (مؤمنة) في القتل ؛ لأنه ((لما أخرج نفساً مؤمنة عن جملة الأحياء ، لزمه أن يدخل نفساً مثلها في جملة الأحرار ؛ لأن إطلاقها من قيد الرق حياتها ، من قبل أن الرقيق ممنوع من تصرف الأحرار))^(٤). ومما يمكن أن يُضاف إلى ذلك أن النصّ المقدس قيّد الرقبة بـ (مؤمنة) ، من دون أن يوجد بديلاً آخر لها في الحالتين ، وهما أن يكون المقتول موصوفاً بالإيمان ، وذلك في قوله (مَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا) ، وفي قوله (وهو مؤمن) . أمّا في الحالة الثالثة ، وهي قوله (من قوم بينكم وبينهم ميثاق) ، فلم يشترط أن يكون المقتول مؤمناً ؛ ولذا فقد جعل الكفارة تحرير رقبة مؤمنة ، وقال (فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامَ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ) ، ويبدو أن سبب هذا الجواز في الحالة التالية ؛ لكون المقتول من غير المؤمنين . أمّا في آية المجادلة ، فالظاهر أن الذنب المرتكب ليس من كباير الأثم ، ولذا فلم يُقيّد تحرير الرقبة بـ (مؤمنة) ، فجاز بذلك تحرير غير المؤمن ، وإن كان تحرير المؤمن أولى عند وجوده ، وهذا ما ذهب إليه المفسرون^(٥). ومن التناص بالإطلاق ، والتقييد قوله تعالى : ﴿ ... وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ قِيمَتُهُ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾^(٦) ، الذي يتناص مع قوله تعالى : ﴿ ... وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾^(٧). فقد جعل الزركشي آية البقرة مقيدة للإطلاق في آية المائدة ، فقال : ((فأطلق الإحباط عليه ، وعلاقته بنفس الردّة ، ولم يشترط الموافقة عليه ، وقال في الآية الأخرى (ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم) ، وقيد الردّة بالموت عليها ، والموافقة على الكفر ، فوجب ردّ الآية المطلقة إليها ولا يُقضى بإحباط الأعمال إلا بشرط الموافقة عليها))^(٨). وهذا الرأي فيه نظر ؛ لأنه جعل الآية المتقدمة في النزول مقيدة للآية المتأخرة في النزول ، والمعلوم أن المتأخر يُقيّد المتقدم ، وليس العكس . ويبدو أن التقييد في آية البقرة سببه أنها نازلة في أول الهجرة ، فلم تقطع الرجاء منهم ابتداءً ، أمّا آية المائدة ، وهي آخر سورة نازلة على النبي ، فلم يعد هناك أمل منهم .

علاقة العموم – الخصوص : القاعدة في هذه العلاقة هي أن : ((لا يُستدلّ بالصفة العامة إذا لم يظهر تقييد عدم التعميم ، ويُستفاد ذلك من السياق))^(٩). ومنها قوله تعالى : ﴿ ... وَالَّذِينَ يُكْذِبُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُؤْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾^(١٠). فعدم تعميم هذه الآية ((لا يصلح الاحتجاج بها في إيجاب الزكاة في قليل الذهب ، والفضة ، وكثيره ، وفي المتنوع منهما من الحلّي ، وغيره . ألا ترى أن مَنْ ملك دون النصاب منهما غير داخل في جملة المتوعّدين بترك الإنفاق منهما ؟ وهذا يدلّ على أن القصد من الآية إثبات الحكم في ترك أداء الواجب من الزكاة منهما ، وفيها دليل على وجوب الزكاة فيهما ، وليس فيها بيان مقدار ما يجب من الحقّ فيهما))^(١١). ومن أمثلة هذه العلاقة التي يظهر فيها التناص ، قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّا أَسْلَخْنَا مِنْهُمُ الْحَرَمَ فَأَفْزَعُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْنَاهُمْ ... وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجْرُهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ... ﴾^(١٢). ويُلاحظ أنّ قوله (وإن أحد من المشركين) ((عطف على جملة (فاقتلوا المشركين) لتخصيص عمومها))^(١٣). ومثله قوله تعالى : ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَتَّخِضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ عَمُومَهُ))^(١٤).

(١) البرهان في علوم القرآن : ١١ / ٢ .

(٢) سورة النساء : ٩٢ .

(٣) سورة المجادلة : ٣ .

(٤) البحر المحيط في التفسير : ٢١ / ٤ .

(٥) ينظر : البحر المحيط : ١٠ / ١٢٣ ، وروح المعاني : ٢٨ / ٢٩٠ ، والميزان في تفسير القرآن : ١٩ / ١٣٨ – ١٣٩ .

(٦) سورة البقرة : ٢١٧ .

(٧) سورة المائدة : ٥ .

(٨) البرهان في علوم القرآن : ١٢ / ٢ .

(٩) المصدر نفسه : ١٣ / ٢ .

(١٠) سورة التوبة : ٣٤ .

(١١) البرهان في علوم القرآن : ١٣ / ٢ .

(١٢) سورة التوبة : ٥ – ٦ .

(١٣) تفسير التحرير والتنوير : ٢٤ / ١٠ .

مِنْهَا وَلَيُضْرَبَ نَ بِمُحْرَمٍ عَلَى جُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ ... ^(١) فهذا الحكم يشمل القواعد من النساء ، وغيرهن ، فجاء قوله تعالى : ﴿ وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَغْفِقَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ ^(٢) ، تخصيصاً لهذا العموم ، قال أبو حيان : ((ولما أمر - تعالى - النساء بالتحفظ من الرجال ، ومن الأطفال غير البالغ في الأوقات التي هي مظنة كشف عورتهم ، استثنى القواعد من النساء)) ^(٣) .

علاقة الناسخ - المنسوخ : انما النص القرآني بهذه العلاقة ، وهي علاقة ليست ((من قبيل التناقض في القول ، أو الاختلاف فيه ، وإنما هو ثلث من الاختلاف في المصادق الذي ينطبق عليه الحكم حيناً تحقيقاً لمصلحة ، ولا ينطبق حيناً آخر لعدم المصلحة ، بحسب التقدير الشرعي)) ^(٤) . فالنص القرآني لم يأت بالتشريع دفعة واحدة ، ((بل نزل نجوماً على قلب النبي ﷺ ، يتدرج مع الأحداث ، والوقائع ، وأن هذا التدرج تناول العادات الشعورية ، والتقاليد الاجتماعية التي أثر الإسلام أن يقف منها موقف المتمهل المترث ، مؤمناً بأن البطء مع التنظيم خير من العجلة مع الفوضى . ولدى تقصينا المراحل المتعاقبة في مكّي القرآن ، ومدنيّه ، كانت حاجتنا ماسة إلى علم قرآني يلقي الضوء ساطعاً على هذه الخطوات ، ويعين على تتبعها ، ورسمها بدقة بالغة ، وهو علم الناسخ والمنسوخ)) ^(٥) . ويتبين من ذلك أن ظاهرة النسخ كانت ((أمرأ لا بد منه في كل تشريع يحاول تركيز معالمه في الأعماق ، والأخذ بيد أمة جاهلة إلى مستوى عالٍ من الحضارة الراقية ، الأمر الذي لا يتناسب مع الطفرة المستحيلة ، لولا الأناة ، والسير التدريجي المستمر)) ^(٦) . والنسخ هو ((رفع أمر ثابت في الشريعة المقدسة بارتقاء أمده ، وزمانه سواء أكان ذلك الأمر المرتفع من الأحكام التكليفية ، أم الوضعية ، وسواء أكان من المناصب الإلهية ، أم من غيرها من الأمور التي ترجع إلى الله تعالى)) ^(٧) . وعلى الرغم من أن العلماء قد قسموا النسخ على ثلاثة أقسام ، إلا أن النسخ الموجود في القرآن الكريم هو (نسخ الحكم دون التلاوة) ، وهو ((أن تبقى الآية ثابتة في الكتاب ، يقرأها المسلمون عبر العصور ، سوى أنها من ناحية مفادها التشريعي منسوخة ، لا يجوز العمل بها بعد مجيء الناسخ القاطع بحكمها)) ^(٨) .

ومن أمثلة علاقة النسخ التي تظهر التناص في النص القرآني الكريم ، قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنْ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ الْآنَ خَفَّ اللَّهُ عَنْكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ أَلَمْ يَعْلَمِ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ يَا تَنَ اللَّهُ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ ^(٩) . فالذي يُلحظ أن هذا الاختلاف في عدد المقاتلين بالنسبة إلى عدد عدوهم يدل على أن الآية الثانية

ناسخة للأولى . ورأى السيد الخوئي رحمه الله ((لا نسخ في حكم الآية ، فإن القول بالنسخ يتوقف على إثبات الفصل بين الآيتين نزولاً ، وإثبات أن الآية الثانية نزلت بعد مجيء زمان العمل بالآية الأولى ، وذلك لنلا يلزم النسخ قبل حضور وقت الحاجة ، ومعنى ذلك أن يكون التشريع الأول لغواً ... ونتيجة ذلك أن حكم مقاتلة العشرين للمئتين استجابي ، ومع ذلك كيف يمكن دعوى النسخ على أن لازم كلام القائل بالنسخ أن المجاهدين في بدء الإسلام كانوا أربط جأشاً ، وأشد شكيم من المجاهدين بعد ظهور الإسلام ، وقوته ، وكثرة أنصاره ، وكيف يمكن القول بأن الضعف طراً على المؤمنين بعد قوتهم)) ^(١٠) . ورد بعض الدارسين هذا الرأي ، بقوله : ((أن العكس هو الظاهر من السياق ، فإن قوله تعالى (الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً) يدل بوضوح على تأخر نزول الثانية عن الأولى بفترة ، ربما غير قصيرة ، مرث خلالها تجربة عنيفة على المسلمين ، ظهر منها ضعفهم ، وتناقلهم عن التكليف الأول . فإن لفظة (الآن) تدل دلالة واضحة على تلك الفترة ، ولولاها لم يكن موقع لهذه اللفظة أصلاً . وهكذا التعبير بالتخفيف يدل على تكليف سابق شاق ، الأمر الذي يتناسب مع كونه إلزامياً لا استحبابياً وأخيراً فإن قوله (علم أن فيكم ضعفاً) أيضاً شاهد على ذلك ، إذ المعنى : ظهر أن فيكم ضعفاً ، مما يتناسب مع وقوع تجربة نبذ خلالها ضعف المسلمين ، ووهنهم عن مقاتلة أضعافهم بعشرات)) ^(١١) . ومن هذه العلاقة التناصية ، قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةٌ تِلْكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَظْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا عَلَى اللَّهِ غَفُورٌ رَحِيمٌ أَلَمْ تَشْفَعُوا أَنْ نَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَقْدُوا وَتَلَبَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَيْرٌ يَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ ^(١٢) . فالآية الأولى هي آية النجوى ، فرض الله تعالى تقديم صدقة من المسلمين حين طلبهم مناجاة النبي ﷺ ، لكن هذه الآية دُسخت بعد مدة ؛ وذلك لأن المسلمين لم يعملوا بها إلا الإمام عليّ أ ، فكانت الآية التالية لها ناسخة لحكم الآية الأولى . فالآيتان وإن كانتا متصلتين تلاوةً ، فهما غير متصلتين نزولاً ^(١٣) . ولعل السؤال الذي يمكن أن يُطرح ، لماذا ينزل الحكم بهذه الآية ، ثم يُنسخ في غضون عشرة أيام - على أبعد تقدير - كما يقول المفسرون ^(١٤) . والجواب أن الآية لم يعمل بها غير الإمام عليّ أ ، مع أن بعض المسلمين موسورو ، ولكنهم - كما تصفهم الآية الكريمة - (أشفقتهم) ، و (الإشفاق : عناية مختلطة بخوف ؛ لأن المشفق يحب المشفق عليه ،

(١) سورة النور : ٣١ .

(٢) سورة النور : ٦٠ .

(٣) البحر المحيط : ٨ / ٧٠ . وينظر : الميزان في تفسير القرآن : ١٥ / ١١٥ .

(٤) موجز علوم القرآن : ٢٢ .

(٥) مباحث في علوم القرآن : ٢٥٩ .

(٦) تلخيص التمهيد : ١ / ٤١٦ .

(٧) البيان في تفسير القرآن : ٢٩٤ .

(٨) تلخيص التمهيد : ٤٣٧ .

(٩) سورة الأنفال : ٦٥ - ٦٦ .

(١٠) البيان في تفسير القرآن : ٣٧٤ .

(١١) تلخيص التمهيد : ٤٤٤ .

(١٢) سورة المجادلة : ١٢ - ١٣ .

(١٣) ينظر : روح المعاني : ٢٨ / ٣١٥ ، والميزان في تفسير القرآن : ١٩ / ١٤٦ .

(١٤) ينظر : روح المعاني : ٢٨ / ٣١٥ ، والميزان في تفسير القرآن : ١٩ / ١٤٦ .

ويخاف ما يلحقه))^(١)، وقوله (فإن لم تجدوا فإن الله غفور رحيم) فيه دلالة ((على رفع الوجوب عن المعدمين ، كما أنه قريبة على إرادة الوجوب في قوله (فقدّموا) ... ووجوبه على الموسرين))^(٢). وفي الآية مخالفة للأمر الإلهي الصادر إليهم ، وذلك في قوله (فإن لم تفعلوا) ، وذنب مرتكب بدليل قوله (وتاب الله عليكم) ، إذ ((فيه إشعار بأن إشفاعهم ذنب تجاوز الله تعالى عنه))^(٣) ؛ ولهذا نسخ الحكم الذي فيها .

علاقة التناص بالتكرار : وتنقسم هذه العلاقة إلى أقسام ، هي :

التناص بتكرار اللفظ : وذلك أن يتكرر اللفظ في آيات من سور عدة ، أو في آيات من السورة نفسها ، فمن تكرار اللفظ في آيات من سور عدة ما ذهب إليه الكرمانى من تكرار اللفظ (سبح) ، ومشتقاته ، فقال : ((هذه الكلمة استأثر الله بها ، فبدأ بالمصدر في بني إسرائيل (الإسراء) ؛ لأنه الأصل ، ثم الماضي ؛ لأنه أسبق الزمانين ، ثم المستقبل ، ثم الأمر في الأعلى ؛ استيعاباً لهذه الكلمة من جميع جهاتها ، وهي أربع : المصدر ، والماضي ، والمستقبل ، والأمر للمخاطب))^(٤). وقد اعتمد الكرمانى في ذلك ترتيب المصحف ، فبدأ بآية الإسراء ، وهي قوله تعالى : ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَ الْاَاقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾^(٥)، ثم قوله تعالى : ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^(٦)، وقد شابهها في صيغة الماضي قولان من سورتي الحشر ، والصف ، وذلك في قوله تعالى : ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^(٧)، وقوله تعالى : ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^(٨)، ثم جاء اللفظ بصيغة المضارع ، وذلك في قوليه من سورتي الجمعة ، والتغابن ، وهما قوله تعالى : ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^(٩)، وقوله تعالى : ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(١٠) ، ثم أمر الناس بالتسبيح ، وذلك في قوله تعالى : ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾^(١١).

التناص بتكرار العبارات : وذلك أن تكرر عبارة من آية قرآنية في آية أخرى ، وقد يكون هناك فارق بين لفظي العبارتين ، سببه السياق الذي جاءت فيه كل منهما ، من ذلك قوله تعالى : ﴿.. وَمَا أَهْلٌ بِهِ لغير الله...﴾^(١٢)، الذي يتناص العبارة نفسها ، لكن بتأخير شبيه الجملة (به) عن شبيه الجملة (لغير الله) ، وذلك في قوله تعالى : ﴿.. وَمَا أَهْلٌ لغير الله...﴾^(١٣). وقد علّل الكرمانى ذلك ، بقوله : ((لأن تقديم الباء الأصل ، فإنها تجري مجرى الهمزة ، والتشديد في التعدي ، فكانت كحرف من الفعل ، فكان الموضع الأول أولى بما هو الأصل ؛ ليعلم ما يقتضيه اللفظ . ثم قدم فيما سواها ما هو المستنكر ، وهو الذبح لغير الله ، وتقديم ما هو الغرض أولى))^(١٤). ومثله تناص عبارة (إن الله غفور رحيم) في قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَيْزِرِ وَمَا أَهْلٌ بِهِ لغير الله هُنَّ اضْطَرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(١٥) ، مع قوله تعالى ﴿لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خَيْزِرٍ فَإِنَّهُ رَجَسٌ أَوْ فِسْقًا أَوْ أَهْلٌ لغير الله بِهِ هُنَّ اضْطَرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(١٦). فيلاحظ التناص بين العبارتين ، لكن مع استبدال لفظ (ربك) بلفظ (الله) – تبارك وتعالى - ، ورأى الكرمانى أن سبب هذا الاستبدال ؛ ((لأن لفظ الرب تكرر في الأنعام مرات ؛ ولأن في الأنعام قوله (وهو الذي أنشأ جنات معروشات). وفيها ذكر الحبوب ، والثمار ، وأتبعها بذكر الحيوان من الضأن ، والمعز ، والإبل ، وبها تربية الأجسام ، فكان ذكر الرب فيها أليق))^(١٧). ومن تناص العبارة في السورة نفسها ، قوله تعالى : ﴿أَجَلٌ لَكُمْ لَيْلَةُ الصِّيَامِ الرِّقْتُ إِلَيَّ نَسْلِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلَّمَ اللَّهُ أَنْتُمْ كُنْتُمْ تَخْتَاوْنَ أَمْ نَفْسُكُمْ قَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُمْ وَأَنْبِئُوهُمْ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكَلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتَمُوا الصِّيَامَ إِلَى الْكَالِ وَلَا تَبَاشَرُوهُمْ وَلَا تَبَاشِرُوهُمْ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾^(١٨) ، الذي يتناص مع قوله تعالى : ﴿الْفُلُقُ مَرَّتَانٍ فَاِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَجُلُ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا أَنْتُمْوهُنَّ بَيْنَا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا اقْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾^(١٩). فالتناص في عبارة (تلك حدود الله فلا تقربوها) مع عبارة (تلك

(١) مفردات ألفاظ القرآن : ٤٥٨ (شفق).

(٢) الميزان في تفسير القرآن : ١٩ / ١٤٦ .

(٣) روح المعاني : ٣١٦ / ٢٨ .

(٤) أسرار التكرار : ٢٠٠ .

(٥) سورة الإسراء : ١ .

(٦) سورة الحديد : ١ .

(٧) سورة الحشر : ١ .

(٨) سورة الصف : ١ .

(٩) سورة الجمعة : ١ .

(١٠) سورة التغابن : ١ .

(١١) سورة الأعلى : ١ .

(١٢) سورة البقرة : ١٧٣ .

(١٣) سورة المائدة : ٣ . وتكرر هذه العبارة في سورة الأنعام : ١٤٥ ، وسورة النحل : ١١٥ .

(١٤) أسرار التكرار : ٣٨ - ٣٩ .

(١٥) سورة البقرة : ١٧٣ .

(١٦) سورة الأنعام : ١٤٥ .

(١٧) أسرار التكرار : ٣٩ .

(١٨) سورة البقرة : ١٨٧ .

(١٩) نفسها : ٢٢٩ .

حدود الله فلا تعتدوها) . والاختلاف بين التناصين ؛ ((لأنَّ الحدَّ الأول ، وهو قوله (ولا تباشروهنَّ وأنتم عاكفون في المساجد) ، وما كان من الحدود نهياً أمر بترك المقاربة ، والحدَّ الثاني أمر ، وهو بيان عدد الطلاق بخلاف ما كان عليه العرب من المراجعة بعد الطلاق من غير عدد ، وما كان أمراً أمر بترك المجاوزة ، وهو الاعتداء))^(١).

التناص بتكرار الآية : جاء في السور المدنيّة تكرار الآية القرآنيّة بأكملها ، وذلك في سورة الرحمن ، إذ تكرر قوله تعالى : ﴿فَإِذَا يَئِ الْآءِ رَبُّكُمْ تَكْتَبَانِ﴾^(٢) . فقد تكرر هذه الآية في السورة الكريمة إحدى وثلاثين مرة ، ورأى الزركشي ((أنها وإن تعددت ، فكل واحد منها متعلق بما قبله ، وإن الله - تعالى - خاطب بها الثقلين من الإنس ، والجن ، وعدد عليهم نعمه التي خلقها لهم ، فكلما ذكر فصلاً من فصول النعم ، طلب إقرارهم ، واقتضاهم الشكر عليه))^(٣).

التناص بتكرار القصة : جاء في النصّ القرآنيّ الكريم تكرار لكثير من القصص السابقة ، خاصة قصص الأنبياء ، والمرسلين . من تلك القصص المكررة قصة النبيّ آدم A ، إذ تكرر في سور متعدّدة ، منها : البقرة ، الأعراف ، والحجر ، والإسراء ، والكهف ، وطه ، سورة ص ، فضلاً عن ذكر النبيّ آدم عليه السلام بصورة غير مباشرة ، وذلك من خلال ذكر حادثة ابنه (قابيل وهابيل) ، أو عند التمثيل بخلفه على خلق النبيّ عيسى A . ويلاحظ أنّ أول سورة - بحسب ترتيب المصحف - تتألف قصة آدم A هي سورة البقرة ، ((وتبدأ القصة من أقدم حدث فيها ، حين أبلغ الربّ - تعالى - ملائكته بقراره في أن يجعل في الأرض خليفة ، وذلك قبل خلق آدم ... لقد ذكر هذه الأوليات ... ولم يذكرها في موطن آخر ، وذكر هذه الأوليات في هذا الموطن بالذات ، له أكثر من دلالة فنيّة ، وغير فنيّة . ومن بين جوانبها أنها وردت في المكان المناسب لها تماماً ، فقد وردت أوليات القصة عند أول ذكر لها في أول سورة من سور القرآن ، كما أنها أول قصة افتتحت فيها القصص القرآنيّ))^(٤) . وذلك في قوله تعالى : ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُهْبِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٥) ، و يأتي أهم حدث في القصة ، والذي تتناص معظم السور القرآنيّة من خلال ذكره ، وذلك هو الأمر للملائكة بالسجود لآدم ، وامتناع إبليس عن السجود ، وذلك في قوله تعالى : ﴿إِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾^(٦) . ومما يلاحظ في التعبير القرآنيّ في هذه الحادثة ، أنه يذكر اسم (إبليس) صراحة عند عدم سجوده لآدم ، كما في الآية المتقدمة ، وعند استكمال القصة ، يستعمل التعبير القرآنيّ إمّا لفظ (الشيطان) ، أو أن يخرج من صنف الملائكة ، أو أن يعلن طرده من الجنة ، ولعنه من الله تعالى . من ذلك قوله تعالى : ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾^(٧) ، وقوله تعالى : ﴿إِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجَائِنِ فَهَقَّ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ...﴾^(٨) ، وقوله تعالى : ﴿قَالَ قَاخِرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾^(٩) . ويبدو أنّ استعمال لفظ (الشيطان) بدل لفظ (إبليس) ؛ لأنّ ((الشيطان اسم لكلّ عارم من الجنّ ، والإنس ، والحيوانات ... وسُمّي كلّ خلق ذميم للإنسان شيطاناً))^(١٠).

الفصل الرابع : القصديّة والمقبوليّة والإعلاميّة

توطئة

ترتبط المعايير الثلاثة (القصديّة ، والمقبوليّة ، والإعلاميّة) بأطراف عملية الاتصال (المنشئ - المتلقي - النص) ، فالقصديّة تبحث في المعنى الذي أراد المنشئ أن يوصله من خلال النصّ ، والمقبوليّة تبحث في الأثر الذي يحدثه النص في المتلقي ، فيؤدّي إلى قبوله ، أو رفضه معتمداً على المعايير الأخرى التي تساعده في عملية القبول ، أو الرفض . أمّا الإعاهيّة ، فتبحث في مقدار الجدّة ، والطرافة في النص ، بدءاً من الشكل الأدبي للنص (السبك) ، مروراً بالمحتوى المضموني (الحبك) ، ومناسبته لمقتضى الحال (المقاميّة) ، ومدى تأوّه بغيره من النصوص السابقة له ، والمتزامنة معه (التناص) ، وزيادة على المعيارين الآخرين موضوع هذا الفصل . إنّ هذه المعايير الثلاثة - مع المعايير السابقة - تعمل مجتمعة في تكوين فكرة عامّة تقييميّة للنص ، ويكون العمل فيها تكامليّاً ، وتبادليّاً ، فالقصد الذي يطلبه المنشئ ، ينتقل إلى المتلقي ، فإمّا يقبله ، أو يرفضه ؛ ليحقّق قبول المتلقي ، ويكسر توقّعه بالصياغة التركيبية ، أو بجدّة المحتوى المعنوي الذي يطرّحه في النصّ ، ((فكلما كان النص منسجماً متسقاً كان أكثر مقبولىّة ، وكلّما كانت هناك مقبولىّة كانت هناك قصديّة ، فالمنتج يحرص على أن يكون نصّه مقبولاّ لدى المتلقي ، والقبول لا يتحقّق إلا بالاتساق ، والانسجام))^(١١) . ولعلّ في المخطط الآتي بعض الإيضاح :

(١) أسرار التكرار : ٤١ .

(٢) سورة الرحمن : ١٣ .

(٣) البرهان في علوم القرآن : ١٥ / ٣ .

(٤) التعبير القرآنيّ : ٢٨٦ .

(٥) سورة البقرة : ٣٠ .

(٦) سورة البقرة : ٣٤ . وتنظر : سورة الأعراف : ١١ ، والحجر : ٢٨ ، والإسراء : ٦١ ، والكهف : ٥٠ ، طه : ١١٦ ، سورة ص : ٧١ - ٧٤ . ولم يذكر في سورة الحجر ، وسورة ص ، اسم النبيّ آدم صراحة ، وإمّا رمز له بلفظ (بشراً) .

(٧) سورة البقرة : ٣٦ . ومثلها في استعمال لفظ (الشيطان) سورة الأعراف : ٢٠ ، والإسراء : ٦٤ ، طه : ١٢٠ .

(٨) سورة الكهف : ٥٠ .

(٩) سورة الحجر : ٣٤ - ٣٥ . ومثلها سورة ص : ٧٧ - ٧٨ .

(١٠) مفردات ألفاظ القرآن : ٤٥٤ - ٤٥٥ (شطن) .

(١١) سورة البقرة ، دراسة في ضوء علم لغة النصّ : ١٥٢ .

وفيما يأتي إيضاح لكلّ معيار من هذه المعايير الثلاثة ، وبيان مظاهرها في السور المدنية ، ومعرفة مقدار تحقق هذه المعايير فيه ، وأثرها في تحقيق النصيّة .

المبحث الأول : القصديّة

القصديّة في اللغة والاصطلاح :

القصديّة لغة^(١) : قصد يقصد قصداً ، بمعنى : إتيان الشيء وأمه . وقصد في مشيه : اعتدل ، قال تعالى : ﴿ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ ... ﴾ (٢) . وسفر قاصد بمعنى : قريب ، ومنه قوله تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ ... ﴾ (٣) ، وإن كان الراغب قد فسره بكونه ((سفرًا متوسطًا غير متناهي البعد))^(٤) . **القصديّة اصطلاحاً** : لم يذكر الشريف الجرجاني مصطلح القصد ، أو القصديّة في كتابه . وذكر الكفوي مصطلح (الاقتصاد) ، ورأى أنه ((من القصد ، والقصد : استقامة الطريق . والاقتصاد - فيما له طرفان : إفراط وتفریط - محمود على الإطلاق))^(٥) . ويبدو أن الكفوي قد أخذ هذا التعريف عن الراغب ، ولكنه اقتطع جزءاً منه ، فالراغب جعل الاقتصاد ضربين ، أحدهما ما ذكره الكفوي ، والآخر ((يُكْنَى به عما يتردّد بين المحمود ، والمذموم ، وهو فيما يقع بين محمود ، ومذموم ...))^(٦) ، وعلى ذلك قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَى نِجْنَا مِنْ عِبَادِنَا هُمْ لَهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَائِقٌ بِالْخَيْرَاتِ ... ﴾ (٨) . أمّا عند المحدثين ، فقد عرّف بعضهم القصد بقوله : ((القصد توجه النفس إلى الشيء ، انبعاثها نحو ما تراه موافقاً ، وهو مرادف للنية . وأكثر استعماله في التعبير عن التوجّه الإراديّ ، أو العمليّ ، وإن كان بعض الفلاسفة يطلقونه على التوجّه الذهنيّ ... ويطلق اتجاه القصد في علم اللاهوت الأدبيّ على الموقف الفكريّ الذي يوجب على المرء فعل شيء له جانبان ، أحدهما جميل قبيح ، كالربّان الذي يخرق سفينته لا ليعرق أهلها ، بل ليقنّادي وقوعها في أيدي الأعداء ... فكأنّ قيمة الفعل تابعة لنية الفاعل ، أو كائنها مستقلة عن النتائج الخارجيّة الناجمة عنها))^(٩) .

القصديّة في دراسات العرب القدماء :

لم يكن مفهوم القصد غائباً عن الدراسات العربيّة القديمة ، على الرغم من عدم وجود تعريف واضح له . وقد كان لكلّ مستوى من مستويات اللغة فهم خاصّ للقصد يفتقر فيه عن المستويات الأخرى ، ويمكن تقسيم هذه المستويات على :

القصد عند اللغويين : يرى اللغويون أنّ القصد أساس مهم في اللغة ؛ لتحقيق التواصل الذي استعملت لأجله . فاللغة تعبير المتكلّم عن قصده ، وذلك التعبير ناشئ عن القصد بإفادة المعنى عند الكلام ، فلا بدّ من أنّ تصير ملكة متفردة في العضو الفاعل لها ، وهو اللسان^(١٠) . ويرى ابن سنان الخفاجيّ [ت ٤٦٦هـ] أنّ ((الكلام يتعلّق بالمعاني ، والفوائد بالمواضع لا لشيء من أحواله ، وهو قيل المواضعة ، إذ لا اختصاص له ، ولهذا جاز في الاسم الواحد أنّ تختلف مسمياته باختلاف اللغات . وهو بعد وقوع التواضع يحتاج إلى قصد المتكلّم له ، واستعماله فيما قرّرت المواضعة ، لا يلزم على هذا أنّ تكون المواضعة لا تأثير لها ؛ لأنّ فائدة المواضعة تمييز الصيغة التي متى أردنا مثلاً أنّ نأمر قصدناها ، وفائدة القصد أنّ تتعلق تلك العبارة بالمأمور ، وتؤثر في كونها أمراً له))^(١١) فالمتكلّم يعي ما يتكلّم به ، فهو ((قبل كلّ شيء يعني القصد إلى الفائدة بعد العلم بسنن المواضعة ، بل هو في كلّ لحظة من لحظات استعمال اللغة قصد لفائدة معيّنة طبقاً لسنن المواضعة العامّة في جهاز تلك اللغة مع تكريس مظهر من مظاهرها العمليّة في الممارسة ، ويمكن أنّ يؤوّل هذا الاستنباط إلى عدّ قانون القصد يتمثّل في القصد لا إلى مبدأ المواضعة بعدها فكرة مجردة لصيغة بالظاهرة اللغويّة العامّة ، وإنّما هو قصد ناموس معيّن من نواميس المواضعات اللغويّة بما يخرجها على سنن لغة معيّنة من اللغات))^(١٢) . يتبيّن من هذا الكلام أنّ اللغويين قد اشتهروا للتعبير عن المقصود معرفة المتكلّم بقواعد اللغة ، والمعاني التي تواضع عليها أهل اللغة للألفاظ ، زيادة على معرفة الصيغة المناسبة للمعنى المطلوب .

القصد عند البلاغيين : إنّ الباحث في كتب البلاغة لا يجد تعريفاً محدداً للقصد على الرغم من عناية البلاغيين به بشكل كبير ، وواضح ، إذ القصد من أهمّ مبادئ البلاغة الأساسيّة ، التي رسمت بها البلاغة قواعد تحليل الخطاب ، ومعايير إنتاجه ، إذ إنّ البلاغة العربيّة نظرت إلى تحقيق التواصل ، من خلال أطراف النصّ الثلاثة ، وهم : المبدع ، أو المتكلّم ، والمتلقي

(١) ينظر : كتاب العين : ٥ / ٥ ، وتاج اللغة وصحاح العربية : ٣٢١ / ١ ، ومعجم مقاييس اللغة : ٤٠٤ / ٢ ، وأساس البلاغة : ٥١١ - ٥١٢ ، ولسان العرب : ٣٢٣٢ - ٣٢٣٥ ، والقاموس المحيط : ٢٩٤ - ٢٩٥ (قصد).

(٢) سورة لقمان : ١٩ .

(٣) سورة التوبة : ٤٢ .

(٤) مفردات ألفاظ القرآن : ٦٧٢ (قصد).

(٥) ينظر : التعريفات .

(٦) الكلبيات : ١٣١ .

(٧) مفردات ألفاظ القرآن : ٦٧٢ .

(٨) سورة فاطر : ٣٢ .

(٩) المعجم الفلسفيّ : ١٩٣ / ٢ .

(١٠) ينظر : مقدمة ابن خلدون : ٦٢٤ . وينظر : القصديّة في القرآن الكريم : ٧ .

(١١) سرّ الفصاحة : ٦٦ - ٦٧ . وينظر : استراتيجيات الخطاب : ١٨٣ .

(١٢) التفكير اللسانيّ في الحضارة العربيّة : ١٤٥ . وينظر : القصديّة في القرآن الكريم : ٧ .

و النصّ المنتج . فالنصّ يحقق شروط العملية التواصلية من تطابق القصد مع الألفاظ المختارة لأداء المعنى التواصلية^(١) . والبلاغة هي التعبير عن المعنى بعبارة تُسهّل فهم الغرض المقصود بها ، ولذا ينقل الجاحظ قول بعضهم في البلاغة ، إذ هي : ((جماع البلاغة الإتماس حسن الموقع ، والمعرفة بساعات القول ، وقلة الخرق بما إلتبس من المعاني أو غمض (...))^(٢) . فقول (بما إلتبس من المعاني أو غمض) ، يعني : إلتبس في أدائه للقصد ، أو غموض القصد منه . ورأى الراغب أنّ ((بلاغة تُقال على وجهين : أحدهما أنّ يكون بذاته بليغاً ، وذلك بأنّ يجمع ثلاثة أوصاف : صواباً في موضوع لغته ، وطبقاً للمعنى المقصود به ، وصدقاً في نفسه ... والثاني : أنّ يكون بليغاً باعتبار القائل ، والمقول له ، وهو أنّ يقصد القائل أمراً ، فيورده على وجه حقيق أنّ يقبله المقول له))^(٣) . ويُعرّف الطيبيّ الفصاحة ، بقوله : ((صفة راسخة يقتدر بها المتكلم على التعبير عن المعنى المقصود بلفظ بيّن في حالتي الإفراد ، والتركيب))^(٤) .

القصد عند المفسرين : إنّ الجهد التفسيريّ الذي قام به المفسرون هو - في حقيقته - بيان للمقاصد الإلهية المتضمنة في النصّ القرآنيّ الكريم ، وكان عملهم يقوم على مرتكزين : ((الأول : القصد الإلهي ، وبلوغه ، وهو هدف عملهم . والثاني : الوسيلة الكامنة في النصّ لتحقيق ذلك الهدف))^(٥) . فالتفسير ((علم يبحث فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن ، ومدلولاتها ، وأحكامها الإفرادية والتركيبية ، ومعانيها التي تحمل عليها حالة التركيب ، وتنمات ذلك))^(٦) ، أو هو ((توضيح معنى الآية ، وشأنها ، وقصتها ، والسبب الذي نزلت فيه ، بلفظ يدل عليه دلالة ظاهرة))^(٧) ، أو هو ((إيضاح مراد الله تعالى من كتابه العزيز))^(٨) . فقد اتفقت التعريفات على أنّ المراد من التفسير هو بيان قصد القرآن ، وإيضاح دلالاته ، وشرح معناه ، إذ إنه كلام له دلالة ، ومعنى ، ولمنشئه هدف فيه ، وقصد^(٩) . ((إنّ الآيات القرآنية ، وكلّ التعبيرات الموجهة من قبل مخاطب لمخاطب ، تأتي لفائدة يصدر عنها فعل ، أو ردّ فعل ، وليست تذكره بأمر معلوم ، وخطاباً في غير فائدة))^(١٠) . ولم يكن المفسرون بهذا الهدف ، وهو الوصول إلى القصد الإلهي ، بل كان لهم اعتناء باللفظ القرآنيّ ، والتنظير لتراكم المعاني في اللفظ الواحد ، وتحقيقها به جميعاً ؛ وذلك لكونه مقتصداً في اللفظ الدالّ عليها ، ومكتنزاً لدلالات متعدّدة . وهذا الاقتصاد في اللفظ من الله تعالى ، جاء مراعيّاً للاستعمال العربيّ ، وعلى سنن كلامهم من الحذف ، والقصد إلى المعنى بالإشارة الموحى بها^(١١) . وإذا كان الدارسون - في بحثهم عن مواضع الإعجاز القرآنيّ - لم يقدّموا تعريفاً لهذا المعيار ، ولم يحدّدوا جوانبه ، وخصائصه ، ف ((إنّ الذي بقي واضحاً أنّ عمل الباحثين في الإعجاز إنّما هو قائم على تقديم تفسير أرحب لجوانب النصّ القرآنيّ ، وهو عمل يعتمد على كشف / شرح وتفسير لمقاصد الحكم في كتابه ، وبالتالي^(١٢) فإنّ عملهم إنّما ركّز على توضيح قصد المولى تعالى))^(١٣) .

القصد عند النحويين : أشار النحويون بشكل واضح إلى القصد من الكلام على الرغم من عدم استقراره مصطلحاً عندهم . فالنحو العربيّ بُني على القصد ، فهو الأساس في التفريق بين الجمل النحوية ، ولعلّ من أمثلة ذلك ، ما جاء في أحكامهم للمنادي ، قال سيبويه : ((وذلك أنّه إذا قال : يا رجل ، ويا فاسق ، فمعناه كمعنى : يا أيّها الفاسق ، ويا أيّها الرجل ، وصار معرفة ؛ لأنّك أشرت إليه ، وقصدت قصده))^(١٤) . وقد اشترط النحاة عدّ القصد في تسمية الكلام كلاماً ، فالكلام : هو القول المفيد بالقصد ، أي : ما دلّ على معنّى يحسن السكوت عليه . وأشار ابن مالك إلى مفهوم القصد من خلال مفهوم الإفادة من الكلام ، فقال : كلامنا لفظ مفيد ، كاستقم . ويشرح معنى هذا الشرط من البيت ، بقوله : ((الكلام ما تضمّن من الكلم إسناداً مفيداً مقصوداً لذاته))^(١٥) . وجعل الرضيّ للقصد أثراً مهماً في تحديد جنس الكلام ، فالفرق بين الجملة ، والكلام - كما الرضي - هو القصد ، إذ إنّ ((الجملة ما تضمّن الإسناد الأصليّ سواء أكانت مقصودة لذاتها أم لا ، كالجملة التي هي خبر المبتدأ ، وسائر ما ذكر من الجمل ، فيخرج المصدر ، وأسماء الفاعل ، والمفعول ، والصفة المشبهة ، والظرف مع ما أسندت إليه . والكلام ما تضمّن الإسناد الأصليّ ، وكان مقصوداً لذاته ، فكلّ كلام جملة ، ولا ينعكس))^(١٦) . وقد استعمل النحويون تراكم القصد في الفعل ، فمثلاً استعمال تركيب (ما كان ليفعل) لنفي قصد الفعل ، والأصل فيه عندهم ((ما كان قاصداً للفعل ، ونفي القصد أبلغ من نفيه))^(١٧) ، أي من نفي الفعل نفسه ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ

(١) ينظر : القصدية في القرآن الكريم : ١٢ .

(٢) البيان والتبيين : ٨٨ / ١ .

(٣) مفردات ألفاظ القرآن : ١٤٥ (بلغ).

(٤) التبيان في المعاني والبدع والبيان : ٤٦٨ . وينظر : الإيضاح في علوم البلاغة : ١٦ .

(٥) القصدية في القرآن الكريم : ١٨ .

(٦) البحر المحيط : ٢٦ / ١ .

(٧) التعريفات : ٥٠ .

(٨) البيان في تفسير القرآن : ٤٢١ .

(٩) ينظر : موجز علوم القرآن : ١٩ .

(١٠) التلويح والتأويل : ٣٥ - ٣٦ .

(١١) ينظر : إعجاز القرآن والبلاغة النبوية : ١٩٥ ، وينظر : القصدية في القرآن الكريم : ١٩ .

(١٢) كذا ، والصحيح : ومن ثم .

(١٣) الدرس النحويّ النصّي في كتب إعجاز القرآن الكريم : ١٥٧ .

(١٤) الكتاب : ١٩٧ / ٢ ، وينظر : القصدية في القرآن الكريم : ١١ .

(١٥) شرح التسهيل : ١٣ / ١ . وينظر : القصدية في القرآن الكريم : ٩ .

(١٦) شرح الكافية : ٣٣ / ١ .

(١٧) معني اللبيب عن كتب الأعاريب : ٢٧٩ / ١ ، وينظر : حاشية الصبان على شرح الأشمونيّ : ٢٩٣ / ٣ ، مع الهوامع : ٨ - ٧ / ٢ ، والقصدية في القرآن الكريم : ١٠ .

إِيمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ يَالْتَأَسُ لِرُغُوفِ رَحِيمٍ^(١)، ((فاللام جعلت بمنزلة ما لا يكون أصلاً))^(٢)، أي لنفي أن يكون الله - تبارك وتعالى - قاصداً تصبيح إيمانكم، وذلك طمأنة لنفوسهم، وتثبيتاً لهم.

القصد عند الأدباء والنقاد: يُعدّ القصد أحد مقومات الشعر عند الأدباء، والنقاد، فالشعر كلام موزون مقفّي إذا قصد فاعله ذلك^(٣). ونقل ابن منظور أنّ الشعر سُمّي قصيداً؛ ((لأنه قصد واعتمد، وإن كان ما قصر منه، واضطرب بناؤه نحو الرمل، والرجز شعراً مراداً مقصوداً، وذلك أنّ ما تمّ من الشعر، وتوقّر أثر عندهم، وأشدّ تقمّلاً في أنفسهم ممّا قصر، وأختلّ، فسمّوا ما طال، ووفر قصيداً، أي مراداً مقصوداً... وقيل: سُمّي الشعر التام قصيداً؛ لأنّ قائله جعله من باله، فقصد له قصداً، ولم يحسبه حسباً على ما خطر بباليه، وجرى على لسانه، بل روى فيه خاطره، واجتهد في تجويده، ولم يقتضبه اقتضاباً، فهو فعل من القصد، وهو الأمّ^(٤)). ويرى الباقلاني أنّ الشاعر ((اجتهد في اختيار اللفظ؛ ليكون معبراً عن القصد، والغرض، أو الموضوع المراد إيصاله إلى المتلقي. وإنما تعدّ شعراً ما إذا قصده صاحبه، وتأتى له، ولم يمتنع عليه))^(٥).

القصد عند الأصوليين: تقوم أغلب الأحكام الفقهيّة على القصد، مثل التفريق بين القتل العمد، والقتل الخطأ. وكذلك الأمر في العبادات، فإنها تابعة لتحقيق القصد في إيقاعها. والدلالة التصوريّة، والتصديقيّة لها علاقة بالقصد، فالدلالة التصوريّة لا تنظر إلى قصد المتكلّم في إخطار معنى الجملة لدى السامع، فإن الجملة التي ينطقها المتكلّم، تدلّ على معناها، سواء تحقّق قصد المتكلّم في ذلك أم لم يتحقّق^(٦). أمّا الدلالة التصديقيّة، فتحصل من ((تعهد المتكلّم بأن يقصد المعنى حين يأتي باللفظ))^(٧). واهتمّ الأصوليون بالاستعمال، إذ عرّف بعضهم الفقه بأنه ((المعرفة بقصد المتكلّم))^(٨). وعرف الكفوي الخطاب، بقوله: ((اللفظ المتواضع عليه المقصود به إيهام من هو متهبّ لفهمه))^(٩). ويرى الأصوليون صعوبة الوصول إلى مراد المتكلّم ضمن نطاق النصّ الإلهي انطلاقاً من خصوصيّة جهة صدوره، إذ يحول حائل دون السماع منه مباشرة، ولم يعد يتوقّ سوى خطابه المكتوب؛ ولذا حاول بعضهم - على اعتقادهم هذا - أن يستجلي الفرق بين الخطاب الإلهي، والخطاب البشري، بقوله: ((علم التفسير علم عسير يسير، أمّا عسره فظاهر من وجوه، أظهرها أنّه كلام متكلّم لم يصل الناس إلى مراده بالسماع منه، ولا إمكان للوصول إليه، بخلاف الأمثال، والأشعار، فإنّ الإنسان يمكن علمه بمراد المتكلّم بأن يسمع منه، أو يسمع ممّن سمع منه، أمّا القرآن، فتفسيره على وجه القطع لا يعلم إلا بأن يسمع من الرسول A، وذلك متعتر إلا في آيات قلائل. فالعلم بالمراد يستنبط بإمارات، ودلائل، والحكمة فيه أنّ الله تعالى أراد أن يتفكر عباده في كتابه، فلم يأمر نبيّه بالتنصيص على المراد، وإنما هو صوب رأي جماعة من المفسرين، فصار ذلك دليلاً قاطعاً على جواز التفسير من غير سماع من الله ورسوله))^(١٠).

القصد في الدراسات النصّية الحديثة:

القصد هو أحد المعايير السبعة التي وضعها روبرت دي بوجراند للنصّ، ورأى أنّه ((يتضمّن موقف منشئ النصّ من كون صورة ما من صور اللغة قصد بها أن تكون نصّاً يتمتّع بالسبك، والالتحام، وأنّ مثل هذا النصّ وسيلة من وسائل متابعة خطة معيّنة للوصول إلى غاية بعينها. وهناك مدّى للتغاضي في مجال القصد، حيث يظلّ القصد قائماً من الناحية العمليّة حتى مع عدم وجود المعايير الكاملة للسبك، والالتحام، ومع عدم تأدية التخطيط إلى الغاية المرجوة. وهذا التغاضي عامل من عوامل ضبط النظام، يتوسّط بين المراكز اللغويّة في جملتها، والمطالب السائدة للموقف))^(١١). إنّ القصد لبّ العمليّة التواصلية؛ لأنّه لا وجود لأيّ تواصل عن طريق العلامات من دون وجود قصديّة وراء فعل التواصل، ومن دون إبداع، أو في الأقلّ من دون توليف للعلامات. وغاية قصد المرسل هي إيهام المرسل إليه. ويشترط ليعبر المرسل عن القصد الذي يوصل إليه أن يمتلك اللغة في مستوياتها المعروفة، ومنها المستوى الدلالي، من خلال معرفته العلاقة بين الدوال، والمدلولات. وكذلك معرفته بقواعد تركيبها، وسياقات استعمالها، وعلى الإجمال معرفته بالمواضع التي تنظّم إنتاج الخطاب بها^(١٢). وهذه العلاقة بين الدالّ، والمدلول، والمعرفة بقواعد اللغة، يجب أن تكون ممكنة للمتلقّي على الذي قصده المتكلّم، ((إذ إنّ خلاف ذلك قد يغيب أساس ضمان عمليّة الفهم عن المخاطب في عمليّة التواصل. ولذلك يجب أن يفترض أنّ التعلّق بالممكن قصده من المتكلّم بالسباق اللغويّ محدّد قاعديةً، وأنّ المتكلّم، والمخاطب يتمكّن من القواعد بقدر مناسب))^(١٣). إنّ قصديّة النصّ لا تتمثّل فقط في الدلالة الكامنة فيه، وإنما تتمثّل - كذلك - في نيّة منتج النصّ في أن يوصل تلك الدلالة إلى المتلقّي^(١٤)، فهي ما يريده منشئ النصّ من خلال تعبيره، فما تعنيه هو: التعبير عن هدف النصّ

(١) سورة البقرة: ١٤٣.

(٢) البرهان في علوم القرآن: ٥٨ / ٣. وينظر: القصديّة: ١١.

(٣) العمدة: ١١٦.

(٤) لسان العرب: ٣ / ٣٢٣٣.

(٥) إيجاز القرآن: ١٢٧.

(٦) ينظر: البحث النحويّ عند الأصوليين: ١١، وينظر: القصديّة: ٢١.

(٧) بحث في علم الأصول، مباحث الدليل اللفظي: ١٠٦ / ١، وينظر: القصديّة: ٢١.

(٨) علم التخاطب الإسلامي، دراسة لسانيّة لمناهج علماء الأصول في فهم النصّ: ٧٧، وينظر: القصديّة: ٢٢.

(٩) الكليات: ٣٤٩، وينظر: القصديّة: ٢٣.

(١٠) البرهان في علوم القرآن: ٢٩ / ١، وينظر: القصديّة: ٢٤.

(١١) النصّ والخطاب والإجراء: ١٠٣ - ١٠٤، وينظر: المصطلحات الأساسية: ١٢٨.

(١٢) استراتيجيات الخطاب: ١٨٣.

(١٣) بعض مفاهيم أساسية لنظرية لغوية للنصّ، ضمن كتاب: إسهامات أساسية في العلاقة بين النصّ والنحو والدلالة: ٢٧.

(١٤) ينظر: نحو النصّ بين الأصالة والحداثة: ٨٩.

(١٥) ينظر: علم لغة النصّ، المفاهيم والاتجاهات: ١٦٦.

ويستمدّ القصد شرعية وجوده في الدراسات اللغوية من أن ((كل فعل كلامي يفترض وجود نية للتوصيل ، والإبلاغ ، إذ لا يتكلم المتكلم مع غيره إلا إذا كان لكلامه قصد))^(١) . ومعنى هذا أن للقصد ((تأثيراً في بنية النصّ وأسلوبه ، ذلك أن الكاتب يبني نصّه بناءً معيّناً ، ويختار لذلك الوسائل اللغوية الملائمة بما من شأنه أن يضمن تحقيق قصده ... إن تجسيد القصد ، أو النية يقتضي وضع خطة معينة تجعل النصّ يتسم بالترابط ، والاتساق ، ويسير في اتجاه غاية محدّدة))^(٢) . وعملية الإبداع تتم في إطار تفاعليّ مصحوبة بالقصد ، يحاول منتج النصّ من خلاله أن يجعل من الآخرين / المتلقين عوناً له ، فالمتلقي موجود في وعي المرسل ، إذ إنهما مرتبطان دلاليّاً في النصّ ، ((وهكذا نرصد دائماً حركة جدليّة بين الطرفين : المبدع ، والمتلقي ، تلك الحركة هي التي تُفسر لنا التداخل التقديرّي للمتلقى بشكل مستمر ... فوجود المتلقي المستمرّ في ذهن المبدع – سواء أثناء^(٣) وضعه لهدف معيّن في نصّه ، وهو التأثير في هذا المتلقي ، أو في تخطيطه الذي يضعه حتى يصل إلى هذا الهدف ... – يؤكد أن القارئ مشارك في عملية الإبداع))^(٤) . فالقصدية من المرسل ، والمقبولية من المتلقي عملتان تكاملتان ، والقارئ المشارك في عملية إبداع النصّ ((هو القارئ المثالي : واسع الاطلاع بالمعرفة الأدبية التاريخية ، والمسّاح بالقدرة على تسجيل كلّ انطباعات جماليّة تسجيلاً واعياً ، ثمّ إحالته مرّة ثانية إلى بنية فعالة للنصّ))^(٥) . ولعلّ المعرفة الأدبية ، والمقدرة النقدية عند المتلقي تكون أوسع نطاقاً من قدرات المبدع ، وموهبته الأدبية ، فيرى من الثغرات في نص المبدع ما لا يراها المبدع نفسه ، وسأذكر مثلاً على ذلك في مبحث المقبولية . أو لعلّ المنتج أراد معنى معيّناً ، فيأتي المتلقي ، فيخرج معنى لم يكن في حساب المنتج ، بل يفضل معناه ، وهو ما يثير إعجاب المنتج ، زيادة على أنه لم يكن قاصداً لذلك المعنى ، وفي الحادثة المروية عن أبي نواس خير دليل ، فقد روي أنه ((مرّ على أديب يُفيد الناس بشعره ، فلما افتتح قوله :

أَلَا فَاسْقِي خُمْرًا وَقُلْ لِي هِيَ الْخُمْرُ وَلَا تَسْقِنِي سِرًّا إِذَا أَمَكُنَ الْجَهْرُ

وقف ، وقال : أنظر ما عساه يقول . فقال ، أشار الشاعر بقوله : (وقل لي هي الخمر) إلى حظّ حسن السمع ليحظى بتمام حسّه . فتعجّب منه ، وقال : ما هجس المعنى في خلدِي))^(٦) .

القصدية ونظرية أفعال الكلام :

ترتبط القصدية ارتباطاً وثيقاً بنظرية الفعل الكلامي ، أو الإنجازية ، فالمتكلم ينتج بعض التراكمات اللغوية ، ويطلب المخاطب بإنجاز الحدث المعنوي المقصود من تلك التراكمات ، ف ((الاستعمال اللغوي ليس إبراز منطق لغويّ فقط ، بل إنجاز حدث اجتماعي في آن . فهناك أحداث كثيرة ننجزها من خلال نطق جملة ، أو نصّ ما))^(٧) . فالحدث اللغوي المنطوق المنطوق ، أو المكتوب محمّل بكمّ من المعلومات ، عند انتقالها إلى السامع / المتلقي ، تتّبع باستجابة من المتلقي ، أمّا أن يكون إنجازاً لغويّاً ، أو أن يكون في حياة عمل منجز ، قد تضمّن الكلام المنجز أولاً ، فنحن ((لا ننجز الأحداث الكلامية من أجل ذاتها ، بل ليتحقّق من خلالها ، أو بها شيء آخر))^(٨) . فالمتكلم / منتج الخطاب يؤدي من خلال الكلام وظيفة معيّنة ، تفهم من خلال الظروف المحيطة بالكلام ، والأسلوب التعبيريّ المستعمل ، ((ومن ثمّ كان لنظرية أفعال الكلام تأثير قويّ في حقل دراسات الخطاب على اعتبار^(٩) أن هذه النظرية تركز على وظيفة الخطاب في سياق معيّن))^(١٠) . وكان علماء الأصول ، وعلماء الكلام العرب – وعلماء البلاغة أيضاً – من أوائل الباحثين في هذه النظرية ؛ وذلك لأنّ كثيراً منهم اشتغل بالقضاء ، وزيادة على الفقه ، واستنباط الأحكام من القرآن الكريم ، والسنة النبوية الشريفة . وهذه الأعمال تتطلب جهداً كبيراً في البحث عن القصد ، وأنواع المعنى ، فأدّى ذلك بهم إلى دراسة الوضع ، والعرف ، دراسة دقيقة ، وبمنظر ثاقب . وقد أدركوا أن اللغة وسيلة للفعل ، زيادة على كونها وسيلة للإخبار ، والتقريب^(١١) . ومن الأفكار المهمة في نظرية الأفعال الكلامية ، التفريق بين الخبر ، والإنشاء ، وكان مقياس التفريق هو إمكانية الصدق ، والكذب ، فابن قتيبة – وكان من أوائل الذين ذكروا مقياس التأكيد ، والتصديق – يقسم الكلام على ((أربعة : أمر ، وخبر ، واستخبار ، ورغبة ، ثلاثة لا يدخلها الصدق ، والكذب ، وهي الأمر ، والاستخبار ، والرغبة ، وواحد يدخله الصدق ، والكذب ، وهو الخبر))^(١٢) . إن الوظيفة التي تتحقّق من نصّ لغوي ما ، هي ((المعنى الذي يتحصّل لنص ما في عملية تواصل ، أو بآئه الغرض الذي يحقّقه نص ما في إطار موقف تواصل))^(١٣) ، فالأفعال اللغوية ليست قصدية من المتكلم فقط ، بل هي متواضع عليها من الجماعة اللغوية ، فتكون بذلك أفعالاً عرقية أيضاً ، أي أنّ كلّ واحد من أبناء الجماعة اللغوية قد تعلّموا تلك الأعراف اللغوية ، وإن كان هناك تفاوت في درجة كلّ واحد منهم ، فيمكن ((للمتلقى أن يهنّدي بناءً على تلك القواعد ، والشروط السارية عرقياً مع منطوق ، أو نص ما إلى طريقة الفهم التي يطمح إليها الباحث ، أي يعرف ماذا ينبغي أن يعدّ المنطوق (أيعدّ خبراً أم سؤلاً أم أمراً ...) . التركيز يقع هنا على (ينبغي أن يعدّ ... أن المخاطب قد عرف (القصد الحقيقي) للمتكلم))^(١٤) . إن اختلاف المنهج الذي

(١) مدخل إلى علم النصّ ، ومجالات تطبيقه : ٩٦ .

(٢) مدخل إلى علم النصّ ، ومجالات تطبيقه : ٩٧ .

(٣) كذا ، والصحيح : في أثناء .

(٤) نظرية علم النصّ ، رؤية منهجية في بناء النصّ النثريّ : ٥٢ .

(٥) قضايا الحداثة عند عبد القاهر الجرجانيّ : ٢٢٨ .

(٦) التبيان في المعاني والبدع والبيان : ٣١١ . وينظر : البلاغة وتحليل الخطاب : ١٨٥ – ١٨٦ ، إذ روى الحادثة بطريقة مشابهة .

(٧) نظرية علم النصّ ، رؤية منهجية في بناء النصّ النثريّ : ٤٨ .

(٨) المصدر نفسه : ٤٨ .

(٩) كذا ، والصحيح : بعد هذه ...

(١٠) علم لغة النصّ ، النظرية والتطبيق : ٢٩ .

(١١) ينظر : نظرية الفعل الكلامي بين علم اللغة الحديث ، والمباحث اللغوية في التراث العربيّ الإسلاميّ : ٢٢٥ – ٢٢٦ .

(١٢) أدب الكاتب : ١٧ .

(١٣) التحليل اللغوي للنصّ ، مدخل إلى المفاهيم الأساسية والمناهج : ١٢١ .

(١٤) التحليل اللغوي للنصّ : ١٢٥ .

اتبعه علماء الأصول ، والمتكلمون قد جعل نتائج بحثهم تختلف بحسب اهتمام كل طائفة بما تطلب من النص ، فالنص (أساس مرجعي ، والفهم ، والإفهام وسيلة معرفية سُميت بالبيان عند كافة^(١) علماء المعرفة الإسلامية ، غير أن ما أضافه علماء أصول الفقه هو اهتمامهم بإعمال النص ، وربطه بأعمال المكلفين ، واستثماره في واقعهم ، وهذا ما جعل اشتغالهم على النص يتخذ بعداً متميزاً ، وإضافات مرموقة فيما يخص الجانب المنهجي ، والتأصيلي للأساليب اللغوية ، والبلاغية في فهم النصوص ، واستثمارها . في حين اتخذ الأصوليون المتكلمون اتجاهاً آخر بالخوض في العمق الميتافيزيقي ، والعقدي للغة ، وللأساليب البلاغية ، والوقوف على أبعادها الفلسفية ، والمنطقية^(٢))). وقد قسم المحدثون الأفعال الكلامية على : أفعال مباشرة ، وأفعال غير مباشرة . فالأفعال المباشرة : هي التي تعبر صراحة عن الغرض من الكلام ، سواء أكان إخباراً أم طلباً ، وتدل على هذه الأفعال صيغ اللغة ، وأساليبها ، والقوة الانجازية متضمنة في صيغ الجمل نفسها . أما الأفعال غير المباشرة ، فهي الأفعال الكلامية التي تنكئ على الأفعال الكلامية المباشرة ، فيتولد من استعمال الأساليب ، والصيغ المباشرة دلالات على غيرها ، والقوة الانجازية فيها مستلزمة من السياق الذي جاء فيه . فالأفعال الكلامية المباشرة تمثل المقاصد الظاهرة ، إذ هي تدل دلالة صريحة على المعاني المتضمنة في الصيغ ، والأساليب اللغوية المستعملة بشكل مباشر ، أما الأفعال اللغوية غير المباشرة ، فتمثل المقاصد الخفية ، وتدل على معنى آخر غير الظاهر من الفعل الكلامي ، وهذا المعنى يدل عليه السياق . ولعل مما يمكن أن يضاف إلى ذلك أن بعض الأفعال الانجازية التي طلبها الله - تبارك وتعالى - من طائفة من الناس ، وهم الكفار ، لم يكن الطلب فيها للقيام بالفعل المترتب على الطلب ، وإنما كان الغاية منه إظهار العجز البشري عن القيام به ، وأصدق مثال على ذلك يتجلى في التحدي للمشركون على الإتيان بمثل القرآن الكريم ، فمعلوم أن هذا الطلب جاء لإفحامهم بسبب الدعاوى التي أثاروها حول صدق الرسالة ، ونسبة الكلام إلى الله تعالى ، فجاء هذا التحدي على الإتيان بمثله تقريراً لهم ، وتبكيماً ، قال تعالى : ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(٣)، فهذا التحدي يبين أن النص الكريم قد قصد كل كلمة ، وكل تركيب ، ، ونفى عنه التناقض ، والاختلاف ، قال تعالى : ﴿فَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾^(٤) . ولعل في عدم استجابتهم للتحدي ، وعدم محاولتهم التأليف على شاكلة القرآن ، أو محاولة نظم كلام يقارب نظمه اعترافاً ضمناً بمقبولية النص - من ناحية جودة النظم وحسن السبك - فقد أظهروا إعجابهم ، وانهارهم بالنظم القرآني منذ بدء نزوله . والتحدي - أيضاً - يبرز الإعلامية التي ينطوي عليها النص ، إذ من غير المعقول أن يتحداهم إلى شيء معروف لديهم نظمه ، أو معناه ، ولا في شيء لديهم ما هو أفضل منه . فقصدية أي نص لا تكون فاعلة إذا لم يكن هناك متلق يُقبل على هذه القصدية ، فيتفاعل معها إما بقبول ، فيرى مصداقية القصد ، وجودة المعنى ، وصحة الفكر الذيفيه ، وإما بالرد ، فيظهر ما فيها من خلل ، أو عيب ، أو نقص .

آيات الأحكام التشريعية وأفعال الكلام :

إن الآيات القرآنية الكريمة التي جاءت لغرض التشريع ، سواء منها ما يختص بالعبادات ، أو ما يختص بالمعاملات ، فإن الغرض منها هو طلب الفعل الانجازي المتضمن فيها ، فالمسلم الذي يطرق سمعه الكلام الإلهي الذي يقره ، أو يسمعه من غيره من المسلمين مطالب بأداء الفعل العبادي ، أو العملي الذي ينطوي عليه المنطوق اللغوي منذ سماعه لذلك النص المطالب بالفعل الإجازي . وإذا كانت الأفعال الكلامية في العهد المكي تتعلق بالجانب العقائدي الصرف ، وهي الإيمان بالله تعالى أولاً ، وبصدق الرسالة المحمدية ثانياً ، والإيمان باليوم الآخر ، والحساب ، وغيرها ، وهي أكثر ما يدور حوله مضمون السور المكية . أما في العهد المدني ، فهو العهد الذي أصبحت فيه الكلمة للإسلام ، إذ أصبح معظم أهل المدينة المنورة يدين بالإسلام ، وليس هناك ما يخشون منه كي لا يظهروا أعمالهم العبادية ، التي يأمرهم الله تعالى بها ؛ ولذا يلحظ كثرة الآيات التي تتناول الأحكام الشرعية ، من صيام ، وزكاة ، وحج ، وغيرها ، هذا فيما يخص العبادات . والآيات التي تنظم أمور الحياة الاجتماعية ، من أحكام الموارث ، والطلاق ، والذين ، وغيرها فيما يخص المعاملات . وهذه الأفعال الانجازية يقسمها أصحاب التفسير ، وعلوم القرآن على : المُصرَّح بها / المقاصد الظاهرة ، وما يؤخذ بطريق الاستنباط / المقاصد غير الظاهرة ، وفي ذلك قال الزركشي : ((آيات الأحكام خمسمئة آية ... ثم هو قسمان : أحدهما ما صرح به في الأحكام ، وهو كثير ، وسورة البقرة ، والنساء ، والمائدة ، والأنعام مشتملة على كثير من ذلك ، والثاني : ما يؤخذ بطريق الاستنباط ، ثم هو على قسمين : أحدهما ما يستنبط من غير ضمنية إلى آية أخرى ... والثاني ما يستنبط مع ضمنية آية أخرى^(٥))). ولعل ما يلفت النظر أن آية الوضوء ، وهي في سورة المائدة ، وسورة المائدة من أواخر السور النازلة على النبي ﷺ ، والصلاة قد فرضت في السنة الخامسة من البعثة النبوية بعد الإسراء ، والمعراج ، فكيف كان القيام بالوضوء ، وليس هناك قرآن نازل به ، ينقل السيوطي أن هذه الآية داخلية في (ما تأخر نزوله عن حكمه) ، فآية الوضوء ((مدنية إجماعاً ، وفرض الوضوء كان بمكة مع فرض الصلاة ... والحكمة في نزول آية الوضوء مع تقدم العمل به ؛ ليكون فرضه متلوّاً بالتزليل))^(٦).

القصدية في السور المدنية :

إن البحث عن مظاهر القصدية في السور المدنية يمكن أن نتلمسها من خلال مستويات الدراسة اللغوية للنص ، ولذا البحث عن تلك المظاهر يُلاحظ عند تقسيمها على تلك المستويات ، وهي :

(١) كذا ، والصحيح : علماء المعرفة الإسلامية كافة .

(٢) المنهجية الأصولية والبحث البلاغي : ٢١ - ٢٢ .

(٣) سورة البقرة : ٢٣ .

(٤) سورة النساء : ٨٢ .

(٥) البرهان في علوم القرآن : ٥ / ٢ - ٦ .

(٦) الإتقان في علوم القرآن : ٧٥ / ١ .

القصد في مستوى الصوت : إن التناسق الصوتي في النص القرآني يدل على أن اختيار الألفاظ ، ونظمها في الآيات كان مقصوداً منه التأنيق الصوتي أولاً ، ثم يأتي البحث عن الإعجاز في بلاغته ، ومعانيه ، قال ابن قتيبة : ((... وجعله مثلواً لا مثل على طول تلاوته ، ومسموعاً لا تمجّه الأذان ، وغضاً لا يخلق على كثرة الرد ، وعجيباً لا تنقضي عجايبه))^(١) . وحين نبحث عن مواضع القصد من خلال الصوت ، يمكن إيجادها في :

التنظيم : وذلك بأن يكون ظاهر الكلام لمعنى ، ويكون المقصود معنى آخر يخرج إليه ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَتَّكُوراً ﴾^(٢) . فظاهر الآية يوحي أن الكلام للاستفهام ، ولكن علماء اللغة ، والمعاني يرون أن معنى (هل) هنا هو الإخبار لا الاستفهام ، فهي بمعنى : قد^(٣) .

زيادة اللفظ : يرى معظم علماء اللغة ، والنحو أن بعض الألفاظ في النص القرآني الكريم زائدة ، وأن زيادتها لغرض التوكيد ، من ذلك زيادة (ما) بين الجار ، والمجرور ، والناصب ، والمنصوب ، والجازم ، والمجزوم ، ومن أمثلة ذلك زيادتها في النص الكريم بين الجار والمجرور ، قوله تعالى : ﴿ فِيمَا رَحْمَةً مِنَ اللَّهِ لِيَأْتِ لَكُمْ وَكُلُّكُمْ عَلَى الْغَلِيظِ الْقَلْبِ لَانْفُصُوا مِنْ حَوْلِكَ ... ﴾^(٤) . فقد رأى كثير من العلماء^(٥) أن (ما) زائدة في قوله (فيماءرحمة) . وقد أنكر ابن الأثير زيادتها ، ورأى أنها ((وردت تفضيماً لأمر النعمة التي لان بها رسول الله ﷺ له ، وهي محض الفصاحة ، ولو عري الكلام منها لما كانت له تلك الفخامة ... ومن ذهب إلى أن في القرآن لفظاً زائداً لا معنى له ، فإما أن يكون جاهلاً بهذا القول ، وإما أن يكون متسماً في دينه واعتقاده))^(٦) .

اختلاف الصوت في الكلمات المترادفة : استعمل النص الكريم بعض المفردات المترادفة في المعنى ، وقد كانت متفقة البناء إلا في أحد أصواتها ، وكان اختيار ذلك الصوت مقصوداً لدلالة معينة ، من ذلك استعمال الاسمين الموصولين (اللاتي - اللاتي) في النص المقدس ، وقد كان استعمالهما يلقي بظلاله على المعنى الذي وردتا فيه ، فقد استعمل (اللاتي) في سياق الآيات التي تتناول موضوع الظهار ، وانقطاع الحيض عند المرأة ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ ... وَمَا جَعَلَ زَوَاجَكُمْ اللَّاتِي تَظَاهَرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ... ﴾^(٧) ، وقوله تعالى : ﴿ وَاللَّاتِي يَنْسُبْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّاتِي لَمْ يَحْضُنَّ وَأُولَاتِ الْأَحْمَالِ جُلُوهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ... ﴾^(٨) . أما (اللاتي) ، فقد استعملت في سياقات عدّة ، ليس فيها حصول ظهار ، أو طلاق مُعلن ، ولعل أقرب الاستعمالات التي فيها مفارقة بين الأزواج هي في قوله تعالى : ﴿ وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ قَاسَتْهُنَّ بِمَا قَاسَتْهُنَّ وَأُولَاتِ الْأَحْمَالِ جُلُوهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ... ﴾^(٩) . وليس فيها أي إشهار بالطلاق ، أو بالتحريم . وقد علّلت بعض الباحثات هذا الاستعمال القرآني للمفردتين بسبب طريقة نطق صوت الهمزة ، الذي يحتاج إلى جهد لينمّ النطق به ، ((فناسب صعبوبة النطق بالهمزة ثقل الطلاق ، والظهار ، وكان الهمزة تصوّر المعاني النفسية ، والأحداث المؤلمة الناتجة من هذين الأمرين))^(١٠) . ولعل ممّا يمكن أن يزداد أن ثقل نطق الهمزة يحكي ثقل النطق بعبارة الظهار ، أو الطلاق ، كما أن طريقة الهمزة ، الذي يتحقّق عند انفراج الوترين الصوتيين فجأة ، إحياء بمعنى المفارقة الحاصل في سياق الظهار ، والطلاق .

القصد في مستوى الصرف :

كان استعمال النصّ القرآني للصيغ الصرفيّة للمفردات مناسباً للقصد المطلوب من بنية الكلمة ، الذي يُراد من خلاله التعبير عن المعنى ، فاستعمل كلّ صيغة في موضعها المناسب ؛ لأنّ ((استعمال صيغة معينة في التعبير القرآني ، أو إثارة صيغة على أخرى ليس أمراً اعتباطياً ، وإما هو أمر مقصود قصداً))^(١١) . فمن مظاهر هذا الاستعمال المقصود للمفردات على مستوى الصرف ، ما يأتي :

اختلاف بناء الفعل من حيث التجرد والزيادة : ممّا اتفق عليه علماء اللغة ، والصرف أن أي زيادة في المبنى يُصاحبها زيادة في المعنى ، وكان هذا المبدأ مستنبطاً من النصوص البليغة ، وفي مقدمتها النصّ القرآني الكريم ، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى : ﴿ لَا يَكْفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعُهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ... ﴾^(١٢) . فالآية الكريمة استعملت صيغة الفعل (كسبت) للعمل الحسن ، واستعملت صيغة الفعل المزيد للعمل السيئ ، قال الزمخشري - متسائلاً - : ((لم خصّ الخير بالكسب ، والشرّ بالاكتساب ؟ قلت : في الاكتساب اعتمال ، فلما كان الشرّ ممّا تشتهي النفس ، وهي منجذبة إليه ، وأمارة به ، كانت في تحصيله أعمل ، وأحدّ ، فجعلت لذلك مكتسبة فيه ، ولما لم تكن في باب الخير وُصِفَتْ بما لا دلالة فيه على الاعتمال))^(١٣) . ويخالف ابن أبي الأصبغ الزمخشري ، فيقول : ((فطر الله سبحانه وتعالى الناس فطرة الخير ، فالإنسان بتلك الفطرة السابعة في أصل الخلق ، لا يُحسن أن يُنسب إليه إلا كسب الحسنات ، وأمّا ما يعمل من السيئات يعمل لمخالفته الفطرة ، فكأنه تكلّف من ذلك ما ليس في جبلته ، فوجب زيادة التاء التي للافتعال))^(١٤) . ولعلّ الرأي الذي أتى به ابن أبي

(١) تأويل مشكل القرآن : ١١ .

(٢) سورة الإنسان : ١ .

(٣) ينظر : معاني القرآن ، الفراء : ١٠٥ / ٣ ، والإيضاح في شرح المفصل ، ابن الحاجب : ٢ / ٢٣٥ ، ووصف المباني : ٤٧٠ ، والجنى الداني : ٣٤٤ .

(٤) سورة آل عمران : ١٥٩ .

(٥) ينظر : الكتاب : ٧٦ / ٣ ، ومعاني القرآن ، الأخفش : ١٤٩ ، والإيضاح في شرح المفصل : ٢ / ٢٢١ ، والجنى الداني : ٣٣٢ ، ووصف المباني : ٣٨٣ .

(٦) المثل السائر : ٣٥٨ / ١ .

(٧) سورة الأحزاب : ٤ . ومثلها في سورة المجادلة : ٢ .

(٨) سورة الطلاق : ٤ .

(٩) سورة النساء : ١٥ . واستعملت (اللاتي) - في السور المنيّة - في سورة النساء : ٢٣ ، ٣٤ ، ١٢٧ : سورة النور : ٦٠ ؛ وسورة الأحزاب : ٥٠ .

(١٠) القصيدة في القرآن الكريم : ٥٧ .

(١١) القصيدة في القرآن الكريم : ٦٩ .

(١٢) سورة البقرة : ٢٨٦ .

(١٣) تفسير الكشاف : ١ / ٣٢٧ .

(١٤) البرهان في إعجاز القرآن أو بديع القرآن : ٣٩١ - ٣٩٢ .

الأصبع أقوم من رأي الزمخشري، فانه - تبارك وتعالى - قد جَبَلَ النفس البشرية على الخير / الفطرة، فإنْ خالفتْ هذه الفطرة، فالسبب أما التربية، أو البيئة، أو غيرها من الأسباب.

استعمال الفعل في صيغتي الإدغام، وفك الإدغام: جَوَز علماء النحو في الفعل المدغم آخره فك الإدغام، أو إبقائه مدغماً، وقد جاء كلامهم هذا مبنيّاً على ما جاء في النصّ الكريم، والمستعمل من كلام العرب، إذ إنّ فكّ الإدغام لهجة حجازيّة، في حين أنّ الإدغام لهجة تميم^(١). وقد جاء النصّ الكريم مستعملاً للهجتين، من ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾^(٢)، وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ وَسُؤْلُهُ وَمَنْ يَشَاقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾^(٣). وناسب استعمال الفعل في حالتيه سياق الآيتين، ففي الإدغام شدة، ومبالغة في المشاقّة، وهي المخالفة المقصودة.

استعمال المفردة في حالتي الأفراد والجمع: استعمل النصّ الكريم بعض المفردات في صيغتي الأفراد، والجمع، وقد ناسب كلّ استعمال الموضع الأخصّ به، على الرغم من أنّ المثال الذي سيُعرض، كان المتوقع فيه أن تكون المفردة في حالة الجمع، فقصد إلى إفرادها، فحقّق بذلك أمرين، أولاً: القصد إلى المعنى المطلوب من الآية، وثانياً: الإعلامية التي حقّقها عندما كسر توقع المخاطب، إذ إنّ السياق الذي جاء فيه المفردة كان سياق الجمع إلا هذه المفردة، وهي (الطفل) مفردة، وذلك في قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَتَّخِضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنَاتِ أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوْ التَّابِعِينَ غَيْرَ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا يَٰهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(٤)، واستعملها جمعاً في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾^(٥). إنّ العرب تستعمل المفردة (طفل) للمذكر، والمؤنث، وللمفرد، والمثنى، والجمع، يقول ابن منظور: ((والعرب تقول: جارية طفلة، وطفل، وجاريتان طفل، وجوار طفل، وغلان طفل، وغلان طفل. ويقال طفل، وطفلة وطفلان، وأطفال، وطفلتان وطفلات في القياس))^(٦). واستعمال (الطفل) في الآية الأولى أنسب من استعمال صيغة الجمع (الأطفال)، وذلك لأنه - في الآية - يقصد به الجنس، ((فهو يشمل كلّ الأطفال، تقول: الطفل لا يعي، وتقصد به عموم الأطفال ... [و] كلمة (طفل) قد تصف بها العرب الواحد، والمثنى، والجمع ... فهذا تكون [شاملة لهم] ... [و] أما الطفل [في الآية]، فهو عام غير مختصّ بقرابة، بل يشمل جميع الأطفال، فناسب استعمال الجنس؛ لأنه يراد به العموم ... [و] أنّ المذكورين في الآية أشخاص متعدّدون الإحساس، والمواقف بالنسبة إلى الجنس، والزينة، فكّل واحد له إحساس خاصّ به، وأما الأطفال الذين لم يظهروا على عورات النساء، فموقعهم واحد متجانس، وهو عدم التمييز، فكأنهم شخص واحد لا تمايز بينهم، فأفردهم، وجعلهم كأنهم شخص واحد، فكان الأفراد ههنا أنسب))^(٧). أمّا في الآية الثانية، فاستعمال صيغة الجمع؛ لكون الآية ((مبنية على الجمع لا على الأفراد، ولا على الجنس))^(٨). وترى إحدى الباحثات أنّ السبب في الأفراد في الآية الأولى هو أنّ السياق ((يتحدّث عن الذين يسمح للنساء إبداء زينتهنّ أمامهم، وذكرهم بلفظ الجمع، وأفرد معهم الأطفال؛ ليميّزوا عنهم في إشارة إلى براءتهم، وخصوصيّة هذه البراءة))^(٩)، أمّا في الآية الثانية، ((فأورد صيغة الجمع للدلالة على أنّ الأطفال خرجوا من ذلك العهد الطفوليّ المشترك بينهم، وتمايزوا في شخصياتهم، وميولهم حتى أصبحوا جزءاً من الكبار، بقريظة قوله (بلغوا الحلم)، وقوله (منكم)، أي جزءاً لا يتجزأ من الكبار، وهو إخراج لهم من عهد الطفولة، فالجمع هو المناسب للمقام، وليس الأفراد))^(١٠).

إيثار الفعل المضعف على المجرد: يُستعمل الفعل المضعف العين في اللغة العربيّة لدلالات عدة، منها المبالغة، والتكثير، وغيرها، وقد وظّف النصّ الكريم هذه الدلالات في السياقات التي قصد منها إيصال هذا المعنى في هذه الصيغة، من ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذَا أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِطَرْفِ رِزْقِهِمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾^(١١). فالآية الكريمة جاءت في سياق إظهار نعمة الله تعالى على المسلمين؛ ولذا قصد عزّ وجلّ - أن ((يظهر نعمته على قريش، فيؤثّر فعل (يتخطّف) لا (يخطف)، ففيه زيادة التاء، والتشديد، زيادة على اختيار فعل الخطف الذي يفيد قوة المعتدي، وبطشه، وبالمقابل يفيد سهولة خطف المعتدى عليه؛ وذلك لتظهر جليّة رحمة الله، وعنايته بهم))^(١٢). ولعلّ ممّا يمكن أن يزداد على ذلك أنّ الفعل أسند إلى (الناس)، فكأنّ الناس جميعاً متفقون على التربص بهم، وانتظار الفرصة المناسبة لخطفهم، فلا يجدون فيهم من يكون عوناً لهم، ومدافعاً عنهم.

القصدية على مستوى التركيب:

(١) ينظر: اللهجات العربيّة في التراث: ٢٩٦ - ٢٩٧.

(٢) سورة النساء: ١١٥.

(٣) سورة الحشر: ٤.

(٤) سورة النور: ٣١.

(٥) سورة النور: ٥٩.

(٦) لسان العرب: ٣ / ٢٣٩٤.

(٧) بلاغة الكلمة في التعبير القرآني: ١٠٢.

(٨) بلاغة الكلمة في التعبير القرآني: ١٠١.

(٩) القصدية في القرآن الكريم: ٧٦.

(١٠) المصدر نفسه: ٧٧.

(١١) سورة الأنفال: ٢٦.

(١٢) جماليات المفردة القرآنية: ٢٥٣.

يخضع تركيب الكلام في كل لغة لنظام قواعدي ، وقانون يُحدّد الدلالة التي يريد المتكلم إيصالها إلى المتلقي ، فيكون استعمال تركيب معين محققاً لدلالة لا يحققها تركيب آخر ^(١) . وتتناغم ((المفردات المعجمية ، والبنى الصرفية ، وتركيب الجمل ، وقواعد النحو متضامنة على تحديد الدلالات المرادة انطلاقاً من بناء تركيب نحوي أصل ، يمكن إخضاعه للتغيير ، والتصرف فيه تصرفاً أفضياً ، وكل تصرف من هذا النحو يطرأ على الجملة بإرادة منشئ هذه الجملة ، أو ذلك التركيب ، ينتج دلالة محدّدة ، لا تقع عليها في الأصل المتصرف فيه ؛ وذلك لأن مكونات أية جملة ، أو تركيب نحوي مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بمعنى محدّد)) ^(٢) . ومن مظاهر القصدية – في السور المدنية – على مستوى التركيب ، ما يأتي :

التقديم والتأخير : أتاح ظهور الحركة الإعرابية على أواخر الكلمات ، في اللغة العربية ، حرية لدى المتكلم في تأخير ما حقه التقديم من الكلام ، ولا يلتبس معرفة الموقع الإعرابي للكلمة . فالجملة في العربية أما اسمية ، وتتكون من المسند إليه / المبتدأ ، والمسند / الخبر ، وأما تكون فعلية ، وتتكون من المسند / الفعل ، والمسند إليه / الفاعل ، والتقديم والتأخير يكون في الجملة الاسمية ، إن تعلّق بالركنين الرئيسيين في الإسناد . أما في الجملة الفعلية ، فتقديم المسند إليه ينقل الجملة من الفعلية إلى الاسمية . ويكون التقديم ، والتأخير فيها في موقعها بالنسبة لمعلقات الجملة ، مثل (المفاعيل ، شبه الجملة) وغيرها . وللتقديم والتأخير دلالات يحددها سياق الكلام ، فقد يكون لغرض الاختصاص ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ^(٣) ، فقد قدّم الخبر (له) في موضعين على المبتدأ (الملك) ، و(الحمد) ، وكان ذلك لغرض تخصيص الله تعالى بهما . ومثله قوله تعالى : ﴿ وَلَكِنْ مُمْنًا وَكَانَ اللَّهُ نُحُشْرُونَ ﴾ ^(٤) ، فتقديم شبه الجملة (إلى الله) على الجملة الفعلية (تحشرون) ؛ لغرض الاختصاص ^(٥) ، زيادة على أن في هذا التقديم مراعاة للفاصلة القرآنية .

الانتقال من الجملة الفعلية إلى الاسمية : يستعمل النصّ الكريم الجملة الفعلية ، وينتقل بعدها إلى الجملة الاسمية على الرغم من أن الكلام يدور حول موضوع واحد ، وسبب ذلك الدلالة التي تحقّقها كل جملة منهما ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُمْ عَلَيْهِمْ شَهِدًا مَا دُمْتُمْ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَقَّيْتَنِي كُنْتُمْ تَرْتَابُونَ ﴾ ^(٦) ، فالذي يُلحظ في كلام النبي A أنه استعمل الجمل الفعلية (كُنْتُمْ تَرْتَابُونَ) – كُنْتُمْ – تَوَقَّيْتَنِي – كُنْتُمْ ؛ وسبب ذلك أن فيه تحديداً لمُدّة زمنية ، وكذلك وصفه الله – تبارك وتعالى – في قوله (كُنْتُمْ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ) ، فهذه الجملة محدّدة بوقت وفاته / رفعه ، يدلّ على ذلك قوله (لَمَّا تَوَقَّيْتَنِي) ، فلَمَّا أراد أن يُظهر علم الله – جلّ شأنه – وإحاطته ، استعمل الجملة الاسمية (أَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ) ، ودلالة الجملة الاسمية هي الثبوت ، والدوام .

التعريف والتكثير : للتعريف والتكثير دلالات مختلفة في اللغة العربية يحددها السياق الذي تستعمل فيه ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُكَ قَالَ إِنْ أَعْلَمَ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ^(٧) . فقد استعمل مفردة (الأرض) معرفة ، في حين استعمل (خليفة) نكرة ؛ لكون الملائكة يعرفون المقصود بـ (الأرض) ، إذ ((إنّ خلقاً يقال لهم الجان كانوا في الأرض ، فأفسدوا فيها ، فبعث الله ملائكة أجلّتهم من الأرض)) ^(٨) . في حين أنّ المخاطبين / الملائكة كانوا فارغين من معرفة الخليفة ، فكان التكثير مناسباً لحال المتلقين .

الإضافة وتركها : تُضاف المفردات في اللغة العربية إلى بعضها ، فتكون الإضافة للتعريف ، إذا كان المضاف إليه معرفة ، وتكون للتخصيص إذا كان نكرة . وقد استعمل النصّ الكريم بعض المفردات مضافة مرة ، ومقطوعة عن الإضافة في الأخرى ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ فَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ يَصْرِفُ لِمَا يَشَاءُ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ ^(٩) ، وقوله تعالى : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَرِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ... ﴾ ^(١٠) . فقد قصد في الآية الأولى قطع المفردة (رسول) عن الإضافة ، إذ إنّ الآية نزلت في وصف هلى المسلمين يوم معركة (أُحُد) ، وانهزامهم منها ، وسماعهم خبر قتل النبي ، الذي أشاعه بعض المشركين ، فكانت منبهة لهم أنّ النبي p أحد الرسل ، وقد وقع الموت على من سبقه ، وليس معه استثناء في ذلك ، فـ ((قصر محمداً على وصف الرسالة قصر موصوف على الصفة ... فقد نُزِلَ المخاطبون منزلة من يجهل قصر الموصوف على هذه الصفة ، وينكره ، فلذلك خوطبوا بطريق النفي ، والاستثناء ، الذي كثر استعماله في خطاب من يجهل الحكم المقصور عليه)) ^(١١) .

في حين أنّ آية الفتح جاءت في سياق مدح النبي p ، فأضافه إلى اسم الجلالة تشريفاً له ، وتعظيماً لشأنه .
الخبر المتضمن معنى الأمر : قسّم علماء اللغة ، والبلاغة الكلام على قسمين : خبر ، وإنشاء ، وانقسم الإنشاء إلى : طلبيّ ، وغير طلبيّ . وكان أساس تقسيمهم لذلك هو أنّ الخبر ما يحتمل الصدق ، والكذب ، والإنشاء ما كان خلاف ذلك . ولكنّ الذي يُلحظ على النصّ القرآني استعماله صيغة الخبر ، والقصد منه الإنشاء ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ وَالْوَالِدَاتُ

(١) علم الدلالة التطبيقي في التراث العربي : ١٢٧ . وينظر : القصدية في القرآن الكريم : ١٨٨ .

(٢) علم الدلالة التطبيقي : ١٢٧ .

(٣) سورة التغابن : ١ .

(٤) سورة آل عمران : ١٥٨ .

(٥) البرهان في علوم القرآن : ٣ / ١٥١ .

(٦) سورة المائدة : ١١٧ .

(٧) سورة البقرة : ٣٠ .

(٨) مجمع البيان : ١ / ١٧٧ .

(٩) سورة آل عمران : ١٤٤ .

(١٠) سورة الفتح : ٢٩ .

(١١) تفسير التحرير والتوير : ٣ / ٢٣٨ .

يُرْضَعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ...^(١). فالذي يُلاحظ أنَّ الآية الكريمة جاءت بصيغة الجملة الخبرية ، وليس في تركيبها دلالة الطلب ، غير أنَّ المعنى المطلوب من الآية هو الطلب ، إذ المعنى : ليرضعن^(٢). ولعلَّ تعمُّد استعمال صيغة الطلب غير الصريح ، فيه إيحاء أنَّ الوالدات — بالفطرة — يرضعن أولادهنَّ ، فلا يحتجن إلى الأمر لفعل ذلك ، فالأمر المتضمن في الآية لقصد بيان المدة ، وليس لطلب الفعل ، الذي هو الإرضاع .

القصدية على مستوى المعجم :

استعمل النصَّ القرآنيَّ الألفاظ في سياقها المناسب لها ، فقد يكون هناك ألفاظ مترادفة في المعنى ، ويستعمل اللفظ الأخص منها بالمعنى ، وقد يكون اللفظ من الأضداد ، فيستعمله ، ويكون صالحاً لكلا المعنيين المتضادين ، وقد يشترك في اللفظ أكثر من معنى ، ويكون صالحاً لأدائهما معاً . أمَّا حين يحتاج الكلام إلى استعمال لفظين متقاربين في المعنى ، أو أنَّ يكون استعمال أحدهما ممَّا يوجبه الظرف الاجتماعي ، أو الديني ، أو غيرهما ، فيلاحظ أنَّ النصَّ الكريم يبيِّن الفارق الدلالي ، أو اللمسة البيانية ، أو اللفظ المناسب للمقام ، ولعلَّ فيما يأتي بعض الإيضاح :

استعمال الألفاظ شبه المترادفة :

البطن — الجوف : استعمل النصَّ القرآنيَّ ألفاظاً ، قد يُظنُّ أنها مترادفة ، ولكنَّ استعمالها كان مقصوداً بما يتناسب مع السياق الذي جاءت فيه ، من ذلك استعمال مفردتي (بطن — جوف) ، وذلك في قوله تعالى : ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾^(٣)، وقوله تعالى : ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ...﴾^(٤). فابن الأثير يرى أنه — تبارك وتعالى — ((لم يستعمل الجوف موضع البطن ، ولا البطن موضع الجوف ، واللفظتان سواء في الدلالة ، وهما ثلاثيتان في عدد واحد ، ووزنهما واحد ، فانظر إلى سبك الألفاظ كيف تفعل))^(٥). ولعلَّ كلام ابن الأثير يخالف ما جاء في معاجم اللغة في معنيي المفردتين ، ف ((البطن في كلِّ شيء خلاف الظهر))^(٦) ، وهي ((إنسي الشيء ، والمقبل منه))^(٧) ، في حين أنَّ الجوف ((ما انطبقت عليه الكتفان ، والعضدان ، والأضلاع ، والصقلان))^(٨). فمن ذلك يظهر أنَّ اللفظين ليسا مترادفين ، فكلُّ واحد منهما اختصَّ ببيان موضع من الجسم لا يدلُّ عليه الآخر ، فكان استعمال كلِّ مفردة في سياقها المناسب لها ، إذ إنَّ استعمال (الجوف) يتناسب نصيباً مع (القلب) ، في حين أنَّ استعمال مفردة (البطن) يتناسب مع الحمل للمرأة .

السنة — العام — الحجة — الحول : استعمل النصَّ الكريم هذه الألفاظ في مواضع عدَّة من النصِّ الكريم ، وقد استعمل بعضاً منها في مواضع متقاربة جداً ، وهو ما يثير السؤال عن الفارق الدلالي بينهما . يرى الراغب أنَّ ((أكثر ما نستعمل السنة في الحول الذي فيه الجذب))^(٩) ، وأنَّ ((العام بما فيه الرخاء والخصب))^(١٠) ، أمَّا الحول ، ففي ((تغيُّر الشيء ، وانفصاله عن غيره ، وباعتبار التغيُّر قيل : حال الشيء يحول حوَّلاً))^(١١) ، وذلك في قوله تعالى : ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضَعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾^(١٢) . وفرَّق العسكري بين السنة والحجة ، بقوله : ((الحجة تفيد أنها يحجَّ فيها ... ثم سميَّت بها السنة كما يُسمَّى الشيء باسم ما يكون فيه))^(١٣) . وقد حاول الدكتور فاضل السامرائي^(١٤) أن يجد فوارق دلالية معتمداً النصَّ القرآنيَّ الكريم ، فوجد أنَّ (العام) استعمل لفظه في المفرد ، والمثنى ، ولم يستعمل بلفظ الجمع ، إلا من خلال العدد ، ولم ترد كلمة (أعوام) في القرآن الكريم ، فمن استعماله ، قوله تعالى : ﴿بِمَا النَّسِيءِ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحْذِرُونَ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا...﴾^(١٥) ، وقوله تعالى : ﴿... حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهَذَا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ...﴾^(١٦) ، وقوله تعالى : ﴿... قَالَ أَيُّ يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ...﴾^(١٧) ، في حين أنَّ (سنة) لم ترد في النصَّ الكريم مفردة إلا مع العدد الدالَّ على الجمع ، ولا مثناة ، وحتى جمعها جاء بجمع المذكر السالم فقط ، من ذلك قوله تعالى : ﴿... وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرَ أَلْفَ سَنَةٍ...﴾^(١٨) . أمَّا استعمال (الحجة) ، فقد جاء بلفظ الجمع (حجج) ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ بِكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِي حِجَجَ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا هِنَ عِنْدَكَ﴾^(١٩) ، وكان ذلك ((مناسبة للمقام والسياق الذي ورد فيه ، ذلك أنَّ موسى ... جاء فاراً من مصر إلى

(١) سورة البقرة : ٢٣٣ .

(٢) ينظر : البرهان في علوم القرآن : ٣ / ٢١٦ . وينظر : لسان العرب : ٣ / ٣٢٣٣ .

(٣) سورة آل عمران : ٣٥ .

(٤) سورة الأحزاب : ٤ .

(٥) المثل السائر : ١ / ١٥٠ .

(٦) كتاب العين : ٧ / ٤٤٠ .

(٧) معجم مقاييس اللغة : ١ / ١٣٥ ،

(٨) لسان العرب : ١ / ٧٠٠ .

(٩) مفردات ألفاظ القرآن : ٤٣٠ (سنة).

(١٠) المصدر نفسه : ٥٩٨ (عوم).

(١١) المصدر نفسه : ٢٦٦ (حول).

(١٢) سورة البقرة : ٢٣٣ .

(١٣) الفروق اللغوية : ٣٠٣ .

(١٤) ينظر : من أسرار البيان القرآني : ٥٧ — ٥٩ .

(١٥) سورة التوبة : ٣٧ .

(١٦) سورة لقمان : ١٤ .

(١٧) سورة البقرة : ٢٥٩ .

(١٨) سورة البقرة : ٩٦ .

(١٩) سورة القصص : ٢٧ .

مدین ، وليس من أهل مدین ، فهو إذن زائر ، ولا بد أن يترك مزوره ، ويعود كالحاج إذا قضى حجه ، فإنه لا بد أن يعود^(١).

أكمل - أتم : استعملت هاتان المفردتان في موضع واحد ، وذلك في قوله تعالى : ﴿... الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا...﴾^(٢) ، فكان ذلك دليلاً على عدم ترادفهما في المعنى ، وقد حاول أبو هلال العسكري أن يجد الفرق بين الاثنين ، فقال : ((الفرق بين الكمال ، والتمام : أن قولنا كمال اسم لاجتماع أبعاض الموصوف به ، ولهذا قل المتكلمون : العقل كمال علوم ضروريات ، يميز بها القبيح من الحسن ، يريدون اجتماع علوم ، ولا يقال : تمام علوم ؛ لأن التمام اسم للجزء ، والبعض الذي يتم به الموصوف بأنه تام))^(٣).

راعنا - انظرنا : استعملت هاتان المفردتان في موضع واحد ، وكان الأمر في الآية الكريمة باستبدال (انظرنا) بـ (راعنا) ، والذي يظهر من سياق الآية أن لا اختلاف في الدلالة المركزية للمفردة ، وإنما الاختلاف سببه الدلالة الهامشية لإحدى المفردتين ، والتي أمر الله - تبارك وتعالى - باستبدال الأخرى بها ، فقال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعُوا دِينَكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ الْغَفُورَ الْعَلِيمَ﴾^(٤) فالنهي عن استعمال المفردة (راعنا) كان سببه ((قولا) يقولونه للنبي p على سبيل التهكم ، يقصدون به رميه بالرعونة ، ويوهمون أنهم يقولون : راعنا ، أي احفظنا))^(٥) ، فقد تظاهروا أنهم يريدون المعنى العربي ، مبطنين السب ، الذي هو معنى اللفظ في اللغة اليهودية^(٦) . استعمال الألفاظ المشتركة :

استعمل النص الكريم بعض الألفاظ ، التي تدل على معان عدة ، وقصد إلى تلك المعاني دون غيرها عند إيرادها في النص ، من ذلك المفردة (موالي) ، التي تدل على السيد ، والعبد ، والناصر ، والصديق ، وابن العم ، وغيرها . قال تعالى : ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِي مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلَّذِينَ آمَنُوا مِمَّا قَدْ تَرَكَ آبَاؤُهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا قَدْ تَرَكَ آبَاؤُهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾^(٧) ، وقوله تعالى : ﴿وَأِنْ تَوَلَّوْا فَأَعْمُوا إِنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعَمَ الْمَوْلَى وَنِعَمَ النَّصِيرِ﴾^(٨) .

القصد على مستوى البلاغة :

استقت علوم البلاغة العربية شواهدا من النص المقدس ، الذي أعجز العرب البلغاء أن يأتوا بمثله ، فكان المثال المحتذى ، والطرز الأول في معايير البلاغة ، والفصاحة . وإذا كان الأمر كذلك ، فالقصد في كل تعبير ، وفي استعمال كل مفردة أمر لا يمكن رفضه ، أو الشك فيه ، ولعل من مظاهر هذه القصدية على مستوى البلاغة ، ما يأتي :

الإطناب : هو - عند البلاغيين - أداء المقصود من الكلام بأكثر من عباراته^(٩) ، هكذا عرّفه السكاكي ، وعلى الرغم من أن البلاغيين المتأخرين عن السكاكي قد أضافوا على تعريفه عبارة (زيادة لفائدة) ، وحددوا الفائدة في سبعة وجوه^(١٠) ، إلا أن الذي يبدو أنهم لم يستقصوا كل الفوائد المتحققة منه ، من ذلك ما يلحظ في قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُكْفَرُونَ مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ الْكِتَابِ وَيَسْتَرْشِدُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا وَلَكِ مِثْلُ الْكُلُوفِ فِي بَطُونِهِمْ إِلَّا الثَّارَ وَلَا يَكْمَهُمْ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَا لَهُمْ عَذَابٌ لِيمٌ﴾^(١١) ، فعبارة (في بطونهم) من باب الإطناب في المعنى ، ولكنها ليست من الفوائد التي ذكرها البلاغيون - لو أردنا الدقة في المعنى - ، قال الشريف الرضي : ((وقوله سبحانه (في بطونهم) زيادة معنى ، وإن كان كل أكل إنما يأكل في بطنه ، وذلك أفضع سماعاً ، وأشد إيجاعاً ، وليس قول الرجل للآخر : إنك تأكل ، مثل قوله : إنك تأكل النار في بطنك))^(١٢) . ويضيف بعض المحدثين على ذلك أن كلمة (بطون) بصيغة الجمع ، وردت سبع مرات في مواقف تصوير العذاب ، وأربع مرات مختصة بالحيوان ، كالأنعام ، والنحل ، مما يدل على أن الكلمة في الآية ((توحي بالطبع الحيواني ، وبشاعته عند من يتاجر بآيات الله ، ويكتب بها ، وهي تهبط بأدمنيته ، خصوصاً حين تصوّر الجشع ، والنهم))^(١٣) .

الإيجاز : هو ((أداء المقصود من الكلام بأقل من عبارات متعارف الأوساط))^(١٤) ، واستعمال الألفاظ الموجزة التي تغني عن المحذوف من الكلام دليل على بلاغة النص ؛ ((ذلك أن من دواعي ثراء نص ما أن يتسع محموله الدلالي ، وتضمير بنيته السطحية بوساطة الاقتصاد في الأداة التعبيرية))^(١٥) ، من ذلك قوله تعالى : ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا حَلَّ لَهُمْ أَنْ حَلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَذَلُوا مِمَّا مَسَكَنَ عَلَيْكُمْ وَاتَّكُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾^(١٦) ، إذ اشتق من كلمة (كلب) الجامدة ؛ لأنها اسم جنس ، اسم فاعل ، وذلك حتى يوجز عن تعداد الكثير من الحيوانات المستخدمة في الصيد ، قال الجاحظ : ((فاشتق لكل صائد ، وجارح كاسب ، من باز ، وصقر ، عقاب ، وفهد ، وشاهين ، وزرق ، ويؤيؤ ، وباشق ، وعناق الأرض من اسم الكلب))^(١٧) ، فكان القصد إلى جميع

(١) من أسرار البيان القرآني : ٥٩ .

(٢) سورة المائدة : ٣ .

(٣) الفروق اللغوية : ٢٩٤ .

(٤) سورة البقرة : ١٠٤ .

(٥) مفردات ألفاظ القرآن : ٣٥٨ (رغن).

(٦) ينظر : البحر المحيط : ٥٤٣ / ١ .

(٧) سورة النساء : ٣٣ .

(٨) سورة الأنفال : ٤٠ .

(٩) ينظر : مفتاح العلوم : ٣٨٨ .

(١٠) ينظر : الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة : ١٢٥ .

(١١) سورة البقرة : ١٧٤ .

(١٢) تلخيص البيان في مجازات القرآن : ١١٩ .

(١٣) جماليات المفردة القرآنية : ٢٩٩ .

(١٤) مفتاح العلوم : ٣٨٨ .

(١٥) التأويل وقراءة النص : ٧٨ .

(١٦) سورة المائدة : ٤ .

(١٧) كتاب الحيوان : ٣٠٧ / ١ .

هذه الحيوانات من خلال استعمال الحال (مكَلَّبين) ، ((واشتقَّت هذه الحال من الكلب ، وإنَّ كانت جاءت غايَةً في الجوارح على سبيل التغليب ؛ لأنَّ التأديب أكثر ما يكون في الكلاب ، فاشتقَّت من لفظه لكثرة ذلك في جنسه))^(١). وقد أنكر علماء الشيعة أنَّ يكون استعمال هذه المفردة دالاً على ما لم يذكر من الجوارح ، وإِنما هذا الأمر يختص بالكلب فقط ، قال العلامة الطباطبائي : ((وتقييد الجملة بالتكليب لا يخلو من دلالة على كون الحكم مختصاً بكلب الصيد ، لا يعود إلى غيره من الجوارح))^(٢) ، ولعلَّ في استعمال شبه الجملة (من الجوارح) ما يحل هذا الاختلاف ، إذ في استعمالها دليل على أنَّ (مكَلَّبين) شاملة لهنَّ ، إذ لو كان التخصيص للكلاب ، فما الداعي لاستعمال شبه الجملة قبلها ، وقد أجاز علماء الشيعة أنَّ صيد غير الكلاب ، ((ما أدرك ذكاته ، فهو مباح ، وإلا فلا يحلَّ أكله))^(٣).

الكناية : هي ((ترك التصريح بذكر الشيء إلى ذكر ما يلزمه ؛ لينتقل من المذكور إلى المتروك))^(٤) ، وقد قصد النصَّ الكريم إلى الكناية في مواضع كثيرة من الآيات القرآنية ، أمَّا للتنزيه عن استعمال الألفاظ التي لا يجوز التصريح بها ، أو أن يكون بعثاً للمتقين على الحياء في مثل تلك المواضع ، وهي التي يسميها المحدثون ^(٥) (اللامساس) ، ومن الاستعمال القرآني الذي قصد إلى استعمال الكناية قوله تعالى : ﴿...أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسَتِ الْمَرْءَ فَلَمْ يَجِدْ مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا...﴾^(٦). فالتعبيران (جاء أحد منكم من الغائط) ، و(لامست المرأة) كنايةان عن أمرين ، يتنزه الباري - عزَّ وجلَّ - عن التصريح بهما ، وهما مفهوما القصد ، إذ إنَّ معناهما ((المجيء منه [الغائط] كناية عن الحدث ... [ولامستم] كناية باللامسة عن الجماع ؛ لأنه ممَّا يستهجن التصريح به ، أو يستحي منه))^(٧) ، ومثله قوله تعالى : ﴿...مَا أَلْمَسِمْ أَبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُتِيَ صِدْقَةً كَانِياً كُلَّانِ الطَّعَامِ أَنْظَرَ كَيْفَ يُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ أَنْظَرَ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾^(٨) ، فالتعبير في قوله (كانا يأكلان الطعام) ((كناية عن قضاء الحاجة))^(٩).

المبحث الثاني : المقبولية

المقبولية في اللغة والاصطلاح :

المقبولية لغة^(١٠) : يلق الشيء قبُولاً وقُبُولاً . والتقبُّل : القبول ، يقال : تقبَّل الله منك عملك . والقَبْل : من إقبالك على الشيء ، تقول : قد أقبَلْتُ قبْلَكَ ، كأنك لا تريد غيره . **المقبولية اصطلاحاً** : عرَّف الشريف الجرجاني المقبولات ، بقوله : ((هي قضايا تؤخذ ممن يُعتقد فيه ، إمَّا لأمر سماويٍّ من المعجزات ، والكرامات ، كالأنبياء ، والأولياء ، وإمَّا لاختصاصه بمزيد عقل ، ودين ، كاهل العلم ، والزهد ، وهي نافعة جداً في تعظيم أمر الله ، والشفقة على خلق الله))^(١١) . وعرَّف القبول ، بقوله : ((هو عبارة عن ترتب المقصود على الطاعة))^(١٢) . وعرَّف التهاني القبول عند الفقهاء ، فقال : ((عن لفظ صدر عن أحد المتعاقدين))^(١٣) ، كما عرَّفه عند الحكماء ، والمتكلمين ، بقوله : ((يطلق بالاشتراك الصناعي على معنيين : أحدهما مطلق إمكان الاتصاف بأمر ، سواء كان وجود الموصوف متقدماً على وجود الصفة بالزمان ، أو لا ، وحاصله الإمكان الذاتي . والثاني الانفعال التجديدي ، ويقال له القوة ، والاستعداد أيضاً ، وهو عبارة عن إمكان اتصاف شيء بصفة لم يحصل له بعد))^(١٤) . أمَّا عند المحدثين ، فالمقبولية ((هي معلومات تتعلق بحكم المتحدث باللغة الأم على لفظ معين بأنه صحيح ، أو غير ملائم ، وهو يخصُّ باهتمام علم اللغة ، وفي النحو التوليدي هي تلك القوانين التي تحاول تحديد الجمل المصاغة بطريقة صحيحة ، وغير الصحيحة في لغة ما))^(١٥) . وعرَّف آخر القبول ، بقوله : ((موقف متلقي النص حول توقع نص متماسك ، ومتناسق))^(١٦) .

المقبولية في دراسات العرب القدماء :

كان لظهور الإسلام السبب في إحداث التحول الكبير في الحياة العربية ، فقد أحدث ظهوره تحولاً على مستوى اللغة ، والوعي للعلاقة الوثيقة ، والاتحاد بينهما ، سواء أكان وعي الذات ، أم وعي الآخر/الكون ، وما فيه من الموجودات . وقد أحدث تحولاً - أيضاً - على مستوى التلقي ، فبعد أن كان العربي يصغي إلى الشعر ، والخطب ، أصبح يصغي إلى القرآن . وقد ارتفع شأن اللغة بالقرآن ، وعلث به ، فكان نظم القرآن صدمة ثقافية - إنَّ صحَّ التعبير - على مستوى التلقي ، فانشغل الناس بصورة عامَّة ، وأصحاب الميول الأدبية خاصَّة بتلقي النصِّ القرآني ، والبحث عن الإعجاز فيه . فإذا اتفقوا على أنَّ اللغة أحد وجوه الإعجاز ، فقد انكبوا على دراسة النصِّ القرآني ، وتفسير آياته ، وتحليل مفرداته ، وجمله . وظهرت لأوَّل مرَّة في تاريخ الفكر العربي ظاهرة ثقافية ، هي ما أطلق عليه في العصر الحديث اسم التلقي / المقبولية^(١٧) . وإذ كانت

(١) البحر المحيط : ١٧٩ / ٤ . وينظر : تفسير الكشاف : ٥٩٤ / ١ ، وروح المعاني : ٣٢٢ / ٦ .

(٢) الميزان في تفسير القرآن : ١٤٥ / ٥ . وينظر : التبيان في تفسير القرآن : ٤١٥ / ٣ ، ومجمع البيان في تفسير القرآن : ٣٩٩ / ٣ - ٤٠٠ .

(٣) التبيان في تفسير القرآن : ٤١٥ / ٣ .

(٤) مفتاح العلوم : ٥١٢ .

(٥) ينظر : دلالة الألفاظ : ١٠٨ - ١١١ ، وعلم الدلالة : ٢٣٩ - ٢٤٠ .

(٦) سورة النساء : ٤٣ . ومثله في سورة المائدة : ٦ .

(٧) روح المعاني : ٥٥ / ٥ .

(٨) سورة المائدة : ٧٥ .

(٩) روح المعاني : ٥١٢ / ٦ .

(١٠) ينظر : كتاب العين : ١٦٦ / ٥ - ١٦٨ ، وتاج اللغة وصحاح العربية : ١٠٨٠ / ٤ / مجمع مقاييس اللغة : ٣٨٣ / ٢ ، وأساس البلاغة : ٤٩٢ - ٤٩٣ ،

العرب : ٣ / ٣١٢٣ - ٣١٢٩ ، والقاموس المحيط : ٩٦٣ - ٩٦٤ (قبل) .

(١١) التعريفات : ١٨٢ - ١٨٣ .

(١٢) الكليات : ٦١٦ .

(١٣) كشاف اصطلاحات الفنون : ٥٤٣ / ٣ .

(١٤) كشاف اصطلاحات الفنون : ٥٤٣ / ٣ .

(١٥) معجم اللغة واللسانيات : ١٤ .

(١٦) المصطلحات الأساسية في لسانيات النص ، وتحليل الخطاب : ١٢٦ .

(١٧) ينظر : استقبال النص عند العرب : ١٣٢ .

المقبولية قبل الإسلام لديهم تأخذ منحى آخر غير المنحى القرآني ؛ وذلك لأنها مع النصّ القرآني محاولة للفهم ، والتأويل ، والتفسير ، وبيان اللمسة البيانية ، وقد ((اهتمّ البلاغيون بإظهار جوانب الجمال ، والفصاحة في اللفظ القرآني كمظهر للإعجاز البياني ... فالمتكلم الذي كان مشغولاً ببيان وجوه إعجاز القرآن كان عليه أن يكون على معرفة بالأساليب البلاغية العربية متدوّلاً لها ، كما أن البلاغي ، أو الناقد الأدبي الذي كان مهتماً بتحليل مظاهر البلاغة ، وآلياتها في الخطاب العربي ، كان عليه أن يعتمد القرآن كسلطة مرجعية ؛ لكونه يمثل بنظمه ، وطرق تعبيره أعلى مراتب البيان ، بل إنه كان هو منطلق الدراسات البلاغية الأولى التي سعت لإظهار أوجه تميزه ، ورفعة أسلوبه ، وبلاغة لفظه))^(١) . أمّا قبل الإسلام ، فقد تمثلت بمراعاتها لمقتضى الحال ، والأعراف اللغوية ، والتداولية . ولعلّ أصدق مثال على ذلك الحادثة المشهورة بين حسان بن ثابت ، والناطقة الذبياني ، وذلك حين انتقد النابتة قول حسان :

**لَا الْجَفَاتُ غَرٌّ يَكْمَعْنَ بِالضُّحَى
وَأَسْيَافُنَا يَقَطِرْنَ مِنْ نَجْدَةٍ دَمَا**

فالناطقة لهجرت لحسان استعمال جملة (الجففات ، أسياف) في موضع الفخر ، وكان الأولى به استعمال جمع الكثرة ، وهو ما يوافق العرف المتداول لديهم^(٢) . فكانت رؤية المتلقي / الناقد أعمق من رؤية المنتج / الشاعر . وهذا ما لا يلاحظ في الدراسات القرآنية الباحثة عن الإعجاز . فالقرآن الكريم كان مقبولاً / تأليفاً حتى من غير المؤمنين ، فالكفار قبلوا القرآن الكريم نصّاً يتمتع بالسبك ، الانسجام ، وأنه في أعلى درجات البلاغة ، ولكنهم مع ذلك لم يؤمنوا بالمضمون الذي جاء به ، و ((لقد أثبت البيان القرآني جدارته بصفة الربط بين المتلقي ، والنصّ بوشائج متينة ، وهذا الاستحقاق يكمن في ديمومة ربط المرء بالواقع : الواقع النفسي في القدرة على إثارة على مرّ العصور ، فتنبش مكونات أساسية في السلوك البشري ، وههنا مخاطبة الخالق لما خلق ، وكذلك الواقع المحسوس في تصوير جزئياته في الطبيعة الصامتة ، والمتحركة ، والمشاهد المألوفة ، وتقريب ما هو ليس بمألوف بإثارة الحواس ، والبصيرة ، واستدامة صورته الفنية هي نتيجة ثبات الحواس ، وتأكيده على ربط الصورة بالحواس ، وهكذا لم يرفض الواقع ، بل نهض به ، ولونه))^(٣) ، وخير مثال على ذلك ما رواه الجاحظ ، قائلاً : ((بكى ماسروجه من قراءة أبي الخوخ ، فقيل له : كيف بكيت من كتاب الله ، ولا تؤمن به ، فقال : إنما أبكاني الشجاء))^(٤) ؛ ولذا فقد عدّ الخطابي هذا التأثير النفسي للنصّ القرآني وجهاً من وجوه الإعجاز ، قال : ((قلّ في إعجاز القرآن وجهاً آخر ، ذهب عنه الناس ، فلا يكاد يعرفه إلا الشاذ من آحادهم ، وذلك صنيعة بالقلوب ، وتأثيره في النفوس ، فأبّك لا تسمع كلاماً غير القرآن منظوماً ، ولا منشوراً إذا قرع السمع خلص إلى القلب من اللذة ، والحلاوة في الحال))^(٥) . فنشطت الحركة العلمية ، وبدأوا يدرسون اللغة في كلّ فروعها ، وكانت البلاغة ، التي كانوا مفطورين عليها ، تتخذ النصّ القرآني المادة الرئيسة التي تنتقي منه شواهدا ، وتسير نحو التطور ، والنضوج من خلاله^(٦) . وكانوا في بحثهم الإعجازي مفسرين للاستعمال القرآني ، ومفتشين عن المعنى المتحقق من ذلك الاستعمال ، فالخطابي يسوغ حذف جواب الشرط في قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ ، وَوُضِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ ، أَوْ كَلَّمَ بِهِ الْمَوْتَى ، بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا ، أَقْدَمِيئًا سَ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارَعَةٌ ، وَتَخْلُ قُرَيْبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾^(٧) ، ويرى في الحذف تحقّقاً للمقبولية التي يبينها قوله : ((إنّ الحذف في مثل هذا بلغ من الذكر ؛ لأنّ النفس تذهب في الحذف كلّ مذهب ، ولو ذكر الجواب لكان مقصوداً على الوجه الذي تناوله الذكر))^(٨) . ويربط الباقلاني مقبولية النص بقوة البصيرة ، وكمال المعرفة ، فقال : ((فمن كان بصيرته أقوى ، ومعرفته أبلغ كان القبول منه أسبق ، ومن اشتبه عليه وجه الإعجاز ، أو خفي عليه بعض شروط المعجزات ، وأدلة النبوات كان أبطأ في القبول))^(٩) . ويتابع عبد القاهر الجرجاني الباقلاني على هذا الرأي ، فيقصر فهم النصّ على من تتوفر فيه شروط معينة ، إذ قال : ((فإنك تعلم على كلّ حال أنّ هذا الضرب من المعاني كالجوهر في الصدف ، لا يبرز لك إلا أن تشقه عنه ، وكالعزير المحتجب لا يريك وجهه حتى تستأذن عليه ، ثم ما كلّ فكر يهتدي إلى وجه الكشف عما اشتمل عليه ، ولا كلّ خاطر يؤتّن له في الوصول إليه ، فما كلّ أحد يفلح في شق الصدف ، ولا يكون في ذلك من أهل المعرفة))^(١٠) ، وكما يضع شروطاً لفهم للنصّ ، يضع شروطاً لقبول النصّ ، بقوله : ((اعلم أنّ لكلّ نوع من المعنى نوعاً من اللفظ ، هو به أخصّ ، وأولى ، وضروباً من العبارة هو بتأديته أقوم ، وهو فيه أجلى ، ومأخذاً إذا أخذ منه ، كان إلى الفهم أقرب ، وبالقبول أخلق ، وكان السمع له أوعى والنفس إليه أميل ، وإذا كان الشيء متعلّقاً بغيره ، ومقيساً على ما سواه ، كان من خير ما يُستعان به على تقريبه من الأفهام ، وتقريبه في النفوس أنّ يوضع له مثال يكشف عن وجهه ، ويؤنس به ، ويكون زمناً عليه ، يمسه على المتفهم له ، والطالب علمه))^(١١) . ولعلّ ممّا يدخل في هذا المبحث أنّ المنظرين في البلاغة ، والنقد العربيين ، كان لهم اهتمام خاصّ بالمخاطب في العملية الإبداعية ، ويتضاعف هذا الاهتمام إذا تعلّق الأمر بالنصّ القرآني ، ف ((ربّما كان الحاجز الديني أحد العوامل الرئيسية^(١٢) التي دفعت البلاغيين ، والنقاد إلى هذا الاتجاه باعتبار^(١٣) أنّ البلاغة مراعاة

(١) المنهجية الأصولية والبحث البلاغي : ١٤ .

(٢) ينظر : البلاغة والتطبيق : ١١ .

(٣) جماليات المفردة القرآنية : ٢٩ - ٣٠ .

(٤) كتاب الحيوان : ٢ / ٢٨٦ . وينظر : استقبال النصّ عند العرب : ١٢٣ .

(٥) بيان إعجاز القرآن ، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن : ٧٠ . وينظر : استقبال النصّ عند العرب : ١٦ .

(٦) ينظر : الإبداعية في الشاهد البلاغي : ٢١ .

(٧) سورة الرعد : ٣١ .

(٨) بيان إعجاز القرآن : ٥٢ .

(٩) إعجاز القرآن : ٨٤ . وينظر : القصديّة في الخطاب القرآني : ١١٨ .

(١٠) أسرار البلاغة : ١٠٨ . وينظر : استقبال النصّ عند العرب : ٣٧ .

(١١) الرسالة الشافية ، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن : ١١٧ .

(١٢) كذا ، والصحيح : الرئيسة .

(١٣) كذا ، والصحيح : يعدّ .

الحال ، والحال – عندهم هي حال المخاطب لا المتكلم ؛ لأنه ليس من المتصور عقلاً ، ودينياً أن يتناول هؤلاء المنظرون القرآن باعتبار مصدره ، ولذا اتجهت مباحثهم إلى ناحية المتلقي ، ومحاولة ربط الأسلوب بظروفه الاجتماعية ، أو الثقافية ، أو الدينية^(١) .

المقبولية في الدراسات النصية الحديثة :

القبول أحد المعايير السبعة التي اشترطها (روبرت دي بوجراند) للنص ، و ((يتضمن موقف مستقبل النص إزاء كون صورة ما من صور اللغة ينبغي لها أن تكون مقبولة من حيث هي نص ذو سبك ، والتحام . وللقبول مدى من التفاضل في حالات تؤدي فيها المواقف إلى ارتباك ، أو حيث لا توجد شركة في الغايات بين المستقبل ، والمنتج))^(٢) . ويترتب هذا المعيار على قوة الانسجام ، والارتباط بين المعيارين الأول ، والثاني (السبك ، والحبك) ، ويؤدي إلى قبول النص . أما إذا حدث خلل فيهما ، فإن نتيجة ذلك ليست إيجابية ؛ لأن هذا قد يؤدي إلى تصورات ليست إيجابية من جهة قبول النص ، وإن كانت النصوص اللغوية عالية المستوى ، التي تكمن قيمة البلاغة فيها بالكشف عن المعاني الإضافية الكامنة وراء الصياغات اللغوية^(٣) . فالنص القرآني الكريم ليس محدداً بعصر نزوله فقط ، وإنما الغاية المرجوة منه هي إيصال الأفكار الماثلة فيه إلى يوم القيامة ، ابتداءً من العقيدة الدينية ، وامتداداً إلى جميع جوانب الحياة الإنسانية اجتماعياً ، واقتصادياً ، وسياسياً ، وعلمياً ؛ ولذا فقد نصّ الباري – تعالى – على ذلك في قوله تعالى : ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ مَتْلُكُهُمْ مَا قَرَأْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ نَعْلَمُ لِي رِبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾^(٤) . فالنص القرآني لم يكن نصاً أنيقاً لقريش ، والعرب في زمن النبي ﷺ ، بل كان نصاً عالمياً مكاناً ، وسرمدياً زماناً ، فلا ريب أن تكون التراكيب ، والعبارات الموجودة في آياته تحمل معاني يكشف عنها في كل عصر ، أو مكان جزء منها ، وهي لا تنتهي ؛ لأنها من لدن كامل العلم ، والحكمة ، ولذا فإن أي تفسير جديد للنص القرآني يأتي بمعنى جديد غير ما هو مألوف عند القدماء ، يدل على تلك المواكبة القرآنية للتطور ، فيكشف المعنى المناسب لدرجة العلم ، والمعرفة التي وصل إليها أهل ذلك العصر ، أو تلك البيئة العلمية . وكل نص يحتمل أن يكون متلقيه صاحب ثقافة ، ومعرفة أكبر من مبدعه إلا نصاً واحداً ، فهو غير قابل لهذا الاحتمال ، وهو النص القرآني الكريم ، الذي أثبت مفسروه – والصحيح من حاولوا تفسيره ويحاولون – أنهم أمام عظمة نص ، لا يستطيعون معه بحال أن يحيطوا بكل ما فيه من علم ، وفكر ، ومعرفة . إن معيار القبول لأي نص – سوى القرآن الكريم – مرتبط بمجموع الدلالات التي يطرحها النص بشرط تماسكها ، والتحامها ، وتحديدتها بعيداً عن الاحتمالية الدلالية ، أو عن جواز أكثر من وجه إعرابي ، وذلك ما يحتمله نحو الجملة ، وهو ما يكون بدوره فارقاً بين نحو الجملة ، ونحو النص ؛ وذلك أن ((تقوم المعايير النصية بالمساعدة على قبول موقف دلالي محدد من خلال استبعاد المتلقي للدلالة غير المرتبطة بالنص ، وإيمانه بالدلالة التي تنسجم ، وتتسق مع بقية الدلالات النصية))^(٥) . وأما مع النص القرآني ، فإن الاحتمالات الدلالية يمكن أن تكون كلها مقبولة ، ويتوقف ذلك على الزاوية التي ينظر منها متلقي النص ، والمجال العلمي الذي يبحث من خلاله عن تفسير النص القرآني ، زيادة على التطور الفكري للمجتمعات الإنسانية ، الذي يلقي بنقاط الضوء مع كل اكتشاف جديد ، أو اختراع غير مسبوق ، فيعكس ذلك على ما جاء في الذكر الحكيم ، فيظهر فيه التوافق ، والانسجام مع المكتشف الجديد ، أو أن يكون في النص ما هو في ظاهره مخالفاً للمكتشف ، ولكن بالرجوع إلى اختيار مفرداته ، يلحظ أن لا تعارض بينهما . إن ((اعتياد القارئ على الأعراف البلاغية ، واللغوية ، والتقييدات الثقافية التي ينتج بها النص ، ووضوحها بالنسبة له ، يسهم في سرعة تقبله له . فعملية القراءة تفاعل بين النص ، والخلفية المعرفية المسبقة للقارئ ، أو مخطط الذاكرة ، والتوقعات المعينة حول البنية العامة للنصوص . فالقارئ – إلى حد ما – هو المبدع المشارك لا للنص نفسه ، بل لمعناه ، وأهميته ، وقيمه))^(٦) . وإن المعنى الذي يشارك القارئ في إبداعه للنص القرآني الكريم ليس المعنى المطروح على سبيل الاستقصاء ، والاستنفاد ، بل المعنى الذي أظهرته القدرات العلمية ، والثقافية ، بل وحتى العقديّة للقارئ ، فالقرآن الكريم – كما يصفه الإمام عليّ A - ((ظاهره أنيق ، وباطنه عميق ، لا تقني عجائبه ، ولا تنقضي غرائبه))^(٧) . ف ((الحقيقة القرآنية التي تؤسسها المضامين القرآنية العالية ، والتي تؤكد السنة الشريفة ، هي استمرار دائرة الانطباق ، بمعنى أن المصاديق البارزة للنص القرآني ، لا تغلق دائرة الانطباق ، وأن المصاديق اللاحقة لا تدخل من باب المجاز ، وإنما هي مصاديق حقيقية فعلية ... إن عدم انحصار دائرة الانطباق في كل سورة ، وآية ، وكلمة هو الحقيقة القرآنية الراسخة ، التي لا ينبغي التوصل عنها أبداً ... وعدم انحصار دائرة الانطباق في النص القرآني زمكانياً ينسجم تماماً مع حقيقة كون النص القرآني مأخوذاً بنحو القضية الحقيقية لا الخارجية ، أو الشخصية))^(٨) . ولعلّ ممّا يؤكد مقبوليتهم للنص القرآني ، وانبهارهم به ، هو كونهم أهل بلاغة ، وفصاحة ، وإذا كانوا كذلك فلماذا يؤلفون في البلاغة ، وهي فطرة فيهم ، وسجية لهم ؟ . فليس الأمر – فيما يبدو – إلا أن بلاغتهم ، وفصاحتهم وقفت عاجزة أمام بلاغة القرآن ، وفصاحته ، فما كان منهم إلا أن حاولوا محاكاة القرآن ، وتقليده ؛ ولذا فقد أكثروا من الشواهد القرآنية في كتبهم لكي تكون قواعد تتبع ، وطرائق تتجه في تعبيراتهم ، ومؤلفاتهم . وكانوا كثيراً ما يقارنون بين النص القرآني الكريم ، ونصوصهم الشعرية ، والنثرية ، ويظهرون التفوق القرآني ، سواء أكان على مستوى المفردات ، أم التراكيب ، أم المعاني . وفيما يأتي بيان لمستويات المقبولية في النص القرآني الكريم :

(١) البلاغة والأسلوبية : ٢٤٢ .

(٢) النص والخطاب والإجراء : ١٠٤ .

(٣) ينظر : الدرس النحوي النصي : ١٥٨ .

(٤) سورة الأنعام : ٣٨ .

(٥) نحو النص ، اتجاه جديد في الدرس النحوي : ٨٨ .

(٦) علم لغة النص ، النظرية والتطبيق : ٣٤ . وينظر : نظرية النص ، رؤية منهجية في بناء النص النثري : ٥٠ .

(٧) شرح نهج البلاغة ، ابن أبي الحديد : ١ / ١٩٥ . وينظر : شرح نهج البلاغة ، محمد عبده : ٥٤ ، منطق فهم القرآن : ١ / ٤٣٢ .

(٨) منطق فهم القرآن : ١ / ٤٣٢ .

المقبولية على مستوى الألفاظ / المستوى المعجمي : يظهر التأثير الذي أحدثه النص الكريم في المتلقين من خلال بحثهم لاستعمال مفردة في سياق معين ، فيرون حسن استعمالها في النص القرآني ، كما كانوا يرون مزية استعمال المفردة القرآنية مقارنة باستعمالها في نصوص الشعراء ، والأدباء ، من ذلك المقارنة التي يعقدها ابن الأثير بين قوله تعالى : ﴿ نَ تَلْكُمُ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ قَسِيحِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ ... ﴾ (١) ، وقول المتنبي (٢) :

تَلَذُّهُ الْمُرُوءَةُ وَهِيَ تُؤْذِي وَمَنْ يَعْشَقُ يَلَذُّهُ الْعَرَامُ

وبيّن تفوق المفردة في الآية الكريمة على نظيرتها في قول المتنبي بقوله : ((وهذا البيت من أبيات المعاني الشريفة ، إلا أن لفظة (تؤذي) قد جاءت فيه ، وفي الآية من القرآن ، فحطّ من قدر البيت لضعف تركيبها ، وحسن موقعها في تركيب الآية)) (٣). ويعلّل رأيه بالترابط الموجود في الآية ، والانقطاع في البيت الشعري ، قال : ((هذه اللفظة التي هي (تؤذي) إذا جاءت في الكلام ، فينبغي أن تكون مندرجة مع ما يأتي بعدها ، متعلّقة به ... وقد جاءت في قول المتنبي منقطعة ، ألا ترى أنه قال : تلذ له المروءة وهي تؤذي ، ثم قال : ومن يعشق يلذ له الغرام ، فجاء بكلام مستأنف)) (٤). ومنها - أيضاً - مقارنة مفردتين متباينتين في سياق تقابل بين المسلمين ، والكفار ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ ... فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نُسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ ... ﴾ (٥) . فالآية الكريمة تبين حال المنافقين في أثناء الحرب الواقعة بين المسلمين ، والكفار ، فاستعملت مفردة (فتح) حين يكون الانتصار للمسلمين ، واستعملت مفردة (نصيب) حين يكون الأمر للكفار ، ويعلّل الزمخشري ذلك بقوله : ((فإن قلت : لم سمي ظفر المسلمين فتحاً ، وظفر الكافرين نصيباً ؟ قلت : تعظيماً لشأن المسلمين ، وتخسيساً لحظ الكافرين ؛ لأنّ ظفر المسلمين أمر عظيم ، تفتح لهم أبواب السماء حتى ينزل على أوليائه . وأمّا ظفر الكافرين ، فما هو إلا حظ دني ، ولمطة من الدنيا يصيبونها)) (٦). ولعلّ ممّا يلحظ على التعبير في الآية الكريمة استعمال شبه الجملة (من الله) نعتاً لفتح للدلالة على أنه حاصل للمسلمين بالقدرة الإلهية ، والمشية الربانية ، لا بقدرتهم - أي المسلمين - ، فناسب ذلك استعمال (فتح) ؛ لكونه مسنداً لله - تبارك وتعالى - . كما استعمل شبه الجملة (معكم) للدلالة على مشاركة المنافقين في المعركة بالعدد ، وليس لكونهم من عوامل النصر بما بذلوه من بسالة ، وشجاعة ، وفي سياق الكلام مع الكافرين استعمل شبه الجملة (عليكم) ، وفيها دلالة الاستعلاء ، والمّنة منهم على الكافرين ، وكأهم أصحاب الدور الأكبر في النصر .

المقبولية على مستوى التركيب :

وضع علماء النحو قواعدهم معتمدين ما ورد من كلام العرب من شعر ، ونثر ، وكذلك النص القرآني الكريم وقد خرجوا بقواعد تختص بالمعنى المطلوب عند استعمال تركيب من دون غيره . فهم قد وجدوا أن استعمال الجملة المنفية ب (لا) النافية للدلالة على النفي المطلق للخبر الداخلة عليه ، وقد كانت شواهدهم في ذلك من الاستعمال القرآني لهذه الطريقة في النفي ، زيادة على ذلك ، فقد وجدوا أن الجملة الاسمية تدلّ على الثبوت ، والدوام ، ولعلّ خير مثال قوله تعالى : ﴿ هُنَّ نَجِيعٌ هَدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (٧) . فالآية الكريمة - وكذلك الآيات الأخرى المحال عليها في الهامش - جاءت في سياق مدح المهتدين إلى طريق الحق ، والرشاد ؛ ولذا قد جاء التركيب نافية عنهم الخوف ، والحزن ، وذلك لأنّ طبيعة النفس البشرية هي ميلها عن الخوف ، والحزن ، والحزن ما يحصل للإنسان من مكروه ماضٍ ، أو حاضر ، والخوف ما يشعر به الإنسان من مكروه مستقبل . وإذا كان النص الكريم قد نفى الاثنين معاً ، فلقد استعمل لذلك أبلغ تركيب ، وترتيب ، فالله - تعالى - نفى عنهم كلّ نوع من أنواع الخوف في المستقبل ، وذلك حين استعمل النفي ب (لا) النافية للجنس ، واستعملها يدلّ على عموم الجنس ، وحين نفى عنهم الحزن نفى اتصافهم به بنفي الخبر عن المبتدأ ، وجاء الخبر جملة فعلية (لا يحزنون) ، والجملة الفعلية تأتي للدلالة على الحدث ، والتجدد ، فكان نفيها عن المبتدأ (هم) نفي لحدثها ، أو تجددها . أمّا من ناحية الترتيب ، فقد نفى الخوف أولاً ، ثم نفى الحزن ؛ ولعلّ سبب ذلك أن المستقبل هو الأهم للإنسان ، فنفي وقوع المكروه فيه ، أمّا الماضي ، والحاضر ، فقد فرغ منهما ، أو قارب على الفراغ ، فنفي الأهم ، ثم أعقبه بنفي المهم ، وهو ما يناسب الطبيعة البشرية . ومن المقبولية تقديم المفعول به على الفاعل ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ مَ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي ... ﴾ (٨) ، فقد قدم المفعول (يعقوب) على الفاعل (الموت) ، وهذا التقديم قد تكرر عندما يكون الفاعل (الموت) ، أو أن يكون الفعل دالاً على توفي المخلوق ، ولعلّ ذلك هو ما سوّغ التقديم ، إذ إنّ قرينة ذلك عقلية ، فلا يتوقع أن يكون (يعقوب) هو الذي حضر (الموت) .

المقبولية على مستوى البلاغة :

تظهر مقبولية النص القرآني الكريم في استعماله التراكيبي التي تناسب المعنى المطلوب ، وتناسب - أيضاً - السياق الذي ترد فيه ، فعند مقارنة استعمال النص القرآني لمعنى معين ، مع استعمال مستحسن عند العرب ، فقد أظهر علماء اللغة ، والبلاغة تفوق النص الكريم ، ورفعة مقبوليته على غيره ؛ ولذا يلحظ أن العلماء كانوا يظهرون المزية ، وهي بيان القرآن الكريم ، وعلو بلاغته ، وجودة نظمه ، ((ومن يطوف في رحاب التفاسير اللغوية ، والبلاغية يجد وقفات طويلة في مفردات السور المدنية ، التي كان طابعها التشريع ؛ لأنّ التشريع قد غني - أيضاً - بنفسية المؤمن ، ومن خلال رسم السلوك

(١) سورة الأحزاب : ٥٣ .

(٢) ينظر : شرح ديوان المتنبي : ١٩٥ / ٤ .

(٣) المثل السائر : ١٥٢ / ١ - ١٥٣ .

(٤) المصدر نفسه : ١٥٣ / ١ .

(٥) سورة النساء : ١٤١ .

(٦) تفسير الكشاف : ٥٦٦ / ١ .

(٧) سورة البقرة : ٣٨ . وقد تكرر هذا التركيب في البقرة : ٦٢ ، ١١٢ ، ٢٦٢ ، ٢٧٤ ، ٢٧٧ ؛ وسورة آل عمران : ١٧٠ ؛ وسورة المائدة : ٦٩ .

(٨) سورة البقرة : ١٣٣ . ومثلها في البقرة : ١٨٠ ، وسورة النساء : ١٨ ، وسورة المائدة : ١٠٦ ، وسورة الأنفال : ٥٠ .

البشريّ السوي ، وإلقاء الأوامر الإلهيّة ، إذ ظهرت للدارسين جماليات في مناسبة المقام بمفردات تختزن طاقة وجدانيّة كبرى))^(١) ، من ذلك ما جاء عن بعض العلماء ، إذ قارن بين قوله تعالى : ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾^(٢) ، مع قول العرب المأثور : القتل أنفى للقتل ، وفي ذلك يقول الرمانيّ : ((وهذا الضرب من الإيجاز في القرآن كثير ، وقد استحسّن الناس من الإيجاز قولهم : القتل أنفى للقتل ، وبينه وبين لفظ القرآن تفاوت في البلاغة ، والإيجاز ، وذلك يظهر من أربعة أوجه : أنه أكثر في الفائدة ، أوجز في العبارة ، وأبعد من الكلفة بتكرير الجملة ، وأحسن تأليفاً بالحروف المتلائمة . أمّا الكثرة في الفائدة فيه ، ففيه كلّ ما في قولهم : القتل أنفى للقتل ، وزيادة معان حسنة ، منها إبانة العدل لذكره القصاص ، ومنها إبانة الغرض المرغوب فيه لذكره الحياة ، ومنها الاستدعاء بالرغبة ، والرغبة لحكم الله به . وأمّا الإيجاز في العبارة ، فإنّ الذي هو نظير - القتل أنفى للقتل - قوله (القصاص حياة) ، والأول أربعة عشر حرفاً ، والثاني عشرة أحرف ، وأمّا بعده من الكلفة بالتكرير الذي فيه على النفس مشقة ، فإنّ في قولهم : القتل أنفى للقتل تكريراً غير أبلى منه ، ومتى كان التكرير كذلك ، فهو مقصّر في باب البلاغة...))^(٣) . ومنه - أيضاً - استعمال مفردة معيّنة للدلالة على معنًى بلاغيّ ، لا يتحقّق المعنى المطلوب لو استعمل مفردة أخرى ، إذ إنّ المفردة أصابته المعنى ، ودلّث على الغرض البلاغيّ في الوقت نفسه ، وذلك في قوله تعالى : ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَضْتُمْ بِهِ مِنْ خُطْبَةِ النِّسَاءِ...﴾^(٤) . فالمفردة (عرّضتم) تشير إلى استعمال أسلوب التعريض ، المشتق من الكلمة نفسها ، ويبدو أنّ علماء البلاغة قد استعملوا هذا المصطلح البلاغيّ مستنديين إلى ما جاء في هذه الآية ، فالمعنى الذي يفيد استعمال المفردة هو عدم التصريح بالخطبة للمرأة المعتدة ، وهو ما يوحي بغاية أخلاقيّة ، تحقّقها هذه المفردة ، إذ ((بها ينهج القرآن للمؤمنين منهج السر ، والتأدّب في خطبة المرأة المعتدة ، وهي ممنوعة من النكاح))^(٥) .

المقبولية والتدرج في الحكم :

درج النصّ القرآنيّ على عدم تشريع الأحكام العباديّة ، وغير العباديّة دفعةً واحدةً ، بل استعمل طريقة إنزال الأحكام على دفعات ؛ وسبب ذلك هو مراعاة حال المتلقين / المسلمين ، إذ إنّ المتلقي - خاصة في أوائل العهد المدني - يستقلّ تكاثر الأحكام الشرعيّة عليه ، وهو حديث عهد بالدين ، وتحكمه الأعراف الاجتماعيّة ، والقلبيّة المتأصلة في نفسه ؛ ولذا فقد استعمل النصّ الكريم - بحثاً عن المقبوليّة - طريقة التدرج في الحكم الشرعيّ ، أي أنّ الحكم الشرعيّ كان على شكل دفعات ، الغاية الأولى منها تحقيق المقبوليّة لدى المتلقين / المسلمين ، والغاية الأخيرة هي تحقيق قصد المشرّع / الله - سبحانه وتعالى - ، فقصد منشئ النصّ هو الحكم الأخير ، وكلّ الخطوات التي اتبعها للوصول إليه سببها إيجاد المقبوليّة في نفس المتلقي . ولعلّ أصدق مثال على ذلك حكم تحريم الخمر في القرآن الكريم ، فقد جاءت الآية الأولى تُبيّن للمسلمين المضارّ الموجودة فيه ، ولم تقطع الكلام بذلك ، بل ذكرت أنّ في الخمر منافع ، ورَجَّحت المضارّ على المنافع ، وذلك في قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ الْفِجَارُ أَوْ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِنَّهُمْ جُحُورٌ مِّنْ نَّعِيمٍ يُوسِيسُ لَكُمْ...﴾^(٦) . إنّ السؤال من المتلقين في قوله (يسألونك) يحمل في ذاته نوعاً من المقبوليّة للحكم ، فهم لم يسألوا إلا ليعرفوا الجواب الإلهيّ من صاحب الحكمة ، وهم يسألهم يحكمون عقولهم على أهوائهم ؛ ولذا فالجواب يحمل مسحة عقليّة في قوله (وإنّهم أكبر من نفعهما) ، فمن كان يسترشد بالنصّ الكريم ترك شرب الخمر ، ولم يعاود عليه ، ولم يبق إلا أصحاب النفوس الضعيفة ، وأهل الأهواء الذين دأبوا على الشرب ، (فأسلوب الحوار ، وطريقة التخاطب التي يستخدمها الأنبياء ، وما تتضمن من أبعاد نفسيّة ، وجماليّة ، تحمل المتلقي على الإنصات لقوة المحاجة العقليّة ، ووضوح البيّنة ، فيقف متأثراً مفكراً في الكلام نفسه ، وفي أبعاده القصيّة التي تطلّ لصيقة بالذاكرة))^(٧) ، إذ جاءت الحادثة التي استدعت حكماً جديداً مناسباً للمقام ، فنزل قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾^(٨) . فالآية أولاً : نهت المسلمين عن الخمر في الوقت القريب من الصلاة (حتى تعلموا ما تقولون) ، وهذا ما يوجب على المسلم أن لا يشرب إلا الكميّة التي تبقى على وعيه عند قيام الصلاة ، وثانياً : الآية قرنت شرب الخمر حدّ السكر بالحدثين : الأكبر / الجنابة ، والأصغر / قضاء الحاجة ؛ وفي ذلك دلالة على أنّ حال شارب الخمر في تعرّضه للنجاسات كحال من كانوا (جنباً) ، أو من جاء (من الغائط) . ولما أصبحت الحالة النفسيّة للمسلمين بعيداً أن تركوا شرب الخمر ، أو قلّوا من شربه - مهيةً للأمر لهم بتركه - وهذا هو قصد النصّ - نزلت الآية التي حرّمتها عليهم تحريماً نهائياً ، وذلك في قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(٩) . فالخمر (رجس) من أوّل الخلق ، وليس من وقت نزول الآية ، ولكن البحث عن المقبوليّة لدى المتلقي هو ما أجلّ البتّ بهذا الحكم إلى سورة المائدة ، التي تعدّ من أواخر السور النازلة على النبيّ p ، ((فكلمة (رجس) تنمّ على إبعاد المؤمن عن

(١) جماليات المفردة القرآنيّة : ٢٧ .

(٢) سورة البقرة : ١٧٩ .

(٣) التكت في إعجاز القرآن : ٧٧ - ٧٨ .

(٤) سورة البقرة : ٢٣٥ .

(٥) جماليات المفردة القرآنيّة : ٢٧٢ .

(٦) سورة البقرة : ٢١٩ .

(٧) استقبال النصّ عند العرب : ١٦ .

(٨) سورة النساء : ٤٣ .

(٩) سورة المائدة : ٩٠ .

(١٠) كذا ، والصحيح : تنمّ عن .

أخلاقية دينية ، منشؤها معاقرة الخمر ، واتباع الأصنام ، ولعب القمار ، وهذه الكلمة من المفردات التي لم يذكرها القدامى ((^(١)، وهذا ما يضيف إلى التحريم بعداً إعلامياً ، إذ استعمل كلمة لم يستعملها العرب في مثل هذا المقام .

المقبولية والأسلوب في الحكم الشرعي :

لم يستعمل النص القرآني الكريم في كثير من الأحكام الشرعية الأسلوب الأمري المباشر ، بل استعمل طرقات راعى فيها حال المتلقين / المسلمين ؛ ولذا فقد التمس لهم العلة الشرعية ، والاجتماعية لتكون تلك الأحكام أدعى إلى القبول ، والعمل بها ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ وَقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين ﴾ ^(٢) . يلحظ أنه - تعالى - قد علل الأمر بالقتال بقوله (حتى لا تكون فتنة) ، وهذه الفتنة سوف يصيب أذاها المسلمي أولاً ، ثم ذكر ثانياً (ويكون الدين لله) ، فجعل أمر الإعلاء لكلمة الله بعد خشية من وقوع الفتنة ؛ لكونها - أي الفتنة - تسمم بشرها ، فكان للعامل النفسي الأثر الكبير في أمرهم بالقتال ، فجاء الحكم الشرعي مراعيًا حالهم ، فكان ذلك مسوغاً لقولهم القتال . وقد لا يستعمل أسلوب الأمر المباشر ، بل يستعمل الأسلوب الخبري ، وبصيغة البناء للمجهول - خاصة في الأحكام التي فيها من الثقل ، والتكليف عليهم - ؛ لأجل الاهتمام بالحدث الفعلي في الآية دون النظر إلى صاحبه ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَى بِالْأَنْثَى هُنَّ عُقَى لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ قَاتِلًا بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ هُنَّ أَعْتَدَى بِكُمْ قُلُوبُ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ ^(٣) ، فيلاحظ استعمال الفعل (كُتِبَ) ، الذي يوحي لفظه بالوجوب ، ولكن بأسلوب لين ؛ لأن الأمر يتعلق بالقصاص في القتل ، وهو ما يحمل من المشقة على المسلمين ، فاستعمل صيغة البناء للمجهول ، التي تركز على الحدث الكلامي من دون النظر إلى محدثه ، كما يلحظ أنه حين ذكر أمر العفو صرح بذكر الله تعالى عن طريق وصفه بـ (ربكم) ، التي تدل على سابق فضله عليهم ، وإحسانه إليهم ، فقال (فمن عفى له من أخيه من شيء اتبع بالمعروف وأداء إليه بإحسان ذلك تخفيف من ربكم) . ومثله قوله تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمْ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنْتُمْ عَلَى الْمَقِينِ ﴾ ^(٤) ، وقد قرن العمل بالحكم الشرعي بتحفيظهم عليه ، وذلك بأن جعل العمل بالأمر (حقاً على المتقين) ، فكان ذلك التحفيز موجبا لهم أن ينفقوا حكم الوصية - إن كانوا من المتقين - ، وقوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَكُمْ بُعْدٌ عَنْهُ ﴾ ^(٥) ، إذ جعل الحكم الشرعي هيناً ؛ وذلك لكونه ليس أمراً مفروضاً على المسلمين فقط ، بل هو حكم قد سري على الأمم الماضية ، ثم أعقبه بالتعليل له بقوله (لعلكم تتقون) ، وقوله تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ^(٦) ، حاولت الآية الكريمة مراعاة حال الإنسان المسلم ، بأن أفصحت عن دواخله تجاه قضية القتال ، فقال (وهو كره لكم) ، ثم أراد أن يبين لهم لم حملهم على أمر ، هو كره لهم ، فعلا به بقوله (وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم) ، فكان ذلك تخفيفاً نفسياً لهم . ورغب المسلمين في إعطاء الصدقات ، فلم يستعمل الأسلوب الأمري ، بل استعمل أسلوب الاستفهام الباحث عن إعطى الذين لله تبارك وتعالى - وهو الذي بيده ملكوت كل شيء - تحفيزاً لهم على التصديق على الفقراء ، والمحتاجين ، فقال - عز من قال - : ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يَرِضُ اللَّهُ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعَفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْضِي وَبَسْطٌ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ ^(٧) . فقد استعارت الآية الكريمة لفظ (الإقراض) في الإتيان بالصدقة ، وكان المتصدق يقرض صاحب عوز - وهو مالك الملك - على اتفاق بينهما أن يرجعه له حين ميسرة ، ثم حقر المتصدق بأن جعل قرضه / المستعار ، يُعاد إليه (أضعافاً كثيرة) ، فكان العمل بالصدقة شرفاً للمتصدق أولاً ؛ كون إقراضه مع الله تعالى ، وثانياً ستكون ستكون فائدة الصدقة مضاعفة لها في الدنيا ، والآخرة .

المقبولية والقراءات القرآنية : وضع علماء القراءات ضوابط لتمييز القراءة الصحيحة من غيرها ، ونقل ابن الجزري الشروط التي وضعوها للقراءة الصحيحة ، وهي ((كل قراءة وافقت العربية ولو بوجه ، ووافقت المصاحف العثمانية ولو احتمالاً ، وصح سندها ، فهي القراءة الصحيحة التي لا يجوز ردها ، ولا يحل إنكارها)) ^(٨) . إن البحث في القراءات القرآنية يرتبط بطريقة ، أو بأخرى بمبدأ المقبولية ، ف((القراءات السبع اختيارات أولئك القراء ، فإن كل واحد اختار فيما روى ، وعلم وجهه من القراءة ما هو الأحسن عنده ، والأولى ، ولزم طريقة منها ، ورواها ، وقرأ بها ، واشتهر عنه ، ونُسب إليه)) ^(٩) ، فقد اختلف قراء القرآن فيما بينهم ، فكل واحد منهم روى صحة قراءته بمقدار فهمه / مقبوليته للنص ، وقد علل ابن مجاهد هذا الاختلاف بقوله : ((اختلف الناس في القراءة كما اختلفوا في الأحكام ، ورويت الآثار بالاختلاف عن الصحابة ، والتابعين ؛ توسعة ، ورحمة للمسلمين)) ^(١٠) . وقد يُخطئ بعض القراء بعضاً معتمدين في ذلك أسباباً ، بعضها يمتد إلى عقيدة المخطئ ، وبعضها ينظر إلى الاستعمال اللغوي ، من ذلك ما نقله الزركشي في قراءة قوله تعالى : ﴿ هَاجَرَهُ الْمَلَانِكَةُ وَهَوَاتِمُ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ ﴾ ^(١١) ، إذ نقل أن بعضهم ((قال : أكره التأنيث لما فيه من موافقة دعوى الجاهلية في

(١) جماليات المفردة القرآنية : ٢٦٤ .

(٢) سورة البقرة : ١٩٣ - ١٩٤ .

(٣) سورة البقرة : ١٧٨ .

(٤) سورة البقرة : ١٨٠ .

(٥) سورة البقرة : ١٨٣ .

(٦) سورة البقرة : ٢١٦ .

(٧) سورة البقرة : ٢٤٥ .

(٨) النشر في القراءات العشر : ٩ / ١ .

(٩) البرهان في علوم القرآن : ١٦٢ / ١ .

(١٠) السبعة في القراءات : ٤٥ .

(١١) سورة آل عمران : ٣٩ .

زعمها أنَّ الملائكة إناث ، وكذلك كره بعضهم قراءة مَنْ قرأ بغير تاء ؛ لأنَّ الملائكة جمع^(١) . فالذي يلحظ أنَّ المخطئ الأول رفض القراءة — بناء التأنيث — ؛ لأنَّ ذلك سيكون موافقاً لما أدعاه الكفار من أنَّ الملائكة إناث ، وهنَّ بنات الله ، فأراد أن يغيّر قراءته على الرغم من وجود التاء في الرسم القرآني ؛ لدفع توهم أن يكون المعنى موافقاً لزعم مشرك ، وهذا يدلُّ على الاجتهاد من القارئ عند تلقيه للنصِّ القرآني ، فقرأه بالمنطور المعرفيِّ العفديِّ الذي آمن به ، في حين أنَّ القارئ الآخر رفض تلك التخطئة ، ورأى أنَّ قواعد اللغة تلزم القراءة بالتاء . ويعقب الزركشيُّ بقوله : ((وهذا كله ليس بجيد ، والقراءتان متواترتان ، فلا ينبغي أن تُردَّ إحداها ألبتة ، وفي قراءة عبدالله (فناداه جبريل) ما يؤيد أنَّ الملائكة مراد به الواحد))^(٢) ، ولم أجد هذه القراءة في كتب القراءات^(٣) . ومما يلحظ على نصِّ الزركشيِّ المتقدم أن القارئ — عبدالله — قد قرأ النصَّ بمنظار المعنى الذي يعطيه لفظ (الملائكة) ، وفي ذلك تعطيل للصواب التي وضعوها للقراءة . وقد كان للمذاهب الكلامية أثر في القراءات ، ففي قوله تعالى : ﴿ ... وَمَا يَعْظُمُ تَأْوِيلُهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ ... ﴾^(٤) ، ((يقف الأشاعرة عند (الراسخون في العلم) على حين يقف المعتزلة عند (يقولون)))^(٥) ، وفي ذلك يقول الزمخشريُّ : ((ومنهم من يقف على قوله (إلا الله) ، يبتدئ (والراسخون في العلم يقولون) ، ويفسرون المتشابه بما استأثر الله بعلمه ، وبمعرفة الحكمة فيه من آياته ، كعدد الزبانية ، ونحوه ، والأول هو الوجه))^(٦) . وقد جَوَّز العلماء القراءات المتعددة للنصِّ القرآني ، إنَّ كانت موافقة للشروط التي وضعوها للقراءة الصحيحة ، وإن كان فيها بعض الفوارق الدلالية ، من ذلك ما يراه الأخفش [ت ٢١٥هـ] — مثلاً — في بعض المواضع من جواز قراءة الفعل بالبناء للمعلوم ، أو المجهول ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِيُتَى أَنْ يَتْلَ وَمَنْ يَتْلَ يَأْتِ بِمَا عَلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ... ﴾^(٧) ، قال : ((وقال بعضهم (يُتْلَ) ، وكلَّ صواب والله أعلم ؛ لأنَّ المعنى : أن يخون ، أو يخان))^(٨) . إنَّ الاختلاف في القراءات القرآنية يؤدي في كثير من الحالات إلى الاختلاف في الأحكام الفقهية المترتبة على كيفية القراءة ، وهو دليل على مقبولية كلِّ قوم للمعنى بمقدار تلقيه لذلك المعنى المستنبط من القراءة ، وكلَّ بحسب ثقافته اللغوية ، والفقهية ، بل وحتى مذهبه الكلامي الذي يعتقه ، ولذا يلحظ أنَّ الزمخشريُّ يرى في قوله تعالى : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْبِثُوا وُجُوهَكُمْ وَأَبْصِرُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى الْأَفْئِدَةِ ﴾^(٩) ، أنَّ حكم الأرجل الغسل ، قال : ((قرأ جماعة (وأرجلكم) بالنصب ، فدلَّ على أنَّ الأرجل مغسولة ، فإن قلت : فما تصنع بقراءة الجرِّ ، ودخولها في حكم المسح ؟ قلت : الأرجل من بين الأعضاء الثلاثة المغسولة ، تغسل بصبِّ الماء عليها ، فكانت مظنة للإسراف المذموم المنهي عنه ، فعطفت على الثالث الممسوح لا لتمسح ، ولكن لينبه على وجوب الاقتصاد في صبِّ الماء عليها))^(١٠) . فالزمخشريُّ يعلم أنَّ القراء السبعة قد انقسموا إلى قسمين ، ((فقرأ ابن كثير وحزمة وأبو عمرو : (وأرجلكم) خفضاً . وقرأ نافع وابن عامر والكسائي : (وأرجلكم) نصباً . وروى أبو بكر عن عاصم (وأرجلكم) خفضاً . وروى حفص عن عاصم (وأرجلكم) نصباً))^(١١) ؛ ولذا حاول أن يوجد منزلة وسطاً بين دالتي القراءتين .

المحكم والمتشابه بين القصديَّة والمقبولية :

جاء التصريح في النصِّ الكريم أنَّ آياته تنقسم إلى قسمين : محكم ، ومتشابه ، قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي دُورِهِمْ فَيَعْبَهُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾^(١٢) . والذي يظهر من صريح الآية أنَّ المحكمات هي ما كان القصد فيها واضحاً محدداً ، لا يقبل التعدد في الرأي على الرغم من أنَّ علماء علوم القرآن قد ذكروا آراءً فيه ، فالزركشيُّ يرى أنَّ المحكم في الاصطلاح هو ((ما أحكمته بالأمر ، والنهي ، وبيان الحلال ، والحرام ... وقيل : هو الذي لم يُنسخ ... وقيل : هو الناسخ ، وقيل : الفرائض ، والوعد ، والوعيد . وقيل : الذي وعد عليه ثواباً ، أو عقاباً ، وقيل : الذي تأويله تنزيله جعل القلوب تعرفه عند سماعه ... وقيل ما لا يحتمل في التأويل إلا وجهاً واحداً ، وقيل : ما تكرر لفظه))^(١٣) . أمَّا المتشابه ، فهو ((أن يشبه اللفظ في الظاهر مع اختلاف المعاني ... وقيل : يحتمل وجوهاً ... وقيل : ما لا يستقلُّ بنفسه إلا برده إلى غيره))^(١٤) . من الكلام المتقدم يمكن التوصل إلى أنَّ الآيات المحكمات آيات ليس للمسلم أن يتأولها ، أو أن يبحث في أكثر من معنى لها ، فالمعنى فيها مقصود من الله تعالى ، ولا يجوز للمسلمين الانحراف عن اللفظ بتأويله . أمَّا الآيات المتشابهة ، فقد اختلف العلماء في قراءة الآية المتقدمة ، أيكون الوقف فيها على قوله (إلا الله) ، أم يكون على قوله (والراسخون في العلم) . وهذا الوقف سيحدِّد إن كان معنى التأويل مقصوداً على الله تعالى فقط ، ((وأنَّ الله تعبد من كتابه بما لا يعلمون — وهو المتشابه — كما تعبد من دينه بما لا يعلمون — وهو التعبدات —))^(١٥) . أم أنَّ غيره — سبحانه — قد اشتركوا معه في معرفة المتشابه ، وقد ذهب إلى هذا الرأي مَنْ جعل الواو في قوله (والراسخون في العلم) للعطف ، فقد رأى أنَّ معنى الآيات المتشابهة يعلم تأويلها مَنْ وصفهم بالرسوخ في العلم ؛ ((لأنَّ الله

(١) البرهان في علوم القرآن : ٢٣٩ / ١ .

(٢) المصدر نفسه : الصحيفة نفسها .

(٣) ينظر : السبعة في القراءات : ٢٠٥ ، والتذكرة في القراءات : ٢١٨ — ٢١٩ ، والعنوان في القراءات السبع : ٧٩ ، والنشر في القراءات العشر : ٢٣٩ / ٢ .

(٤) سورة آل عمران : ٧ .

(٥) التأويل وقراءة النص : ١٤٧ .

(٦) تفسير الكشاف : ٣٣٣ / ١ .

(٧) سورة آل عمران : ١٦١ .

(٨) معاني القرآن ، الأخفش : ١٤٩ .

(٩) سورة المائدة : ٦ .

(١٠) تفسير الكشاف : ٥٩٨ / ١ — ٥٩٩ .

(١١) السبعة في القراءات : ٢٤٢ — ٢٤٣ .

(١٢) سورة آل عمران : ٧ .

(١٣) البرهان في علوم القرآن : ٤٥ / ٢ — ٤٦ . وينظر : الإتيان في علوم القرآن : ٣ / ٢ — ٤ .

(١٤) المصدر نفسه : ٤٦ / ٢ .

(١٥) البرهان في علوم القرآن : ٤٧ / ٢ — ٤٨ .

تعالى لم يكلف الخلق بما لا يعلمون ، وضُعت الأول ؛ لأن الله لم ينزل شيئاً من القرآن إلا لينتفع به عباده ، ويدل به على معني أرادته ... فإن قيل : كيف يجوز في اللغة أن يعلم الراسخون ، والله يقول (والراسخون في العلم يقولون آمناً به) ، وإذا أشركهم في العلم انقطعوا عن قوله (يقولون) ؛ لأنه ليس هنا عطف حتى يوجب للراسخين فعلين ؟ قلنا : إن (يقولون) هنا في معنى الحال ، كأنه قال (والراسخون في العلم) قائلين آمناً))^(١) . إن منتج النص يقصد معني يريد إيصاله إلى السامع ، أو القارئ ، ولكن هل القارئ حر في أن يتجاوز قصد المتكلم ، فيذهب في المعنى حيثما يريد . إن المفردات ، والتراكيب المستعملة في النص تقيد القارئ إلى حد ما في تحديد المعنى المطلوب من النص ، وليس للقارئ أن يحمل منتج النص ما لم يُرد قوله . وإذا كان القارئ للنص الأدبي - غير القرآن - بحكم أدبيّة النص ، حرّاً في تحميل النص المعاني التي يراها بحسب ثقافته ، ومنهجه ، والمدرسة الأدبيّة ، أو النقديّة التي ينتمي إليها ، وهو ما انسحب إلى خلاف في هدف النص ، ف ((هل هدف النص هو الوصول إلى معناه ، أم مغزاه ، أم تحقيق متعة ، أم الوصول إلى التفسير موجّه المعنى ، أم إشباع نفسي ؟ إلى آخر تلك المحاور التي أفرزها الخلاف حول الثنائيّة المعروفة القارئ - النص))^(٢) . لكن النص القرآني - لقداسته - لا يحتمل ، أو لا يجوز الحكم عليه بمثل تلك الآراء ، والمناهج ؛ ولذا يجب الانطلاق من المسلمات العقديّة عند محاولة تفسير النص الكريم . إن ((النص عالم دلالات ، وبنيات ، يتم إنتاجها من خلال النص ، كما تتجلى من خلال الكاتب ، والقارئ . ولا شك أن إنتاج النص مرتبط بزمان محدّد ، أمّا تلقّيه ، أو التأثير الذي يحدثه ، فلا يرتبط بزمان بعينه ، بل تحدث العملية في أزمنة عدّة ، وتطلّ تنتج تفسيرات تتعدّد بتعدّد القراءات))^(٣) .

المبحث الثالث : الإعلامية

الإعلامية في اللغة والاصطلاح :

الإعلامية لغة ^(٤) : هي من الفعل المجرد : علم يعلم علماً : نقيض الجهل . وما علمت بخبرك ، أي ما شعرت به . وأعلمته بكذا ، أي : أشعرته ، واستعلمني الخبر ، فأعلمته إيّاه . وعلمت الشيء أعلمه علماً : عرفته . **الإعلامية اصطلاحاً** : ذكر الكفوي مصطلح (الإعلام) ، وعرفه بقوله : ((عبارة عن تحصيل العلم ، وإحداثه عند المخاطب جاهلاً بالعلم به ؛ ليتحقّق إحداث العلم عنده ، وتحصيله لديه))^(٥) . ورأى أن الإعلام يكون ((بالكتابيّة ، والإشارة ، والكلام))^(٦) . إن هذا المصطلح لدى القدماء يرادف معنى (الإخبار) ، أو (الإبلاغ) ، فكلّ فعل لغويّ تواصلّي يؤدي إلى الإخبار بمعلومات ، وأحداث لا يعلمها المتلقّي ، فإن لم يكن كذلك كان نوعاً من الثرثرة ، والاجترار للمعلومات ، والأحداث الحاصلة في الماضي . وإذا كان هذا المعنى المتعارف عليه عند القدماء هو ما يُفهم من المصطلح ، فذلك ما يتوقّف في كلّ حدث لغويّ ، أدبيّاً كان أم لم يكن . فالحديث العام الذي يتناقله الناس يحتوي على مقدار معيّن من الإعلامية بهذا المفهوم المتقدّم .

الإعلامية في دراسات العرب القدماء :

هناك محاولات مبكرة للغويين ، والبلاغيين العرب القدماء ، يُمكن عنّا مهاداً للبحث في إبلاغيّة /إعلاميّة اللغة ، فقد كانت الإعلامية موجودة لدى القدماء ، ولكن بمستويات أخرى غير ما نَظر إليه في الدراسات النصيّة . فقد كان لديهم الوعي بهذا الأمر ، ولكن من دون توسّع ، ومنهجية واضحة . ولعلّ خير دليل على ذلك قضية تخيّر الألفاظ عند كثير من اللغويين العرب ، فهي تمثّل درجة راقية ، ومهمة من درجات النظر في إبلاغيّة المفردة ، ومدى استجابة المتلقّي لسماعها ، قبولاً ، أو رفضاً ، مثل معجم (تهذيب الألفاظ) لابن السكيت ، و(الألفاظ الكتابيّة) للهمدانيّ ، و(جواهر الألفاظ) لقدامة بن جعفر ، و (متخيّر الألفاظ) لابن فارس^(٧) [ت ٣٩٥هـ] . ففي كتاب (متخيّر الألفاظ) لابن فارس ، يُلاحظ - على حدّ قول بعض الباحثين^(٨) - أنه وضع معايير عدّة لهذا التخيّر ، منها : ((التلقّي ، ومدى استجابة المتلقّي للفظ ، وانفعاله لسماعه ، ومن ثمّ الطريقة التي يؤدّي بها اللفظ ، وموقعه من كلام العرب ، ومجازاتهم ، وتشبيهاتهم ، وكذلك البعد الاجتماعيّ المتمثّل بطبقات المتكلّمين ، ودرجاتهم))^(٩) . ومثله كتاب (تهذيب الألفاظ) لابن السكيت ، الذي تدلّ أبوابه على معاني الألفاظ من خلال تداولها بين الناس ، وهذا ما يمثّل إرهاباً للإبلاغيّة / الإعلامية في المصنّفات العربيّة القديمة^(١٠) . من ذلك يُمكن أن تكون قضية (تخيّر الألفاظ) الممهّد التاريخي للإبلاغيّة ، وقد اتجهت إلى الربط بين اللفظ ، أو التركيب ، ودلالته الإيحائيّة ، ومدى الشحنات الانفعاليّة التي قد يحملها ، من دون أيّ تحوّل صيغيّ ، أو صوتيّ . وإذا كان هناك بعض الألفاظ التي يكون للتحوّل الصيغيّ أثر في قيمتها الإبلاغيّة ، مثل الأفعال : يأكل ، ويشكر ، ويفعل ، فهي عندما تتحوّل إلى صيغ المبالغة : أكل ، وشكور ، وفعل ، تصبح قيمتها التعبيريّة في التركيب ذات دلالة أكثر مبالغة في تحقّق الفعل^(١١) . ولعلّ ممّا يُمكن أن يُزاد على ذلك أن هذه الأفعال نفسها - كما يصلح لذلك كلّ فعل يستعمل في غير حقله الدلاليّ - إذا استعملت مركّبة مع ألفاظ لا يتوقّع السامع استعمالها معها ، رفعت من درجة الإعلامية فيها ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَعْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا

(١) البرهان في علوم القرآن : ٤٧ / ٢ - ٤٨ .

(٢) علم لغة النص ، المفاهيم والاتجاهات : ١٨٣ . وينظر : معايير القبول والرّد لتفسير النصّ القرآنيّ : ١١١ .

(٣) علم لغة النص ، المفاهيم والاتجاهات : ١٨٦ . وينظر : معايير القبول والرّد : ١١٣ .

(٤) ينظر : كتاب العين : ١٥٢ / ٢ ، وتاج اللغة وصحاح العربيّة : ١١٨٩ / ٤ ، ومعجم مقاييس اللغة : ١٥٩ / ٢ ، وأساس البلاغة : ٤٣٧ ، ولسان العرب : ٣ / ٢٧٤٣ - ٢٧٤٦ ، والقاموس المحيط : ١٠٥١ (علم) .

(٥) الكلّيات : ١٢٣ .

(٦) نفسه : ٥٣ .

(٧) ينظر : الإبلاغيّة في الشاهد البلاغيّ : ١١ .

(٨) ينظر : الإبلاغيّة في الشاهد البلاغيّ : ١٢ .

(٩) المصدر نفسه : ١٢ .

(١٠) ينظر : المصدر نفسه : ١٣ .

(١١) ينظر : المصدر نفسه : ١٣ - ١٤ .

أَجِبُّ أَوْ حَدِّثُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ ﴿١﴾ . فقد ((مُلَّت الغيبة بأكل لحم الأخ الميت ، وهو ما يستلزم تمثيل المولود بها بمحبة أكل لحم الأخ الميت ، والتمثيل مقصود منه استقضاع الممثلة ، وتشويهه ؛ لإفادة الإغلاظ على المغتابين لأن الغيبة متفحشة في الناس))^(١) . ولعلَّ ممَّا يدخل في هذا المبحث ، بعض الإشارات التي ذكرها العلماء العرب فيما يخصَّ النظم القرآني ، إذ يُلاحظ أنَّ العلماء يفرِّقون بين نظم القرآن ، وكلام العرب ، شعرهم ، ونثرهم ، فرأوا أنَّ نظم القرآن هو أحد عوامل إعجازه ، من ذلك قول عبد القاهر الجرجاني : ((معلوم أنَّ المعوَّل في دليل الإعجاز على النظم ، ومعلوم كذلك أنَّ ليس الدليل في المجيء بنظم لم يوجد من قبل فقط ، بل في ذلك مضمومًا إلى أنَّ يبين ذلك النظم من سائر ما عُرف ، ويُعرف من ضروب النظم))^(٢) . وهذا البيان عن صنوف النظم لديهم مزية إعلامية للنصِّ الكريم ، إذ كسر توقعهم في جنس النصِّ الأدبي الذي يحاولون أن ينسبوا إليه النصِّ القرآني الكريم . ويقارب مصطلح الإعلامية – في المفهوم – عند الغربيين مصطلحات كثيرة عند العلماء المسلمين القدماء ، من تلك المصطلحات : (الغربة – التعجيب – الاستبداد – المستندر – المستطرف – الاستطراف)^(٣) ، و (الاستطراف – الإغراب – اللطف)^(٤) . من ذلك قول القرطاجي ، وهو يبيِّن مفهوم التعجيب : ((والتعجيب يكون باستبداد ما يثيره الشاعر من لطائف الكلام التي يقلُّ التهذي إلى مثلها . فرودها مستندر ، مستطرف لذلك : كالتهدي إلى ما يقلُّ التهذي إليه من سبب للشيء تخفى سببته ، أو غاية له ، أو شاهد عليه ، أو شبيه له ، أو معاند ، وكالجمع بين مفترقين من جهة لطيفة قد انتسب بها أحدهما إلى الآخر ، وغير ذلك من الوجوه التي من شأن النفس أن تستغربها))^(٥) .

الإعلامية في الدراسات النصّية الحديثة :

لا يختلف مفهوم الإعلامية في الدراسات النصّية الحديثة كثيراً عن دراسات القدماء ، إذ تعتمد الإعلامية – في نحو النص – على الجدة ، أو التنوع الذي توصف به المعلومات ، وعلى مدى الإثارة لانتباه المتلقي . والإعلامية أحد المعايير السبعة التي وضعها روبرت دي بوجراند للنصِّ ، ورأى أنها ((العامل المؤثِّر بالنسبة^(٦) لعدم الجزم في الحكم على الوقائع النصّية ، أو الوقائع في عالم نصّي في مقابلة البدائل الممكنة . فالإعلامية تكون عالية الدرجة عند كثرة البدائل ، وعند الاختيار الفعلي لبديل خارج الاحتمال . ومع ذلك نجد لكل نصِّ إعلامية صغرى على الأقلِّ ، تقوم وقائعها في مقابل عدم الوقائع))^(٧) . ويوضّح معنى هذا الكلام ، بقوله : ((ننظر إلى هذا المصطلح لا من حيث كونه يدلُّ على المعلومات التي تشكل محتوى الاتصال ، بل من حيث يدلُّ بالأحرى على ناحية الجدة ، أو التنوع الذي توصف به المعلومات في بعض المواقف ... فإنَّ إعلامية عنصر ما تكمن في نسبة احتمال وروده في موقع معين (أي إمكانه وتوقعه) بالمقارنة^(٨) بينه وبين العناصر الأخرى من وجهة النظر الاختيارية . وكلّما بُدِّع احتمال الورد ارتفع مستوى الكفاءة الإعلامية))^(٩) . لذا لا بدَّ أن يكون النصُّ محملاً بمعان ، ودلالات يريد المنتج أن يوصلها إلى المتلقي ، إذ لو كان النصُّ فارغاً من الدلالة ، فلا يكون – عند ذلك – نصّاً ، كما لا بدَّ لهذه الدلالات من أن تكون مترابطة ، ومنسجمة^(١٠) . وتعلّق الإعلامية بمستوى توقع الموجود في النصِّ من لدن المتلقين ، يجعل الإعلامية نسبيةً ، تختلف من متلقٍ إلى آخر ، بحسب ثقافة كلّ واحد منهم واطلاعه ، وتطبّق هذه الفكرة على المحتوى ، والربط بين الوقائع في النصِّ ، وتبرز بصفة خاصة في المجاز^(١١) . ويرى روبرت دي بوجراند أنَّ الكفاءة الإعلامية ليست بدرجة واحدة ، بل هي متباينة بحسب احتمالية ورود البدائل في النصِّ ، فكلّما قلَّت احتمالية الورد كانت الكفاءة الإعلامية أعلى درجة ؛ ولذا فقد قسّم الإعلامية على ثلاث مراتب :

- ١- كفاية إعلامية من المرتبة الأولى : ((وتتحقّق كفاءة إعلامية من المرتبة الأولى في العوالم الواقعية ، حيث توجد بدائل كثيرة ، ويحدث ذلك عند اختيار بديل في الدرجة العليا من الاحتمال))^(١٢) . ويعني ذلك أنَّ الألفاظ ، والتركييب ، والتعابير المستعملة في النص متوقعة بدرجة عالية ، وليس فيها لفظ ، ولا تعبير خارج نطاق توقّع متلقي النصِّ .
- ٢- كفاية إعلامية من المرتبة الثانية : وهي ((اختيار بديل من الدرجة الوسطى ، أو من دنيا الوسطى من الاحتمالات ، يفرضي إلى المرتبة الثانية من الكفاءة الإعلامية ... ولعلَّ وجود عناصر واردة من المرتبة الثانية هو المستوى العادي للاتصال بطريق النص ، حتى إنَّ العناصر الواردة من المرتبة الأولى يُمكن إعلاء مرتبتها ... كما أنَّ العناصر الواردة من المرتبة الثالثة يُمكن خفض نسبتها))^(١٣) . وفي هذه المرتبة من الكفاءة يكون صاحب النصِّ قد اختار (التعويضات) ، أو (التفضيلات) التي تصلح أن تكون بدائل لغيرها متوقعة ، وتكون تلك التعويضات ، أو (التفضيلات (أقلَّ توقّعا^(١٤) .

(١) سورة الحجرات : ١٢ .

(٢) تفسير التحرير والتنوير : ٢٦ / ٢١٢ .

(٣) الرسالة الشافعية ، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن : ١٣٣ .

(٤) ينظر : منهاج البلاغة وسراج الأديباء : ٩٠ – ٩١ . وينظر : الإعلامية في الخطاب القرآني : ٥ .

(٥) ينظر : أسرار البلاغة : ٢٠٤ . وينظر : الإعلامية في الخطاب القرآني : ٥ .

(٦) منهاج البلاغة : ٩٠ .

(٧) كذا ، والصحيح : فيما يخصَّ عدم ...

(٨) النص والخطاب والإجراء : ١٠٥ . وينظر : المصطلحات الأساسية في لسانيات النص وتحليل الخطاب : ٨٨ .

(٩) كذا ، والصحيح : بالموازنة .

(١٠) النص والخطاب والإجراء : ٢٤٩ . وينظر : علم لغة النص ، النظرية والتطبيق : ٦٨ .

(١١) ينظر : نحو النص ، اتجاه جديد في الدرس النحوي : ٨٦ .

(١٢) علم لغة النص ، النظرية والتطبيق : ٦٨ .

(١٣) النص والخطاب والإجراء : ٢٥٣ . وينظر : الإعلامية في الخطاب القرآني : ٧ .

(١٤) النص والخطاب والإجراء : ٢٥٥ .

(١٥) ينظر : النص والخطاب والإجراء : ٢٥٥ . وينظر : الإعلامية في الخطاب القرآني : ٨ .

٣- كفاية إعلامية من المرتبة الثالثة : وهي ((ما يُعدّ من بين العناصر الواردة خارج نطاق الخيارات المحتملة على درجة التقريب يصل بنا إلى المرتبة الثالثة من الكفاءة الإعلامية . وهذه العناصر غير معتادة ، وشديدة الإثارة للانتباه ، ومن ثم يصعب فهمها ، والسيطرة عليها))^(١) .

ويؤكد علماء النصّ أنّ الإعلامية تكون ((عالية في الوقائع التي تبدو لأوّل وهلة خارجة بعض الشيء على قائمة الاختيارات المتصلة ، وهذه الوقائع قليلة الحدوث نسبياً ، وتتطلب قدرًا من الاهتمام ، وتكون أكثر إمتاعاً . وتنقسم إلى قسمين ، هما : الانقطاعات ، وفيها تبدو تشكيلة ما خالية من المادة . والمفارقات ، وفيها تبدو الأنماط المعروضة في النص غير مواكبة لأنماط المعرفة المختزنة ممّا يستلزم من مستقبل النصّ البحث في الدافع ، وسبب الاختيار من أجل استمرارية الاتصال))^(٢) . إنّ محاولة البحث عن مظاهر الإعلامية في السور المدنية من القرآن الكريم تطلب من البحث أن يقسم هذه المظاهر على وفق مستويات اللغة ، وكما يأتي :

الإعلامية على مستوى الصوت :

يظهر أثر الإعلامية على مستوى الصوت من خلال استعمال أسلوب معين في الكلام ، يكون إنتاجه كسرًا لتوقع المخاطب / المتلقي . وقد يكون في استعمال التنغيم الصوتي دليل على تلك الإعلامية ، من ذلك قوله تعالى : ﴿... كَلَّمَآ رَزَقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رَزَقُوا قَالُوا هَذَا الَّذِي رَزَقُوا مِنْ قَبْلُ وَأَتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا...﴾^(٣) . فالآية الكريمة تصف ردّ فعل أهل الجنة ، وهم يأكلون من ثمرها ، الذي يشابه ثمر الدنيا في الشكل ، ويختلف عنه في الطعم ، فالإنسان بطبعه يأسنّ ما هو مألوف له ، وينفر عمّا لم يكن له به عهد ؛ ((ولأنّه ظفر بشيء من جنس ما سلف له به عهد ، وتقدّم له معه إلف ، ورأى فيه مزية ظاهرة ، وفصيلة بينة، وتفاوتًا بينه ، وبين ما عهد بليغًا ، أفرط ابتهاجه ، واغتنباطه ، وطال استعجابه ، واستغرابه ، وتبين كنه النعمة فيه ، وتحقّق مقدار الغبطة به))^(٤) . فالنص القرآني الكريم يضع المتمتع فيه أمام عنصر مهم عند تلقيه هذه الآية ، وهو عنصر المفاجأة / كسر التوقع ، فالإحساس بلذة المأكول ، المشابه لثمار الدنيا شكلًا ، والمختلف عنها طعمًا ، يثير الاستغراب ، والغبطة معًا ، فإذا تحقّق ذلك في النص ، كان مدعاة للتفاعل بينه ، وبين المتلقي ، وتكون المزية في الجديد الذي لم يُؤفّ ، ولم يكن له عهد سبق^(٥) . ومثله قوله تعالى : ﴿فَمَا وَضَعَهَا قَالَ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا إِنِّي وَاللّهِ عَظِيمٌ بِمَا وَضَعْتُ ...﴾^(٦) ، فقوله ((إني وضعتها أنثى)) فيه إظهار للحسرة ، وكسر لتوقعها ، الذي أرادته أن يكون ولدًا ، قال الزمخشري : ((إن قلت : فلم قالت : إني وضعتها أنثى ، وما أردت إلى هذا القول ؟ قلت : قالت تحسّرًا على ما رأت من خيبة رجائها ، وعكس تقديرها ، فتحزّنت إلى ربّها ؛ لأنها كانت ترجو ، وتقدر أن تلد ذكرًا))^(٧) . وممّا يدخل في هذا المبحث (حروف التهجي) الواردة في أوائل بعض السور القرآنية المدنية (البقرة – آل عمران – الرعد) ، فهذه الحروف استُفّحت بها في تسع وعشرين سورة قرآنية ، وقد اختلف العلماء في المعنى الذي تفيد هذه الحروف ، وانتهوا في ذلك إلى قولين^(٨) :

١- أنّه علم مسرور ، وسرّ حجبته الله ، واستأثر به . وقد نفى المتكلّمون هذا القول ، وقالوا : لا يجوز أن يرد في القرآن ما لا يفهمه المخاطبون ؛ لأنّ الله تعالى أمرنا بتدبره ، والاستنباط منه . وقد ردّ قولهم بأنّ ذلك لا يمكن إلاّ مع إحاطتنا بمعناه ؛ لأنّه كما جاز التعبد بما لا يحاط بمعناه في الفعل ، فلم لا يجوز في القول بأنّ يأمرنا الله بما نقف على معناه تارة ، وتارة أخرى بما لا نقف على معناه ، ويكون قصده ظهور الانقياد ممّا ، والتسليم .

٢- أنّ المراد منه معلوم ، وذكروا فيه ما يتجاوز العشرين وجهًا – كما قال الزركشي^(٩) – مع أنّه قد عدّ منها ثلاثة عشر وجهًا فقط . ولعلّ أقربها إلى مبحث الإعلامية ما يأتي :

أ- أنّ لكلّ كتاب سرًّا ، وسرّ القرآن فوائده سوره . ورأى ابن فارس – كما نقل الزركشي – أنّ قائل ذلك أراد منه السرّ الذي يختصّ الله – تبارك وتعالى – به ، والراسخون في العلم .

ب- أنّ المشركين كانوا إذا سمعوا القرآن يتلى لغوا فيه ، وقال بعضهم – كما يحكي النصّ الكريم عنهم - : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾^(١٠) ، فأنزله الله – تعالى - ؛ ليعجبوا منه ، ويكون ذلك سببًا لاستماعهم ، ثمّ استماعهم لما بعده ، فترقّ قلوبهم ، وتلين .

ت- أنّها كالمهجة للفصحاء منهم ، والموقظة للهمم الراقدة من بلغائهم لطلبهم التساجل ، وأخذهم في التفاضل . وما كان هذا شأنه جدير بالنظر فيه ، والتوقف على معانيه بعد أن تحفظ مبانيه .

الإعلامية على مستوى الصرف :

تظهر الإعلامية على مستوى الصرف من خلال كسر توقع المتلقي في استعمال أوزان صرفية لجذر لغويّ ، لم يستعملها العرب قبل نزول القرآن . هذا من جانب ، ومن جانب آخر تبرز الإعلامية من خلال الاستعمال القرآني للقاعدة

(١) النص والخطاب والإجراء : ٢٥٥ .

(٢) علم لغة النص ، النظرية والتطبيق : ٦٩ .

(٣) سورة البقرة : ٢٥ .

(٤) تفسير الكشاف : ١ / ١١٣ . وينظر : استقبال النص عند العرب : ١٨ .

(٥) ينظر : استقبال النص عند العرب : ١٨ .

(٦) سورة آل عمران : ٣٦ .

(٧) تفسير الكشاف : ١ / ٣٥٠ .

(٨) ينظر : البرهان في علوم القرآن : ١ / ١٢٦ - ١٢٩ .

(٩) المصدر نفسه : ١ / ١٢٦ - ١٢٩ .

(١٠) سورة فصّلت : ٢٦ .

استعمال وزن صرفي لم يستعمل من قبل : وذلك أن يكون الجذر اللغوي للكلمة معروفاً عند العرب، ولكن النصّ الكريم استعمل وزناً من ذلك الجذر اللغويّ ، لم يكن العرب قد استعملوه من قبل ، من ذلك استعمال المفردة (طاعوت) من الجذر اللغويّ (طغا) ، فقد استعمله النصّ الكريم في ثمانية مواضع ، ست منها في السور المدنية ، منها قوله تعالى : ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ هَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ١٦١ ١٦٢ ١٦٣ ١٦٤ ١٦٥ ١٦٦ ١٦٧ ١٦٨ ١٦٩ ١٧٠ ١٧١ ١٧٢ ١٧٣ ١٧٤ ١٧٥ ١٧٦ ١٧٧ ١٧٨ ١٧٩ ١٨٠ ١٨١ ١٨٢ ١٨٣ ١٨٤ ١٨٥ ١٨٦ ١٨٧ ١٨٨ ١٨٩ ١٩٠ ١٩١ ١٩٢ ١٩٣ ١٩٤ ١٩٥ ١٩٦ ١٩٧ ١٩٨ ١٩٩ ٢٠٠ ٢٠١ ٢٠٢ ٢٠٣ ٢٠٤ ٢٠٥ ٢٠٦ ٢٠٧ ٢٠٨ ٢٠٩ ٢١٠ ٢١١ ٢١٢ ٢١٣ ٢١٤ ٢١٥ ٢١٦ ٢١٧ ٢١٨ ٢١٩ ٢٢٠ ٢٢١ ٢٢٢ ٢٢٣ ٢٢٤ ٢٢٥ ٢٢٦ ٢٢٧ ٢٢٨ ٢٢٩ ٢٣٠ ٢٣١ ٢٣٢ ٢٣٣ ٢٣٤ ٢٣٥ ٢٣٦ ٢٣٧ ٢٣٨ ٢٣٩ ٢٤٠ ٢٤١ ٢٤٢ ٢٤٣ ٢٤٤ ٢٤٥ ٢٤٦ ٢٤٧ ٢٤٨ ٢٤٩ ٢٥٠ ٢٥١ ٢٥٢ ٢٥٣ ٢٥٤ ٢٥٥ ٢٥٦ ٢٥٧ ٢٥٨ ٢٥٩ ٢٦٠ ٢٦١ ٢٦٢ ٢٦٣ ٢٦٤ ٢٦٥ ٢٦٦ ٢٦٧ ٢٦٨ ٢٦٩ ٢٧٠ ٢٧١ ٢٧٢ ٢٧٣ ٢٧٤ ٢٧٥ ٢٧٦ ٢٧٧ ٢٧٨ ٢٧٩ ٢٨٠ ٢٨١ ٢٨٢ ٢٨٣ ٢٨٤ ٢٨٥ ٢٨٦ ٢٨٧ ٢٨٨ ٢٨٩ ٢٩٠ ٢٩١ ٢٩٢ ٢٩٣ ٢٩٤ ٢٩٥ ٢٩٦ ٢٩٧ ٢٩٨ ٢٩٩ ٣٠٠ ٣٠١ ٣٠٢ ٣٠٣ ٣٠٤ ٣٠٥ ٣٠٦ ٣٠٧ ٣٠٨ ٣٠٩ ٣١٠ ٣١١ ٣١٢ ٣١٣ ٣١٤ ٣١٥ ٣١٦ ٣١٧ ٣١٨ ٣١٩ ٣٢٠ ٣٢١ ٣٢٢ ٣٢٣ ٣٢٤ ٣٢٥ ٣٢٦ ٣٢٧ ٣٢٨ ٣٢٩ ٣٣٠ ٣٣١ ٣٣٢ ٣٣٣ ٣٣٤ ٣٣٥ ٣٣٦ ٣٣٧ ٣٣٨ ٣٣٩ ٣٤٠ ٣٤١ ٣٤٢ ٣٤٣ ٣٤٤ ٣٤٥ ٣٤٦ ٣٤٧ ٣٤٨ ٣٤٩ ٣٥٠ ٣٥١ ٣٥٢ ٣٥٣ ٣٥٤ ٣٥٥ ٣٥٦ ٣٥٧ ٣٥٨ ٣٥٩ ٣٦٠ ٣٦١ ٣٦٢ ٣٦٣ ٣٦٤ ٣٦٥ ٣٦٦ ٣٦٧ ٣٦٨ ٣٦٩ ٣٧٠ ٣٧١ ٣٧٢ ٣٧٣ ٣٧٤ ٣٧٥ ٣٧٦ ٣٧٧ ٣٧٨ ٣٧٩ ٣٨٠ ٣٨١ ٣٨٢ ٣٨٣ ٣٨٤ ٣٨٥ ٣٨٦ ٣٨٧ ٣٨٨ ٣٨٩ ٣٩٠ ٣٩١ ٣٩٢ ٣٩٣ ٣٩٤ ٣٩٥ ٣٩٦ ٣٩٧ ٣٩٨ ٣٩٩ ٤٠٠ ٤٠١ ٤٠٢ ٤٠٣ ٤٠٤ ٤٠٥ ٤٠٦ ٤٠٧ ٤٠٨ ٤٠٩ ٤١٠ ٤١١ ٤١٢ ٤١٣ ٤١٤ ٤١٥ ٤١٦ ٤١٧ ٤١٨ ٤١٩ ٤٢٠ ٤٢١ ٤٢٢ ٤٢٣ ٤٢٤ ٤٢٥ ٤٢٦ ٤٢٧ ٤٢٨ ٤٢٩ ٤٣٠ ٤٣١ ٤٣٢ ٤٣٣ ٤٣٤ ٤٣٥ ٤٣٦ ٤٣٧ ٤٣٨ ٤٣٩ ٤٤٠ ٤٤١ ٤٤٢ ٤٤٣ ٤٤٤ ٤٤٥ ٤٤٦ ٤٤٧ ٤٤٨ ٤٤٩ ٤٥٠ ٤٥١ ٤٥٢ ٤٥٣ ٤٥٤ ٤٥٥ ٤٥٦ ٤٥٧ ٤٥٨ ٤٥٩ ٤٦٠ ٤٦١ ٤٦٢ ٤٦٣ ٤٦٤ ٤٦٥ ٤٦٦ ٤٦٧ ٤٦٨ ٤٦٩ ٤٧٠ ٤٧١ ٤٧٢ ٤٧٣ ٤٧٤ ٤٧٥ ٤٧٦ ٤٧٧ ٤٧٨ ٤٧٩ ٤٨٠ ٤٨١ ٤٨٢ ٤٨٣ ٤٨٤ ٤٨٥ ٤٨٦ ٤٨٧ ٤٨٨ ٤٨٩ ٤٩٠ ٤٩١ ٤٩٢ ٤٩٣ ٤٩٤ ٤٩٥ ٤٩٦ ٤٩٧ ٤٩٨ ٤٩٩ ٥٠٠ ٥٠١ ٥٠٢ ٥٠٣ ٥٠٤ ٥٠٥ ٥٠٦ ٥٠٧ ٥٠٨ ٥٠٩ ٥١٠ ٥١١ ٥١٢ ٥١٣ ٥١٤ ٥١٥ ٥١٦ ٥١٧ ٥١٨ ٥١٩ ٥٢٠ ٥٢١ ٥٢٢ ٥٢٣ ٥٢٤ ٥٢٥ ٥٢٦ ٥٢٧ ٥٢٨ ٥٢٩ ٥٣٠ ٥٣١ ٥٣٢ ٥٣٣ ٥٣٤ ٥٣٥ ٥٣٦ ٥٣٧ ٥٣٨ ٥٣٩ ٥٤٠ ٥٤١ ٥٤٢ ٥٤٣ ٥٤٤ ٥٤٥ ٥٤٦ ٥٤٧ ٥٤٨ ٥٤٩ ٥٥٠ ٥٥١ ٥٥٢ ٥٥٣ ٥٥٤ ٥٥٥ ٥٥٦ ٥٥٧ ٥٥٨ ٥٥٩ ٥٦٠ ٥٦١ ٥٦٢ ٥٦٣ ٥٦٤ ٥٦٥ ٥٦٦ ٥٦٧ ٥٦٨ ٥٦٩ ٥٧٠ ٥٧١ ٥٧٢ ٥٧٣ ٥٧٤ ٥٧٥ ٥٧٦ ٥٧٧ ٥٧٨ ٥٧٩ ٥٨٠ ٥٨١ ٥٨٢ ٥٨٣ ٥٨٤ ٥٨٥ ٥٨٦ ٥٨٧ ٥٨٨ ٥٨٩ ٥٩٠ ٥٩١ ٥٩٢ ٥٩٣ ٥٩٤ ٥٩٥ ٥٩٦ ٥٩٧ ٥٩٨ ٥٩٩ ٦٠٠ ٦٠١ ٦٠٢ ٦٠٣ ٦٠٤ ٦٠٥ ٦٠٦ ٦٠٧ ٦٠٨ ٦٠٩ ٦١٠ ٦١١ ٦١٢ ٦١٣ ٦١٤ ٦١٥ ٦١٦ ٦١٧ ٦١٨ ٦١٩ ٦٢٠ ٦٢١ ٦٢٢ ٦٢٣ ٦٢٤ ٦٢٥ ٦٢٦ ٦٢٧ ٦٢٨ ٦٢٩ ٦٣٠ ٦٣١ ٦٣٢ ٦٣٣ ٦٣٤ ٦٣٥ ٦٣٦ ٦٣٧ ٦٣٨ ٦٣٩ ٦٤٠ ٦٤١ ٦٤٢ ٦٤٣ ٦٤٤ ٦٤٥ ٦٤٦ ٦٤٧ ٦٤٨ ٦٤٩ ٦٥٠ ٦٥١ ٦٥٢ ٦٥٣ ٦٥٤ ٦٥٥ ٦٥٦ ٦٥٧ ٦٥٨ ٦٥٩ ٦٦٠ ٦٦١ ٦٦٢ ٦٦٣ ٦٦٤ ٦٦٥ ٦٦٦ ٦٦٧ ٦٦٨ ٦٦٩ ٦٧٠ ٦٧١ ٦٧٢ ٦٧٣ ٦٧٤ ٦٧٥ ٦٧٦ ٦٧٧ ٦٧٨ ٦٧٩ ٦٨٠ ٦٨١ ٦٨٢ ٦٨٣ ٦٨٤ ٦٨٥ ٦٨٦ ٦٨٧ ٦٨٨ ٦٨٩ ٦٩٠ ٦٩١ ٦٩٢ ٦٩٣ ٦٩٤ ٦٩٥ ٦٩٦ ٦٩٧ ٦٩٨ ٦٩٩ ٧٠٠ ٧٠١ ٧٠٢ ٧٠٣ ٧٠٤ ٧٠٥ ٧٠٦ ٧٠٧ ٧٠٨ ٧٠٩ ٧١٠ ٧١١ ٧١٢ ٧١٣ ٧١٤ ٧١٥ ٧١٦ ٧١٧

(^١) سورة البقرة : ٢٥٦ . وورد أيضاً في : سورة البقرة : ٢٥٧ ، سورة النساء : ٥١ ، ٦٠ ، ٧٦ ، وسورة المائدة : ٦٠ ، سورة النحل : ٣٦ ، وسورة الزمر :

(٢) كتاب العين : ٤ / ٤٣٥

(٣) مفردات ألفاظ القرآن : ٥٢١ (طغی). وينظر : بصائر ذوي التمييز ٣ / ٥٠٩ .

(٤) بصائر ذوي التمييز: ٣ / ٥٠٩ .

(٥) كتاب العين : ٤ / ٤٣٦ .

(٦) نزہۃ القلوب : ۳۱۱ .

(٧) مفردات ألفاظ القرآن : ٥٢٠ - ٢١

(٩) بصائر ذوي التمييز: ٣ / ٥٠٩.

(١٠) تطور الدلالي بين لغة الشعر ولغة القرآن : ٢٢٩ .

(١١) سورة آل عمران: ١٥٤ - وهاد - أيضاً - سورة المائدة: ٥٠ ، سورة الأحزاب: ٣٣ ، وسورة الفتح: ٢٦

(١٢) المزهري، علوم اللغة : ١ / ٣٠١.

(١٣) التطور الداللي: ١٥٠.

(١٤) سورة آل عمران : ٣٧ .

(١٥) ينظر: تاج اللغة وصحاح العربية: ٤ / ١٠٨٠ (قبل).

(١٦) روح المعاني: ٣ / ١٨٥.

والإثابة))^(١). ولعلّ هذا الخروج على القاعدة الصرفيّة يحاكي الخروج على الأعراف التي توافقوا عليها ، إذ إنهم لم يُدخلوا إلى بيت المقدس امرأة قبل مريم ، فناسب خروجهم على العرف خروجهم على القاعدة الصرفيّة الموضوعية للفعل . ومثله الفعل (أنبت) الذي كان يقتضي المصدر (إنبات) ، فخرج على القاعدة ؛ لأنّ المعنى الذي يتحقّق في الخروج أسمى ممّا لو بقي على وضعه ، إذ إنّ هذا العدول أولاً : تنبيه على ((أنّ الإنسان من وجه نبات ، من حيث إنّ بداه ، ونشأه من التراب ، وإنه ينمو نموّه))^(٢) ، وثانياً : إنّ (الإنبات) يدلّ على حصول الفعل ، ومطاوعة المفعول له من دون أن يكون له مكانة فيه عند وصفه بـ (حسن) ، في حين أنّ (نباتاً) يدلّ على ما تقدّم ، وزيادة معنى ، إذ في (نبات) دلالة على أنّ النبات يتصف بالحسن في ذاته .

الإعلامية على مستوى التركيب :

نشأت الدراسات النحويّة ، والبلاغيّة ، محفّزة بالنص القرآنيّ الكريم ، فكانت غايتها حفظ اللسان من الزلل ، أو الخلل في قراءة القرآن ، أو لبيان إعجازه ، ومعانيه ، أو لشرح غامضه ، وغريبه . وكان النص القرآنيّ أحد مصادر الاستشهاد في وضع قواعد العربيّة ، وإنّ كانت نسبة شواهده - في كتاب سيبويه - لا تتجاوز أربعمئة شاهد مقارنة بالشعر الذي بلغت شواهد ألفاً وخمسين شاهداً^(٣) . ولكلّ لغة من اللغات قواعد يؤلّف الكلام على وفقها ، وتتّبع التعابير ، والتراكيب بحسبها ، ولا يخرج التركيب عن القواعد ، ولا يغيّر فيها إلاّ لمعنى يريده المتكلّم ، أو أنّ سياق الحال يفرض عليه ذلك الخروج ، أو الكسر تلك القواعد . وقد بُنيّت قواعد اللغة العربيّة على توافر طرفي إسناد في الجملة الواحدة ، ثمّ يؤتى بالفضلة التي تكمل المعنى المطلوب في الكلام . ولكنّ هذه القواعد لم تكن مطّردة ، لا في كلام العرب ، ولا في النص القرآنيّ الكريم ، فقد تتقدّم العناصر غير الداخلة في علاقة الإسناد على عناصر الإسناد ؛ لغاية متحقّقة في النص ، أو أنّ يكون نسق الكلام جارياً على علامة إعرابية معيّنة ، فيتغيّر في أثناء الكلام لغاية يحقّقها منشئ النص . وقد أظهر النصّ القرآنيّ استعمالات غير متوافقة مع قواعد النحو التي وضعها نحاة العربيّة ، فكسرت بذلك أفق توقعهم / إعلاميتهم في كون النصّ الكريم قد خالف قواعدهم الموضوعية على القياس ، والمنطق ، لا الاستعمال ، والمعنى^(٤) . ومن مظاهر ذلك الخروج على القاعدة النحويّة ، الذي أكسب النصّ الكريم مزية الإعلاميّة على مستوى تركيب الكلام :

مجيء الاستعمال على لغة (أكلوني البراغيث) : كانت القاعدة النحويّة التي وضعها النحاة على الكلام العربيّ ، الذي تواضعوا على الاستشهاد به ، واتخاذ الدليل على صحة قواعدهم ، هي أنّ للّ فعل في التركيب فاعلاً واحداً ، ولا يمكن له أن يتعدّد ، ولكن هناك لغة عند العرب ، وهي المعروفة بـ (لغة أكلوني البراغيث) ، كانت تأتي بالكلام مستعملة فاعلين لفعل واحد ، وقد عدّ النحاة هذه اللغة شاذّة ، ولا يصحّ القياس عليها ، ولا يؤلّف الكلام على نسجها ، وقد جاء الاستعمال القرآنيّ أخذاً من تلك اللغة الشاذّة - على حدّ قول النحاة - وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَحَسِبُواْ لَا تَكُونُ فِئْتَةً قَعَمُواْ وَصَمُواْ ثُمَّ تَابَ اللّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُواْ كَثِيرٌ مِّنْهُمُ وَاللّهُ بِصِيرٍ بِمَا يَكْمَلُونَ ﴾^(٥) . فالذي يلحظ أنّ الآية الكريمة قد استعملت هذه اللغة ، في قوله (عَمُواْ وَصَمُواْ كَثِيرٌ) . وقد حاول النحاة إيجاد تأويل نحويّ لهذا الاستعمال الذي كسر توقعهم عند مخالفته لقواعدهم ، فرأى الفراء أنّ (كثير) رُفِعَ من جهتين ((إحداهما أنّ تكرّر الفعل عليها ، تريد : عمي وصمّ كثير منهم ، وإنّ شئت جعلت (عَمُواْ وَصَمُواْ) فعلاً لكثير ... وهذا لمن قال : قاموا قومك . وإنّ شئت جعلت الكثير مصدراً ، فقلت : أي ذلك كثير منهم))^(٦) . ورأى الأخفش أنّ رفع (كثير) على البدليّة ، فقال : ((ولم يقل (ثمّ عمي وصمّ) وهو فعل مقدّم لأنه أخبر عن قوم أنهم عموا وصموا ، ثم فسّر كم صنع ذلك منهم ، كما تقول : رأيت قومك ثلثتهم ... وإن شئت جعلت الفعل للآخر ، فجعلته على لغة الذين يقولون : أكلوني البراغيث))^(٧) . وحاول مكي بن أبي طالب إيجاد تخريج آخر للآية ، فقال : ((وقيل : كثير رفع على إضمار مبتدأ دلّ عليه (عَمُواْ وَصَمُواْ) ، تقديره : العمي والصمّ كثير منهم))^(٨) .

عطف المرفوع على المنصوب : يشارك المعطوف المعطوف عليه في كثير من الأحكام النحويّة ، وهذا ما جاء به النص القرآنيّ الكريم ، وكلام العرب ، من شعر ونثر ، غير أنّه جاءت بعض الآيات غير موافقة لهذه القاعدة النحويّة ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مِنْ أَمَنِ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلْ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾^(٩) . ذهب النحاة إلى أنّه لا يجوز العطف بالرفع على اسم (إنّ) قبل تمام الخبر ، فلا يجوز أن تقول : إنّ زبياً ومحمّد قائمان ، وإنّما يوجبون أن تؤخّر (محمداً) إلى ما بعد الخبر ، فتقول : إنّ زبياً قائم ومحمّد^(١٠) . وقد حاول النحويون تأويل الرفع لقوله (الصائبون) بتأويلات عدّة ، منها :

أولاً : أنّها مبتدأ خبره محذوف على نيّة التأخير ، وتقدير الكلام : إنّ الذين آمنوا والذين هادوا ... والصائبون كذلك^(١١) .
ثانياً : يرى الكسائي أنّ (الصائبون) معطوفة على موضع اسم (إنّ)^(١٢) .

(١) بصائر ذوي التمييز : ٢٣٥ / ٤ .

(٢) مفردات ألفاظ القرآن : ٧٨٧ .

(٣) ينظر : الشواهد والاستشهاد في النحو : ٢٩ .

(٤) ينظر : نحو القرآن : ٧ - ١٠ .

(٥) سورة المائدة : ٧١ . وقد وردت هذه اللغة في قوله تعالى : (وَأَسْرُواْ النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ) (سورة الأنبياء : ٣) .

(٦) معاني القرآن ، الفراء : ٢١٥ / ١ - ٢١٦ . وينظر : إعراب القرآن : ٢٩٣ .

(٧) معاني القرآن ، الأخفش : ١٧٢ . وينظر : مغني اللبيب : ٥٨٢ / ٢ ، ومعجم الهوامع : ١٤٨ / ٣ .

(٨) مشكل إعراب القرآن : ٢٣٤ / ١ .

(٩) سورة المائدة : ٦٩ . وقد جاءت الآية (٦٢) من سورة البقرة مطابقة لهذه الآية إلا في كلمة (الصائبين) بالنصب .

(١٠) ينظر : الكتاب : ١٤٤ / ٢ - ١٤٦ .

(١١) ينظر : الكتاب : ١٥٥ / ٢ ، والأصول في النحو : ٢٥٣ / ١ ، وإعراب القرآن : ٢٩٢ ، وأسرار العربيّة : ٩٥ ، ومغني اللبيب : ٥٤٧ / ٢ .

(١٢) ينظر : أسرار العربيّة : ٩٥ ، والإصناف في مسائل الخلاف : ١٨٦ / ١ ، ومعجم الهوامع : ٢٠٥ / ٣ . ونقل جامع كتاب (معاني القرآن) للكسائي هذا الرأي عن بعض المفسرين ، ينظر : معاني القرآن ، الكسائي : ١٢٥ - ١٢٦ .

ثالثاً : يرى الفراء أنه جاز الرفع ؛ لأنَّ (إنَّ) ضعيفة ، فلا تؤثر إلا في الاسم دون الخبر ، و(الذين) هنا لا يتبين فيه الإعراب ، فجرى الأمران على جهة واحدة ، فجاز الرفع رجوعاً إلى أصل الكلام^(١).

رابعاً : أنَّ (الصابئون) معطوف على موضع (إنَّ) ، وما عملت فيه ، وخبر (إنَّ) منوي قبل (الصابئون) ، وقد ذهب إلى هذا الرأي مكي بن أبي طالب^(٢).

خامساً : ذهب الدكتور فاضل السامرائي - من المحدثين - إلى أنَّ العربية قد عرفت هذا الاستعمال ، وهو قطع الكلمة من سياقها النحوي ، وأنَّ هذا الاستعمال لأداء معنى ، لا يتم بالإتباع ، فهو يلفت نظر السامع ، ويشير انتباهه ((فإذا خالفت بينهما نُبِيتَ الذهن ، وحركته إلى شيء غير معتاد ، فهو كاللافتة ، أو المصباح الأحمر في الطريق ، يشير انتباهك ، ويدعوك إلى التعرف على سبب وضعه))^(٣).

عطف المنصوب على المرفوع : يشبه ما مرَّ في الحالة السابقة ، ولكن هذه المرة ، يُعطف منصوب على مرفوع ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ كُنَ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾^(٤) . فقد جاء قوله (المقيمين) في سياق ، المعطوفات فيه مرفوعة ، وجاء هو بحالة النصب ؛ ولذا حاول بعض العلماء توجيه سبب النصب ، فنقل الشيخ الطوسي عن ((الفراء ، أو الزجاج ، وغيرهما من النحويين : هو من صفة الراسخين ، لكن لما طال ، واعترض بينهما كلام ، نصب (المقيمين) على المدح ، وذلك سائق في اللغة))^(٥).

تقديم المفعول به على الفاعل : من القواعد التي وضعها النحاة ، أنَّ المفعول به يُقدَّم على فاعله إذا كان في الفاعل ضمير يعود على المفعول به ، وهذه القاعدة - على الرغم من عموميتها - لا تبحث في كون الفاعل اسماً صريحاً ، أو صفة نائية عن الفاعل ، أو غير ذلك ، وهو ما له أثره الدلالي في النص ، كما سيلحظ في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ... ﴾^(٦) . فقد جاء تركيب الكلام بتقديم المفعول به على الفاعل ، وقد علَّل النحاة هذا التقديم أنه قد جاء في الفاعل ضمير يعود على المفعول به ؛ ولذا كان لا بدَّ من تقديم المفعول على الفاعل كي لا يعود الضمير على متأخر عنه رتبة . ولعلَّ ممَّا يمكن أن يقال في الآية الكريمة : إنَّ الله - عزَّ وجلَّ - استعمل صفة الربوبية بدلاً من اسمه الصريح المقدَّس أولاً ، ثانياً : إنَّ افتراض حذف الضمير من قوله (رَبِّهِ) ، وتقديمه على المفعول به ، وذلك بأن يكون الكلام على النحو الآتي : (ابتلى ربُّ إبراهيم) فيه الكثير من التعمية ، وفساد المعنى ، والإيهام عن المقصود بأن يكون هو غير الله - تبارك وتعالى - . أمَّا في تقديم المفعول به ، وإضافة الفاعل إلى الضمير ، مع اختيار صفة الربوبية ، فقد تحقَّق فيها أكثر من معنى ، فأولاً : أنَّ المبتلى هو (رَبِّهِ) ، الذي تكفل بخلقه ، ورزقه ، وهدايته إلى طريقه ، وثانياً : في إضافة (رب) إلى ضمير إبراهيم تشريف له ، إذ جعل عمله المبتلى به تطبيقاً لأمر ربِّه .

حذف حرف النداء مع لفظ الجلالة ، وصفاته : لم يستعمل النصَّ القرآنيَّ النداء مع الاسم العظيم (الله) ، وقد استعمل التركيب (اللهم) ، وهي بحسب رأي النحويين البصريين نداء حُذف منه حرف النداء ، والميم عوض عنه^(٧) . وقد ردَّ علم اللغة الحديث هذا الرأي ، ورأى أنَّ هذه الصيغة ليست عربية ، ((وإنما هي في الأصل (إلهيم) العبرية التي تعني الآلهة ؛ لأنَّ فيها علامة الجمع (الباء) ، و(الميم) ، ولكن الاستعمال لا يريد منها غير الله ، وعلامة الجمع إنما جاءت للتعظيم))^(٨) . وقد أجاز سيبويه حذف أداة النداء إذا كان المخاطب مقيلاً على المتكلم ، فقال : ((أول الكلام أبدأ بالنداء ، إلا أن تدعه ؛ استغناءً بإقبال المخاطب عليك))^(٩) . وقد ورد النداء مع صفة الربوبية لله تعالى في صيغتي المضاف إلى باء المتكلم (رب) ، والمضاف إلى ضمير المتكلمين (ربنا) ، وقد حذف معها حرف النداء إلا في موضعين^(١٠) ، وهما قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴾^(١١) ، وقوله تعالى : ﴿ وَقِيلَ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾^(١٢) . ولعلَّ الذي يلفت النظر أنَّ المنادي في الموضعين هو الرسول محمد p ، ففي آية الفرقان ((المراد بالرسول محمد p بقرينة ذكر القرآن))^(١٣) ، وفي آية الزخرف ((ضمير (قيله) للنبي p بلا إشكال))^(١٤) . وسبب الإبقاء على حرف النداء في هذين الموضعين هو أنَّ حرف النداء ، وما يحويه من مدَّ للصوت ، يُبين مقدار الشكوى من الرسول ، وما قاساه من قومه ، فهذا القول ((مما يقوله الرسول يوم القيامة لربه على طريق البت ، والشكوى ، وعلى هذا فالتعبير بالمضي بعناية تحقِّق الوقوع ، والمراد بالقوم عامَّة العرب ، بل عامة الأمة باعتبار كفرهم ، وعصاتهم))^(١٥) ، بمعنى أنَّ الصيغة صيغة نداء ، ولكنه ليس نداءً حقيقياً ، وإنما خرج من معناه إلى الشكوى . أمَّا حذف حرف النداء في الخطاب مع الله تعالى ، فهو أولاً يحمل معنى عقدياً ، إذ إنَّ الله - عزَّ وجلَّ - لا يجوز وصفه

(١) ينظر : معاني القرآن ، الفراء : ١ / ٢١٢ .

(٢) مشكل إعراب القرآن : ١ / ٢٣٢ .

(٣) معاني النحو : ٣ / ١٦٧ .

(٤) سورة النساء : ١٦٢ .

(٥) التبيان في تفسير القرآن : ٣ / ٣٧٠ .

(٦) سورة البقرة : ١٢٤ .

(٧) ينظر : الكتاب : ٢ / ١٩٦ .

(٨) الدراسات اللغوية عند العرب : ٤٨٢ . وينظر : مناهج البحث اللغوي بين التراث والمعاصرة : ١٨٤ .

(٩) الكتاب : ٢ / ٢٠٨ .

(١٠) ينظر : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم (رب) .

(١١) سورة الفرقان : ٣٠ .

(١٢) سورة الزخرف : ٨٨ .

(١٣) الميزان في تفسير القرآن : ١٥ / ١٤٤ .

(١٤) المصدر نفسه : ١٨ / ٣٧٤ .

(١٥) المصدر نفسه : ١٥ / ١٤٤ .

بالالتفات لنا في حال النداء ، أو التنبيه له عن طريق النداء ، الذي يُراد من المنادى . وثانياً أنه أسلوب تأديبي أن لا يكون خطاب الناس كخطاب الله تعالى .

الإعلامية على مستوى الألفاظ / المستوى المعجمي :

نزل القرآن الكريم بلغة العرب ، واستعمل ألفاظهم ، وتراكيبهم النحوية ، ولكن ((لا يُمكننا تجاهل أن نوعاً من الألفاظ القرآنية يتصف بأن له نزعة تجريدية غير معلومة عند المخاطبين . أفلا يؤدي النظر إلى هذه الألفاظ التي هي بظاهرها معروفة عند العرب ، والتي تحمل ثقافة جديدة ، ورؤية مختلفة إلى تحميل القرآن لتلك المفردات المأنوسة عند العرب معاني جديدة تماماً ، لم تكن قبل ذلك في قاموس العرب ، ولم يكن ذهنهم مسبوقة بها))^(١) . ولذلك يرى ابن فارس أن استعمال القرآن للمفردات العربية ليس بالمفهوم نفسه الذي استعمله العرب ، بل حصل لتلك المفردات انزياح دلالي ، قال : ((فكان مما جاء في الإسلام ذكر المؤمن ، والمسلم ، والكافر ، والمنافق ، وأن العرب إنما عرفت المؤمن من الأمان ، والإيمان من التصديق . ثم زادت الشريعة شرائط ، وأوصافاً بها سُمي المؤمن بالإطلاق مؤمناً . وكذلك الإسلام ، والمسلم إنما عرفت منه إسلام الشيء ، ثم جاء في الشرع من أوصافه ما جاء . وكذلك كانت لا تعرف من كفر إلا الغطاء والستر . فأما المنافق ، فاسم جاء به الإسلام لقوم أبطنوا غير ما أظهره ، وكان الأصل من نفاقه اليربوع . ولم يعرفوا في الفسق إلا قولهم : فسقت الرطبة ، إذا خرجت من قشرها ، وجاء الشرع بأن الفسق : الإفحاش في الخروج عن طاعة الله جل ثناؤه ...))^(٢) . إن الاستعمال القرآني للألفاظ العربية لم يكن استعمالاً موافقاً لما تعارف عليه العرب بالصورة نفسها ، ولكنه أخذ يشق المعنى الرئيس ؛ ليوظف منه معاني أخر ، ليست مطابقة للمعنى الرئيس ، ولكنها مرتبطة معه ، فلا يصعب على المتلقي أن يستلهم المعنى المطلوب ، ف((الإيمان ، والعزة ، والتقوى إلى الحاقة ، والصاحّة ، وأشراف الساعة ، وأمثالها ، فإن هذه العناوين تحكي عن مفاهيم جديدة ، ومعان ، وحقائق مختلفة عن الحياة ، والوجود ، والإنسان . فالقرآن يوجه خطاباً للمؤمنين ، ويأمرهم فيه بالإيمان ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ... ﴾^(٣) . والمعنى الذي تحمله مفردة الكرامة في القرآن هو ما يكون قريباً للتقوى ، وذلك في محيط يرى الكرامة في الشرف العائلي ، والسخاء ﴿ .. إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ... ﴾^(٤) . أفلا تحكي هذه الحقائق الراقية ، والثقافة الجديدة ، والمتعالية للقرآن الكريم عن تجاوز المعاني الألفاظ المتداولة عند العرب إلى وضع جديد ، وعُرف خاص للقرآن))^(٥) . إن الاستعمال القرآني للألفاظ يسير باتجاه ((إيجاد لنوع من العلاقة بين المعنى واللفظ ، دون أن يكون للخصوصيات والمصاديق أي تأثير في نوع هذه العلاقة . وهذا التحليل اللغوي لمفهوم الوضع يرتبط بالكثير من المفردات ، كالتكلام ، والقدرة ، والحياة ، والعلم ، والإرادة ، والعظمة ، وأمثال هذه المفردات))^(٦) . فاستعمال المفردة يهدف إلى تحقيق معنى مركزي ومنضوية تحته . من ذلك استعمال مفردة (النور) في قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاةٍ الزُّجَاةُ كَأَنَّهُ كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾^(٧) . فالنور الذي يعلمنا الله تعالى عنه معناه ((الحقيقة البينة في نفسها ، والمبينة لغيرها ، دون أن ندخل في البحث عن أنها بيّنة للعين ، أو للعقل ، أو للقلب ، ولم نبحث عن أنها كيف تكون بيّنة ومبيّنة ، نستطيع أن نصف الله - عز وجل - بأنه نور ، أي الحقيقة البينة في نفسها ، والمبينة لغيرها ، وبهذا المعنى لن يكون من نور في مقابل النور الإلهي ، بل كل نور مقابل الله عز وجل هو ظلمة))^(٨) . فمن هذا يتضح أن الاستعمال القرآني للألفاظ في ((الآيات القرآنية ، وكلّ التعبيرات الموجهة من قبل مخاطب لمخاطب تأتي لفائدة يصدر عنها فعل ، أو رد فعل ، وليست تذكر بأمر معلوم ، وخطاباً في غير فائدة))^(٩) .

الإعلامية على مستوى البلاغة :

يُقسم علماء البلاغة الألفاظ على حقيقية ، ومجازية ، فالاستعمال الحقيقي للفظ : هو أن تستعمل المفردة لمعناها الأصلي الذي وُضعت له ، أما الاستعمال المجازي ، فعلى العكس من ذلك^(١٠) ، ((ولعل السبب في اللجوء إلى الانزياح في اللغة الفنية أن المؤلف من القول ، أو الكلام المباشر ، لا يُثير في المتلقي أي إحساس ؛ لأنه يجري وفق سنن اللغة ، أما لغة الانزياح ، فهي السبيل إلى هيّ يقظة المتلقي . فعملية اختيار الألفاظ للتعبير عن موقف معين ، تستوجب أن يكون هذا الاختيار مخالفاً لما اعتاد عليه الناس ، وانزياحاً عنه يحدث الصدمة المطلوبة ، والأثر لدى المتلقي))^(١١) . وتحقق الإعلامية على المستوى البلاغي من خلال استعمال تراكيب ، وعبارات مجازية خارجة عن التراكيب المألوفة عند متكلمي اللغة ، فيكون ذلك الخروج عن معهود التأليف كسراً لتوقع المتلقي في الصياغة التي جاء بها النص . وقد كان النص القرآني الكريم مبهراً للمتلقين منذ نزوله ، وأول صدمة وجهها إلى المتلقين هي طريقة نظمه ، يقول عبد القاهر الجرجاني : ((ومعلوم أن المعول في دليل الإعجاز على النظم ، ومعلوم كذلك أن ليس الدليل في المجيء بنظم لم يوجد من قبل قط ، بل ذلك مضموماً إلى أن يبين ذلك النظم من سائر ما عُرف ، ويُعرف من ضروب النظم ، وما يعرفه أهل العصر من أنفسهم أنهم يستطيعونه البينونة

(١) تحليل لغة القرآن وأساليب فهمه : ٣٠٢ .

(٢) الصحابي : ٨٣ - ٨٤ .

(٣) سورة النساء : ١٣٦ .

(٤) سورة الحجرات : ١٣ .

(٥) تحليل لغة القرآن : ٣٠٣ .

(٦) تحليل لغة القرآن : ٣٠٧ .

(٧) سورة النور : ٣٥ .

(٨) تحليل لغة القرآن : ٣٠٦ .

(٩) التلقي والتأويل ، مقارنة نسقية : ٣٥ - ٣٦ .

(١٠) ينظر : مفتاح العلوم : ٤٦٧ - ٤٦٨ .

(١١) الإبلاغية في الشاهد البلاغي : ٨ .

المجاز: يعدّ المجاز مظهراً من مظاهر الإعلامية؛ وذلك لأنّ استعمال اللفظ في غير ما وضع له يكسر توقّع المتلقي، ويرفع من مستوى الكفاءة الإعلامية. ويلاحظ أنّ بعض المفسرين قد أشار إلى استعمال الألفاظ في النصّ القرآنيّ بطريقة عدّها من ميكرات القرآن، من ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَتَقَوُّوا لِلَّهِ وَآصِلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا أَمْرَ اللَّهِ وَرَسُولَهُ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾^(١)، قال: ((واعلم أيّ لم أقف على استعمال (ذات بين) في كلام العرب، فأحسب أنها من ميكرات القرآن))^(٢)، ومثله قوله تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمْ الْكُفْرَانَ كَحَبْلٍ خَنْزَرٍ فَاصْبِرُوا لَهُمْ إِنَّهُمْ كَافِرُونَ﴾^(٣)، فقد جاء التعبير بقوله (تضع الحرب أوزارها) تمثيلاً ((لانتهاه العمل، فسبّهت حالة انتهاء القتال بحالة وضع الحمل، أو المسافر أثقاله، وهذا من ميكرات القرآن))^(٤).

الإطناب : هو - كما سبق تعريفه في مبحث القصصية - عند البلاغيين أداء المعنى المقصود من الكلام بأكثر من عبارته^(٦)، ولكنه في النص الكريم يأتي لفائدة أكبر من ذلك ، فهو قد يحقّق للمتلقي خلاف ما يرجو ، أو يتوقع ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْيَاءَ تِيهِمْ اللَّهُ فِي ظُلِّي مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾^(٧) ، فعبارة (في ظلل من الغمام) الواردة في الآية الكريمة ، ليست زائدة على المعنى الأصلي للكلام ، بل جاءت لكسر توقع المتلقيين ، فيأتيهم العذاب ممّا يظنونونه الخير ، والمنفعة لهم ، قال الزمخشري : ((فإن قلت : لم يأتيتهم العذاب في الغمام ؟ قلت : لأن الغمام مظنة الرحمة ، فإذا نزل منه العذاب كان الأمر أظع ، وأهول ؛ لأن الشر إذا جاء من حيث لا يُحْتَسَب كان أعمّ ، كما أن الخير إذا جاء من حيث لا يُحْتَسَب كان أسرّ ، فكيف إذا الشرّ من حيث يُحْتَسَب الخير ، ولذلك كانت الصاعقة من العذاب المستقطعة لمجيئها من حيث يتوقع الغيث))^(٨) .

الأسلوب الحكيم : لعلّ من أوضح مظاهر الإعلاميّة في الدراسات العربيّة القديمة ، ما عرف عند البلاغيين بـ (الأسلوب الحكيم) ، وهو ((تلقى المخاطب بغير ما يترقب ... أو السائل بغير ما يتطلب ، كما قال الله تعالى : **﴿هَسَأَ لَوُوكَ مِنَ الْأَهْلَاقِ﴾** هي مواقيت للنّاس والحجّ ... ^(٩))) قالوا في السؤال : ما بال الهلال يبدو دقيقاً مثل الخيط ، ثم يترادف قليلاً قليلاً حتى يمتلئ ، ويستوي ، ثم لا يزال ينقص حتى يعود كما بدا ؟ فأجيبوا بما ترى^(١٠) . ورأى العلامة الطباطبائي أنّ الإتيان بكلمة (الأهلة) – في آية البقرة – بصيغة الجمع ((دليل على أنّ السؤال لم يكن عن ماهيّة القمر ، واختلاف تشكيلاته ، إذ لو كان كذلك لكان الأنسب أن يقال : يسألونك عن القمر لا عن الأهلة ، وأيضاً لو كان السؤال عن حقيقة الهلال ، وسبب تشكله الخاص كان لأنسب أن يقال يسألونك عن الهلال، إذ لا غرض حينئذٍ يتعلّق بالجمع ، ففي إتيان الأهلة بصيغة الجمع دلالة على أنّ السؤال إمّا كان عن السبب ، أو الفائدة في ظهور القمر هلالاً بعد هلال ، ورسمة الشهور القمرية ، وعبر عن ذلك بالأهلة ؛ لأنها هي المحققة لذلك ، فأجيب بالفائدة . ويستفاد ذلك من خصوص الجواب (هي مواقيت للناس والحج)... وبالجمله قد تحصل أنّ الغرض في السؤال إمّا كان متعلّقاً بشأن الشهور القمرية من حيث السبب ، أو الفائدة ، فأجيب ببيان الفائدة^(١١) . والذي يبدو أنّ رأي العلامة الطباطبائي أدقّ من الرأي الذي كان للعلماء القدماء ، ومثله قوله تعالى : **﴿هَسَأَ لَوُوكَ مَاذَا يَفْعَلُ﴾** **﴿مَا تَعْمَلُ مِنْ خَيْرٍ قُلُوبُ الدِّينِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾** ^(١٢) ، ((سألوا عن بيان ما ينفقون ، فأجيبوا ببيان المصروف ، ينزل سؤال السائل منزلة سؤال غير سؤاله ؛ لتوخي التنبيه له بالأنف وجه ، على تعديده عن موضع سؤال هو أليق بحاله أن يسأل عنه ، أو أهمّ له إذا تأمل . وإنّ هذا الأسلوب الحكيم لرّبما صادف المقام ، فحرّك نشاط السامع ما سلبه حكم الموقور ، وأبرزه في معرض المسحور ^(١٣))) . فهذه الإعلاميّة الظاهرة من خلال الأسلوب الحكيم ، وهو ((وجه بليغ غير أنهم تركوا شيئاً ، وهو أنّ الآية مع ذلك متعرضة لبیان جنس ما ينفقونه ، فإتّها تعرضت لذلك : أولاً بقولها (من خير) ، إجمالاً ، وثانياً بقولها (وما تفعلوا من خير فإنّ الله به عليم) ، ففي الآية دلالة على أنّ الذي يُنفق به هو المال كائناً ما كان ، من قليل ، أو كثير^(١٤))) . ولعلّ ممّا يمكن أن يضاف أنّ التعبير بـ (ما تفعلوا من خير) يدلّ على أنّ الفعل الحسن جنس من الإنفاق ، فالكلمة الطيبة ، والمساعدة غير المادية إفاق من المسلم ، سواء في وقته ، أو جهده .

(١) الرسالة الشافية ، ضمن ثلاث رسائل في الاعجاز : ١٣٣ . وينظر : التأويل وقراءة النص : ٩١- ٩٢ .

(٢) سورة الأنفال : ١ .

(٣) تفسير التحرير والتنوير : ٩ / ١٣ - ١٤ .

(٤) سورة محمد : ٤ .

(٥) تفسير التحرير والتنوير: ٢٦ / ٦٩. وينظر من التفسير نفسه: ١ / ٤٤١، ٧٢٣ / ٩ / ٣٥.

(٦) ينظر : مفتاح العلوم : ٣٨٨ .

(٧) سورة البقرة : ٢١٠ .

(٨) تفسير الكشاف : ١ / ٢٥١ .

(٩) سورة البقرة : ١٨٩ .

(١٠) مفتاح العلوم : ٤٣٥ - ٤٣٦ .

(١١) الميزان في تفسير القرآن : ٢ / ٣٥٦ .

(١٢) سورة البقرة : ٢١٥ .

(١٣) مفتاح العلوم : ٤٣٥ - ٤٣٦ . وقد أضاف الطيبي على تعريف السكاكي عبارة (تنبيهاً به على أنه أولى بالقصد) ، ينظر : التبيان في المعاني والبيع والبيان :

. 290

والظروف التي أنتج فيها الخطاب^(١) وقد يكون التعرف على الرابط محتاجاً إلى إعمال الفكر ، إذ يكون الغرض التأكيد على أهمية الموضوع المنتقل إليه ، فتكون هذه المغايرة السياقية للفت النظر إليه ، فتكون المغايرة بين الموضوعين سبباً في البحث عن هذا الانتقال ، والموضوع الذي يطرحه هذا التغير محاولة التعرف على الظروف التي أدت إلى هذا الأمر ، و ((لما كان الخطاب في النص القرآني يهدف إلى الإقناع ، والتأثير ، وكان المتلقي يشغل موقعاً وسطاً بين التأويل ، والبيان ... فإنه في لحظة ما قد ينتقل النص من سياق معين إلى سياق آخر ؛ لتنبه المتلقي ، ولفت نظره إلى أهمية السياق الذي انتقل إليه النص بصورة مفاجئة ، وكلما ازداد السياق الجديد اختلافاً عن السياق الأول ارتفعت قيمة الإعلامية))^(٢) . من ذلك قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ أَمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَكَلِمًا كَسَبَتْمْ وَأَلْهَمًا دُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَاهُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمْ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلِ اللَّهُ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾^(٣) . فالذي يلحظ في الآيتين الكريمتين هذا الانتقال المفاجئ بقوله (سيقول السفهاء) ؛ ولذا قد حاول كثير من المفسرين تلمس الرابط لهذا الانتقال ، فقال بعضهم : ((ومناسبة هذه الآية لما قبلها : أن اليهود ، والنصارى قالوا : إن إبراهيم ، ومن ذكر معه كانوا يهوداً ، ونصارى . نكروا ذلك طعناً في الإسلام ؛ لأن النسخ عند اليهود باطل ... و (سيقول) ظاهر في الاستقبال ، وأنه إخبار من الله تعالى لنبئهم ... فتكون من باب الإخبار بالشيء قبل وقوعه ؛ ليكون ذلك معجزاً ، إذ هو إخبار بالغيب ، ولتتوطن النفس على ما يرد من الأعداء ، وتستعد له))^(٤) . ولعل ممّا يلحظ على الانتقال بين الآيتين أن هنالك رابطاً معنوياً بينهما ، إذ قال في الآية الأولى (لا تسألون) ، وقال في الآية الثانية (ما ولاهم) ، فعدم سؤالهم عن سببهم من الأمم يرتبط بسؤالهم هم عن سبب تغيير القبلة ، فهم – أي اليهود – لا يسألون عن أعمال من سبقهم ، كما لا يحق لهم السؤال للنبي الآن عن سبب تغيير القبلة . ومن المغايرة السياقية التي يتعرف على سببها من المقام ، قوله تعالى : ﴿ سَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَنذَرْتُكُمْ أَيُّهَا النَّبِيُّ أَنَّهُ لَا يَكُونُ الْمُؤْمِنُونَ حَتَّى يَخْرُجُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِيُخْرِجَهُمْ مِنَ الْظُلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ الظُّلُمَاتُ أَدْنَى مِنَ النُّورِ ﴾^(٥) . فقولته (كما أخرجكم) يبدأ بتنبهيه ، ولم يسبقه مشبه به قبله ، ولذا إن اللجوء إلى المقام هو الذي يُعين الركن الثاني من التشبيه ، قال الخطابي : ((إن الله سبحانه أمر رسوله أن يمضي لأمر الغنائم على كره من أصحابه ، كما مضى لأمره في خروجه من بيته لطلب العير ، وهم كارهون ، وذلك أنهم في يوم بدر اختلفوا في الأنفال ، وحاجوا النبي ﷺ ، وجادلوه ، فكره كثير منهم ما كان من رسول الله ﷺ في النفل ، فانزل الله تعالى الآية ... يريد أن كراهم لما فعلته في الغنائم كراهم في الخروج معك))^(٦) .

الإعلامية في القصة القرآنية : تختلف صياغة القصة عن سواها من الأجناس الأدبية كونها تحفل بأدوات فنية متنوعة ، تجعل من قراءتها مشوقة بما يثير ، ولُفّت النظر ، بحيث يتشوق القارئ /المتلقي ، ويحرص على متابعتها حتى النهاية . وتختلف القصة القرآنية عن القصة البشرية كونها قصة من واقع الحياة الماضية ، وليست مصنوعة ، وأنها تتنقي من الحوادث ، والأبطال ، والمواقف ، والبيئات ما هو طريف ، ومثير ؛ ليتناسب مع قوانين الاستجابة البشرية للحدث . والمتلقي ينفعل مع القصة الواقعية أكثر من انفعاله مع القصة المصطنعة ؛ وذلك لأن انفعاله بالقصة الواقعية جاء من انفعال وجداني ، لأن مصداقه موجود في الحياة ، سواء منها الماضية ، أو المستقبلية

(الآخرة) ، في حين أنه مع القصة المصطنعة لا يعدو انفعاله عن كونه لأثر فني لا يتعداه^(٧) ، وإن كانت بعض القصص البشرية محاكية لحوادث واقعية ، إلا أنها لم تنقلها بحيادية ، وموضوعية كالقصص القرآنية . وقد جاءت القصص القرآنية في أكثر الأحيان محملة بالإعلامية ، سواء على مستواها الفني ، أو المعنوي ، وفيما يأتي بعض هذه الأمثلة :

قصة ابني آدم A : ورد ذكر ابني آدم A ، وحدث قتل أحدهما للآخر في الآيات الكريمة من قوله تعالى : ﴿ وَابْنُ آدَمَ عَلَيْهِمَا نَبَأُ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسٍ بِكَ يَدِي إِلَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ إِنَّي أَكُفِّرُ بِنَفْسِي إِنَّي أَنَا مِنَ الظَّالِمِينَ فَتَوَعَّدَا لَهُ نَفْسُهُ قَالَ خُذْهُ فَغُلَّتْهُ فَاصْبِرْ مِنَ الْخَاسِرِينَ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورِي سَوْءًا دَاخِيَةً قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوْرِي سَوْءًا دَاخِيَةً فَاصْبِرْ مِنَ الْبَاطِلِينَ ﴾^(٨) . فعلى الرغم من أن الآيات الكريمة لم تصرح بنوع قربانين ، ولا سبب تقديمهما ، ولا الذي تقبل من أحدهما ، إلا أن الذي يفهم من السياق هو تمكن نوازع الشر عند أحدهما ، وظهور علامات التقوى عند الطرف الآخر . والقصة قد ((ركزت على الملمح النفسي في مجريات الأحداث ، وتعميقه ، وبرزت العنصر اللوني في التشكيل . فالغراب يلون الصورة بالأسود ، ويأخذ مساحة في مكونات الصورة ، وأحداثها ، ثم يمتد السواد الظاهر ليتناسب مع ظلمة الحسد ، والظلم المعتمل في النفس ، يلتقي مع ظلمة الفجعة ووقع حدث القتل ، وما أعقبه من مؤثرات على النفس ، والحياة))^(٩) . فالغراب عند العرب رمز الفراق ، ولونه لون الحداد ، فلا صير لو ارتبط رمزياً بأول موت ، يقول الألوسي : ((والحكمة في كونه المبعوث دون غيره من الحيوان ؛ كونه يتشامخ به في الفراق ، والاعتراب ، وذلك مناسب لهذه القصة))^(١٠) .

(١) ينظر : الإعلامية في الخطاب القرآني : ٥٨ .

(٢) الإعلامية في الخطاب القرآني : ٥٨ .

(٣) سورة البقرة : ١٤١ - ١٤٢ .

(٤) البحر المحيط : ٩ / ٢ . وينظر : الميزان في تفسير القرآن : ٢٣٠ / ١ .

(٥) سورة الأنفال : ١ ، ٤ ، ٥ .

(٦) بيان إعجاز القرآن ، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن : ٤٩ - ٥٠ . وينظر : لباب النقول في أسباب النزول : ١١٤ .

(٧) ينظر : قصص القرآن الكريم ، دلاليًا وجماليًا : ١١ / ١ - ١٥ .

(٨) سورة المائدة : ٢٧ - ٣١ .

(٩) غرائب الصورة القرآنية ، تحليل البنية الأسلوبية ودلالاتها البلاغية : ٣٠ .

(١٠) روح المعاني : ٣٩١ / ٦ .

في جعل (الغراب) معلماً ، ومرشداً للقاتل يحمل صفتين متضادتين ، فهو في الوقت الذي يعلّمه كيفية إكرام الميت ، وذلك بدفنه ، ومواراته في التراب ، هو - أيضاً - أداة مساعدة لصاحب الذنب ، والإثم . وهذا ما يعطي بعداً إعلامياً للقصة . ومن إعلامية القصة تعليم الإنسان / القاتل كيفية التعامل مع الميت ((فالآية ظاهرة في أنّ القاتل ما كان يدري أنّ الميت يمكن أن يسترجع جسده بمواراته في الأرض))^(١) . فالقاتل الذي توعد أخاه بقوله : ((لأقتلك)) شاءت حكمة الله أن تقفه أمام عجزه - وهو الباطش القاتل الفاتك - عن أن يوارى سواة أخيه . عجزه عن أن يكون كالغراب في أمة الطير ... فقال القاتل قولته ، وفعل مثلما رأى الغراب يفعل))^(٢) . وفي القصة تحولات في بناء بعض المفردات ، واستعمال لمفردة دون مرادفتها ، وكلّ ذلك جاء لغرض

دلاليّ ، فقد جاء التعبير (لئن بسطت إليّ يدك لتقتلني) بصيغة الفعل الدالّ على التجدد والاستمرار ، في حين استعمل في الجواب (ما أنا بباسط) ، وهي صيغة الاسم الدالّ على الثبوت ؛ ((لأنّ الأخير يريد النفي بصفة دائمة ، وثابتة غير ممكنة التغيّر في المستقبل))^(٣) . زيادة على تأكيد الكلام بأكثر من مؤد ، فاستعمل اللام الموطنة للقسم ، والجملة الاسمية ، والياء الزائدة . واستعمل في القصة المفردة (بعث) ، ولم يستعمل (أرسل) ؛ لأنّه ((يجوزُ لبيعث الرجل إلى الآخر لحاجة تخصّه دونك ، ودون المبعوث إليه ... ولا تقول : أرسلته لأنّ الإرسال لا يكون إلا برسالة ، وما يجري مجراها))^(٤) ، والإرسال يفيد التمهّل ، والاتّاد ، ف ((الرسول : السير السهل))^(٥) ، في حين أنّ ((طاقة المفردة (بعث) ، وما تفيد من الإثارة ، والدفع بقوة ، تناسب دلالة السياقات التي وردت فيها))^(٦) . ويلحظ - أيضاً - ما يعطيه الإيقاع الداخليّ بين (بعث) ، و(يبحث) .

قصة الذي مرّ على القرية : وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَكَأَنِّي مَرٌّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا وَبَعْضُ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتُ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا كَمَا كُنَّا قَدْ تَتَبَيْنَ لَهُ قَالِ أَغْلَمَ أَمْ أَغْلَمَ أَنَّنِ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ^(٧) . إنّ هذه القصة التي يضربها الله - تبارك وتعالى - تتمثل الكفاءة الإعلامية فيها في أكثر من جانب ، ففي جانب

الاستعمال اللغويّ ، استعمل الاسم الموصول (الذي) وصلته غير معلومة بالنسبة للمخاطب ف (الذي مرّ على قرية) ليس للمتلقين ، سواء أكان النبيّ p ، أو المسلمون ، أو المشركون أيّ معرفة بحاله لولا هذا القصّ القرآنيّ له . فكان الكسر الأول لتوقع المخاطب في كونه غير عالم بالمقصود من صلة الموصول الوارد في النصّ ، وبذلك كسر القاعدة النحويّة من خلال مخالفته لما تعارف عليه النحويون من معلوميّة المخاطب للمقصود من الصلة . ومن جانب آخر ، فقد سبق القول إنّ القصة القرآنيّة واقعيّة الحدوث ، فالقارئ لا يتملّ ((مشهداً خياليّاً ، بل الحقيقة في واقعها مرسومة في هذه الصورة))^(٨) ، صورة تحمل الكثير من المفارقات ، تأثير الزمن في الكائن البشريّ ، والحيوانيّ ، وتعطيله عن الطعام ، والشراب ، ((إنّ المشهد ليرتسم للحسن قوياً واضحاً موحياً ، مشهد الموت ،

والبلى ، والخواء يرتسم بالوصف (وهي خاوية على عروشها) محطمة على قواعدھا . ويرتسم من خلال الرجل الذي مرّ على القرية ، هذه المشاعر التي ينضح بها تعبيره (أنيّ يحيي هذه الله بعد موتها) . إنّ القائل ليعرف أنّ الله هناك ، ولكنّ مشهد البلى ، والخواء ، ووقعه العنيف في حسّه جعله (بحاراً))^(٩) . ولأنّه سأل عن الكيفيّة ، جعل الله - عزّ وجلّ - البرهان من حاله (فأماته الله مئة عام ثم بعثه) ، وقد ظنّ أنّه نام (يوماً أو بعض يوم) ، فجاءه الجواب الذي لم يكن يتوقّعه (بل لبثت مئة عام) ، ثمّ توالى عليه المفارقات (فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه) ، أي : لم يتغيّر على الرغم من مرّ السنين عليه^(١٠) ، وقدم (الطعام) على (الشراب) ؛ ((لأنّ التغيّر أسرع في الطعام من الشراب ، فتقديمه هنا يناسب سياق بيان القدرة لله سبحانه وتعالى - لأنّ حفظ الطعام ، وهو الأسرع إلى العفن ، والتحلل كلّ هذه المدة أظهر في القدرة ، وبيانها))^(١١) ، المفارقة الأخرى في (وانظر إلى حمارك) ، فكان تغيّر الزمن قد وقع عليه ، وثمّ كان مشهد إعادة الحياة لذلك الحمار على مرأى من الرجل (فلما تبين له قال أعلم أنّ الله على كلّ شيء قدير) ، ((إنّ الذي يفسّر هذه الظاهرة هو طلاقة المشيئة ، طلاقتهما من التقييد بفحسبه نحن قانوناً كليّاً لازماً ملزماً ، لا سبيل إلى مخالفته ، أو الاستثناء منه ، أو حسابنا هذا خطأ بالقياس إلى المشيئة المطلقة ، خطأ منشؤه أننا نفرض تقديراتنا نحن ، ومقرّراتنا العقليّة ، أو العلميّة على الله سبحانه))^(١٢) . وقد استعمل التعبير القرآنيّ الفعل (انظر) ثلاث مرّات ، وكان من الممكن أن يكتفي بواحد ؛ وسبب ذلك أنّ كلّ فعل منها يدلّ على أمر خارق ((فلكلّ واحد من الموارد الثلاث غرض خاص به ، لا يشاركه فيه غيره))^(١٣) .

الإعلاميّة في المثل القرآنيّ : وظّف النصّ الكريم المثلّ في كثير من الآيات القرآنيّة ، وكان التوظيف لغايات بتطلبها المقام ، منها الإيضاح ، وقطع المجادل ، وغيرها ، ((وقد قام المثلّ القرآنيّ بهذا الدور الإيضاحيّ ، فأبرز المعنويات بقالبيّ حسنيّ ، وجسّد العقليّات بإطار مدرك ، وقلب هذا الأمر في عدّة وجوه تقربّ البعيد ، وتسكّر الوهم . وقد اعتمدت لهذه

(١) الميزان في تفسير القرآن : ٢١٥ / ٥ .

(٢) في ظلال القرآن : ٨٧٧ / ٢ .

(٣) غرائب الصورة القرآنيّة : ٦١ .

(٤) الفروق اللغويّة : ٢٩٩ .

(٥) معجم مقاييس اللغة : ٤٦٣ / ١ .

(٦) غرائب الصورة القرآنيّة : ٧٧ . وينظر : معجم مقاييس اللغة : ١٣٩ / ١ .

(٧) سورة البقرة : ٢٥٩ .

(٨) غرائب الصورة القرآنيّة : ٣٥ .

(٩) في ظلال القرآن : ٢٩٩ / ١ .

(١٠) ينظر : أساس البلاغة : ٣١١ .

(١١) غرائب الصورة القرآنيّة : ٣٥ .

(١٢) في ظلال القرآن : ٣٠١ / ١ .

(١٣) الميزان في تفسير القرآن : ٥٨٣ / ٢ .

المهمة شخصية المظاهر في الكون ، والأرض ، ومشاهد الطبيعة باعتبارها ^(١) مدركات حسية يمكن الاستدلال بها لمعرفة حقائق الأشياء ، وطبيعة المجهولات . وحشد لذلك الطاقات التمثيلية المشاهدة منتقلاً بها في خضم العقل بتعبير شاخص ، مثل ، يكشف عن مواطن الغموض ، ملاحظ الاستغراب ، ليعود الشكل الذهني المحض في المتخيلة متمثلاً بشكل مادي مدرك بالحواس^(٢))). وقد كان هذا الاستعمال للمثل يتمتع بصفة الإعلامية ، فقد كان يكسر توقع المتلقي في الصورة التي يُقدّم بها ، والتركيب الذي يبنى به ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا لَهُمْ كِسْرَابٍ بَقِيَعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمَانُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ هَوَاقِفَهُ حَسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ أَوْ كَظَلَمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَفْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ قَوْفِهِ مَوْجٌ مِنْ قَوْفِهِ سَحَابٌ ظَلَمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكُنْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا هَمَّا لَهُ مِنْ نُورٍ ۖ ﴾ ^(٣) . إنَّ النظر في استعمال هذا التشبيه بين أعمال الكفار ، والظمان الطالب للماء ((يجد المقارنة السليمة في اكتشاف العلاقة القائمة بين السراب في صورته النفسية المؤثرة عند الظمان ، وبين أعمال الكفرة التي تخال – من خلال وجهة نظرهم – بأنها نافعة ، ومجدية ، ولكنها – في واقع الحال – خادعة ، وكاذبة ... فهذا المناخ الذي ترددت فيه صورة الكافرين في التمثيل لهو أشد ، وأفظع ممَّا يتوقعه الكافرون أنفسهم))^(٤) . إنَّ استعمال كلمة (الظمان) جاءت أكثر تأثيراً في الآية الكريمة ، فلو استعمل كلمة أخرى لما كانت أبلغ من هذه الكلمة ، قال الرماني : ((ولو قيل : يحسبه الرائي ماءً ، ثم يظهر على خلاف ما قدّر لكان بليغاً ، وأبلغ منه لفظ القرآن ؛ لأنَّ الظمان أشدَّ حرصاً عليه ، وتعلق قلبه به))^(٥) . ومثله المثل القرآني ، الذي جاء ليقطع الجادل في الكلام ، فلا يبقى له أي دليل ، أو حجة ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ۖ ﴾ ^(٦) . فقد جاءت الإعلامية بهذا المثل ؛ من أجل الاستدلال ((على خلق عيسى A عجزاً بما هو أصعب منه ، وهو خلق آدم ؛ ليقطع بذلك دابر النزاع ، ويسلم الخصم في الحجة ، فلا يحير جواباً ، ولا يطبق ردّاً ، أو اعتراضاً . فمع اعتراف الخصم بخلق آدم دون أب ، أو أم ، وهو لم يُثر الشبهة من ذي قبل حوله ، فعليه قياساً ، ونظراً ، واستدلالاً أن يعترف بخلق عيسى A عجزاً من جهة واحدة دون الأخرى ، إذ خلق آدم أكثر عجزاً ، وأركز تحبيراً للعقول ، والاستدلال بهذا الملحظ يقطع الخصام ، ويُوقف الكلمة))^(٧) . فجملة (خلقه من تراب) جملة مفسرة للتمثيل ، الذي بنى عليه التشبيه ، فقد بدأ خلقه (آدم) بما لا علاقة مادية جامعة له به ، وهو التراب ، فهو أعجب في الخلق من أم ، فلم لا تتخذونه إلهاً ، أو ابناً ، إنَّ كانت هذه حاله ، واتخذتم من هو دونه في رتبة الخلق العجيب ، فكان التشبيه ((بما هو أعرّب منه إفعاماً للخصم ، وقطعاً لمواد الشبهة))^(٨) . ومثله المثل في قوله تعالى : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْجِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا يُسْأَلُ الْقَوْمُ الَّذِينَ كَتَبُوا يَا أَيُّهَا اللَّهُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۖ ﴾ ^(٩) . فهذا المثل ضُرب لليهود الذين حُمِّلوا التوراة ، فهم ((حفظوها ، ودَوَّنوها في كتبهم ، ثم لم يعملوا بما فيها))^(١٠) ، وتخصيص تشبيههم بالحمار ؛ لأنه كالعلم في الجهل^(١١) ، والأسفار واحدها : سفر ، وهي الكتب ، ولم تستعمل في غير هذا الموضع^(١٢) . وإثما سُمِّي الكتاب سفراً ؛ لأنه ((يسفر عن الحقائق ... وخصّ لفظ الأسفار في هذا المكان تنبيهاً أنَّ التوراة ، وإنَّ كانت تحقّق ما فيها ، فالجاهل لا يكاد يستبينها كالحمار الحامل))^(١٣) . ولعلَّ سبب استعمالها أنَّ فيها بُعداً تداولياً ، فاليهود يسمّون كتب أسفاراً ، مثل سفر التكوين ، سفر الخروج ، وغيرها . وهذا التمثيل لليهود بالحمار ؛ لأنهم ك ((الحمار الذي يحمل كتب الحكمة على ظهره ، لا يدري بما فيها ، ولا يحسّ بها كمثل من يحفظ الكتاب ، ولا يعمل به))^(١٤) ، أو ((يتعب في حملها ولا ينتفع بها))^(١٥) .

الخاتمة

بعد هذا البحث في السور المدنية في محاولة لإظهار المعايير النصية الموجودة فيها ، يمكن أن نخرج بجملة من النتائج ، من أهمّها :

- (١) كذا ، والصحيح : بعدها .
- (٢) الصورة الفنية في المثل القرآني : ٣٣٧ .
- (٣) سورة النور : ٣٩ – ٤٠ .
- (٤) الصورة الفنية في المثل القرآني : ٣٤٠ – ٣٤١ .
- (٥) النكت في إعجاز القرآن ، ضمن ثلاث كتب في إعجاز القرآن : ٨٢ .
- (٦) سورة آل عمران : ٥٩ .
- (٧) الصورة الفنية في المثل القرآني : ٣٦١ .
- (٨) أنوار التنزيل وأسرار التأويل : ٤٦ / ٢ .
- (٩) سورة الجمعة : ٥ .
- (١٠) التبيان في تفسير القرآن : ٦ / ١٠ .
- (١١) ينظر : روح المعاني : ٤٠٣ / ٢٨ .
- (١٢) ينظر : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، (سفر) .
- (١٣) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز : ٢٢٥ / ٣ .
- (١٤) التبيان في تفسير القرآن : ٦ / ١٠ .
- (١٥) أنوار التنزيل وأسرار التأويل : ٣٣٨ / ٥ .

- كثرت المصطلحات المستعملة في نحو النصّ في الدراسات العربيّة ، وكان ذلك بفعل اختلاف الترجمة عن المؤلفات الغربيّة ، فتداخلت المصطلحات ، واستعملت في أكثر من مفهوم ؛ فسبّب ذلك تشتيتاً لذهن الباحث المستجّد ، وزرع الحيرة ، والتردّد في نفسه في اختيار المصطلح الأصلح ، والأشيع .
- مصطلح النصّ مصطلح عربيّ قديم ، استعمله العلماء العرب في مؤلفاتهم ، ولم يكن مستورداً من الدراسات الغربيّة ، بل كان البحث في (النصّ ، والتماسك النصّي ، ووحدة الموضوع ، ومناسبة الكلام للمقام) من المباحث التي درسها علماء العربيّة في مؤلفاتهم البلاغيّة ، والأصوليّة ، والتفسيريّة ، بل وحتى النحويّة .
- استعمل النصّ القرآنيّ (الضمائر ، وأسماء الإشارة ، والأسماء الموصولة ، وال التعريف) لتسهم في ربط أجزاء النصّ الكريم . وكان الربط عن طريق الضمائر هو الأكثر شيوعاً في النصّ الكريم .
- لم يكن استعمال الضمائر – في بعض المواضع مطابفاً لدلالياً للمحال عليه ، إذ قد يستعمل الضمير محيلاً على متضادّين ، أو غير متساويين عدداً ، وقد يستعمل الضمير محيلاً على مفهوم من الكلام ، فيستعمل ضمواً موجزاً للمعنى المفهوم منه . وكان في ذلك الاستعمال بُعداً دلاليّاً ، يطلبه النصّ الكريم ، ويحقّق من خلاله لمسة بيانّيّة .
- كان استعمال أسماء الإشارة مشتركاً بين الإحالة ، والاستبدال ، فيكون اسم الإشارة محيلاً في موضع ، ومستبدلاً في موضع آخر . وزيادة على ذلك ، فقد يستعمل اسم الإشارة للفصل بين كلامين ، فينهي به الكلام السابق ، ويبدأ بالكلام اللاحق . واستعملت عناصر الإحالة عناصر إحالة مقاميّة حين لا يكون في الكلام ما يمكن أن تكون صالحة للإحالة عليه .
- استعمل النصّ الكريم إحالة من نوع خاصّ ، لم يكن علماء النصّ قد أشاروا إليها ، وتتمثل في استعمال أسماء صريحة تحيل على أسماء صريحة أخرى ، متقمّة عليها ، أو متأخرة عنها . ووظف النصّ القرآنيّ الكريم خصائص اللغة العربيّة المتمثّلة بالإعراب ، فكان التباين الإعرابيّ عاملاً منتجاً لنوع من الاستبدال ، يمتاز عمّا هو معروف في نحو النصّ ، إذ يجمع بين الاستبدال ، والتكرار ، وتكون العلامة الإعرابيّة هي الفارقة بينهما ، والمحدّدة للتباين الدلاليّ بينهما .
- إنّ المفهوم الدلاليّ للاستبدال الاسميّ يدلّ على المغايرة – في أكثر الأحيان – بين العنصرين (المستبدل ، والمستبدل منه) . أمّا في الاستبدال الفعليّ ، فلا مغايرة بينهما ، ففي هذا النوع من الاستبدال ، تستعمل الصيغة العامّة للفعل بدل الفعل ذي المعنى الخاصّ . وكذلك الاستبدال القوليّ ، فإنّه ليس من باب المغايرة ، وإنّما هو من باب إيجاز الكلام ، ومراعاة عدم التكرار المخلّ بالبلاغة .
- استعمل النصّ القرآنيّ الكريم نوعاً من التكرار يسمّى (الاشتقائيّ) ، وذلك بأن لا يستعمل اللفظ نفسه ، وإنّما يستعمل صيغة مشتقة منه ، كان يستعمل صيغة الفعل المجردّ ، والمزيد ، أو الفعل مع المصدر . وفي كلّ استعمال من ذلك كانت اللمسة البلاغيّة حاضرة فيه . وكان استعمال عناصر السبك يحقّق اللمسة البيانّيّة في النصّ الكريم زيادةً على تحقيق التماسك النصّيّ فيه .
- يرى البحث أنّ أدوات الموازنة يجب – كما يرى علماء النصّ المحدثون – أن لا تكون عنصراً إحاليّاً ، بل يجب أن تكون عنصراً من عناصر الوصل الجامع بين متشابهين ، أو متضادّين ، أو مختلفين . وقد كثرت الموازنة عن طريق التفضيل ، والتشبيه في النصّ الكريم . وزيادة على ذلك ، فقد كثرت علاقة التضادّ بكلّ أنواعه عند التضامّ بين جمل ، وآيات النصّ ، ومرّد ذلك كلّّه يرجع إلى الصراع الدائر بين الفريقين المتنازعين ، المسلمين من جهة ، والمشركين وأهل الكتاب والمنافقين من جهة أخرى .
- قسّم علماء النصّ الوصل على أقسام ، وكأهمّ قصدوا أنّ أنواع الوصل لا تتحدّد ، أو تأتلف عند إنتاج النصّ . وقد استعمل النصّ الكريم أكثر من نوع من الوصل في مكان واحد ، فقد نجد في الموضوع الواحد وصلاً إضافيّاً استدراكياً ، أو إضافيّاً سببيّاً ، وهكذا .
- لم يكن مفهوم الحبك غائباً عن الدراسات العربيّة القديمة ، إذ كان للعلماء إسهامات عدّة في هذا المجال ، وأغلبها كانت في مجال التفسير ، وعلوم القرآن ، وزيادة على الدراسات النقدية ، التي طالبت بوحدة الموضوع في النصّ الأدبيّ .
- لم يذكر علماء النصّ – الغربيون ، ومن تبعهم من العرب – علاقة الطلب – الجواب ، وعلاقة السؤال – الجواب من العلاقات الدلاليّة الرابطة للنصّ ، وهي علاقة متوافرة في النصّ القرآنيّ الكريم . كما لم يكن مفهوم البدليّة ، في العلاقات الدلاليّة مطابفاً لما في النحو العربيّ ، فهو في العلاقات الدلاليّة عطف قائم على التخيير بـ (أو) الدالّ على الانفصال ، والتغاير بين المبدلين ، في حين أنّ البديل في النحو العربيّ قائم على الاتصال ، والترابط بينهما بعلاقة الكلّيّة ، أو الجزئيّة ، أو الشموليّة . زيادة على ذلك ، لم تُنكر علاقة الاعتراض بجملة في تتابع جمل ، والذي يسهم بدور دلاليّ في إيضاح غامض ، أو استدراك معنى .
- وظّف النصّ القرآنيّ الكريم الإيحاءات الصوتيّة المتوافرة في صيغ المفردات المستعملة لغرض تجسيد المعنى ، وتوجيهه اتجاه تكميل الصورة الفنيّة للحدث الذي تتناوله الآية ، أو السورة الكريمة . وكان التركيز في استعمال بعض الأصوات ، أو استعمال صفة التشديد ، أو المدّ ، وغيرها ممّا يلقي بظلاله على المعنى المراد إيصاله إلى القارئ ، أو السامع . كما وظّف النصّ الكريم الفاصلة القرآنيّة بما يتناسب مع السياقات الموضوعيّة التي تعالجها ، فكانت الفاصلة منسجمة مع موضوع السورة ، وأسلوبها .

- كان مفهوم القصد حاضراً في كل الدراسات اللغوية العربية القديمة ، بل كان حاضراً حتى في المؤلفات الفقهية والأصولية . وكان القصد فيها مستمداً مما جاء في النص القرآني الكريم ، الذي يؤسس لكل عمل من خلال نية الفعل . وإن التحدي للعرب بالإتيان بمثل سورة من سور القرآن الكريم دليل على أن الله – تبارك وتعالى – قد قصد كل لفظ في القرآن ، فكان التحدي دليلاً على أن النص مسبوك قتيلاً بطريقة يعجز البشر عن الإتيان بمثله . ولعل في عدم استجابتهم للتحدي دليلاً على مقبوليتهم للنص . فانبهارهم به ، وعكوفهم على دراسته ، واستعمالهم لعبارات القرآن ، وآياته كأمثلة تحتذى في دراساتهم اللغوية بكل مستوياتها من أكبر الأدلة على هذه المقبولية .
- إن الطبع التشريعي ، والتنظيمي الذي يطغى على السور المدنية قد استعمل كثيراً من الأساليب اللغوية ، وغير اللغوية ؛ لتطبيع المتلقين على الأحكام الشرعية القرآنية ، سواء أكانت في جانب العقيدة ، أم الحياة الاجتماعية ، فكانت تلك الأساليب مراعية لحال المتلقين / المسلمين ، وكان بعضها – كالتدرج في الحكم الشرعي – يجمع بين معياري القصد ، والمقبولية . فالمقبولية في عدم الإتيان بالحكم دفعة واحدة ؛ مراعاة لحال المتلقين . والقصدية تتمثل في كون الحكم الشرعي الأخير هم القصد الحقيقي ، والرئيس من الشارح المقدس – تبارك وتعالى – . بل يمكن القول أن الأحكام الشرعية تحمل طابعاً إعلامياً للمتلقين ، إذ إنها جاءت بحدود وتنظيمات لم يكن متلقو النص يتوقعونها ، فضلاً عن عدم درايتهم بها .
- وجد البحث أن القراءات القرآنية ، واختلاف القراء من مظاهر المقبولية للنص القرآني . فقراءتهم له ، كل بمنظار علمه للغة ، ودرايته بأساليب الكلام العربي ، وإجازتهم لتلك القراءات ، تدل على غنى النص بالمعاني المتعددة ، التي وافقت كل قارئ فيما ذهب إليه .
- كان استعمال النص القرآني للمفردات اللغوية العربية استعمالاً خاصاً ، فكان مظهراً من مظاهر الإعلامية في مستوى المفردات ، إذ أوجد النص الكريم معاني جديدة للمفردات غير ما تعارف عليه العرب ، فكان أن طغى الاستعمال القرآني ، وشاع على الاستعمال القديم . وقد استعمل أوزاناً صرفية جديدة ، لم يستعملها العرب من قبل ، فكان استعمالها تأصيلاً لأوزان صرفية ، استعمل منها مصطلحات لغوية كثيرة – كالمصدر الصناعي مثلاً – وكان الرائد في استعمالها النص المقدس .
- كل الاستعمال القرآني لبعض الصيغ ، والتراكيب اللغوية سبباً في نشأة الدراسات اللغوية العربية ، التي حاولت أن تضع القواعد اللغوية على الأشيع ، والأشمل ، وتبحث – لما خالف القواعد – عن التفسير ، والتأويل ، الذي لا يخطئ النص الكريم أولاً ، ويبحث عن المعنى المقصود عند الخروج على القواعد ثانياً ، ثم البحث عن التأويلات ، والتفسيرات المسببة لذلك ثالثاً .
- وظف النص القرآني الكريم القصة ، والمثل ؛ لكسر توقع القراء / المتلقين في الأحداث التي تشتمل عليها القصة ، خاصة إذا علمنا أن القصة القرآنية قصة واقعية لأحداث ماضية ، وحتمية الوقوع للأحداث المستقبلية ، فكان ذلك سبباً في رفع مستوى الكفاية الإعلامية للنص . وكذلك فالمثل القرآني قد جاء بدلالات ، ومفاهيم تخاطب العقل الإنساني بمنطقته ، وتخاطب الفطرة الأدبية بأسلوب عرضه .

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

- 📖 الإتيان في علوم القرآن – السيوطي ، جلال الدين السيوطي [ت ٩١١ هـ] – ضبطه وصححه وخرّج آياته : محمد سالم هاشم – ط ٢ – منشورات ذوي القربى – قم – ١٤٢٩ هـ .
- 📖 أدب الكاتب – ابن قتيبة ، عبدالله بن مسلم ابن قتيبة [ت ٢٧٦ هـ] – تحقيق : محمد طعمة الحلبي – ط ٢ – دار المعرفة – بيروت – ١٤٢٢ هـ – ٢٠٠١ م .
- 📖 إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم – أبو السعود ، أبو السعود العمادي [ت ٩٥١ هـ] – ط ٤ – دار إحياء التراث العربي – بيروت – ١٤١٤ هـ – ١٩٩٤ م .
- 📖 أساس البلاغة – الزمخشري ، جار الله الزمخشري [ت ٥٣٨ هـ] – قراءة وضبط وشرح : محمد نبيل طريفي – ط ١ – دار صادر – بيروت – ١٤٣٠ هـ – ٢٠٠٩ م .
- 📖 أسباب النزول – الواحدي ، محمد بن علي الواحدي النيسابوري [ت ٤٦٨ هـ] – ضبطه وصححه : محمد عبدالقادر شاهين – ط ٢ – دار الكتب العلمية – بيروت – ١٤٢٧ هـ – ٢٠٠٦ م .
- 📖 استراتيجيات الخطاب ، مقارنة لغوية تداولية – عبدالهادي بن ظافر الشهري – ط ١ – دار الكتاب الجديد المتحدة – بيروت – ٢٠٠٤ م .
- 📖 استقبال النص عند العرب – محمد المبارك – ط ١ – المؤسسة العربية للدراسات والنشر – بيروت – ١٩٩٩ م .
- 📖 أسرار البلاغة في علم البيان – عبدالقاهر الجرجاني [ت ٤٧٠ هـ] – تحقيق : عبدالحميد الهنداوي – ط ١ – دار الكتب العلمية – بيروت – ١٤٢٢ هـ – ٢٠٠١ م .
- 📖 أسرار التكرار في القرآن – محمد بن حمزة الكرماني [ت ٥٠٠ هـ] – تحقيق : عبدالقادر أحمد عطا – (د . ط) – دار الاعتصام – القاهرة – (د . ت) .
- 📖 أسرار العربية – ابن الأنباري ، أبو البركات بن الأنباري [ت ٥٧٧ هـ] – تحقيق : محمد حسين شمس الدين – ط ٢ – دار الكتب العلمية – بيروت – ٢٠١٠ م .

- أسس الحوار في القرآن الكريم ، دراسة في علاقة الإسلام باليهودية والمسيحية - هيربرت بوسة - ترجمة : أحمد محمود هويدي - ط ٢ - المركز القومي للترجمة - القاهرة - ٢٠٠٩ م .
- أسس لسانيات النص - مارغوت هاينمان ، وفولفغنغ هاينمان - ترجمة : موفق محمد جواد المصلح - ط ١ - دار المأمون للترجمة والنشر - بغداد - ٢٠٠٦ م .
- الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة - محمد بن علي الجرجاني [ت ٧٢٩ هـ] - علق عليه ووضع حواشيه : إبراهيم شمس الدين - ط ١ - دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م .
- الأشباه والنظائر في النحو - ، السيوطي ، جلال الدين السيوطي [ت ٩١١ هـ] - وضع حواشيه : غريد الشيخ - ط ٢ - دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م .
- إشكالات النص - ، دراسة لسانية نصية - جمعان بن عبدالكريم - ط ١ - النادي الأدبي ، والمركز الثقافي العربي - الرياض ، والدار البيضاء - ٢٠٠٩ م .
- أصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية العربية ، تأسيس نحو النص - محمد الشاوش - ط ١ - المؤسسة العربية للتوزيع - تونس - ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م .
- الأصول في النحو - ابن السراج ، أبو بكر بن السراج [ت ٣١٦ هـ] - تحقيق : عبدالحسين الفتلي - (د . ط) - (د . دار طبع) - (د . مكان طبع) - (د . ت) .
- الإعجاز الصرفي في القرآن الكريم ، دراسة نظرية تطبيقية للتوظيف البلاغي لصيغة الكلمة - عبدالحاميد الهنداوي - (د . ط) - المكتبة العصرية - بيروت - ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م .
- إعجاز القرآن - الباقلاني ، أبو بكر الباقلاني [ت ٤٠٣ هـ] - تحقيق : محمود محمد مزروعة - ط ١ - مكتبة كنوز المعرفة - جدة - ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م .
- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية - مصطفى صادق الرافعي - ط ٢ - دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م .
- إعجاز القرآن والدلالات الصرفية - يوسف المرعشلي - ط ١ - دار ابن حزم - بيروت - ١٤٣٢ هـ - ٢٠١١ م .
- إعراب القرآن - أبو جعفر النحاس [ت ٣٨٨ هـ] - تحقيق : زهير غازي زاهد - ط ٢ - عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت - ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م .
- أقسام الكلام العربي من حيث الشكل والوظيفة - فاضل مصطفى الساقى - (د . ط) - مكتبة الخانجي - القاهرة - ١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧ م .
- الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين - ابن الأنباري ، أبو البركات بن الأنباري [ت ٥٧٧ هـ] - تحقيق : محمد محيي الدين عبدالحاميد - (د . ط) - (د . دار طبع) - (د . مكان طبع) - (د . ت) .
- أنوار التنزيل وأسرار التأويل - البيضاوي ، عبدالله بن محمد البيضاوي [ت ٧٩١ هـ] - تحقيق : عبدالقادر عرفان العشاحسونة - (د . ط) - دار الفكر - بيروت - ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٩ م .
- الإيضاح في شرح المفصل - ابن الحاجب ، أبو عمرو بن الحاجب [ت ٦٤٦ هـ] - تحقيق : إبراهيم محمد عبدالله - ط ٣ - دار سعدالدين - القاهرة - ١٤٣٤ هـ - ٢٠١٣ م .
- الإيضاح في علوم البلاغة - القزويني ، الخطيب القزويني [ت ٧٣٩ هـ] - تحقيق : محمد عبدالقادر الفاضلي - (د . ط) - المكتبة العصرية - بيروت - ١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م .
- البحث النحوي عند الأصوليين - مصطفى جمال الدين - (د . ط) - دار الرشيد للنشر - بغداد - ١٩٨٠ م .
- بحوث في علم الأصول ، مباحث الدليل اللفظي ، تقارير السيد محمد باقر الصدر - محمود الهاشمي - ط ١ - مؤسسة الفقه ومعارف أهل البيت % - (د . مكان طبع) - ١٤٣٣ هـ - ٢٠١٢ م .
- البحر المحيط في التفسير - أبو حيان الأنديسي [ت ٧٥٤ هـ] - اعتنى به : صدقي محمد جميل - (د . ط) - بيروت - ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٥ م .
- البدیع بین البلاغة العربية واللسانيات النصية - جميل عبدالمجيد - (د . ط) - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة - ١٩٩٨ م .
- البرهان في إعجاز القرآن أو بديع القرآن - ابن أبي الإصبع المصري [ت ٦٥٤ هـ] - تحقيق : أحمد مطلوب ، وخديجة الحديثي - (د . ط) - مطبعة المجمع العلمي العراقي - بغداد - ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٦ م .
- البرهان في علوم القرآن - الزركشي ، بدر الدين الزركشي [ت ٧٩٤ هـ] - تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم - (د . ط) - المكتبة العصرية - بيروت - ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م .
- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز - الفيروز آبادي ، مجدالدين الفيروز آبادي [ت ٨١٧ هـ] - تحقيق : محمد علي النجار - (د . ط) - المكتبة العلمية - بيروت - (د . ت) .
- بلاغة الخطاب وعلم النص - صلاح فضل - ط ١ - الشركة المصرية العالمية للنشر - القاهرة - ١٩٩٦ م .
- بلاغة الكلمة في التعبير القرآني - فاضل السامرائي - ط ٥ - دار عمار - الأردن - ٢٠٠٨ م .
- البلاغة والأسلوبية - محمد عبدالمطلب - ط ٣ - الشركة المصرية العالمية للنشر - القاهرة - ١٩٩٤ م .
- البلاغة وتحليل الخطاب - حسين خالفي - ط ١ - منشورات الاختلاف ، دار الفارابي - الجزائر ، بيروت - ٢٠١١ م .

- ١٩٩٠ م.  البلاغة والتطبيق - أحمد مطلوب ، وكامل حسن البصير - ط ٢ - مكتبة اللغة العربية - بغداد - ١٤١٠ هـ -
- ١٩٨٨ م.  بيان إعجاز القرآن ، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن - الخطابي ، أبو سليمان الخطابي [ت ٣٨٦ هـ] - تحقيق : محمد خلف الله أحمد ، محمد زغلول سلام - ط ٣ - دار المعارف - القاهرة - (د . ت) .
- ١٩٨٨ م.  البيان في تفسير القرآن - السيد أبو القاسم الخوني - (د . ط) - مطبعة العمال المركزية - بغداد - ١٤٠٩ هـ -
- ١٩٨٨ م.  البيان في غريب إعراب القرآن - ابن الأنباري ، أبو البركات بن الأنباري [ت ٥٧٧ هـ] - تحقيق : طه عبد الحميد طه - ط ١ - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة - ٢٠٠٦ م .
- ١٩٨٨ م.  البيان والتبيين - الجاحظ ، أبو عثمان الجاحظ [ت ٢٥٥ هـ] - تحقيق : عبد السلام محمد هارون - (د . ط) - مكتبة الخانجي - القاهرة - (د . ت) .
- ١٩٨٨ م.  تأويل مشكل القرآن - ابن قتيبة ، عبد الله بن مسلم ابن قتيبة [ت ٢٧٦ هـ] - علق عليه ووضع حواشيه : إبراهيم شمس الدين - ط ٢ - دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م .
- ١٩٨٨ م.  التأويل وقراءة النص في دراسات الإعجاز ، دراسة في الهومينوطيقا الأدبية الإسلامية - سرحان جفات - ط ١ - دار الينابيع - السويد - ٢٠١٠ م .
- ١٩٨٨ م.  تاج اللغة وصحاح العربية - الجوهري ، إسماعيل بن حماد الجوهري [ت ٣٩٨ هـ] - اعتنى بها مكتب التحقيق بدار إحياء التراث العربي - ط ٥ - دار إحياء التراث العربي - بيروت - ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م .
- ١٩٨٨ م.  التبيان في تفسير القرآن - الطوسي ، أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي [ت ٤٦٠ هـ] - تحقيق : أحمد حبيب قصير العاملي - ط ١ - دار الأميرة للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت - ١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م .
- ١٩٨٨ م.  التبيان في المعاني والبدع والبيان - الطيبي ، شرف الدين بن محمد الطيبي [ت ٧٤٣ هـ] - تحقيق : هادي عطية الهلالي - ط ١ - عالم الكتب ، ومكتبة النهضة العربية - بيروت - ١٩٨٧ م .
- ١٩٨٥ م.  تحليل الخطاب الشعري ، استراتيجية التناص - محمد مفتاح - ط ١ - المركز الثقافي العربي - الدار البيضاء - ١٩٨٥ م .
- ١٩٨٥ م.  تحليل لغة القرآن وأساليب فهمه - محمد باقر سعيدي لوشن - ترجمة : علي عباس الموسوي - ط ١ - دار الولاء - بيروت - ١٤٣٥ هـ - ٢٠١٤ م .
- ١٩٨٥ م.  التحليل اللغوي للنص ، مدخل إلى المفاهيم الأساسية والمناهج - كلاوس برينكر - ترجمة : سعيد حسن بحيري - ط ٢ - مؤسسة المختار - القاهرة - ١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م .
- ١٩٨٥ م.  التذكرة في القراءات - ابن غلبون ، طاهر بن عبد المنعم بن غلبون [ت ٣٩٩ هـ] - تحقيق : سعيد صالح زعيمة - ط ١ - دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م .
- ١٩٨٥ م.  التطور الدلالي بين لغة الشعر ولغة القرآن - عودة خليل أبو عودة - ط ١ - مكتبة المنار - الأردن - ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م .
- ١٩٨٥ م.  التعبير القرآني - فاضل السامرائي - ط ٥ - دار عمار - الأردن - ١٩٩٨ م .
- ١٩٨٥ م.  التعريفات - الشريف الجرجاني ، علي بن محمد الجرجاني [ت ٨١٦ هـ] - ط ١ - دار إحياء التراث العربي - بيروت - ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م .
- ١٩٨٥ م.  التفسير البنائي للقرآن الكريم - محمود البستاني - ط ١ - مؤسسة الطبع التابعة للأستانة الرضوية المقدسة - مشهد - ١٤٢٤ هـ .
- ١٩٨٥ م.  تفسير التحرير والتنوير - الطاهر بن عاشور - ط ١ - مؤسسة التاريخ - بيروت - (د . ت) .
- ١٩٨٥ م.  تفسير شبّر - عبد الله شبّر - ط ١ - منشورات الفجر - بيروت - ١٤٣٠ هـ - ٢٠١٠ م .
- ١٩٨٥ م.  تفسير الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل - الزمخشري ، جار الله الزمخشري [ت ٥٣٨ هـ] - رتيبه وضبطه : محمد عبد السلام شاهين - ط ٥ - دار الكتب العلمية - بيروت - ٢٠٠٩ م .
- ١٩٨٥ م.  التفسير الواضح - محمد محمود حجازي - ط ١ - دار الكتاب العربي - بيروت - ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م .
- ١٩٨٥ م.  التفكير اللساني في الحضارة العربية - عبد السلام المسدي - ط ٣ - دار الكتاب الجديد المتحدة - بنغازي - ٢٠٠٩ م .
- ١٩٨٥ م.  تلخيص البيان في مجازات القرآن - الشريف الرضي [ت ٤٠٦ هـ] - تحقيق : محمد عبد الغني حسن - ط ٢ - دار الأضواء - بيروت - ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م .
- ١٩٨٥ م.  تلخيص التمهيد ، موجز دراسات مبسطة عن مختلف شؤون القرآن الكريم - محمد هادي معرفة - ط ٨ - مؤسسة النشر الإسلامي - قم - ١٤٣٠ هـ .
- ١٩٨٥ م.  التلقي والتأويل ، مقاربة نسقية - محمد مفتاح - (د . ط) - المركز الثقافي العربي - الدار البيضاء ، بيروت - (د . ت) .
- ١٩٨٥ م.  التناص ، دراسة في الخطاب النقدي العربي - سعد إبراهيم عبد المجيد - ط ١ - دار الفراهيدي - بغداد - ٢٠١٠ م .
- ١٩٨٥ م.  جماليات المفردة القرآنية - أحمد ياسوف - ط ٢ - دار المكتبي للطباعة والنشر والتوزيع - دمشق - ١٤١٩ هـ - ١٩٩٩ م .

- الجنى الداني في حروف المعاني - المرادي ، الحسن بن القاسم المرادي [ت ٧٤٩ هـ] - تحقيق : فخر الدين قباوة ، محمد نديم فاضل - ط ١ - دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م .
- الجواهر الحسان في تفسير القرآن - الثعالبي ، عبد الرحمن بن مخلوف الثعالبي [ت ٨٧٥ هـ] - تحقيق : علي محمد معوض ، وعادل أحمد عبد الموجود - ط ١ - دار إحياء التراث العربي ، ومؤسسة التاريخ العربي - بيروت - ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م .
- حاشية الصبان على شرح الأشموني - الصبان ، محمد بن علي الصبان [ت ١٢٠٦ هـ] - تحقيق : محمود بن الجميل - ط ١ - مكتبة الصفا - القاهرة - ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م .
- الحذف والتقدير في النحو العربي - علي أبو المكارم - ط ١ - دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع - القاهرة - ٢٠٠٧ م .
- الحوار في القرآن ، قواعده ، أساليبه ، معانيه - محمد حسين فضل الله - ط ٢ - مكتبة الشهيد الصدر - قم - ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م .
- الحيوان - الجاحظ ، أبو عثمان الجاحظ [ت ٢٥٥ هـ] - تحقيق : عبد السلام محمد هارون - ط ١ - دار إحياء التراث العربي - بيروت - ١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م .
- الخصائص - ابن جني ، أبو الفتح عثمان بن جني [ت ٣٩٣ هـ] - تحقيق : محمد علي النجار - ط ٢ - دار الهدى للطباعة والنشر - بيروت - (د . ت) .
- دراسات قنية في قصص القرآن - محمود البستاني - ط ٢ - دار البلاغة للطباعة والنشر والتوزيع - لبنان - ١٤٣٤ هـ - ٢٠١٣ م .
- دراسات في علوم القرآن - محمود البستاني - ط ١ - دار مدينة العلم - قم - ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٧ م .
- الدراسات اللغوية عند العرب إلى نهاية القرن الثالث - محمد حسين آل ياسين - ط ١ - منشورات دار ومكتبة الحياة - بيروت - ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م .
- دراسة الصوت اللغوي - أحمد مختار عمر - ط ٤ - عالم الكتب للنشر والتوزيع والطباعة - القاهرة - ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م .
- الدرس النحوي النصي في كتب إعجاز القرآن - أشرف عبد البديع عبد الكريم - (د . ط) - مكتبة الآداب - القاهرة - ٢٠٠٨ م .
- دلائل الإعجاز - عبد القاهر الجرجاني [ت ٤٧٠ هـ] - قرأه وعلق عليه : محمود محمد شاكر - ط ٣ - مطبعة المدني - القاهرة - ١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م .
- دلالة الألفاظ - إبراهيم أنيس - (د . ط) - مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة - (د . ت) .
- دلالة السياق - ردة الله الطلحي - ط ١ - جامعة أم القرى - مكة المكرمة - ١٤٢٤ هـ .
- الدلالة السياقية عند اللغويين - عواطف كنوش المصطفى - ط ١ - دار السياب - لندن - ٢٠٠٧ م .
- الرسالة الشافية ، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن - عبد القاهر الجرجاني [ت ٤٧٠ هـ] - تحقيق : محمد خلف الله أحمد ، محمد زغلول سلام - ط ٣ - دار المعارف - القاهرة - (د . ت) .
- رصف المباني في شرح حروف المعاني - المالقي ، أحمد بن عبد النور المالقي [ت ٧٠٢ هـ] - تحقيق : أحمد محمد الخراط - ط ٣ - دار القلم - دمشق - ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م .
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني - الألوسي ، شهاب الدين محمود الألوسي [ت ١٢٧٠ هـ] - تحقيق : محمد أحمد الأمد ، عمر عبد السلام السلامي - ط ١ - دار إحياء التراث العربي - بيروت - ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م .
- السبعة في القراءات - ابن مجاهد ، أبو بكر بن مجاهد [ت ٣٢٤ هـ] - تحقيق : شوقي ضيف - ط ٤ - دار المعارف - القاهرة - ٢٠١٠ م .
- السبك في العربية المعاصرة بين المنطوق والمكتوب - محمد سالم أبو عفرة - ط ١ - مكتبة الآداب - القاهرة - ١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م .
- سرّ الفصاحة - الخفاجي ، ابن سنان الخفاجي [ت ٤٦٦ هـ] - قدّم له ووضع حواشيه : إبراهيم شمس الدين - ط ١ - كتاب ناشرون - بيروت - ١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م .
- سمات دلالية وبنية النص ، ضمن كتاب إسهامات أساسية في العلاقة بين النص والنحو والدلالة - مجموعة مؤلفين - نقله إلى العربية وعلق عليه : سعيد حسن بحيري - ط ١ - مؤسسة المختار للنشر والتوزيع - القاهرة - ١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٨ م .
- السور المدنية ، دراسة بلاغية وأسلوبية - عهود عبد الواحد - (د . ط) - دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع - عمان - (د . ت) .
- شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك - ابن عقيل ، عبد الله بن عقيل [ت ٧٦٩ هـ] - تحقيق : محمد محبي الدين عبد الحميد - (د . ط) - دار الفكر - بيروت - (د . ت) .
- شرح ألفية ابن مالك - ابن الناظم ، بدر الدين بن جمال الدين بن مالك [ت ٦٨٦ هـ] - اعتنى بتصحيحه وتنقيحه : محمد بن سليم اللبابيدي - (د . ط) - (د . ط) - بيروت - (د . ت) .
- شرح التسهيل ، تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد - ابن مالك ، جمال الدين بن مالك [ت ٦٧٢ هـ] - تحقيق : أحمد السيد سيد أحمد علي - (د . ط) - المكتبة التوفيقية - القاهرة - (د . ت) .

- شرح ديوان المتنبي - عبد الرحمن البرقوقي - (د . ط) - دار الكتاب العربي - بيروت - (د . ت) .
- شرح الرضي على الكافية - الرضي ، رضي الدين الاسترابادي [ت ٦٨٨ هـ] - تصحيح وتعليق : يوسف حسن عمر - (د . ط) - جامعة قاريونس - ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م .
- شرح شافية ابن الحاجب - الرضي ، رضي الدين الاسترابادي [ت ٦٨٨ هـ] - تحقيق : محمد نور الحسن ، محمد الزفزاف ، محمد محيي الدين عبد الحميد - ط ١ - دار إحياء التراث العربي - بيروت - (د . ت) .
- شرح المفصل - ابن يعيش ، موفق الدين بن يعيش [ت ٦٤٣ هـ] - تحقيق : أحمد السيد سيد أحمد ، إسماعيل عبد الجواد عبد الغني - (د . ط) - المكتبة التوفيقية - القاهرة - (د . ت) .
- شرح نهج البلاغة - ابن أبي الحديد ، ابن أبي الحديد المعتزلي [ت ٦٥٦ هـ] - تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم - ط ١ - المكتبة المصرية - بيروت - (د . ت) .
- شرح نهج البلاغة - محمد عبده - خرّج مصادره : فائق محمد خليل الليون - ط ١ - مؤسسة التأريخ العربي - بيروت - (د . ت) .
- الشواهد والاستشهاد في النحو - عبد الجبار علوان - ط ١ - مطبعة الزهراء - بغداد - ١٣٩٦ هـ - ١٩٧٦ م .
- الصاحبي - ابن فارس ، أحمد بن فارس [ت ٣٩٥ هـ] - تحقيق : أحمد صقر - (د . ط) - مكتبة ومطبعة دار إحياء الكتب العربية - القاهرة - (د . ت) .
- الصورة الفنية في المثل القرآني - محمد حسين علي الصغير - (د . ط) - دار الرشيد - بغداد - ١٩٨١ م .
- علم التخاطب الإسلامي ، دراسة لسانية لمناهج علماء الأصول في فهم النص - محمد محمد يونس علي - ط ١ - مكتبة المدار - طرابلس ، ليبيا - ٢٠٠٦ م .
- علم الدلالة - أحمد مختار عمر - ط ٦ - عالم الكتب - القاهرة - ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م .
- علم الدلالة التطبيقي في التراث العربي - هادي نهر - ط ١ - دار الأمل للنشر والتوزيع - إربد ، الأردن - ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٧ م .
- علم اللغة العام - فردينان دي سوسور - ترجمة : يونيل يوسف عزيز - (د . ط) - دار آفاق عربية - ١٩٨٨ م .
- علم اللغة ، مقدمة للقرائ العربي - محمود السعمران - (د . ط) - دار النهضة العربية - بيروت - (د . ت) .
- علم لغة النص ، المفاهيم والاتجاهات - سعيد حسن بحيري - ط ٢ - مؤسسة المختار للنشر والتوزيع - القاهرة - ١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م .
- علم لغة النص ، النظرية والتطبيق - عزّة شبل محمد - ط ١ - مكتبة الآداب - القاهرة - ١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م .
- علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق ، دراسة تطبيقية على السور المكية - صبحي إبراهيم الفقي - ط ١ - دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع - القاهرة - ١٤٣١ هـ - ٢٠٠٠ م .
- علم النص - جوليا كريستيفا - ترجمة : فريد الزاهي - ط ١ - دار توبقال للنشر - الدار البيضاء - ١٩٩٧ م .
- علم النص ، مدخل متداخل الاختصاصات - فان دايك - ترجمة : سعيد حسن بحيري - ط ٢ - دار القاهرة - القاهرة - ٢٠٠٥ م .
- علوم القرآن - السيد محمد باقر الحكيم - ط ٥ - دار التعارف للمطبوعات - بيروت - ١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م .
- العمدة في محاسن الشعر وأدابه ونقده - ابن رشيق القيرواني ، الحسن بن رشيق القيرواني [ت ٤٥٦ هـ] - تحقيق : عبد الحميد الهنداوي - (د . ط) - المكتبة العصرية - بيروت - ١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م .
- عيار الشعر - ابن طباطبا العلوي ، محمد بن طباطبا العلوي [ت ٣٢٢ هـ] - تحقيق : طه الحاجري ، محمد زغلول سلام - (د . ط) - المكتبة التجارية - القاهرة - ١٩٥٦ م .
- العنوان في القراءات السبع - المقرئ ، أبو طاهر إسماعيل بن خلف المقرئ [ت ٤٥٥ هـ] - تحقيق : زهير غازي زاهد ، خليل إبراهيم العطية - ط ٢ - مؤسسة المنار - النجف الأشرف - (د . ت) .
- غرائب الصورة القرآنية ، تحليل البنية الأسلوبية ودلالاتها البلاغية - أمير فاضل سعد - (د . ط) - دار الكتاب الثقافي - إربد ، الأردن - ١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٨ م .
- الفروق اللغوية - العسكري ، أبو هلال العسكري [ت ٤٠٠ هـ] - علّق عليه ووضع حواشيه : محمد باسل عيون السود - ط ٤ - دار الكتب العلمية - بيروت - ٢٠٠٦ م .
- الفصل والوصل في القرآن الكريم ، دراسة في الأسلوب - منير سلطان - ط ٢ - منشأة المعارف - الإسكندرية - ١٩٩٧ م .
- في ظلال القرآن - سيد قطب - ط ٣٤ - دار الشروق - القاهرة - ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م .
- القاموس المحيط - الفيروز آبادي ، مجد الدين الفيروز آبادي [ت ٨١٧ هـ] - إعداد : محمد عبد الرحمن المرعشلي - ط ٢ - دار إحياء التراث العربي - بيروت - ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م .
- قصص القرآن الكريم دلاليًا وجماليًا - محمود البستاني - ط ٢ - مؤسسة السبطين - قم - ١٤٣٢ هـ .
- قضايا الحداثة عند عبد القاهر الجرجاني - محمد عبد المطلب - ط ١ - الشركة المصرية العالمية للنشر ، مكتبة لبنان ناشرون - مصر ، لبنان - ١٩٩٥ م .
- الكتاب - سيبويه ، أبو بشر عمرو بن قنبر سيبويه [ت ١٨٠ هـ] - تحقيق : عبد السلام محمد هارون - ط ٣ - مكتبة الخانجي - القاهرة - ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م .

- 📖 الكتاب الشريف ، التوراة ، والمزامير ، وصحف الأنبياء ، والإنجيل الشريف - (د . ط) - دار الكتاب الشريف - بيروت - ٢٠٠٧ م .
- 📖 كتاب الصناعات ، الكتابة والشعر - العسكري ، أبو هلال العسكري [ت ٤٠٠ هـ] - تحقيق : علي محمد البجاوي ، محمد أبو الفضل إبراهيم - ط ١ - المكتبة العصرية - بيروت - ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م .
- 📖 كتاب العين - الفراهيدي ، الخليل بن أحمد الفراهيدي [ت ١٧٠ هـ] - تحقيق : مهدي المخزومي ، إبراهيم السامرائي -
- (د . ط) - دار الرشيد للنشر - بغداد - ١٩٨٢ م .
- 📖 كشاف اصطلاحات الفنون - التهانوي ، محمد بن علي التهانوي [ت ١١٥٨ هـ] - وضع حواشيه : أحمد حسن بسج - ط ٣ - دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤٣٤ هـ - ٢٠١٣ م .
- 📖 الكليات ، معجم في المصطلحات والفروق اللغوية - الكفوي ، أبو البقاء الكفوي [ت ١٠٩٤ هـ] - تحقيق : عدنان درويش ، ومحمد المصري - ط ١ - منشورات ذوي القربى - قم - ١٤٣٣ هـ .
- 📖 لباب النقول في أسباب النزول - السيوطي ، جلال الدين السيوطي [ت ٩١١ هـ] - خرّج أحاديثه وعلّق عليه : عبد الرزاق المهدي - (د . ط) - دار الكتاب العربي - بيروت - ٢٠١٢ م .
- 📖 لسان العرب - ابن منظور ، محمد بن مكرم بن منظور [ت ٧١١ هـ] - مراجعة وتدقيق : يوسف البقاعي ، إبراهيم شمس الدين ، نضال علي - ط ١ - مؤسسة الأعلميّ للطبوعات - بيروت - ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م .
- 📖 لسانيات النص ، مدخل إلى انسجام الخطاب - محمد خطابي - ط ٢ - المركز الثقافي العربي - الدار
- 📖 مجاز القرآن - أبو عبيدة ، معمر بن المثنى [ت ٢١٠ هـ] - عارضه وعلّق عليه : محمد فؤاد سزكين - (د . ط) - مكتبة الخانجي - القاهرة - (د . ت) .
- 📖 مجمع البيان في تفسير القرآن والفرقان - الطبرسي ، الفضل بن الحسن الطبرسي [ت ٥٤٨ هـ] - ط ١ - دار الأسوة - طهران - ١٤٢٦ هـ البيضاء - ٢٠٠٦ م .
- 📖 لسانيات النص النظرية والتطبيق ، مقامات الهمدانيّ أنموذجاً - ليندة قّياس - ط ١ - مكتبة الآداب - القاهرة - ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م .
- 📖 اللغة في الدرس البلاغيّ - عدنان عبد الكريم جمعة - ط ١ - دار السياب - لندن - ٢٠٠٨ م .
- 📖 اللغة معناها ومبناها - تمام حسان - (د . ط) - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة - ١٩٧٣ م .
- 📖 اللهجات العربية في التراث - أحمد علم الدين الجنديّ - (د . ط) - الدار العربية للكتاب - ليبيا ، تونس - ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م .
- 📖 مباحث في علوم القرآن - صبحي الصالح - ط ٥ - دار العلم للملايين - بيروت - ١٩٦٨ م .
- 📖 المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر - ابن الأثير [ت ٦٣٧ هـ] - تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد - (د . ط) - المكتبة العصرية - بيروت - ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م .
- 📖 محاضرات في علم اللسان العام - فرديناند دي سوسور - ترجمة : عبد القادر قنينيّ - (د . ط) - دار أفريقيا الشرق - المغرب - ٢٠٠٨ م .
- 📖 مدخل إلى علم النصّ ومجالات تطبيقاته - محمد الأخضر الصبيحي - ط ١ - الدار العربية للعلوم ناشرون ، منشورات الاختلاف - بيروت ، الجزائر - ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م .
- 📖 المدرسة القرآنية - السيّد محمد باقر الصدر - ط ١ - مكتبة سلمان المحمّديّ - بغداد - ١٤٣٤ هـ - ٢٠١٣ م .
- 📖 مرصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع ، بحث في العلاقات بين مطالع سور القرآن وخواتيمها - السيوطي ، جلال الدين السيوطي [ت ٩١١ هـ] - قرأه وتّممه : عبدالمحسن عبدالعزيز العسكر - ط ١ - مكتبة دار المنهاج للنشر والتوزيع - الرياض - ١٤٢٦ هـ .
- 📖 المزهري في علوم اللغة وأنواعها - السيوطي ، جلال الدين السيوطي [ت ٩١١ هـ] - تحقيق : محمد أحمد جاد المولى ، علي محمد البجاوي ، محمد أبو الفضل إبراهيم - (د . ط) - دار إحياء الكتب العربية - القاهرة - (د . ت) .
- 📖 مشكل إعراب القرآن - القيسيّ ، مكي ابن أبي طالب القيسيّ [ت ٤٣٧ هـ] - تحقيق : حاتم صالح الضامن - (د . ط) - منشورات وزارة الإعلام العراقية - ١٩٧٥ م .
- 📖 المصطلحات الأساسية في لسانيات النصّ وتحليل الخطاب ، دراسة معجميّة - نعمان بوقرة - ط ١ - عالم الكتب الحديث ، دار جدرا للكتاب العالميّ - إربد ، الأردن - ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٩ م .
- 📖 معتزك الأقران في إعجاز القرآن - السيوطي ، جلال الدين السيوطي [ت ٩١١ هـ] - تحقيق : أحمد شمس الدين - ط ١ - دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م .
- 📖 معاني الأبنية في العربية - فاضل السامرائيّ - ط ١ - ساعدت جامعة بغداد على نشره - بغداد - ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م .
- 📖 معاني القرآن - الأخفش ، سعيد بن مسعدة الأخفش [ت ٢١٥ هـ] - قرّم له وعلّق عليه ووضع حواشيه : إبراهيم شمس الدين - ط ١ - دار الكتب العلمية - ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م .

- 📖 معاني القرآن - الفراء ، يحيى بن زياد الفراء [ت ٢٠٧ هـ] - تحقيق : إبراهيم شمس الدين - ط ١ - دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م .
- 📖 معاني القرآن - الكسائي ، علي بن حمزة الكسائي [ت ١٨٩ هـ] - أعاد بناءه : عيسى شحاته عيسى - (د . ط) - دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع - القاهرة - ١٩٩٨ م .
- 📖 معاني النحو - فاضل السامرائي - ط ٢ - شركة العاتك للطباعة والنشر والتوزيع - القاهرة - ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٣ م .
- 📖 معايير القبول والردّ لتفسير النصّ القرآني - عبد القادر محمد الحسين - ط ٢ - دار الغوثاني للدراسات القرآنية - دمشق - ١٤٢٣ هـ - ٢٠١٢ م .
- 📖 المعايير النصّية في القرآن الكريم - أحمد محمد عبد الراضي - ط ١ - مكتبة الثقافة الدينيّة - القاهرة - ١٤٣٢ هـ - ٢٠١١ م .
- 📖 المعجم الفلسفيّ - جميل صليبا - ط ١ - منشورات ذوي القربى - قم - ١٣٨٧ هـ .
- 📖 معجم اللغة واللسانيات - هاتمان وستورك - ترجمة : توفيق عزيز عبد الله ، مروان محمد حسن ، أوس عادل عبد الوهاب - ط ١ - دار المأمون للترجمة والنشر - بغداد - ٢٠١٢ م .
- 📖 معجم مصطلحات المنطق - إعداد : جعفر الحسيني - ط ١ - مطبعة دار الاعتصام للطباعة والنشر - القاهرة - (د . ت) .
- 📖 المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم - محمد فؤاد عبد الباقي - ط ١ - مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت - ١٤٣٠ هـ - ١٩٩٦ م .
- 📖 معجم مقاييس اللغة - ابن فارس ، أحمد بن فارس [ت ٣٩٥ هـ] - وضع حواشيه : إبراهيم شمس الدين - ط ٢ - دار الكتب العلميّة - بيروت - ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م .
- 📖 المعرّب من الكلام الأعجميّ على حروف المعجم - الجواليقيّ ، أبو منصور الجواليقيّ [ت ٥٤٠ هـ] - تحقيق : أحمد محمد شاكر - ط ٢ - مطبعة دار الكتب - القاهرة - ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م .
- 📖 المعنى خارج النصّ ، أثر السياق في تحديد دلالات الخطاب - فاطمة الشيديّ - (د . ط) - دار نينوى - دمشق - ٢٠١١ م .
- 📖 مغني اللبيب عن كتب الأعاريب - ابن هشام ، ابن هشام الأنصاريّ [ت ٧٦١ هـ] - تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد - (د . ط) - المكتبة العصريّة - بيروت - ١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م .
- 📖 مفتاح العلوم - السكاكيّ ، يوسف بن محمد السكاكيّ [ت ٦٢٦ هـ] - تحقيق : عبد الحميد الهنداويّ - ط ١ - دار الكتب العلميّة - بيروت - ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م .
- 📖 مفردات ألفاظ القرآن - الأصفهانيّ ، الراغب الأصفهانيّ [ت ٤٢٥ هـ] - تحقيق : صفوان عدنان داووديّ - ط ٢ - منشورات طليعة النور - قم - ١٤٢٧ هـ .
- 📖 المقتضب - المبرد ، محمد بن يزيد المبرّد [ت ٢٨٥ هـ] - تحقيق : محمد عبد الخالق عضيمة - (د . ط) - عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت - ١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م .
- 📖 مقامة ابن خلدون - ابن خلدون ، عبد الرحمن بن خلدون [ت ٨٠٨ هـ] - اعتناء ودراسة : أحمد الزعبيّ - (د . ط) - شركة الأرقم بن أبي الأرقم - بيروت - (د . ت) .
- 📖 المقرب - ابن عصفور ، ابن عصفور الأشبيليّ [ت ٦٦٩ هـ] - تحقيق : أحمد عبد الستار الجوّاريّ ، عبد الله الجبوريّ - (د . ط) - مطبعة العانيّ - بغداد - ١٩٨٦ م .
- 📖 من أسرار التعبير القرآنيّ - فاضل السامرائيّ - (د . ط) - (د . طبع) - (د . طبع) - (د . ت) .
- 📖 مناهج البحث اللغويّ بين التراث والمعاصرة - نعمة رحيم العزاويّ - (د . ط) - مطبعة المجمع العلميّ - بغداد - ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م .
- 📖 منطق فهم القرآن ، الأسس المنهجية للتفسير والتأويل في ضوء آية الكرسيّ - السيد كمال الحيدريّ - ط ١ - دار فرائد للطباعة والنشر - قم - ١٤٣٣ هـ - ٢٠١٢ م .
- 📖 منهاج البلغاء وسراج الأدباء - القرطاجنيّ ، حازم القرطاجنيّ [ت ٦٨٤ هـ] - تحقيق : محمد الحبيب الخوجة - ط ٣ - دار الغرب الإسلاميّ - ١٩٨٦ م .
- 📖 المنهجية الأصولية والبحث البلاغيّ - سعيد النكر - ط ١ - عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع - إربد ، الأردن - ٢٠١٢ م .
- 📖 موجز علوم القرآن - داود العطار - ط ١ - مكتبة الكلمة الطبية - بغداد - ١٤٣٣ هـ - ٢٠١٢ م .
- 📖 الميزان في تفسير القرآن - العلامة السيد محمد حسين الطباطبائيّ - ط ١ - منشورات ذوي القربى - قم - ١٤٣٠ م .
- 📖 نحو القرآن - أحمد عبد الستار الجوّاريّ - (د . ط) - المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر - بيروت - ٢٠٠٦ م .
- 📖 نحو النص ، اتجاه جديد في الدرس النحويّ - أحمد عفيفيّ - ط ١ - مكتبة زهراء الشرق - القاهرة - ٢٠٠١ م .
- 📖 نحو النص ، إطار نظريّ ودراسات تطبيقية - عثمان أبو زنيد - ط ١ - عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع - إربد ، الأردن - ١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م .

- ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م. نحو النص بين الأصالة والحداثة - أحمد محمد عبد الراضي - ط ١ - مكتبة الثقافة الدينية - القاهرة - ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م.
- ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م. نحو النص ، نقد النظرية وبناء أخرى - عمر أبو خرمة - ط ١ - عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع - إربد ، الأردن - ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م.
- الرحمن المرعشلي - ط ٢ - دار المعرفة - بيروت - ١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م. نزهة القلوب في تفسير غريب القرآن العزيز - محمد بن عزيز السجستاني [ت ٣٣٠ هـ] - تحقيق : يوسف عبد النسيق القرآني ، دراسة أسلوبية - محمد ديب الباجي - ط ١ - دار القبة للثقافة الإسلامية ، مؤسسة علوم القرآن - جدة ، بيروت - ١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م.
- ١٩٩٣ م. نسيج النص ، بحث ما يكون به الملفوظ نصاً - الأزهر الزناد - ط ١ - المركز الثقافي العربي - بيروت - ١٩٩٣ م.
- محمد الضباع - (د . ط) - دار الكتب العلمية - بيروت - (د . ت) . النشر في القراءات العشر - ابن الجزري ، محمد بن محمد ابن الجزري [ت ٨٣٣ هـ] - تصحيح ومراجعة : علي محمد الضباع - (د . ط) - دار الكتب العلمية - بيروت - (د . ت) .
- ٢٠٠٥ م. النص والخطاب والاتصال - محمد العبد - ط ١ - الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي - القاهرة - ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م.
- ١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م. النص والخطاب والإجراء - روبرت دي بوجراند - ترجمة : تمام حسان - ط ١ - عالم الكتب - القاهرة - ١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م.
- ط (-) دار أفريقيا الشرق - المغرب ، بيروت - ٢٠٠٠ م. النص والسباق - ، استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي - فان دايك - ترجمة : عبد القادر قنيني - (د . ط) - دار أفريقيا الشرق - المغرب ، بيروت - ٢٠٠٠ م.
- ١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م. نظرية علم النص ، رؤية منهجية في بناء النص النثري - حسام أحمد فراج - ط ١ - مكتبة الآداب - القاهرة - ١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م.
- الخليفة - ط ١ - مكتبة لبنان ناشرون - بيروت - ٢٠٠٧ م. نظرية الفعل الكلامي بين علم اللغة الحديث ، والمباحث اللغوية في التراث العربي والإسلامي - هشام عبد الله الخليفة - ط ١ - مكتبة لبنان ناشرون - بيروت - ٢٠٠٧ م.
- إربد ، الأردن - ١٤٣٢ هـ - ٢٠١١ م. نظرية المقام عند العرب في ضوء البراغماتية - منال محمد هشام سعيد نجار - ط ١ - عالم الكتب الحديث - إربد ، الأردن - ١٤٣٢ هـ - ٢٠١١ م.
- ١٩٩٨ م. نظرية النص ، ضمن كتاب (دراسات في النص والتناصية) - ترجمها : محمد خير البقاعي - ط ١ - مركز الإنماء الحضاري - حلب - ١٩٩٨ م.
- ٣٨٦ هـ [تحقيق : محمد خلف الله أحمد ، محمد زغلول سلام - ط ٣ - دار المعارف - القاهرة - (د . ت) .] - تحقيق : محمد خلف الله أحمد ، محمد زغلول سلام - ط ٣ - دار المعارف - القاهرة - (د . ت) .
- الدين - ط ٢ - دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م. همع الهوامع في شرح جمع الجوامع - السيوطي ، جلال الدين السيوطي [ت ٩١١ هـ] - تحقيق : أحمد شمس الدين - ط ٢ - دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م.
- الرسائل الجامعية والأطاريح والبحوث : آليات الانسجام النصي في خطب مختارة من مستدرک نهج البلاغة للهادي كاشف الغطاء - آمنة جاهمي - رسالة ماجستير - كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية - جامعة باجي مختار - عنابة - ٢٠١٢ م.
- العليا - جامعة مؤتة - ٢٠٠٧ م. الإبلاغية في الشاهد البلاغي ، دراسة وتحليل - نادر عبد الرحمن محمد الوقفي - أطروحة دكتوراه - الدراسات العليا - جامعة مؤتة - ٢٠٠٧ م.
- الآداب - الجامعة المستنصرية - ٢٠٠٥ م. الاتساق في العربية ، دراسة في ضوء علم اللغة الحديث - جبار سويس حنيحن الذهبي - رسالة ماجستير - كلية الآداب - الجامعة المستنصرية - ٢٠٠٥ م.
- الآداب - الجامعة المستنصرية - ٢٠١٤ م. أدعية الصحيفة السجادية ، دراسة في ضوء علم اللغة النصي - منتهى عناد تمل الموسوي - أطروحة دكتوراه - كلية التربية للعلوم الإنسانية - جامعة البصرة - ٢٠١٤ م.
- الآداب - جامعة الكوفة - ٢٠١٢ م. أصول المعايير النصية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب - عبد الخالق فراحان شاهين - رسالة ماجستير - كلية الآداب - جامعة الكوفة - ٢٠١٢ م.
- دكتوراه - كلية الآداب - جامعة الكوفة - ٢٠١٤ م. الإعلامية في الخطاب القرآني ، دراسة في ضوء نظرية التواصل - زهراء جبار عباس البرقعاوي - أطروحة دكتوراه - كلية الآداب - جامعة الكوفة - ٢٠١٤ م.
- الجامعة المستنصرية - ٢٠٠٦ م. تفسير من وحي القرآن ، دراسة في ضوء علم اللغة النصي - مؤيد عبيد صوينت - رسالة ماجستير - كلية الآداب - الجامعة المستنصرية - ٢٠٠٦ م.
- ٢٠١١ م. التماسك النصي في المثل القرآني - شهلة عبدالرزاق نادر - رسالة ماجستير - كلية اللغات - جامعة صلاح الدين - ٢٠١١ م.
- الآداب - الجامعة المستنصرية - ٢٠١١ م. السبك النصي في القرآن الكريم ، دراسة تطبيقية في سورة الأنعام - أحمد حسين حيال - رسالة ماجستير - كلية الآداب - الجامعة المستنصرية - ٢٠١١ م.
- جامعة بغداد - ٢٠١٢ م. سورة البقرة ، دراسة في ضوء علم لغة النص - خالد سعد جبر - رسالة ماجستير - كلية التربية ، ابن رشد - جامعة بغداد - ٢٠١٢ م.
- السياق في الفكر اللغوي عند العرب - صاحب أبو جناح - مجلة الأقالام - العدد (٣ - ٤) - ١٩٩٢ م.

- 📖 العربية من نحو الجملة إلى نحو النصّ - سعد مصلوح - بحث منشور ضمن الكتاب التذكاري (الأستاذ عبد السلام هارون معلماً ، ومؤلفاً ، ومحققاً) - جامعة الكويت - كلية الآداب - ١٩٩٠ م .
- 📖 علم اللغة النصّي بين النظرية والتطبيق ، الخطابة النبوية أنموذجاً - نادية رمضان النجار - بحث منشور في مجلة علوم اللغة - المجلد ٩ - العدد ٢ - ٢٠٠٦ م .
- 📖 قراءة نحوية نصيّة في سورة (ص) - عرفة عبدالمقصود عامر - بحث منشور على شبكة الأنترنت ، الآلوكة (www.alukah.net) .
- 📖 القصديّة في النصّ القرآنيّ - زهراء جواد عباس البرقعويّ - رسالة ماجستير - كلية الآداب - جامعة الكوفة - ٢٠٠٩ م .
- 📖 نحو أجرومية للنصّ الشعريّ ، دراسة في قصيدة جاهليّة - سعد مصلوح - مجلة فصول - العدد (١ - ٢) - ١٩٩١ م .
- 📖 نحو النصّ نظرية وتطبيق ، سورة آل عمران أنموذجاً - رافد حميد سويدان - أطروحة دكتوراه - كلية التربية للعلوم الإنسانيّة - جامعة الأنبار - ٢٠١١ م .

A text – linguistic study of Quranic
madaniyah surahs

A dissertation submitted by
Ali Husain Hammadi
To the council of the college of Arts Al – Qaddisiyah university in partial
fulfillment of the requirements of Ph. D. in Arabic .

supervised by
prof. D. Suaad Kuraydi Kndaury

Abstract

Exegetes and scholars have categorized the surahs (chapters) of the Quran into makkiyah and madaniyah according to the time or era of their revelation . Madaniyah surahs are those which were revealed after the madinah era was characterized with being the era of issuing Islamic laws and of social , economic and political organization .the jihad (holly war) was legislated during the madinah era and moslems were ordered to fight the unbelievers at that time .text grammar or text linguistics is a western approach whose beginnings appeared at early twentieth century and came to maturity in the 1980 . most items of this approach were present in the ancient Arabic studies , rather , many textual indications can be observed in Arabic studies especially in the quranic studies : Tafsir (Exegesis),quranic sciences and ilm – al – usul (the science of the principles of Islamic jurisprudence) in addition to the references to it found in the rhetorical and critical studies .Western text linguists have identified the standards through which the feayure of textuality can be used to refer to a specific text. These standards are : cohesion , coherence , Intentionality , acceptability , informatively , situationality and intersexuality . Haliday and Ruqia Hasan subclassified the first standard into five categories : substitution, reference,

ellipsis lexical cohesion and conjunction .Reference is achieved through the use of pronouns , demonstratives , relative articles, definite article and comparative articles .These words are excessively used in the glorious Quran a matter which proves a high level of cohesion in the Quranic text .Besides the other cohesive ties also exist in the Quranic text. The Quranic text is also characterized with the existence of a number of textual linguistic phenomena that recent text linguists could not recognize .The standard of coherence indicates the semantic ties found in the text sentences that fulfill the unity of the subject matter in it .Among the most important coherence means are the semantic ties ,subject matter , total structure and causality Text – linguists studied various semantic relations including those relations that existing the Quranic text .But linguists did not mention some semantic relations found in the Quranic texts .The most important among them are the request – answer relation and the question – answer relation . The Quranic text is characterized with orderly discourse and the presence of concord between the beginning of the surah (the verse) and it is end and between the beginning of the next surah and the end of the preceding one .Despite the diversity of topics tackled by the madaniyah surahs ,but they all share one major point in common which is call for belief in the Almighty Alloh and obeying his commands. Situationality is the third textual standard. Recent text linguists classified it into linguistic and non – linguists.And they subclassified the first according to the various levels of language : phonetics , morphology , lexicon and syntax while they subclassified the second into emotional ,attitudinal and psychological .The various types sub classified under these two headings are found in the glorious Quranic text .As for the fourth standard of intersexuality , it was categorized by linguists into two types ,internal and external .The internal type is done through the repetition of some vocabulary , structures or sentences in the surahs The external type , on the other hand , can be seen in the use of names especially .The names of prophets which are mostly foreign names taken from other languages .The researcher found examples of intersexuality with the preceding holly books such as the Bible and the Torah .As for intentionality , it refers to the intention of the writer to produce a cohesive text featured with unity of subject mater .Intentionality is related with speech acts theory ,where every linguistic occurrence contains information that identify the instigator and the producer and require a response on the part of the receiver . Intentionality appears in the levels of language : phonetics , morphology , syntax ,lexicon and rhetoric – acceptability on the other hand , represents the stand of the receiver towards the text. For the receiver either accepts the text or rejects it and his acceptance or rejection depends on the degree of commitment on the part of the text producer in fulfilling the other textual standards in his text ,especially the two standards of cohesion and coherence .one of the manifestations of accepting the Quranic text may be the clear admiration by the receivers once it is revealed , then making the text the model for deriving (formulating)the grammatical and rhetorical rules .For this reason ,their rhetorical studies used to take their citations from the glorified Quranic text .Informativity involves predicting the information mentioned in the text , the less predictable the information are , the more efficient in terms of informativity the text would be .The informativity of the Quranic text is manifest in the way of it is composition .The way of it is composition is totally different from the way Arabs used compose their poetry or prose with .The content of information found in the Quranic text represents another manifestation of it is informativity and the legislations , rules , the unknown and stories of the ancient peoples all granted the Quran the highest levels of informative efficiency .